

حسان بن ثابت

شاعر الدعوة الإسلامية

الدكتور حسن حسني

الكويت

1426 هـ 2005 م

يصدر هذا الكتاب إسهاماً من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعته الباحث
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
عدنان جابر

الصف والإخراج والتنفيذ
محمد العلي
أحمد متولي **أحمد جاسم**
بثينة الدوماني
قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

ردمك : 5 - 24 - 72 - 99906 ISBN :

رقم الإيداع : 2005 / 00355 Depository Number :

حقوق الطبع محفوظة للمؤسسة

هاتف : 2430514 فاكس : 2455039 (00965)

E-mail < Kuwait@albabtainpoeticprize.org >

الكويت
1426 هـ 2005 م

تصدير...

شَرَّفَ المولى سبحانه وتعالى المدينة المنورة بأن تكون دار هجرة المصطفى (ﷺ)، وموطن نصرته، وعاصمة دولة الإسلام الأولى ومثواه الشريف حياً وراحلاً.

وقد كان من يمن الطالع للثقافة الإسلامية أن تختار مكة المكرمة - منبت الإسلام الأول - عاصمة لهذه الثقافة للعام ١٤٢٦هـ. وقد سعدت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين وكرّمت بأن تساهم في هذه المناسبة الغالية بتقديم رسالة المؤسسة في بعث وإحياء حركة الشعر العربي الذي يمثل تراث الأمة التليد وديوان العرب الخالد.

وانسجماً مع هذا التوجه استقر الرأي على أن تقدم المؤسسة كتاباً لدار الهجرة النبوية ومهد الدولة الإسلامية الأولى، وحاضنة أشرف خلق الله ورسالته الخالدة، المدينة المنورة، وجاء التكريم للعاصمة الإسلامية الأولى منسجماً مع رسالة المؤسسة كذلك، إذ إن التقدم لها كانت دراسة رصينة عن شاعر رسول (ﷺ)، والمنافع عن الدعوة الوليدة بلسان الشعر العربي المبين: (حسان بن ثابت - شاعر الدعوة الإسلامية) للأستاذ الدكتور حسن حسني. وأترك للقارئ الكريم الحكم على مدى ما يتمتع به هذا الكتاب من موضوعية عن شاعر الإسلام الكبير وهو ينافح عن الدعوة ورسولها، سلاحه بيت الشعر، والكلمة الصادقة، ورائده الحقيقة والإيمان، وقصده صد الهجمات الشرسة وسهام الحقد المسمومة، التي كان يوجهها شعراء المشركين إلى دين الله ورسول الله، بالسلاح نفسه ألا وهو الكلمة الشاعرة التي تجهر بالنصرة للحق.

ويطيب لي أن أحيي الأستاذ الدكتور حسن حسني وأشكره على ما بذله من جهود كبيرة في تأليف هذا الكتاب، والشكر مني موصول إلى الباحث في الأمانة العامة للمؤسسة الأستاذ عدنان جابر على ما بذله من جهود في مراجعات تجارب الكتاب لمرات عديدة ليخرج بالشكل الأفضل.

جعل الله هذا السفر عن شاعر الرسول ﷺ مقدمة مقبولة لا يراد بها إلا وجهه الكريم.

والله ولي التوفيق،،،

عبدالعزیز سعود البابطين

الكويت ٢٥ شوال ١٤٢٦هـ

الموافق ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٥م

الإهداء

إلى من يرى أنَّ التزام الأديب مبدأً تكريمٌ لفنِّه
ولشخصيَّته...

إلى من يرى أنَّ الكلمة الصادقة سلاحٌ فعَّال لا يقلُّ عن
البواتر والبنادق إن لم يبرزها...

إلى جميع أرباب الفنون والآداب الذين استخدموا
مواهبهم لنصرة الحق ودحر الظلم والعدوان...

إلى عشاق الإبداع الشعري...

إلى طلاب رضوان الله

إلى أحباب رسول الله ﷺ

أقدم: شاعر الدعوة إلى الله

بين يدي الموضوع

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا تولى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله حمل الأمانة وأدى الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، اللهم صلّ عليه وعلى آله وأصحابه الغر الميامين أجمعين، ومن تبعه ووالاه وسار على هديه إلى يوم الدين.

ألا وإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي سيدنا محمد بن عبدالله رسول الله ﷺ.

أما بعد :

فهذا الكتاب كان في توجّهه الأصيل رسالة جامعية أعدت لنيل الإجازة في الآداب - قسم اللغة العربية في جامعة دمشق (الجامعة السورية سابقاً) في العام الدراسي الجامعي: ١٣٧٧ - ١٣٧٨هـ / ١٩٥٧ - ١٩٥٨م وقد هيئت تلك الرسالة بإشراف الأستاذ الدكتور «شكري فيصل» تغمد الله برحمته، وكان ما توخته الرسالة أن تبرز ارتباط شعر «حسان بن ثابت» بالحوادث والمواقف التي طرأت أو جدّت خلال مسيرة الدعوة الإسلامية حسب تسلسلها الزمني بعد أن حل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة (يثرب) مهاجرا إليها من مكة المكرمة بعد أن ضاقت - على رحبها - بدعوته.

ومن الطبيعي أن تبرز خلال مثل هذه الدراسة علاقة الشعر بالرسالة التي يضطلع أي امرئ بحملها، وأثره في نصرة الحق وتأييد المنافحين عنه، ودوره في كبت المعادين، وتخذيّل الخصوم، وزعزعة مواقعهم الفكرية والعقيدية وتفنيدهم دعاوهم، وتحقير رجالاتهم وقادتهم وذوي الرأي والحضور الفعال فيهم ممن يأخذون بأزمتهن نحو مهاوي الضلال، لزلزلة ثقة عشائره، وأحلافهم بهم.

ولستفهم أو معترض أن يثير هنا قضية تستحق الحوار والنقاش حين يقول: «مثل هذا التوجُّه يتوخى وجود صراع بين فريقين، أو أنه يشير الصراع، أو أنه يدعو إلى ضرورة إثارة الصراع ويؤجج تسعُّره.. أفليس من الأفضل والأجدي أن يكون التوجه نحو التفاهم والتعاون، ونحو الحوار الهادف بدلاً من الصراع والنزاع، وكل ما يؤدي إلى امتشاق البيض المباتير وسفح الدماء وإزهاق النفوس وحصد الثمار والأعمار.. وبذا تصبح رسالة الشعر إنسانية رفيعة المرامي بعيدة عن قرون الفتنة والشر والنكد؟».

ومثل هذا الكلام لا يخلو من سمو في الطرح، وإنسانية في المرمى إذا نحن أحسنَّا الاعتقاد بصحة النوايا، وتجاوزنا كل ما يمكن أن يثيره مثل هذا الطرح في الأذهان من مثل الإساءة إلى الدعوة وأركانها، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والإضرار بمفاهيم تلك الدعوة وأساليبها وموازينها.

ولكن الحقيقة التي لا مفر من الانضواء تحت لوائها، بعد أن يراجع المرء الحصيف بروية وموضوعية محاكماته الذهنية ومعلوماته التاريخية والاجتماعية.. تلکم هي أن أمر الصراع بين الخير والشر في عالم الناس هذا لا يمكن أن يتجاوزه أي أمرئ يملك مسكَّة من حصافة أو تعقل أو تفكير أو ثقافة. ومن عجب أن هذا الصراع تظل معاركه أبداً حامية الوطيس لا يخبو لها أوار، ولا تنطفئ لها نار، وأنها تتخذ أشكالاً متعددة ظاهراً، وتلبس سراويل مختلفة لوناً، وترفع شعارات يخيل لمن لا يحسن سبر الأمور بدقة ووعي أنها متباينة في الأهداف والمفاهيم عما سواها، ولكن الجلابيب وإن صفقت وجانبت الشفافية لا تستطيع أن تبدل طبيعة لابسها، ولا نفسياتهم، ولا ضروب تفكيرهم، وإن استطاعت أن تموه أو تغرَّ أو تورِّي إلى مدى.

ومن تلك الأشكال الصراع بين الحق والباطل، أو بين الهدى والضلال، أو بين الشرك والإيمان، أو بين النور والظلام، أو بين العدل والجور.. وغنيُّ عن الإبانة أن ثمة معسكرين متناوحين، أو قل متعادين في هذا الميدان الحياتي ولا ثالث لهما: «معسكر الخير» وما يمكن أن يسير في ركابه، و«معسكر الشر» وما يمكن أن يضرب عن قوسه.

أما الحياد الإيجابي منه والسلبي وكل ما يخترع له من صفات، فمما يصلح أن يكون من ألعاب الأطفال، أو أعذار السذج، أو قل إنه محاولة تعطيل اختياري للفكر والطاقة والسلوك، وإيثار الإغماء الدائمة على الصحو، أو تهرب من الصراحة والوضوح والواقعية إلى لون من التضليل والثعلبية والتمويه، إذ إن لكل امرئ يتمتع بآدميته الحقّة اعتبارات إنسانية ومواقف مبدئية ومشاعر وصبوات إن لم يصرح بها فهي تعيش في أعماقه، ولا يمكن أن تفنى إلا بفنائه، أو بخروجه عن دائرة التكليف والمسؤولية.

وهكذا تقف رموز الهدى والحق والإيمان والنور والعدل، وما أشبهها من القيم الإيجابية في جبهة واحدة (جبهة الخير) في مواجهة رموز الضلال والباطل والشرك والظلام والجور، وما أشبهها من القيم السلبية تحت علم الشر.. إنها حرب أزلية ذرّ قرنّها منذ أن تلفظ - إبليس بقوله: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»^(١)، وتتابع حلقاتها، إذ عمل إبليس على إغراء آدم بطريقة أو بأخرى ليعصي ربه، فيخرجه من الجنة، فكان ما أراد، وجاء الحكم الإلهي: «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين»^(٢)، ويظل دور إبليس اللعين المانع الخير والجالب الشر: «قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين»^(٣). ولن ينطفئ ضرام هذه الحرب المستعرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وكذلك يظل الشر الأرعن يحشد كل طاقات البغي وعقاربه وأحلافه لإزهاق أنفاس الخير وتخريب ما يبنيه مسخراً كل أدوات المكر والكيد والحقد والخداع والتضليل والتمويه.. بينما يظل الخير أبداً حريصاً على البناء والهداية والصلاح منافحاً عن المبادئ الأصيلة، وحانياً في الوقت نفسه على الأشرار والضلال، عطوفاً عليهم، حريصاً على أن يأخذ بأيديهم إلى جادة الصواب، وينقذهم من مهاوي التردّي والانحراف والجهل، وربما هتف بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٤)، وربما التمس عذراً لإبعاد الأذى عنهم بالتعلل بما سيكون

عليه نسلهم من صلاح: «لعل الله أن يخرج من أصلابهم ذرية صالحة...»^(٥) هذا مع الإعداد الجيد للرد مادياً كان أم فكرياً، وعدم إهمال الأخذ بالأسباب لكيلا يتهم الخير بالغباء والبلادة، فأعجب لهذا الذي يعطف على من يضر له الكيد، ومن يعمل ليل نهار على قتله، ولله درُّ الشاعر الفارس عمرو بن معد يكرب الزبيدي القائل:

أريد حياته ويريد قتلي

عذيرك من خليتك من مراد^(٦)

من هذا الجانب جانب أداء الشعر دوره الخير الواعي تمّ تناول هذا الموضوع، مع إشارة إلى اعتزاز الشاعر بهذه القدرة الفنية التي وهبه الله إياها، ومالها من أثرٍ يتجاوز أثر الصارم الصمصام، وها هو ذا حسان يقول:

لساني وسيوفي صارمان كلاهما

ويبلغ ما لا يبلغ السيف مزودي^(٧)

وهذا الأثر ليس بدءاً في الحياة العربية، ولا سيما أيام الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى من الإسلام، فقد حفلت كتب الأدب والتاريخ والسيرة بفيض زخارٍ من القصص والمواقف التي تعزز هذه النظرة، ففي مقدور الشعر أن يرفع ويضع ويزوِّج ويطلق، ويثير الحفائظ ويعمل الصوارم في الرقاب، ويفك الأصفاد عن أيدي المأسورين وإن عظمت جرائمهم، ويخلص من بين براثن المنية من فغر الموت فاه لالتهامه.

ولذا عظمت قيمة الشعر، وتهيب الناسُ أهله خوفاً من بيت سائر تُحدى به الأبل، أو لفظة شاردة يضرب بها المثل، ولا غرابة فقد رفع الشعر كثيراً من الناس بعد خمول، فصاروا يفتخرون بما كانوا يعيرون به، ووضع أناساً من أهل السوابق وذوي الأقدار الشريفة حتى عيروا بما كانوا يفاخرون به.

وممن رفعهم الشعر - وهم كثيرون - «المحلّق بن حنتم بن شداد الكلابي»^(٨) الذي مدحه الأعشى^(٩) فكان سبباً في تزويج بناته البائرات لأشرافٍ من قومه.

ومنهم «بنو أنف الناقة»^(١٠) الذين كانوا يفرون من هذا اللقب، ويرتفعون بنسبهم إلى أبيه قريع (أنف الناقة بن قريع)، فيقولون: نحن من بني قريع، حتى مدحهم الحطيئة

فصاروا يتناولون بهذا النسب.

وممن وضعهم الشعر «بنو نُمَيْر»^(١١) الذين هجاهم الشاعر جرير^(١٢) بقصيدته «الدامغة» من خلال هجائه «الراعي النميري»^(١٣).

وربما أطلقت قصيدة ما مجموعة من الأسرى اعتقلوا بعد أن عصوا وعاثوا فساداً في البلاد^(١٤)، وربما تدخل بعض الشعراء في أمور خطيرة، وعلى أعلى المستويات في الدولة أو في الحكم، كتسمية ولي عهدٍ مثلاً^(١٥).

وفي الحديث أنصتَ النَّاسَ إلى الشَّاعر اللبْنانيّ شبلي ملاط^(١٦)، وهو ينشد:

قَدْ تَدْرِكُ الْأَقْلَامُ فِي غَارَاتِهَا

مَا لَا يُنَالُ بِمَقْبُضِ الْقِرْضَابِ

وَالْحَقُّ فِي ظُبَّةِ الْيِرَاعِ أَحَدٌ مِنْ

أَسَلٍ مَثَقَّفَةِ الْكُعُوبِ صِلَابِ^(١٧)

كما ارتفع صوت شاعر النيل حافظ إبراهيم^(١٨) مجلجلاً:

فَفِي الشَّعْرِ حَثَّ الطَّامِحِينَ إِلَى الْعُلَا

وَفِي الشَّعْرِ زَهْدَ النَّاسِكِ الْمَتَوَرِّعِ

وَفِي الشَّعْرِ مَا يَغْنِي عَنِ السَّيْفِ وَقَعُهُ

كَمَا رَوَّعَ الْأَعْدَادَ بَيْتٌ لِأَشْجَعِ^(١٩)

وبسبب هذه القدرات التي يتمتع بها الشعر، والقمة الخطيرة التي يتربع على ذروتها وجدنا «الحارث بن عوف المري» يستجير برسول الله صلى الله عليه وسلم من لسان حسان بن ثابت خوفاً من بيت شعر يطير في الآفاق أسرع من لمح البصر، فيغدو مضرب الأمثلة، أو محط السخرية^(٢٠).

هذه القدرة الفنية التي سخَّرها حسان لنصرة الدعوة الإسلامية في مهدها الجديد مثلما سخَّر قومه سيوفهم لقتال أعدائها، ستحاول صفحات هذا الكتاب أن تبرز من مزاياها ما تستطيع إبرازه من خلال توافر الوقت والجهد، والتزام الخطّة الموضوعية.

هذا، وقد حاول هذا الكتاب أن يحافظ بوجه عام على هيكل الرسالة الأصلية دراسة وأسلوباً وأداءً، ولكن واردات الذهن أبت إلا أن تضيف شيئاً ما إلى الأصل مما تعدّه ضرورياً لتوضيح الفكرة التي ألّفت الرسالة لإبرازها أصلاً، ومنها شرح بعض الفكر، والترجمة لعدد من الأعلام، ووضع فهارس دقيقة تيسر الاستفادة من الكتاب، فكان ما رمت إليه، وخرج الكتاب، وثيق الصلة بأصوله، وفيّاً للأهداف التي رسمها، حريصاً على لون من التوضيح والتبسيط لبلوغ الغايات المرجوة.. والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. حسن حسني

الهوامش

- (١) القرآن الكريم: سورة الأعراف (١٢/٧).
- (٢) القرآن الكريم: سورة الأعراف (٢٤/٧)، وسورة البقرة (٣٦/٢). والخطاب هنا لآدم وحواء، أي: بما اشتملتما عليه من الذرية، وبعض ذريتك لبعض عدو.
- (٣) القرآن الكريم: سورة الأعراف (١٦/٧).
- (٤) انظر مسند أحمد: (١٤٤/١) ومجمع الزوائد: (١١٧/٦) ودلائل النبوة للبيهقي: (٢١٥/٣) وفتح الباري (٣٧٣/٧).
- (٥) انظر صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق رقم (٧)، وصحيح مسلم - كتاب الجهاد رقم ١١١.
- (٦) قصد به الشاعر ابن أخته «قيس بن زهير بن هبيرة بن مكشوح المرادي»، وكانت بينهما عداوة. والشاعر هو فارس اليمى وصاحب الغارات المشهورة. وفد على المدينة المنورة في عشرة من بني زبيد فأسلموا. ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم، ارتد عمرو في اليمى، ثم رجع إلى الإسلام، وشهد اليرموك والقادسية، وله شعر جيد توفي سنة ٢١هـ / ٦٤٢م.
- (٧) من قصيدة له: انظر ديوانه: البرقوقى ص ١٨٣.
- (٨) المحلق لقبٌ غلب عليه لشجّة كانت في وجهه من عضه حصان أو أثر كيٍّ، واسمه الحقيقي عبدالعزى. وكان من أمره أنه كان مقيماً بمكة، وعندما جاءها الأعشى، قالت له زوجه (أو أمه): إن الأعشى قدم مكة، وهو شاعر مفوّه، وأنت رجل خامل الذكر ذو بنات، وعندنا ناقة نعيش بها فلو استضافته ونحرتها له، رجوت لك حسن العاقبة. فسبق المحلق الناس إلى الأعشى، واستضافه هو ومن معه من قيس، ونحر لهم وأكرمهم. فغدا الأعشى إلى عكاظ وراح ينشد قصيدته:
- أرقتُ وما هذا السهاد المؤرّق
وما بي من سقم وما بي مغلّق
- ورأى المحلق الناس مجتمعين حوله، فوقف يستمع وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله إلى أن سمع:
- نفى الذم عن آل المحلق جفنة
كجابية الشيخ العراقي تفهق

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
إلى ضوء نارٍ باليفاع تحرقُ
تُشبُّ لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلّق
رضيعةً لبان ثدي أم تقاسما
بأسحم داج عَوْضٌ لا نتفرق

فما أتم القصيدة حتى أخذ الناس ينسلّون إلى المحلق يهنئونه، وطفق الأشراف من القبائل يتسابقون إليه يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى، فلم تمسّ منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف. (انظر العمدة لابن رشيق: (٤٨/١) والأعلام للزركلي: (٢٩١/٥).

(٩) الأعشى: صنّاجة العرب ميمون بن قيس سيرد التعريف به ص ١٠٠ من هذا المؤلف.

(١٠) أنف الناقة: جعفر بن قريع بن عوف من تميم: جدّ جاهلي كان لقبه «أنف الناقة» وبه عُرِف بنوه، وكانوا يكرهون هذا اللقب حتى قال فيهم الحطيئة الشاعر المشهور:

قومُ هم الأنف والأذنابُ غيرهم

ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا!

فصاروا يتناولون بهذا النسب. وإنما سمي «جعفر» أنف الناقة لأن أباه ذبح ناقة، وقسمها، ونسيه، فبعثته أمه، ولم يبق إلا رأس الناقة، فقال له أبوه: خذ هذا، فأدخل أصابعه في أنف الناقة، وأقبل يجرّه، فسمي بذلك. (انظر العمدة لابن رشيق: (٥٠/١). أما الحطيئة الشاعر الهجاء المشهور فسيرد التعريف به ص ١٤٣ من هذا المؤلف.

(١١) بنو نمير: نمير بن عامر بن صعصعة من هوازن من عدنان: جدّ جاهلي، وإليهم ينتمي الشاعر الراعي النميري وبنو نمير كانوا يعدون في الجاهلية من جمرات العرب الثلاث، وقد نزلوا قبل الإسلام باليمامة، ثم تحولوا إلى أطراف الكوفة فيما بعد، وانتقلوا إلى الجزيرة الفراتية والشام وذهب بعضهم إلى الأندلس.

(١٢) جرير بن عطية من تميم (٢٨ - ١١٠ هـ / ٦٤٠ - ٧٢٨ م) أشعر أهل عصره، ولد ومات في اليمامة، وعاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، ولم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان هجاء مرّاً، وهو من أغزل الناس شعراً، وكان عفيفاً.. له ديوان شعر مطبوع.

(١٣) الراعي النُمَيْرِي: عُبَيْدُ بْنُ حَصِينِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ جَنْدَلِ أَبُو جَنْدَلٍ: شاعر من فحول المحدثين وكان من جَلَّةِ قومه وهم أهل سؤدد، ولقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. عاصر جريراً والفرزدق، وكان يَفْضَلُ الفرزدق، فهجاه جرير هجاء مرّاً، ومن هجائه إياه:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ
فَلَا كَعْباً بَلَّغْتَ وَلَا كَلَاباً

توفي سنة ٩٠هـ / ٧٠٩م.

(١٤) يروى أن الحارث بن أبي شمر الغساني حارب المنذر بن ماء السماء، وقتله، وأسر تسعين رجلاً من أصحابه من تميم فيهم شاس بن عُبْدَةَ أَخُو الشاعر المعروف علقمة بن عبدة، فقصد علقمة الحارث ممتدحاً بقصيدته المشهورة وأولها:

طحا بك قلب في الحِسان طروب
بُعَيْدُ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

فأطلق له الحارث أخاه وجماعة أسرى بني تميم وعددهم تسعون، ومن سأل فيه أو عرفه من غيرهم. وقد تشفع الشاعر أبوتمام عند مالك بن طوق في قومه الذين حبسهم حين شغبوا عليه، فقبل شفاعته، ورد القوم إلى رتبهم ومنازلهم (انظر العمدة ٥٧/١ و٥٩).

(١٥) يروى أن هارون الرشيد سمى اثنين من أبنائه لولاية العهد هما الأمين والمأمون ولكن الراجز العماني دخل عليه، فأنشده أرجوزة يقول فيها:

قُلْ لِلْإِمَامِ الْمُقْتَدَى بِأَمَّةُ
مَا قَاسَمُ دُونَ مَدَى ابْنِ أَمَّةُ
فَقَدْ رَضِينَاهُ فَنُفِّمُ فِسْمَةَ

فقال الرشيد: ما رضيت أن أسميه وأنا قاعد حتى أقوم على رجلي: فقال له: يا أمير المؤمنين ما أردت قيام جسم لكن قيام عزم. فأمر الرشيد بإحضار ولده «القاسم» ومراً العماني في إنشاده يهدر، فلما فرغ قال الرشيد للقاسم: أمّا جائزة هذا الشيخ فعليك، وقد سألنا أن نوليكَ العهد فأجبناه. وأبوتمام شفع للوائق عند أبيه «المعتصم» في أن يوليه العهد بقصيدة جميلة، فأجابه إلى ما طلب.. (انظر العمدة ٥٨/١ و٥٩).

(١٦) شبلي ملاط (١٢٩٣-١٣٨٠هـ/١٨٧٦-١٩٦١م) شاعر لبناني عاصر عهود لبنان الثلاثة: العثماني والفرنسي والاستقلالي، وله شعر في كل منها.

ولد في (بعبدا) - لبنان، وأكمل دراسته في مدرسة الحكمة، وعمل في التدريس، وفي دوائر الدولة، وفي الصحافة. له ديوان شعر وروايات قصصية، وتوفي في بيروت.

(١٧) انظر كتاب «شعراء من لبنان» للسيد علي إبراهيم ص ٣١٢.

(١٨) حافظ إبراهيم (١٢٨٧-١٣٥١هـ / ١٨٧١-١٩٣٢م)، شاعر مصر القومي، ومدون أحداثها خلال ما يزيد عن ربع قرن. ولد في ذهبية كانت راسية في النيل أمام بلدة ديروط المصرية، وتوفي أبوه وهو صغير، ولحقت به أمه، فكفله خاله وعمل بالمحاماة، والتحق بالمدرسة الحربية، وتخرج فيها برتبة ملازم ثان ثم أحيل إلى المعاش، وعمل محرراً في جريدة الأهرام، ثم في دار الكتب المصرية حتى وفاته. له ديوان شعر مطبوع وأعمال نثرية بسيطة.

(١٩) ديوانه: ١٢٨/٢. أما بيت أشجع بن عمرو السلمي الشاعر العباسي فقد ورد في قصيدة له يمدح فيها الرشيد:

وعلى عدوك يا ابن عم محمد
رصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبّه رعبه وإذا غفا
سلت عليه سيوفك الأحلام

(٢٠) سنتعرض لهذه الحادثة ص ٣١٧ من هذا المؤلف.

المقدمة^(١)

لقد كان من دواعي الغبطة أن أتناول بالدراسة شاعراً ممن قال فيهم ربُّ العزة: «والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزقٌ كريم»^(٢)

فأواكبه مصاحباً سير الدعوة الوليد في مربعها الجديد، وألاحظ عن كثب نموها وترعرعها في وسط توافرت لها فيه شروط الحياة والنمو، وأقف على حوادث من صميم الواقع الحي الذي كان يعيشه المسلمون الأولون، فأحس بقربي من قلوب أولئك القوم وأحاسيسهم.

لقد قمت بترتيب أشعاره التي قيلت بعد الإسلام وحتى وفاة النبي ﷺ الترتيب التاريخي الذي اعتقدت بعد التمهيص، أو خيّل إليّ أنه صحيح أو قريب من الصحة، وأنه هو الترتيب الطبيعي لشعره، قبل أن تعبت به أيدي الرواة وجماع الدواوين.

ولا يخفى أن ديوان الشاعر قد رتب فيه القصائد والمقطوعات بحسب القوافي من دون النظر إلى الزمن. وكان لا بد وأنا أرى بين يديّ هذه الكمية من الشعر التي صنّفت بحسب القوافي - وليس ذاك بضائرها - من أن أقوم بعملية تصنيفية جديدة تنسجم مع طبيعة الموضوع الذي اخترته. وبعد البحث والموازنة واللجوء إلى كتب التاريخ والسيرة وجدت بين يدي ثلاث زمرٍ من الشعر:

الأولى: استطعت أن أحدد تاريخها الدقيق.

الثانية: استطعت أن أحدد تاريخاً تقريبياً لها.

الثالثة: لم أستطع أن أجدها تاريخاً.

ومن حسن توفيق الله سبحانه وتعالى أن الزمرة الأولى، استأثرت بما يقرب من تسعة أعشار شعره الإسلامي، وأن الزمرة الثانية استأثرت بأكثر من أربعة أخماس الباقي، وبقيت الزمرة الثالثة، وليس فيها إلا أربع قطع أو نحوها.

ومن الحق أن أقول: إنني فكرت في هذا الترتيب التاريخي أولاً عندما توجهت لدراسة هذا الشاعر، ولكنني صرفته عن ذهني متصوراً أنّ عملاً كهذا يمكن أن يشق عليّ، ويستنفد وقتاً غير قليل. ولكن أستاذي المشرف الدكتور شكري فيصل - رحمه الله - هوّن الأمر، وشجعني على اقتحام الموضوع لجديته وطرافته وجدواه، فاستجمعت ووثبت، فإن كنت قد وفقت إلى خير فليس لي منه إلا القليل، وإن يكن غير ذلك فلي من

(١) هذه المقدمة الأصلية للكتاب.

(٢) القرآن الكريم: سورة الأنفال - الآية ٧٤ (٧٤/٨).

حسن العزاء أنني شققت طريقاً أرجو أن تتمّ بعدي على يد سواي، ولا فرق عندي بين أن تتمّ على يدي أو يد غيري، المهم أن يظهر العمل على أتم وجه ممكن.

ومما كان يشجعني على مواصلة العمل طبيعة الموضوع، فكم لذة شعرت بها، وأنا أقرأ الدوايح التي يقذف بها أبو الوليد في وجوه الكفرة، وكم استهواني أن أتتبع المعارك الكلامية الحامية إلى جانب تتبعي المعارك الحربية المحتمدة التي تأجج أوارها بين الشرك والإيمان، وتطايير شررها حتى بلغ مختلف بقاع الجزيرة العربية فقسمها، وليس غريباً أن ينقسم العرب آنذاك إلى فريقين غير متكافئين: يدافع الأول عن دعوة الإسلام ودين الله، بينما ينصب الثاني نفسه ذاتاً عن الوثنية، ومنادياً بالعصبية والمادية، وليس غريباً أن تنتصر المثل السماوية العليا على المادية العمياء والعصبية الجهلاء، يحمل مشعلها المضيء رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة.

ولي أخيراً أن أزجي كبير شكري إلى الأستاذ المشرف رحمه الله الذي اتسعت نفسه الكبيرة لآراء الطلاب وتساؤلاتهم وهفواتهم، والذي وجدت فيه روح الأخ الشقيق إلى جانب الأستاذ الغيور.

كما أشكر الأستاذ الشيخ الجليل محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله والأستاذ الشيخ عبدالله الوردني اللذين فاما بتحقيق كثير من الأحاديث وتصحيحها لهذا الكتاب، وأشكر الأستاذة الكريمة الأنسة ملك هنانو التي بذلت جهداً قيماً في استقصاء المراجع الكثيرة لهذا الكتاب.

وأزجي بالمودودة الخالصة وكل التقدير والشعور بالعرفان لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ورئيسها الأستاذ الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين الذي كان سبباً في أن يرى هذا العمل النور ويتنفس أنسام الحياة وكل المحبة والاحترام لأخي الفاضل الأديب الأستاذ عبدالعزيز السريع الأمين العام للمؤسسة.. وإلى أخي الكريم الباحث الأستاذ عدنان الجابر الذي أشرف - بهمته العالية - على طباعة هذا الكتاب ومراجعته، وأنفق الكثير من الجهد والوقت من أجل ذلك وإلى الإخوة الكرام الذين عملوا في الصف والإخراج والتنفيذ، وبذلوا الكثير من الجهود: (محمد العلي، وأحمد متولي، وأحمد جاسم، وبثينة الدوماني)، راجياً من الله عز وجل أن يحفظ لهذه المؤسسة الكريمة رئيسها المفضل والعاملين بها، لتظل أبداً تحت الخطأ في ميادين خدمة الأدب العربي والثقافة العربية الأصيلة.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تمهيد

الحياة العامة \$ الجزيرة العربية

تمهيد

الحياة العامة في الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية^(١)

تتربّع الجزيرة العربية في الجنوب الغربي لقارة «آسية»، وقد سميت «جزيرة» لأن الماء يحيط بها إحاطة شبه تامة: فمن الجنوب يحدها المحيط الهندي، ومن الغرب البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق الخليج العربي، ومن الشمال والشرق نهرا دجلة والفرات. هذا بينما يكتفي آخرون بتسميتها «شبه جزيرة» مبعدين بلاد الشام والعراق.. وتعدّ أكبر جزيرة «أو شبه جزيرة» مساحة على وجه الكرة الأرضية، ويقال إنها كانت - في وقت ما من الأزمنة الموعلة في القدم - متصلة بإفريقية، ثم فصلهما منخفض البحر الأحمر الواقع في غربها، كما يقال إن قسماً كبيراً منها كان مغطى في العصر الجليدي بمروجٍ خضر وفيها كانت تجري أنهار تدل عليها أودية جافة عميقة. وتنقسم إلى خمسة أقسام هي: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن.

فتهامة: هي المنطقة الساحلية الضيقة المطلة على البحر الأحمر، وفيها بعض المرافئ مثل «جُدَّة»، وتمتد في شرقيها سلسلة «جبال السّراة» من الشمال إلى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة «نجد»، ومؤلفة إقليم «الحجاز» الذي تكثُر فيه الأودية والمناطق البركانية والحرّات، وحين تتوافر فيها الآبار والعيون تنهض مدن كبيرة مثل «المدينة المنورة» (يثرب) في الوسط، ووادي القرى في شماليها، ومكة المكرمة في جنوبيها، وينبسط الحجاز شرقاً مؤلفاً هضبة «نجد» الفسيحة التي تتحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض «العروض».

والعروض هنا بلاد اليمامة والبحرين وما والاها، ويُطلق على القسم المرتفع منها مما يلي «الحجاز» اسم «العالية»، وعلى القسم المنخفض مما يلي العراق اسم «السافلة»، وقد سمي شرقيها إلى اليمامة باسم «الوشوم» وشماليها باسم «القصيم». والعروض كانت

عند ظهور الإسلام عامرة بالقرى مثل: حَجْر ومنفوحة (وفيها قبر الأعشى الشاعر المعروف).

وفي شمالي نجد تقع «صحراء النفود» وهي تمدُّ لها ذراعاً نحو الجنوب، فتفصل بين نجد والبحرين متخذة اسم «الدهناء» أو «رملة عالج» وهي منازل تميم وضبة في الجاهلية والإسلام، حتى إذا أحاطت باليمامة انبطحت في «الربع الخالي» الصحراء الواسعة التي تبلغ - حوالي - خمسين ألف ميل مربع، وهي تفصل بين اليمامة ونجد من جهة، وبين عُمان ومَهْرَة والشَّحَر وحضرموت من جهة أخرى، وتندمج فيها «صحراء الأحقاف» التي تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن عن نجد والحجاز، وبذا تطوق الصحاري «نجداً» من الشمال والشرق والجنوب. أما القسم الشمالي فيتلقي الأمطار في الشتاء، وتنبت فيه بعض النباتات والمراعي، ووراء هذا القسم شمالاً تقع «بادية الشام» وهي كثيرة الأودية والواحات، و«بادية العراق» أو «بادية السماوة».

أما اليمن فيطلق على الجنوب كله، ويشمل حضرموت ومهرة والشَّحَر، وربما أطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية فقط (كما هو الآن)، وهي بلادٌ عامرة فيها مدنٌ كثيرة وأودية عميقة وسهول وثمار وزروع.

ومناخ الجزيرة غالباً شديد الحرارة، وفي نجد تهب صيفاً رياح السموم فتكوي الأبدان، وألطف رياحها «الصَّبَا» وهي رياحٌ شرقية منعشة، وقد أكثر الشعراء من ذكرها، أما الرياح الشمالية فباردة شتاء وخاصة في الشرق. والأمطار بوجه عام قليلة إلا في الجنوب حيث تهطل الأمطار الموسمية صيفاً، وإلا في الشمال الغربي حيث تنهمر أمطار الرياح الغربية شتاء، وربما تشكلت سيولٌ جارفة كما في اليمن الشمالي والحجاز. وتكثر في الجنوب والشرق وفي اليمامة وقرى الحجاز الزروع والثمار، وقد اشتهرت الطائف بالكروم، واشتهرت اليمن وما والاها قديماً بأشجار اللُّبان والطَّيب والبخور، وأهم أشجار الجزيرة «النخيل»، وهنالك ألوان من الأزهار البرية على رأسها الخزامى والعرار وشقائق النعمان، وأنواع من الأشجار البرية مثل الغضاَّ والأرطى والسدر (الطلح) والحنظل والضال والسلم والسمر.

أما حيوانات الجزيرة فمنها الأليفة كالخيل والإبل والأغنام، ومنها الوحشية كالوعول والظباء والنعام والغزال وحُمر الوحش والأسود والضباع والذئاب والفهود والنمور.

وعُرف من الطيور القطا والحمام، ومن الطيور الجارحة الصقر والنسر والحدأة والغراب.

وهناك من تحدّث عن النحل وجني رحيقه، واستعملوا العسل من أدويتهم.

وعُرف من الزواحف الضبّ والورل والثعبان والعقرب^(٢).

أما سكان الجزيرة فلا بد لتعرفهم من إلقاء نظرة سريعة تعرّف بالساميين، فمن هم؟

الساميون نسبة إلى «سام بن نوح»، وتطلق هذه اللفظة على مجموعة من شعوب الشرق الأوسط يدل التشابه بين بعض مفرداتها اللغوية على أنها كانت تتكلم في الأصل بلهجات متقاربة تطورت إلى لغات، ولا تعرف أمة على مسرح التاريخ الموثوق تسمى «الأمّة السامية»، وإنما هنالك صلاتٌ لغويةٌ بين مجموعة من اللغات تدل على أنها ترجع إلى أصل لغوي واحد، وقد قسمها علماء اللغات إلى شمالية وجنوبية، وقسموا الشمالية إلى شرقية وغربية:

فالشرقية اللغة الأكديّة (البابلية والآشورية)، والغربية اللغة الأوغريتيّة (لغة نقوش رأس شمرا)، والكنعانية (الفينيقية والعبرية والمؤابية)، ثم الآرامية.

وقسموا الجنوبية إلى عربية شمالية وهي الفصحى، وعربية جنوبية، وهي لغة بلاد اليمن وبلاد الحبشة.

ويتفق معظم الباحثين على أن موطن الساميين في عصور ما قبل التاريخ هو الجزيرة العربية، وقد دفعهم الجذب في بلادهم، وخصب بلاد الشام والعراق إلى الهجرة في موجات متتالية:

أولها: موجة الأكديين (البابليين والآشوريين)، وقد نزحوا من شبه الجزيرة العربية

إلى العراق في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد وأوائل الألف الثالث (ق.م)، فوجدوا السومريين هناك، وعاشوا مدة تحت حكمهم، وتأثروا بهم، ثم أقاموا لهم حوالي النصف الثاني من الألف الثالث (ق.م) دولةً مستقلة حاضرتها مدينة «أكّد»، وكانت أول دولة سامية في الشرق الأوسط، ثم انهارت، فظهرت الدولة البابلية، ثم الآشورية، ثم الدولة البابلية الحديثة، وبمجيء «الإسكندر المكدوني» في القرن الرابع (ق.م)، واستيلائه على الشرق الأوسط ينتهي تاريخ هذه الموجة.

الموجة الثانية: موجة الكنعانيين: وقد بدؤوا بالنزوح من شبه الجزيرة منذ أوائل الألف الثاني (ق.م)، وتوجهوا نحو بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط الشرقية، وأسسوا هناك مدناً تجارية مثل صيدا وصور وبيروت، وسماهم اليونان «الفينيقيين»، وهم الذين اخترعوا الخط الأبجدي، ومن هذه الموجة «الأوغريتيون» الذين تغلغلوا في شمالي سورية، ووصلتنا عنهم «نقوش رأس شمرا» في شمالي اللاذقية، ومنهم «المؤابيون» الذين استقروا في شرقي الأردن، وأسسوا فيه مملكة في القرن العاشر (ق.م)، ومنهم كذلك «العبريون» الذين استقروا في فلسطين منذ القرن الثالث عشر (ق.م)، وقد استولى الآشوريون على مملكتهم في القرن السابع (ق.م)، ثم هدم «بختنصر» ملك بابل حاضرتهم «أورشليم» في القرن السادس (ق.م)، وأجلى سكانها إلى «بابل» نهائياً.

والموجة الثالثة: موجة الآراميين: وقد بدأ نزوحهم من شبه الجزيرة منذ منتصف الألف الثاني (ق.م)، ويظن أنهم كانوا بدواً رحلاً يتنقلون شمالي «صحراء النفود» وفي باديتي الشام والعراق، وقد كوّنوا لهم إمارة باسم «كلد» ومنها اسم «الكلدانيين»، ثم نزح بعضهم إلى أراضي الرافدين شمالاً، وأخذوا يغيرون في القرنين الحادي عشر والعاشر (ق.م) على شمالي بلاد الشام، وأسسوا دويلات صغيرة بين حلب وطوروس، واستولى بعضهم على دمشق، ثم هاجم الآشوريون دويلاتهم المتفرقة، وأسقطوها واحدة إثر أخرى؛ إذ لم يكن بينها روابط تقوية. وقد ظلت لهجاتهم حية حتى جاء الإسلام.

والموجة السامية الأخيرة: موجة العرب الجنوبيين وما تفرّع عنها، وقد بدأت في أواخر الألف الثاني (ق.م)، واتجهت إلى الجنوب وساحل المحيط الهندي، وهاجر بعض أبنائها إلى السواحل الإفريقية للتجارة، وتغلغل بعضهم في هضبة الحبشة، فأقاموا هناك

مملكة، وقد نشبت بينها وبين العرب الجنوبيين عدة معارك انتهت بالقضاء عليها سنة ٥٢٥م^(٣) (١٠٠ ق.هـ).

وتكملة للبحث سنتناول بإيجاز التقسيمات التي ذكرها المؤرخون والنسابون العرب لسكان الجزيرة العربية وأنظمتهم.

العرب الجنوبيون:

قسمت الحواجز الطبيعية بلاد العرب قسمين كبيرين تفصل بينهما صحارى واسعة، ولذا اختلفت حياة كل منهما عن الآخر، فبينما تحضر سكان القسم الجنوبي، وأقاموا نظاماً محكماً لتدبير شؤون الزراعة والمياه، بقي سكان القسم الشمالي بدواً رحلاً ينتجعون مساقط الغيث ومنابت الكلاء، وقد تبين من خلال الدراسات وجود عدة ممالك:

- ١ - مملكة «مَعِين» وحاضرتها «معين» في الجوف اليمني.
- ٢ - مملكة «حَضْرَمَوْت» وحاضرتها «شَبْوَة».
- ٣ - مملكة «قَتَبَان» في الجنوب الغربي لسبأ، وعاصمتها «تَمَنَع».
- ٤ - مملكة «سبأ»، في جنوب المملكة المعينية، وعاصمتها «مأرب».
- ٥ - المملكة الأوسانية، في جنوبي قَتَبَان.

وهناك شبه اتحاد بين الممالك الثلاث الأولى هو «الاتحاد المعيني»، أو لعل الدولة المعينية كانت قوية فسيطرت منذ القرن العاشر (ق.م) على الحضرميين والقَتَبَانِيين، وهؤلاء سيطروا على طريق القوافل التجارية في الجنوب وعلى طول الطريق إلى الشمال، فقد عُثِرَ على نقوش معينية في شمالي الحجاز بمنطقة العُلا وفي الحجر أو مدائن صالح مما يدل على أنهم أنشؤوا في هذه الجهات مراكز لقوافلهم التجارية، ولهم فيها حاميات نزلت فيها بعض عشائهم، فكانوا بذلك أول من حمل الحضارة الجنوبية إلى إخوانهم في الشمال، وبمرور الزمن غلبت عليهم طوابع الشماليين.

وفي القرن السابع (ق.م) تغلب السبئيون على المعينيين، ومدوا سلطانهم على الاتحاد الجنوبي وعلى المراكز الشمالية، وتحولت إليهم أزمة القوافل التجارية واتخذوا مدينة (مأرب) حاضرة لهم.

ثم أخذت شؤونهم الاقتصادية بالاضطراب إذ أنشأ «بطليموس الثاني» أسطولاً بحرياً في البحر الأحمر، وإذ نازعهم «الحميريون»، وتغلبوا عليهم حوالي سنة ١١٥ (ق.م)، وكانت دولة الحميريين آخر الدول العربية الجنوبية، وعاصمتها «ظفار»، ولكن الرومان جهزوا سنة ٢٤ (ق.م) حملة كبيرة للاستيلاء على بلاد الحميريين وانتزاع مفاتيح التجارة منهم ففشلوا، بيد أن الرومان اتجهوا للملاحة في البحر الأحمر، واستولوا على ميناء «عدن» فشلت تجارة الحميريين، وساءت أحوالهم، وحاربهم ملوك الحبشة، واستولوا على بلادهم، وأخذت القبائل الشمالية تغير عليهم، وتنتشر لغتها فيهم، كما أخذ الكثير من العشائر الجنوبية يهاجر إلى الشمال، ويلاحظ أن عشائرتهم وقبائلهم المهاجرة اختارت في الغالب مجاورة الأمم المتحضرة، فنزلت غسان وقضاعة ومن إليهما في الشام إلى جوار الروم، ونزلت لخم في العراق إلى جانب الفرس، ومنهم من نزل في داخل الجزيرة، وأظهر ميلاً للتحضر والاستقرار كالأوس والخزرج في «يثرب»، وكندة في الشمال، ومنهم من اندمج في البدو مثل «طَيْئٍ» في جبلي أجأ وسلَمى.

العرب الشماليون (أو العدنانيون):

سكنوا في الحجاز ونجد، وامتدت قبائلهم إلى باديتي الشام والعراق، وقد ظلوا يعيشون معيشة ترحل تعتمد على رعي الأغنام والإبل، ولم يتهيأ لهم الاستقرار إلا حيث توجد بعض الواحات، ويبدو أنهم أنشؤوا في «دومة الجندل» مملكة خضعت لنفوذ الأشوريين؛ إذ كان ملوكهم يفخرون بالانتصار عليهم وعلى الثموديين في شمالي الحجاز في مدائن صالح (العلا والحجر)، ومن الثابت أن العرب الشماليين لم يتجمعوا قبل الميلاد في وحدة سياسية تلمّ شملهم. وقد قامت في «تيما» مستعمرة آرامية تجارية في القرن الخامس (ق.م) وأقام المعينيون في «العلا» شمالي الحجاز مستعمرة لتسيير تجارتهم، وكان سكانها من عرب الجنوب - كما أسلفنا - وقد ظلوا ناشطين في التجارة

حتى نشأت دولة «النَّبَط» في سلع «بطرا»، فتولّت نقل تجارة الجنوبيين إلى الشام ومصر، ولما انقضت دولتهم في مستهل القرن الثاني الميلادي حملها «اللحيانيون» الذين كانوا ينزلون في «العلا» وهم عرب شماليون.

وعاد العرب الشماليون إلى الظهور في مملكة «تدمر» شمالي بادية الشام في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وإن كان أكثر السكان من الآراميين، وقد بقيت تدمر على الحياد خلال المنافسة بين روما والفرس، واعترف الرومان بالملك «أذينة» امبراطوراً على الشرق، ولكنهم نكثوا عهودهم في أيام «زنوبيا»، وقتلوها، ودمروا مملكتها، وقضوا عليها سنة ٢٧٣م.

ويبدو أن الرومان بعد قضائهم على مملكة تدمر جعلوا من الغساسنة في بلاد الشام إمارةً تحميهم من غارات البدو عليهم، وتساعدهم في قتال الفرس، وكذلك فعل ملوك الفرس، إذ اتخذوا من المناذرة درعاً تحميهم من غارات البدو، وتساعدهم في قتال الرومان، وبين هذين الطرفين (الغساسنة والمناذرة) قامت إمارة كندة في شمالي نجد، وكانت تدين بالولاء - كما يبدو - لملوك حمير اليميين^(٤).

الغساسنة: من عرب الجنوب نزحوا مع قبائل أخرى كثيرة أبرزها جُذام وعاملة وكلب وقُضاعة من بلادهم نحو الشمال، وأقاموا إمارة لهم في شرقي الأردن، ولم يحددوا لهم حاضرة خاصة، وإنما ظلوا رحلاً يتنقلون من مكان إلى آخر؛ فتارة تكون حاضرتهم الجولان أو الجابية وتارة جَلْق.

ومؤسس سلالتهم «جفنة بن عمرو مزيقياء»، ولذا سُموا «آل جفنة»، وأول ملوكهم الذي يُطمأن إلى أخباره «جَبَلَة» الذي غزا فلسطين سنة ٤٩٧م، وخلفه ابنه «الحارث» (٥٢٨ - ٥٦٩م)، ويسمى أحياناً «الحارث بن أبي شمر»، وتعد أيامه أزهى أيام الغساسنة، وقد كان له دورٌ كبير في القتال بين الروم والفرس، واشتبك مع أمير الحيرة «المنذر بن ماء السماء» في حروب مريّة، ووقع أحد أبنائه في أثنائها أسيراً في قبضة «المنذر»، فقدمه ضحية للعُزَّى، وثأر الحارث لنفسه من خصمه في «يوم حليلة» سنة ٥٥٤م بالقرب من «قنسرين» في موقعة فاصلة قُتل فيها «المنذر بن ماء السماء». وخلف

«الحارث» ابنه «المنذر بن الحارث» (٥٦٩ - ٥٨١م)، فسار سيرة أبيه في قتال المناذرة، واشتبك مع «قابوس» ملك الحيرة منذ سنة ٥٧٠م في سلسلة معارك وانتصر عليه انتصاراً حاسماً، ثم اختلف مع البيزنطيين، فقبضوا عليه، ونفوه إلى جزيرة «سقلية»، وثار أبناؤه بقيادة «النعمان بن المنذر بن الحارث» على البيزنطيين، ولكنه لقي مصير أبيه نفسه سنة ٥٨٤م، فتمزقت وحدة الغساسنة، وتجزأت إلى إمارات متعددة، وهنا يلعب اسم «الحارث الأصغر» الذي قاتل القبائل النجدية قتالاً ضارياً، وأسر في إحدى المعارك «شأساً» أخا الشاعر المشهور «علقمة بن عبدة»، فقصده الشاعر مستشفعاً، فأكرمه، وأطلق أخاه. وكان لولديه «النعمان بن الحارث» و«عمرو بن الحارث» جيوش قوية اشتبكت مع بني أسد وبني فزارة في حروب دامية، وقد أسر «عمرو» عدداً من رجال القبيلتين، فقصده النابغة الذبياني، ومدحه متوسلاً أن يفكّهم، فأكرمه كما أكرمه أخوه «النعمان»، ومدحهما بقصائد كثيرة، منها البائية التي جاء فيها:

إِذَا مَا عَزَّوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ
عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفُهُمْ
بِهِنَّ فُلُوكُ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ

وعمره هذا هو ممدوح الشاعر «حسان بن ثابت»؛ فقد كان ينزل به ويغيره من أمراء الغساسنة، وله فيه مطولة مشهورة منها:

أَوْلَادُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ
قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمَفْضِلِ
بَيْضُ الْوَجْهِ كَرِيمَةٍ أَحْسَابِهِمْ
شَمُّ الْأَنْوُوفِ مِنَ الْطَرَّازِ الْأَوَّلِ

وكذلك كان «حسان» ينزل بجيلة بن الأيهم الذي قاتل المسلمين في صفوف الروم، ثم أسلم، ثم تنصّر في عهد «عمر»، وهرب إلى بلاد الروم.

وفي أخبار «الغساسنة» أنهم كانوا على حظٍّ كبير من الترف والنعيم؛ فثمة القيان والشراب، والرياض الغناء، وصحاف الذهب والفضة، والعطور، ومجالس اللهو، والحريز.

المناذرة: وهؤلاء في العراق يقابلون الغساسنة في الشام، وهم من أصل يمني من «لَحْم»، وربما كان «جَذِيمة الأبرش» أبرز ملك في تلك الأنحاء قبل اللخمين، ويقال إنه كان يعاصر «الزبَاء»، وقد خلفه ابن أخته «عمرو بن عديّ اللّخميّ» وهو رأس «المناذرة».

والمناذرة كانوا رحلاً، ثم أقاموا في الحيرة، وسرعان ما نصبهم الساسانيون ليحموهم من غارات البدو، وليساعدوهم في قتال الرومان وأحلافهم من الغساسنة، ويقال إن الملك «سابور» (٢٤١ - ٢٧٢م) هو الذي نصب «عمرو بن عدي»، وتتابع بعده خلفاؤه من بنيّه، وربما كان ابنه «امرؤ القيس» هو صاحب النقش الذي عثر عليه في «النّمارة» ومن أبرز خلفائه «النعمان الأعور»، وهو صاحب الخورنق والسدير، وكان له جيش قوي، وقد عاصر «يزدجرد الأول» (٣٩٩ - ٤٢٠م) ملك الفرس.

وأزهى عصور المناذرة كان عصر «المنذر بن ماء السماء» (حوالي ٥١٤ - ٥٥٤م)، وقد ساءت علاقاته بملك الفرس «قُبَاد» (٤٨٨ - ٥٣١)، فعزله، وولى مكانه «الحارث بن عمرو» أمير كندة، وبعد موت «قباد» خلفه «كسرى أنو شروان»، فأعاد «المنذر» إلى حكم الحيرة، فاستعاد ملكه، وقاتل «الحارث بن عمرو» أمير كندة، وتغلب عليه، وخاض حروباً طاحنة مع الغساسنة والبيزنطيين انتصر في كثير منها، واشتهر بين العرب بأن له يومين: يوم نعيم، ويوم بؤس، فكان أول من يطلع عليه في اليوم الأول يعطيه مئة من الإبل، وكان يقتل أول من يطلع عليه في اليوم الثاني، وكان ممن قتلهم في هذا اليوم المشؤوم «عبيد بن الأبرص» الشاعر المشهور، ويقال إنه أقلع فيما بعد عن هذه العادة السيئة وخلفه ابنه «عمرو بن هند» (٥٥٤ - ٥٦٩م)، وكان طاغية، ولقبه العرب «بالمحرّق» لأنه نذر أن يقتل حرقاً مئة رجل من تميم، وقد لقي مصرعه بيد الشاعر «عمرو بن كلثوم» في قصة مثيرة ثار فيها لكرامة أمه «ليلى بنت مهلهل».

وولي أمر الحيرة بعده «قابوس» ثم «المنذر الرابع»، ولم تطل مدتهما، ثم «النعمان الثالث» بن المنذر الرابع، وهو المكنى «بأبي قابوس» (٥٨٠ - ٦٠٢م)، وقد امتد سلطانه إلى البحرين وعمان، ووفد عليه الشعراء، وهو ممدوح «النابغة الذبياني»، وقد قتله ملك الفرس، ونصب مكانه «إياس بن قبيصة الطائي»، ولكن قبيلة «بكر» ثارت حمية للنعمان على «إياس» والفرس، وهزمتها في معركة «ذي قار» وظلّت الأمور مضطربة حتى استولى «خالد بن الوليد» على «الحيرة» سنة ٦٣٣م/ ١١هـ.

إمارة كندة: قامت في شمالي «نجد» وأمراؤها من عرب الجنوب، ومن أشهر ملوكها في القرن الخامس الميلادي «حُجَر» الملقب بأكل المرار، وقد فرض سيادته على قبائل نجد، وخلفه ابنه «عمرو المقصور»، وفي أيامه شبت «حرب البسوس» (٤٩٤ - ٥٣٤) بين بكر وتغلب، ثم توفي وأعقبه ابنه «الحارث»، وفي عهده بلغت «كندة» ذروة مجدها، وقد أصلح بين بكر وتغلب، وأمر أبناءه على القبائل العربية؛ فكان ابنه «حُجَر» أبوامرئ القيس على «أسد»، وابنه «شرحبيل» على «بكر» وابنه «معد يكر» على تغلب، وقد عينه «قُبَاذ» ملك الفرس - كما مر - والياً على «الحيرة» بدلاً من «المنذر بن ماء السماء»، ولكن «المنذر» أعيد إلى ملكه بعد موت «قُبَاذ»، فقاتل «الحارث»، وأوقع به هزيمة منكرة، وقتله وقتل معه أكثر من أربعين أميراً من بيته، ودس بين أبنائه فتحاربوا، وانتفضت قبيلة «أسد» على «حجر» أبي امرئ القيس، وقتلته، وحاول ابنه «امرؤ القيس» الشاعر المشهور استعادة ملك أبيه، فعجز، ومات دون أمنيته.^(٥)

أما الحواضر العربية فكثيرة، ومن أهمها في الحجاز:

مكة المكرمة: وتقع في وادٍ غير زرع من أودية «جبال السراة» تحفّه جبال جرداء في منتصف الطريق المستخدمة للقوافل ما بين اليمن وبلاد الشام، وتظهر في الجاهلية ممسكة بزمام القوافل التجارية، ومسيطرة على أكبر مركز ديني وثني، ويقال إن قبيلة «جرهم» وبقياء من الأمم البائدة سكنتها في الأزمنة الغابرة، ثم نزلتها قبيلة «خزاعة» اليمنية. وحوالي منتصف القرن الخامس الميلادي ظهر بها «قصي بن كلاب» ومعه قبيلة «قريش» فاستولى عليها، وأخرج خزاعة منها، فتوطدت مكانتها التجارية والدينية، وساعدت أسواق «عكاظ» و«المجنة» و«ذي المجاز» على توطيد مكانتها الأدبية، إذ كانت تعرض فيها إلى جانب السلع التجارية قصائد الشعر، ويتنافس الشعراء، ويقوم بينهم المحكمون كالنابغة الذبياني، وبذا كانت مكة أهم مدينة عربية في الجاهلية، إذ كانت مثابة للعرب وأمناء، وكان مجتمعا يتألف من:

- قريش البطاح، وهم الذين ينزلون حول الكعبة المشرفة وأصحاب النفوذ، وهم: هاشم وأمية ومخزوم وتيم وعدي وجمح وسهم وأسد ونوفل وزهرة.

- قريش الظواهر، وهم الذين ينزلون وراءهم من بقية بطون قريش، ومعهم خليط من صعاليك العرب والخلعاء والموالي والعبيد .

وكان في مكة مجلس شيوخ مصغر يجتمع في «دار الندوة»، ولا يدخله إلا من بلغ أربعين سنة، وأعضاؤه يختارون حسب ثرائهم، وخدماتهم لقومهم، وسيادتهم، شأنهم شأن مجالس القبائل بوجه عام، فقد كان لكل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ينظر في شؤونها، ولا سلطان لعشيرة على أخرى، بل إن هنالك اتحادا عشائريا ارتبط بعضه ببعض في حلف الغرض منه سدانة الكعبة والقيام على تجارة القوافل .

الطائف: وتقع على بعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مكة، وعلى ارتفاع حوالي ستة آلاف قدم في وسط حدائق غناء وبساتين مثمرة ورياض عطرة، مما جعلها طيبة الهواء كثيرة الثمرات، وكان القرشيون يصطافون فيها، وكانت تنزلها قبيلة «ثقيف» الوثنية، ويقال إنها من بقايا «ثمود»، وقد أتاحت لهم زروعهم وثمارهم شيئاً من الاستقرار، وإن لم تختلف حياتهم عن حياة القبائل النجدية إلا قليلاً .

يثرب: (المدينة المنورة): وتقع على بعد ثلاثمئة ميل شمالي مكة في وادٍ خصب تكنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً، وتكثر فيه الآبار والعيون كثرة جعلته واحة جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزروع، مع اعتدال في الجو غالباً، ويقال إن العمالقة سكنوا يثرب، وظلوا فيها حتى نزلتها يهود في القرن الثاني الميلادي بعد أن اضطهدهم الرومان في فلسطين، وظلوا يسيطرون على المدينة حتى جاءها الأوس والخزرج من الجنوب، فغدوا ساداتها الحقيقيين، ولكن يهود كانوا يوقعون الفتنة بين القبيلتين، ويصنعون لهم الأسلحة، فيحتدم القتال بينهما، وقد اشتهرت لهما أيام ومواقع كثيرة مثل يوم بعاث، ويوم البقيع، ويوم فارع.. واستمرت الحروب بينهما حتى جاء رسول الله ﷺ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً بعد اعتناق الدين الحنيف. وكان لليهود قرى خاصة بهم في شمالي المدينة المنورة مثل خبير وفدك وظلوا فيها حتى أخرجهم عمر رضي الله عنه^(٥) من الجزيرة العربية.^(٦)

أما القبائل العربية البدوية: فالنسابون يقسمون القبائل العربية التي لم تخترعها يد الفناء إلى قسمين كبيرين^(٧).

- قسم عدناني مضري يمثلته عرب الشمال.

- وقسم قحطاني يماني يمثلته عرب الجنوب، وقد هاجر كثير من هؤلاء من اليمن وحضرموت، وسكنوا بين العرب الشماليين.

وقد شكك بعض المستشرقين في هذا التقسيم، ولكن الثابت أن الشعر الجاهلي كان يحفل بكثير من الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية. ومن الثابت أن القحطانيين هاجروا إلى الشمال منذ أزمنة قديمة بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية، وعلى الأخص بعد حادثة سيل العرم، وإذا كان بعض النسابين قد اختلفوا في نسبة بعض القبائل بين العدنانية والقحطانية مثل خزاعة وقضاعة وخثعم فهو اختلاف محدود؛ إذ الصحيح أنها قبائل قحطانية هاجرت من اليمن، واستوطنت في أماكن مختلفة، ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعاً وشعباً مختلفة في الجزيرة العربية:

- فكندة مثلاً هاجرت إلى الشمال، وأسست لها مملكة في شمالي «نجد»، وظلت بقيتها مقيمة في «حضر موت» حين ظهور الإسلام.

- وهنالك عشائر من «إياد» بقيت في شمالي «نجران»، بينما توجه بعضها نحو حوض الفرات.

- والأزد توزعت عشائريهم بين شمالي اليمن، وعمان، ويثرب (المدينة المنورة: حيث أقام الأوس والخزرج) وبلاد الشام (حيث نزل الغساسنة).

- وهاجرت «تنوخ» إلى البحرين، ثم استقرت جنوبي العراق حيث أسست «لخم» (أهم عشائرها) دولة المناذرة في الحيرة.

وأيا ما كان الأمر فالنسابون العرب يرجعون قبائل اليمن كلها إلى «قحطان»، ويرجعون معظم أنساب تلك القبائل إلى «سبأ» بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ومن «سبأ» تتفرع أصول القبائل القحطانية، ومعظمهم ينحدرون من «حمير» ومن «كهلان» ابني سبأ، والباقيون يعرفون باسم «السبئيين» وهم قلة:

أ - القبائل الحميرية: أنجب «حمير» عدداً كبيراً من الأبناء، ولكن معظم القبائل الحميرية يرجع إلى اثنين هما: «مالك» و«الهميسع»، وإلى «مالك بن حمير» تنتمي قبيلة «قُضاعة»، ومن قبائلها المشهورة: «بلي»، و«بَهْرَاء»، و«جُهَيْنَة»، و«تنوخ» - وغيرها.

ومن «الهميسع» تنحدر قبائل كثيرة، أهمها «الأملوك»، و«شرعب»، و«ذو رعين»، و«ذو يَزَن».

ب - قبائل كهلان: ترجع كلها إلى أرومتين هما: «مالك» و«عريب» ابنا زيد بن كهلان.

- فمن أشهر القبائل التي تنتمي إلى «مالك بن زيد بن كهلان»: «همدان»، «الأزد»، و«بجيلة»، و«خنعم».

- ومن أشهر القبائل التي تنتمي إلى «عريب بن زيد بن كهلان»: «طيء» و«الأشعريون»، و«مَذْحِج»، و«لَحْم»، و«جُذَام»، و«كندة»، و«خَوْلَان».

وتعد «الأزد» من أضخم قبائل «كهلان»، وهي تتفرع إلى قبائل وعشائر كثيرة، منها «غسان»، و«الأوس»، و«الخرزج»، و«بارق». ويختلف النسابون في تحديد بطون «الأزد» التي يشملها اسم «غسان»؛ فبعضهم يطلقه على جميع البطون المنحدرة من «مازن بن الأزد»، وبعضهم يقصره على طائفة منها، وبعضهم يدخل في «غسان» خزاعة والأوس والخرزج، وبعضهم يخرجها منها.

أما القسم العدناني فمعظم النسابين يذهبون إلى أن لعدنان ولدين هما: «معد» و«عك»، وأن «معداً» أنجب عدداً من الأبناء منهم: «نزار»، و«قَنَص»، وإلى «نزار» ينتمي معظم القبائل العدنانية، وله أربعة أولاد هم: «مضر»، و«ربيعة»، و«إياد»، و«أنمار». ويقال إن «مضر» أنجب ولدين هما: «إلياس»^(٨)، و«قيس عيلان».

ومن قبائل «قيس عيلان» المشهورة: فَهَم، وَعَدَوَان، وَعَطَفَان، وَبَاهِلَة، وَغَنِيٍّ، وَسُلَيْم، وَهَوَازَن^(٩)، ومن «مُدْرِكَة بن إلياس بن مضر» تنحدر قبائل هذيل، وأسد، وكنانة، ومن أشهر بطون «كنانة» «قريش»^(١٠)، وإلى «طابخة بن إلياس بن مضر» تنتمي قبائل مُزَيْنَة، وتميم، والرباب، وضَبَّة، ومن بطون تميم المشهورة، عمرو بن تميم، وسعد بن زيد مناة

بن تميم، ويربوع ومالك ابنا حنظلة بن مالك بن زيد مناة، والبراجم، أما «قمعة بن إلياس بن مضر» فقد قال بعضهم إنه لا عقب له، وقال آخرون إنه تزوج وأنجب، ثم غاضب إخوته، فذهب إلى اليمن، وحالف الأزد وانتسب فيهم.

وربيعة ترجع إليه قبائل كثيرة منها: أكلب وأسد وضبيعة وعنزة وعبد القيس، ووائل بن قاسط الذي تنتمي إليه قبيلتا بكر وتغلب.

وقبيلة إياد منها فخذان: بنو دهمي بن إياد، وبنو زهر بن إياد، ومن زهر بنو حداقة ابن زهر، وإليها ينتسب الحداقيون، وقد رحلت من تهامة إلى العراق، ثم نزلوا أطراف الشام، ولحق بعضهم ببلاد الروم.

وأنمار يقال إنه غاضب إخوته، فتركهم، وأتى اليمن، فحالف الأزد، وانتسب إلى أراش بن عمرو بن الغوث من كهلان.

وقد تعددت منازل هذه القبائل: فقبيلة قريش في مكة، وثقيف في الطائف، وعبد القيس في البحرين، وبنو حنيفة في اليمامة، وتميم وضبة في صحراء الدهناء، وعشائر بكر كانت تمتد ما بين الشمال الشرقي للجزيرة العربية إلى اليمامة والبحرين، وتغلب كانت تتوطن في شمالي الجزيرة صوب الشرق، وكانت «أسد» تنزل في شمالي نجد، و«كنانة» و«هذيل» بقرب مكة و«قيس عيلان» في نجد، وأهم قبائلها هوازن وسليم وعامر، ومن عشائرها كلاب وعُقيل، وقُشَيْر، ومُزَيْنَة، وبنو سعد، وغطفان، وفرعاها الكبيران عبس وذبيان.

ومن الثابت أن الجاهليين كانوا بهذه الأنساب يتمسكون، ويفاخرون، ويصنّفون بعضهم، وعنهم ورثها أبناؤهم في الإسلام، وشكل «علم الأنساب» لدى العرب علما واسعا، وعبروا عن القرابة بين الأفراد باللُّحمة، وعن عشائرتهم وفروعهم بالبطون والأفخاذ.

وكانت تقوم بين القبائل أحلاف واتحادات، وكان لكل قبيلة مجلس يضم رؤساء عشائرها، وغالباً ما يتقدم شيوخ القبيلة شيخ كبير مجرب يقود القبيلة في سلمها وحربها،

وإن كانت سيادته رمزية. وأفراد القبيلة أكفاء يتساوون في الحقوق، وجميعهم يضعون أنفسهم في خدمة القبيلة، يضحي لها الفرد بماله ونفسه، كما أنها تحميه وتدافع عنه ظالماً كان أو مظلوماً.

وربما كان أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها حياة حربية تقوم على سفك الدماء، ومبدأ أخذ الثأر لديهم جعلهم دائماً طالبين أو مطلوبين، والثارات تُتوارث، ومن يتقاسم عن الأخذ بالثأر يحتقر، ومن يقبل بأخذ الدية تكن عليه سبة، يقول أحدهم:

أَكَلْتُ دَمًا إِنْ لَمْ أَرْعُكَ بِخُزْرَةٍ

بَعِيدَةٍ مَهْوَى الْقُرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

ومن حروبهم المشهورة «حرب البسوس» بين بكر وتغلب في أواخر القرن الخامس الميلادي وقد استمرت أربعين عاماً، و«حرب داحس والغبراء» بين عيس وذبيان بسبب سباق بين فرسين، وقد دامت أربعين عاماً.. وغيرها.

الأحوال الاجتماعية:

الحياة القبلية هي السائدة عند العرب في الجاهلية، وتتألف القبيلة من ثلاث طبقات:

- أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب، وهم عمادها.

- والعبيد وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة، ولا سيما الحبشة.

- والموالي وهم عتقاؤها، أو من يستجير بها ويحالفها.

وأهم خصال العرب الكرم؛ فكانوا يوقدون النيران ليلاً ليهتدي بها الضالون، وقد افتخروا بهذه الخصلة، ومدحوا بها، وذموا من يتجرد منها.. وكانوا يقدرون الوفاء ويحضون على التحلي به، وهذا جعلهم يشيدون بحماية الجار وصيانة الأحلاف. والشجاعة ضرورة أملت بها طبيعة الحياة لحماية النفس والأهل والقبيلة والجار والمحافظة على الحياة أمام وفرة الأعداء وتنوعهم، ولذا كانوا يكبرون الشجاعة ويمتدحون كل خلّة تؤكد ضرباً من ضروبها كالإباء، والأنفة، وإغاثة الملهوف، وحماية الضعيف، والعفو عند

المقدرة.. وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعا.

وهناك آفات شاعت في ذلك المجتمع أبرزها شرب الخمر، والميسر، واستباحة النساء، والنساء على نوعين: حرّات وإماء، فالحرّة كانت تقوم بطهي الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخباء، ومنهن مخدومات وبعضهن شواعر، والإماء كثيرات، وبعضهن يعملن في حوانيت الخمارين، ويضربن على المزهر، وبعضهن يرعين الغنم والإبل ويقمن على الخدمة.. وقد تغزل الشعراء العرب بجمال المرأة وتصرفاتها.

أما المعيشة فكانت مختلفة: كان بعضهم يعمل في الزراعة كأهل يثرب والطائف، وبعضهم يعمل في التجارة كأهل مكة، وبعضهم يعمل في الرعي، وبعضهم يمتحن مهناً بسيطة تلبي الحاجة، وكانت لهم أسواق موسمية تقام في مواعيد محددة للتجارة وللخطابة والشعر وللمفاخرة والمنافرة مثل سوق عكاظ، والمجّنة، وذي مجاز، ودومة الجندل^(١١).

وحياتهم في البيادي والصحاري كانت مخيفة مليئة بالمخاطر لوجود الكثير من الوحوش المفترسة، والزواحف السامة، والحشرات، وعوادي الطبيعية، ورياح السموم والغزوات المفاجئة التي يشنّها بعضهم على بعض، والحروب، وطلب الثأر، والسلب والنهب.

ولا ريب أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة؛ فتجار مكة كانوا يدخلون بلاد الشام وفارس ومصر، وأهل الحيرة كانوا على صلة مباشرة بالفرس، والغساسنة كانوا يتصلون بالروم.. ولكن هذا كله ضمن حدود ضيقة.

وكانت لديهم بعض المعارف؛ كمعرفتهم بالنجوم ومطالعها وتحركاتها، وشيء من المعارف الطبية التي عرفوها بالتجربة مثل الكي بالنار واستخدام بعض العقاقير النباتية، كما كانوا يتداوون بالعزائم والرقى، وشاعت عندهم «العيافة» وهي التنبؤ من خلال ملاحظة حركات الطيور، وانتشرت لديهم الخطابة لحاجتهم إليها في السلم والحرب، وازدهر الشعر أيّما ازدهار، وكثرت لديهم الحكم والأمثال.

أما الدين فقد كان معظم العرب في جاهليتهم وثنيين يؤمنون بقوى إلهية مبنوثة

في الكواكب ومظاهر الطبيعة والطير والحيوان والأحجار والأشجار.. ويتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة، وقد صوروها أو نحتوها رموزاً لآلهتهم، وهي كثيرة جداً ومتنوعة حسب قبائلهم^(١٢)، وكانت لديهم طقوس كثيرة في نذورهم وقرابينهم، وهناك جماعات يقومون على سدانة بيوتهم المقدسة، ويسمونهم «الحجابه» ويجانب هؤلاء السدنة كهان كانوا يدعون معرفة الغيب، وأنه سخرت لهم طوائف من الجن يسترقون لهم السمع فيعرفون منهم ما كتب للناس في ألواح الغد، وكان الجاهليون يؤمنون إيماناً راسخاً بالأرواح، وأنها تحل في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، وكان منها أرواح خيرة (هي الملائكة)، وأرواح شريرة (هي الشياطين) ولهم في ذلك كثير من الأساطير والخرافات.

وظهرت عندهم طائفة تعرف باسم «الحنفاء» وهؤلاء رفضوا الأوثان وعبادتها وآمنوا بما بلغهم من دين إبراهيم عليه السلام، وكانوا منتشرين في عدد من القبائل، ومنهم ورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة الإيادي، وبعضهم اعتزل الميتة والدم والقرابين التي تقدم للأوثان. وانتشرت اليهودية في اليمن وبعض مواطن في الحجاز بعد أن طردهم قيصر روما من فلسطين، وانتشرت النصرانية كذلك في اليمن وبين الغساسنة وقبائل تغلب وإياد وبكر وطيء في شمالي الجزيرة الغربي والشرقي.

وعندما فتحت للنور في مكة المكرمة كوة، وتنزل الهدى السماوي على قلب رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ ليفتح أعيناً عمياً وقلوباً غلفاً، وينقذ الناس من عبادة الشجر والحجر إلى عبادة باري النسم تداعت قوى الشر في مكة أولاً ثم في الجزيرة كلها، لتطفئ هذا النور، وتخنق هذا الهدى، وأتى لها ذلك؟ فقد ضمن رب السماوات والأرضين لدينه أن يبقى وينتشر على الرغم من قوة الأعداء، وغطرستهم وشراستهم، وخبثهم، ومكرهم، واستعانتهم بكل عقارب الشر وأفاعي البلاء والحق، وكان صراع شديد المرارة بالغ التضحيات، وانقسمت البيوت والأفخاذ والعشائر والقبائل في كثير من الأحيان على بعضها واستنّت سبل العمل «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»^(١٣)، وعندما استشرى الحق، واضطربت نيران العداوة والبغضاء، وامتدت أيدي الاعتداء ظالمة جائرة «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله»^(١٤) فانقضت السيوف، وأشرعت الرماح، وأطلقت الألسنة لتكون في كثير من

الأحيان أمضى من البيض المباتير لشدة تأثر العربي بالشعر والبيان «ليقضي الله أمرا كان مفعولا»^(١٥).

هذه الحقبة التاريخية الهامة من حياة أمتنا ومسيرتها تلك التي استغرقتها الدعوة الإسلامية في بداياتها وحتى انتصارها، والتي تستأثر بما يقرب من عقدين من الزمن هي التي ستكون مستراداً بحثنا ومستوكفه^(١٦). وسوف ينصب اهتمام البحث على الحقبة الواقعة ما بين هجرة رسول الله ﷺ من مكة ووفاته، وهي الحقبة التي يستشري فيها الصراع، ويتدخل فيها السيف واللسان، ويبرز فيها دور حسان واضحاً في تمثيل الدعوة والانتصار لها، أما ما يأتي بعد وفاته ﷺ فطور جديد من أطوار الإسلام ينطلق فيه إلى خارج الجزيرة العربية بعد أن حقق النصر في داخلها.

الهوامش

- (١) للاستزادة يمكن العودة إلى كثير من المراجع، من أبرزها:
- كتب تاريخ الأدب العربي ومنها ما ألفه د. شوقي ضيف، والرافعي، والزيات، وعمر فروخ، وحنا الفاخوري، وبروكلمن، وبلاشير...
 - نهاية الأرب للنويري: الجزء الثاني.
 - العصبية القبلية - د. إحسان النص.
 - تاريخ العرب قبل الإسلام - د. جواد علي.
- (٢) انظر: تاريخ الأدب العربي - د. شوقي ضيف: ١٧/١ وما بعدها، وكان المرجع الأهم لهذا البحث.
- (٣) المرجع السابق: ٢٢/١ وما بعدها.
- (٤) المرجع السابق: ٢٦/١ وما بعدها.
- (٥) المرجع السابق: ٤٠/١ وما بعدها.
- (٦) المرجع السابق: ٤٩/١ وما بعدها.
- (٧) يذهب معظم النسّابين العرب إلى أن العرب كلهم من نسل «سام بن نوح»، وأكثرهم يذهب إلى أن العرب البائدة فريقان. الأول ينتمي إلى «إرم بن سام»، والثاني ينتمي إلى «لاوذ بن سام»، أما العرب الباقية، فهم جميعاً من سلالة «أرفخشذ بن سام».
- ويقسمون العرب إلى ثلاثة أقسام: العرب العاربة، والمتعربة، المستعربة:
- أ - فالعرب العاربة (أو البائدة) هم الذين بادوا وانقضوا، ومنهم قبائل عاد، وثمود، وطّسم، وجديس، وغيرهم.
- ب - العرب المتعربة هم أبناء قحطان الذين نطقوا بلسان العرب العاربة ولم يفنوا.
- ج - والعرب المستعربة هم أبناء اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهؤلاء عُرفوا بالعدنانين نسبة إلى «عدنان» وقد أصهر اسماعيل (ع) إلى قبيلة «جرهم» التي كانت تنزل مكة المكرمة، وتعلّم لغتها العربية وأورثها أبناءه، ونسي لغة أبيه.
- وبذا نجد واقعياً في العرب قسمين اثنين: المتعربة وهم القحطانيون، والمستعربة وهم العدنانيون، وكل منهما ينقسم إلى قبائل وعشائر وأفخاذ، والخلاف بين النسّابين في تحديد القبائل المتفرعة من كل منهما بسبب بعد المسافة الزمنية، وكثرة ترحّل القبائل العربية، وتداخلها مع بعضها بسبب الجوار والأحلاف.

(٨) تزوج «إلياس بن مضر» ليلى بنت حلوان القضاعية وهي «خندف»، ومنها كان أولاده الثلاثة: «طابخة»، و«مدركة»، و«قمعة». وقد غدا اسم «خندف» فيما بعد علماً على قبائل مضر كلها ما عدا قيس عيلان.

(٩) وإلى هوازن تنتمي قبائل ثقيف وعامر بن صعصعة وجشم. ولقبيلة «عامر» بطون كثيرة منها: بنو نُمَيْرَ وبنو هلال، وكلاب وكعب، ومن بطون «كعب» المشهورة الحريش وجعدة وعُقيل وقُشَيْر والعجلان، وإلى «غطفان» تنتمي قبائل عبس وذبيان وأشجع وغيرها.

(١٠) قريش: فهر بن مالك بن النضر من كنانة بن عدنان: جاهلي قديم كان دليل بني كنانة في تجارتهم، فإذا أقبل في القافلة يقال: قدمت غير قريش، فغلب لفظ قريش على من كان فيها من بني النضر بن كنانة.. وللنسابين خلاف طويل في «قريش»: بعضهم قال إنه لقب للنضر بن مالك، وقال آخرون: إنه لقب «فهر بن مالك بن النضر» - كما أوردنا هنا - وبعضهم قال: إن بني النضر سُمُوا قريشا لتقرشهم أي: لتجمعهم في أيام قصي وغير ذلك (انظر الأعلام للزركلي: ١٩٥/٥ ومراجعته). ونهاية الأرب: ٢٥٢/٢ .

(١١) انظر أسواق العرب للأستاذ سعيد الأفغاني، ص ١٩٣ وما بعدها.

(١٢) كان في الكعبة المشرفة عند فتح رسول الله ﷺ مكة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان أعظمها عند القرشيين «هبل»، و«والعزى» كانت لغطفان، وهي بيت بوادي نخلة، ويقال شجرة»، شرقي مكة، وقد هدمه «خالد بن الوليد» رضي الله عنه، و«ذو الخلصة» وهو صنم لختهم وبجيلة وأزد السراة، و«ذو الشرى»، وكان له معبد ضخيم في سلع (بطرا)، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم. قال تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» سورة النجم (١٩/٥٣). وقال تعالى: «وقالوا لا تذر آلهمكم ولا تذر دنسك ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا...» سورة نوح (٢٣/٧١): وانظر سيرة ابن هشام: ٨٧١/٤ وما بعدها.

(١٣) سورة النحل: ١٢٥/١٦ .

(١٤) سورة الحج: ٣٩/٢٢ .

(١٥) سورة الأنفال: ٤٢/٨ .

(١٦) انظر: نهاية الأرب للنويري: ٢٨٦/٢ . والعصبية القبلية - د. إحسان النص: ص ١١ وما بعدها.

الباب الأول

اسمه ونسبه

هذا لسان غضب نطَّلَع اليوم بالتعرض له على صفحة خالدة من تاريخ النضال الإسلامي لإعلاء كلمة الله، ومآثرة من مآثر الرعيل الأول من الموحدين الصابرين، والعاملين المخلصين، فمن هو يا ترى؟!

إنه «أبو الحسام حسَّان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار (وهم تيم الله)^(١) بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج»^(٢). ويكنى أبا الوليد وهي الأشهر، وأبا المضرب وأبا الحسام وأبا عبدالرحمن^(٣). ولقب بألقاب شتى، فقليل له الحسام^(٤)، وشاعر رسول الله ﷺ^(٥). ودعي باسم أمه: ابن الفُرَيْعَة^(٦).

وأمه: الفريعة بنت خالد بن حُبَيْش بن لَوْذَان خزرجية أيضاً أدركت الإسلام، فأسلمت وبايعت^(٧).

حسان إذا خزرجي من بني النَجَّار، وهؤلاء أحوال رسول الله ﷺ، لأن أم جده «عبدالمطلب»^(٨) منهم؛ فلحسان برسول الله ﷺ صلة قرابة بعيدة.

وبنو النَجَّار - كما ذكر - من قبيلة الخزرج، وهي القبيلة التي أقامت مع قبيلة الأوس في يثرب^(٩) (المدينة المنورة)، وكلتا القبيلتين من «الأزد»^(١٠) القحطانيين، هاجرتا مع بعض القبائل الأخرى من موطنهما الأول في اليمن إثر خراب سد مأرب^(١١)، فسكنتا يثرب، بينما ذهب أولاد عميهما المناذرة والغساسنة، فسكنوا الشام والعراق^(١٢). ومن هنا اتصل نسب حسان بأولاد عمه أمراء جُلِّق^(١٣) والحيرة^(١٤). وها هو ذا يفتخر بنسبه^(١٥):

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامر

لنا شرف يعلو على كل مرتقي^(١٦)

ملوك وأبناء الملوك كأئنا

سواري نجوم طالعات بمشرق^(١٧)

كجفنة والقمقام عمرو بن عامر
وأولاد ماء المزن وابني مُحَرَّق^(١٨)
وحارثة الغطريف أو كابن منذر
ومثل أبي قابوس ربّ الخورنق^(١٩)

مولده: ولد حسان في يثرب قبل مولد الرسول ﷺ بثماني سنين أو سبع؛ أي سنة ٦٠ق هـ (٥٦٤م)، أو سنة ٦١ق هـ (٥٦٣م)، وهو يؤرخ ميلاده بحادثة نستغربها نحن، وإن كانت مما يتداول، وربما كان لها أثر كبير انطبع في ذاكرته، وأثر في بعض مجاري حياته:

فقد حدّث حسان فقال:

«إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان إذا بيهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود!!! فلما اجتمعوا إليه، قالوا: ويلك مالك؟! قال: طلع نجمٌ أحمد الذي يولد به في هذه الليلة...»^(٢٠).

ترى ما نصيب هذه الحادثة من الصحة؟! هل نستطيع إثباتها؟ أو هل نستطيع نفيها؟ أهى مما أضافه الرواة والقصاص فيما بعد؟ أم ممّا دسّه بعضهم لأمر أو لآخر؟ لقد تضافرت على رواية الحادثة مراجع كثيرة أشرت هنا إلى بعضها، وهذا يُدّنيها كثيراً من الصحة، أما إن كانت موضوعة فهي - لا شك - وضع ذكي، لأن يهود كانوا يعرفون - كما حدّثنا القرآن الكريم - أنه سيأتي نبيٌّ «النبى الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل...»^(٢١) لا بل كانوا يستمدون منه الغوث في حربهم مع الأوس والخزرج «يستفتحون على الذين كفروا»^(٢٢).

على أية حال إنني لم أرتح بادئ ذي بدء إلى صحتها تمام الارتياح، وليس لدي ما ينفيها ويزيفها، يبد أن الأستاذ «ناصر الدين الألباني» حقّق الرواية فتبيّن أنّها صحيحة^(٢٣).

ولا يفوتني هنا أن أذكر أنني لم أقع على تاريخ ولادته مضبوطاً بدقة، وإنما بشكل

تقريبى، وقد أثرت حوله الشكوك، ولا سيما ما أثاره «نولدكه»^(٢٤).

على أن كثيراً من الباحثين اعتمد على حادثة اليهودي هذه، وبذا يكون عمر حسان يوم قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة ستين أو إحدى وستين سنة، وتاريخ ميلاده على وجه التقريب سنة ٦٠ ق.هـ أو ٦١ ق.هـ / حوالي سنة ٥٦٣م أو ٥٦٤م^(٢٥).
وتوفي رحمه الله في المدينة المنورة سنة ٥٤هـ / ٦٧٤م.^(٢٦)

الهوامش

(١) تيم الله: هم بنو النجار، ويقال: الأصل تيم اللات، وسماهم الرسول ﷺ: تيم الله كراهية وجود اسم صنم.

(٢) الأغاني: ٢/٤: الخزرج بن حارثة بن ثعلبة وهو العنقاء بن عمرو وهو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد وهو ذري بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.. وللخزرج بطون كثيرة منها: بنو النجار، وبنو عوف، وبنو غنم، وبنو جشم وغيرهم. وقد ذكر النسابون أن «عمرو مزيقياء بن عامر» كان سيد قومه، وقد توفي قبل خراب سد مأرب عن عدد من الأولاد، فخلفه على رئاسة قومه أخوه «عمران بن عامر»، وكان ذا ثروة وبساتين، وليس له أبناء، وحين شعر بقرب خراب سد مأرب ارتحل هو وأبناء أخيه، وتفرقوا في البلاد:

- فنزل «ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر» يثرب، ومن نسله الأوس والخزرج.
 - ونزل «حارثة العنقاء بن عمرو بن عامر» مكة، ومن نسله خزاعة.
 - وذهب «عمران بن عامر» نفسه إلى عمان، ومن نسله أزد عمان.
 - وسار «جفنة» نحو الشام، ومن نسله الغساسنة.
 - ويمم «لخم» شطر وجهه نحو العراق، ومن نسله المناذرة (أو آل نصر).
- وذهب آخرون إلى بلاد أخرى.

وبذا يمكن أن يُبين سبب افتخار حسان بانتماؤه إلى «عمرو بن عامر» كما سيرد فيما بعد، ويتبدى نسبه وقربه من غسان ويتأول بالتالي مدحه آل جفنة الغساسنة وآل المنذر.. كما يلحظ من جانب آخر أنه من بني النجار، وهؤلاء أخوال رسول الله ﷺ.

(٣) و (٥) الاستيعاب: ١٢٨/١ .

(٤) المزياني: ص ٨٩ .

(٦) معجم المزياني ص ١٦٥ .

(٧) الإصابة: ٨/٢ (وقد اختلف في نسبها:

- ففي الأغاني ١٢٤/٤: هي بنت خالد بن قيس بن لؤذان بن عبدود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج.

- وفي خزنة الأدب ١١١/١: هي بنت خنس.

- وفي الاستيعاب: ١٢٨/١: هي بنت خالد بن خنيس بن لؤذان.

- وفي سيرة ابن هشام: ٦٠٨/٣: ويقال خنيس بن حارثة).

(٨) عبدالمطلب بن هاشم (نحو ١٢٧ ق.هـ - ٤٥ ق.هـ/ ٥٠٠ - ٥٧٩م): عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف، أبوالحارث زعيم قريش في الجاهلية، وأحد سادات العرب ومقدميهم، مولده في المدينة (يثرب)، ومنشؤه في مكة كان: عاقلاً ذا أناة ونجدة، فصيح اللسان، حاضر القلب، أحبه قومه، ورفعوا من شأنه، فكانت له السقاية والرفادة، وبحسن تصرفه أنقذ الله مكة من غارة الأحباش. وهو جدُّ رسول الله ﷺ، وقيل اسمه «شيبة»، أما عبدالمطلب فهو لقب غلبَ عليه، والمطلب هو أخوه.

(٩) يَثْرِب: مدينة رسول الله ﷺ، يقال سَمَّيت باسم أول من سكنها، وهو يثرب بن قانية.. بن نوح، وسماها الرسول ﷺ طيبة وطابة كراهية للثريب، وهي الآن تدعى «المدينة المنورة»، وفيها قبر خاتم الأنبياء ومسجده، وقال ابن عباس رضي الله عنه: من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثاً، إنما هي طيبة، وقد قال النبي ﷺ لما هاجر: «اللهم إنك أخرجتني من أحب أرضك إليّ فأسكني أحبَّ أرضك إليك»، فأسكنه المدينة. وهي تقع في حرّة سبخة الأرض، وفيها نخيل كثير ومياه.

(١٠) الأزد: (.....) مجهول الولادة والوفاة: أزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان من القحطانية: جد جاهلي يماني قديم، بنوه أكبر قبيلة في كهلان، انقسم بنوه إلى ثلاثة أقسام: أزد شنوءة، وأزد السراة وأزد عمان، ومن سلالاته قبائل غسان وخزاعة وأسلم وبارق وآل جفنة والأوس والخزرج.. ويقال إنهم بلغوا ستا وعشرين قبيلة.

(١١) سدّ مأرب: شيد في مدينة مأرب عاصمة المملكة السبئية الثانية لتنظيم الري ووقاية العاصمة من أخطار الفيضانات الموسمية. ينسب خرابه إلى السيل العرم بين ٥٤٢ - ٥٧٠ ق.م.

(١٢) بجوار الروم والفرس.

(١٣) جَلَّقَ: اسم لغوطة دمشق كلها، أو لدمشق نفسها، أو موضع لقرية من قرى دمشق.

(١٤) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة العراقية في موضع يقال له «النجف». وفي الحيرة قصر «الخورنق» مما يلي الشرق على نحو ميل، و«السدير» في وسط البرية التي بينها وبين الشام والحيرة كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من آل نصر ولخم والنعمان وآبائه.

(١٥) انظر ديوانه ص ٣٤٢.

(١٦) عمرو بن عامر: هو مزريقاء بن عامر.. ومزريقاء هم الذين تفرقوا بعد سيل العرم في البلاد، وقد نزح معهم من اليمن قومهم من الأزد.

(١٧) سوارى نجوم: أي نجوم ساريات.

(١٨) جفنة: هو جفنة بن عمرو أول ملوك الغساسنة آل جفنة بالشام. القمقام: السيد الكثير الخير الواسع الفضل. ماء المزن: يريد ماء السماء، وماء السماء لقب عامر أبي عمرو مزريقاء، لقب بذلك لأنه كان إذا أجذب قومه احتل مؤونتهم وقوتهم حتى يأتيهم الخصب وقيل لولده: بنو ماء السماء. قال بعض الأنصار:

أنا ابن مزريقيا عمرو وجدي

أبو عامر ماء السماء

وماء السماء أيضاً: لقب أم المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر اللخمي، وهي ابنة عوف بن جشم من النمر بن قاسط سميت بذلك لجمالها، وقيل لولدها بنو ماء السماء. ومحرق لقب الحارث بن عمرو بن آل جفنة سمي بذلك لأنه أول من حرق العرب في ديارهم وهو الحارث الأكبر أبو الحارث الأعرج. وكان امرؤ القيس بن عمرو بن عدي أبو المنذر يدعى أيضاً محرقاً.

(١٩) حارثة الغطريف هو أبو عامر أبي عمرو مزريقاء. ابن منذر هو عمرو بن هند مضرط الحجارة وهند أمه وهو من ملوك الحيرة اللخمين، وكان يلقب أيضاً بالمحرق؛ لأنه حرق مئة من تميم (تسعة وتسعين من بني دارم وواحداً من البراجم). أبو قابوس: هو النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي وهو الذي بنى الخورنق، وهو الذي لبس المسوح وساح في الأرض وفيه يقول عدي بن زيد:

وَتَبَّيَّنَ رَبُّ الْخُورْنَقِ إِذْ

أَشْرَفَ يَوْمًا وَلِلْهَدَى تَعْكِيرُ

سِرُّ ماله وكثرة ما يم
لكُ والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال وما غب
سطة حي إلى الممات يصير

(٢٠) الأغاني: ٣/٤ وتاريخ ابن عساكر: ١٢٦/٤ (المهذب)، تهذيب ابن حجر: ٢/٢٤٨،
والمستدرک: ٤٨٦/٢ واليَفْعَة: الغلام إذا ترعرع وناهز البلوغ.

(٢١) القرآن الكريم: سورة الأعراف: ١٥٧/٧ .

(٢٢) القرآن الكريم: سورة البقرة: ٨٩/٢: قال تعالى: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما
معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة
الله على الكافرين».

(٢٣) الأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني أبو عبد الرحمن (١٣٣٢-١٤٢٠هـ/١٩١٤-
١٩٩٩م) من كبار علماء الحديث في دمشق وفي العالم الإسلامي، وله يد بيضاء في تحقيق
الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ. من سكان دمشق وله آثار عديدة منها: صلاة النبي ﷺ
كأنك تراها.

والأستاذ الألباني نَشَرَ في المجلات والكتب تحقيق بعض هذه الأخبار والأحاديث فجراه الله
عنا وعن الإسلام والمسلمين خيراً.

(٢٤) نولدكه: تيودور نولدكه: Theodor Noldeke (١٢٥١ - ١٣٤٩هـ/ ١٨٣٦ - ١٩٣٠م).

من أكابر المستشرقين الألمان، ولد في «هامبورغ» بألمانيا، وتعلّم في عدة جامعات ألمانية،
وانصرف إلى اللغات السامية والتاريخ الإسلامي، فعين أستاذاً لهما في عدة جامعات. له
كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهم، ومنها: تاريخ القرآن، وحياة النبي محمد (ﷺ). وقد
أثار في كتابه (أمراء غسان ص ٤٥ و ٧١ ترجمة جوزي و زريق - بيروت ١٩٣٣) بعض
الشكوك حول ولاده حسان.

(٢٥) المراجع التي ذكرتها آنفاً.. وهذا ماجر «دي برسفال» إلى جعل مولده سنة ٥٦٣م. كما قال
البستاني في عدد الروائع ٣٣ص آ. وكتاب الأغاني استفاد من حادثة اليهودي بصورة

واضحة، فقال (الأغاني: ١٣٥/٤). «فهذا يدل على مدة عمره في الجاهلية لأنه ذكر أنه أدرك ليلة ولد النبي ﷺ، وله يومئذ ثمان سنين والنبي ﷺ بعث وله أربعون سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، فقدم المدينة ولحسان يومئذ على ما ذكره ستون سنة أو إحدى وستون سنة وحينئذ أسلم. ولعله أسلم قبل الهجرة بقليل كما سيمر معنا.

(٢٦) ورد في الأغاني أن حسان عُمِرَ عشرين ومئة سنة: ستين في الجاهلية وستين في الإسلام (الأغاني: ١٣٦/٤). وجاء في كتاب أسد الغابة: (٧/٢): «وتوفي حسان قبل الأربعين في خلافة علي، وقيل: بل مات سنة خمسين، وقيل سنة أربع وخمسين، وهو ابن مئة وعشرين سنة. لم يختلفوا في عمره، وأنه عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام (❖)، وكذلك عاش أبوه ثابت، وجده المنذر، وأبو جده حرام، عاش كل واحد منهم مئة وعشرين سنة، ولا يُعرف في العرب أربعة تناسلوا من صلب واحد، وعاش كل منهم مئة وعشرين سنة غيرهم. قال سعيد بن عبد الرحمن (ابن حسان) ذكر عند أبي عبد الرحمن عمر أبيه وأجداده، فاستلقى على فراشه وضحك، فمات وهو ابن ثمان وأربعين».

(❖) هذا يفرض أن تكون وفاته سنة ستين للهجرة.

نشأته

لا نعلم الكثير من تفاصيل نشأته وشبابه، ولم يصلنا من الأخبار الدقيقة - اللهم إلا النزر اليسير الذي يكاد يستوي وجوده وعدمه - عن معيشته في يثرب (المدينة المنورة)، ولا عن نوع الحياة التي عاشها، وماذا كان يجري من دقائق حوادثها اليومية؟ وما كانت الانطباعات الأولى التي ارتسمت في ذهنه، فرسخت منذ طفولته، وبدت آثارها في شبابه وكهولته؟ وما الثقافة التي تلقاها؟ وهل روى لأحد من الشعراء كما كان يفعل أمثاله من الشعراء الناشئين، إذ يبدوون حيواتهم الشعرية بالرواية للشعراء المشهورين، أو لشعراء آخرين؟

والحق أن شأن حسان في هذا المجال شأن كثيرين من أعلام الشعراء الأوائل في تاريخنا الأدبي، إذ لم يذكر لنا هذا التاريخ إلا نتفاً من أخبارهم الخاصة خلال نشأتهم الأولى، وكان الاهتمام ينحصر بهم بعد اشتهارهم أو نبوغهم، ويكاد يقتصر هذا الاهتمام على الجانب الشعري حتى بعد هذا الاشتهار أو النبوغ.

على أية حال من الممكن أن نتبين من خلال تصفحنا شعر حسان وبعض الأخبار التي وردت عنه أنه ولد في مدينة «يثرب»، في بيت عريق الأصالة يتوارث الشعر فيه الأبناء عن الآباء، فقد كان أبوه «ثابت بن المنذر» من أشرف الخزرج وشعرائها، وكان جدّه «المنذر بن حرام» سيداً في قومه وشاعراً، وكان أبو جده «حرام بن عمرو» شاعراً ومقديماً في قومه.

وكان له أخ يدعى «أوس بن ثابت»^(١) استشهد يوم أحد، وهو والد «شداد بن أوس» المعروف بعلمه وحلمه. وله كذلك أخ آخر يدعى «أبيّ بن ثابت» أبوشيخ، وهو ممن حضر معركة بدر^(٢).

وكما ورث حسان عن آبائه موهبة الشعر فقد أوروها أبناءه: فابنه «عبدالرحمن»^(٣) شاعر، وحفيده «سعيد بن عبدالرحمن»^(٤) شاعر أيضاً، وله كذلك ابنة شاعرة^(٥). ولذا قال المبرد: «وأعرق قوم في الشعر آل حسان، فإنهم يعتدون ستة في نسق كلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام». وهذه الظاهرة تشير بوضوح إلى أن حسان مُعَرِّق في الشعر مُخَلِّف فيه، وأن الشعر قد جرى منه مجرى الدم في العروق، ثم إنه على ذلك واسطة العقد^(٦).

وكتب التراجم وتواريخ الأدب على عاداتها شحيحة في تبيان الحياة الأسرية للأعلام، فنحن لم نستطيع أن نتبين تماماً بقية أفراد أسرة حسان، ولم نعرف زوجاته ولا وضعه الأسري، إنما نعرف من خلال شعره أنه شَبَّ - كما يصنع الكثير من الشعراء - بعدد من النسوة منهن «زينب»، و«شعشاء»^(٧)، و«سعدى»^(٨)، و«النضيرة»^(٩)، و«ليس»^(١٠)، و«أم عمرو»، و«خود»^(١١)، و«ليلي»^(١٢).

وعرفنا أنه تزوج امرأة من «أسلم»^(١٤)، فولدت له غلاماً، فهجاها^(١٥)، كما عرفنا أن رسول الله ﷺ أهداه «سيرين» أخت «مارية القبطية»^(١٦)، وهما الجاريتان اللتان أرسلهما ملك مصر «المقوقس» إلى رسول الله ﷺ، وسيرين هي التي ولدت له ابنه «عبدالرحمن» وتزوج امرأة من الأنصار من الأوس يقال لها عمرة أو (عميرة) بنت صامت بن خالد وكان كل واحد منهما محباً، لصاحبه، وتكلم حسان مرة بكلام أغضبها فغيرته أخواله وفخرت عليه بالأوس، فطلقها، فأصابها من ذلك شدة، وندم هو بعد ذلك^(١٧). ويبدو أن عقبه قد انقرض إذ لم يرد ذكرٌ لنسله بعد حفيده «سعيد»^(١٨).

وكانت نشأة حسان في عشيرته «بني النَجَّار» التي كانت زعيمة الخزرج، وزعيمة العرب المدنيين، هذه الزعامة التي تتضافر على ذكرها روايات التاريخ، ويؤيدها الطابع العام لشعر حسان، مما يجعلنا نفترض مطمئنين أن الشعور بها كان عاملاً كبير الأثر في منزعه الشعري، بل وفي صلته برسول الله ﷺ، وإننا لنقرأ المشهورات من شعره طوال حياته فلا نكاد نظفر بواحدة منها تخلو من الإشارة إلى مجد قبيلته، وعراقتها، ونفوذ أبنائها، وحسن بلائهم، وها هو ذا يقول^(١٩):

فِيثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّا بِهَا
إِذَا التَّبَسَّ الْأَمْرُ مِيزَانُهَا
وَيِثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّا بِهَا
إِذَا قَحَطَ الْقَطْرُ نُؤَانُهَا

ويقول: (٢٠)

فَنَحْنُ الدُّرَا مِنْ نَسْلِ آدَمَ وَالْعُرَا
تَرْبِعُ فَيُنَا الْمَجْدُ حَتَّى تَأْتُلَا
بَنَى الْعَرْزُ بَيْتًا فَاسْتَقَرَّ عِمَادُهُ
عَلَيْنَا فَأَعْيَا النَّاسُ أَنْ يَتَحَوَّلَا

ويقول: (٢١)

وَكُنَّا مَلُوكَ النَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ
فَلَمَّا أَتَى الْإِسْلَامَ كَانَ لَنَا الْفَضْلُ

هذه الوراثة السامية في النسب أيديتها وراثة زاهية في الأدب؛ فقد كان آباء حسان «ثابت» و«المنذر» و«حرام» شعراء كما أسلفنا، وكان من قومه الخطيب والفيصل وصاحب النفوذ والجاه عند الملوك، وفيهم يقول - بعد الإسلام - (٢٢):

إِنَّ خَالِي خَطِيبٌ جَابِيَةُ الْجَوْ
لَانِ (٢٣) وَعِنْدَ النِّعْمَانِ (٢٤) حِينَ يَقُومُ
وَأَبِي فِي سُمَيْحَةٍ (٢٥) الْقَائِلُ الْفَا
صَلُّ يَوْمَ التَّقَتِّ عَلَيْهِ الْخُصُومُ
وَأَنَا الصَّقَرُ عِنْدَ بَابِ ابْنِ سَلَمَى (٢٦)
يَوْمَ نَعْمَانَ (٢٧) فِي الْكَبُولِ مَقِيمِ
وَأَبِي وَوَأَفْدُ (٢٨) أَطْلِقْ لِي
ثُمَّ رَحْنَا وَقُفْلَهُمْ مُحْطُومِ
وَسَطَّتْ نَسَبَتِي الذَّوَابُ مِنْهُمْ
كُلُّ دَارٍ فِيهَا أَبٌ لِي عَظِيمِ

الهوامش

(١) أوس بن ثابت: وهو أخو «حسان» من أبيه، وأمه «سخطى بنت حارثة بن لوزان» بنت عم والدة حسان، وكان ممن حضر بيعة العقبة الثانية (بيعة الحرب) مع الأنصار الخمسة والسبعين، وقد شهد موقعة بدر، وموقعة أُحُد، واستشهد يوم أُحُد: ٣هـ / ٦٢٥م، وفيه قال حسان: (ديوانه ص ١٧٣)

وَمِنَّا قَتِيلُ الشَّعْبِ أَوْسُ بْنُ ثَابِتٍ
شَهِيداً وَأَسْنَى الذِّكْرِ مِنِّي الْمَشَاهِدُ

وهو والد «شداد بن أوس» وشداد هذا ابن أخي حسان ممن آتاه الله العلم والحلم، قال فيه أبو الدرداء: «إن الله عز وجل يؤتي الرجل العلم ولا يؤتيه الحلم، ويؤتيه الحلم ولا يؤتيه العلم، وإن أبا يعلى (كنية شداد) ممن آتاه الله العلم والحلم». (انظر ديوانه ص ١٧٣)، وفيه قال حسان:

وَمَنْ جَدُّهُ الْأَدْنَى أَبِي وَابْنُ أُمِّهِ
لَأُمِّ أَبِي ذَاكَ الشَّهِيدِ الْمَجَاهِدِ

(٢) انظر سيرة ابن هشام: ٥٢٢/٢ وقد قال بعضهم إنه ابن أخيه:

أبوشَيْخِ بْنِ ثَابِتٍ: يُقَالُ هُوَ أَبوشَيْخِ أَبِي بْنِ ثَابِتٍ، فَهُوَ إِذَا أَخُو حَسَانَ، وَيُقَالُ: بَلْ هُوَ أَبُو شَيْخِ بْنِ أَبِي بْنِ ثَابِتٍ، فَيَصْبِحُ ابْنُ أَخِي حَسَانَ. شَهِدَ بَدْرًا وَقُتِلَ يَوْمَ بَثْرَ مَعُونَةَ سَنَةِ ٤هـ/٦٢٦م. وَفِي الْحَالِينَ فَلِحَسَانَ أَخٍ اسْمُهُ «أَبِي» سِوَاءَ أَكَانَتْ كُنْيَتُهُ «أَبَا شَيْخٍ»، أَوْ كَانَتْ كُنْيَةُ ابْنِهِ «أَبَا شَيْخٍ».

(٣) عبدالرحمن بن حسان (٦ - ١٠٤هـ / ٦٢٧ - ٧٢٢م) شاعر وابن شاعر كان مقيماً في المدينة المنورة، وتوفي فيها، وقد اشتهر بالشعر في زمن أبيه، وهو ابن الجارية «سيرين» التي أهداها ملك مصر هي وأختها «مارية» للرسول ﷺ، وقد أهداها الرسول ﷺ لشاعره حسان. وفيه قال أبوه حسان: (ديوانه ص ١٢٣)

فَمَنْ لِّلْقَوَافِي بَعْدَ حَسَانَ وَابْنِهِ؟!

وَمَنْ لِّلْمِثَانِي بَعْدَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ؟!

وقد شَبَّ بِرَمْلَةٍ بِنْتِ مَعَاوِيَةَ، وَهَجَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَكَمِ أَخَا مَرْوَانَ وَهَاجَى «النَّجَاشِي» الشَّاعِرَ الْمَشْهُورَ. وَلَهُ دِيْوَانٌ شَعْرٌ مَطْبُوعٌ. (انظر الأعلام للزركلي ١٧٦/٢)

(٤) سعيد بن عبد الرحمن (..... - نحو ١١٥هـ / - ٧٣٤م) من شعراء الحماسة الشجرية ومن سكان المدينة المنورة وهو آخر من عرف من أبناء حسان بن ثابت. (انظر الأعلام للزركلي: ٩٧/٣).

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٠٤ .

(٦) انظر العمدة لابن رشيق: ٣٠٦/٢ وقد أوردت كتب الأدب أخباراً تتحدث عن تناشد حسان وأبنائه الأشعار.

- يقال إن حسان أنشد يوماً:

وإن امرأً يمسي ويصبح سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيد

فأنشد بعده ابنه عبد الرحمن:

وإن امرأً نال الغنى ثم لن ينل
صديقاً ولا ذا حاجة لزهد

ثم أنشد بعده سعيد بن عبد الرحمن هذا البيت:

وإن امرأً لاحى الرجال على الغنى
ولم يسأل الله الغنى لحسود

(انظر ديوانه ص ٤٠ و ١٩٨).

- ويقال إن حسان أرق ليلة فعنَّ له الشعر فقال:

متاريك أذئاب الأمور إذا اعترت
أخذنا الفروع واجتثنا أصولها

ثم أجبل: أي انقطع، فقالت له ابنته: كأنك أجبلت؟ قال: أجل. قالت: فأجيز عنك؟

قال: وعندك ذلك؟ قالت: نعم. قال: فافعلي. فقالت:

مقاويل بالمعروف خرسٌ عن الخنا
كرامٌ يعاطون العشيرة سؤلها

فحمي الشيخ، فقال:

وقافية مثل السنان رُزئتُها
تناولتُ من جوِّ السماء نزولها

فقلت:

براهما الذي لا ينطق الشعر عنده
ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فقال: لا قلت شعراً، وأنت حية.

قالت: أو أؤمّنك؟ قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، لا قلت شعراً وأنت حيّ.

(انظر الشعر والشعراء ص ١٠٤ وديوانه ص ٤٠ و ٣٩١).

(٧) انظر مثلاً ديوانه ص ٧٠ وص ٧٧ . وشعثاء امرأة من أسلم تزوجها وولدت منه بنتاً يقال لها أم فراس، تزوجها عبدالرحمن بن أم الحكم، وذكر الشيباني أن حسان خطبها، فردّه أهلها فهجّاهم.. وقيل: إنها شعثاء بنت عمرو من بني ماسكة من يهود، وكان أبوها رأس يهود مقدماً فيهم. (الأغاني: ١٦٩/١٧، وديوانه ص ٣٢٣).

(٨) المرجع السابق: ص ٩٢ .

(٩) المرجع السابق: ص ٢٢٤ .

(١٠) المرجع السابق: ص ١٠ .

(١١) المرجع السابق: ص ١٢٣ .

(١٢) المرجع السابق: ص ٣٣٠ . والراجح أن «خَوْد» صفة وليست علماً، والخود هي الفتاة الحسنة الخلق.

(١٣) ديوانه لم يورد أبيات الغزل وإنما أوردها الأغاني: ١٢/٣ (مصورة دار الكتب).

(١٤) أسلم بن أفصى جد جاهلي من بني إلياس بن مضر ومن أبنائه جماعة من الصحابة، وأحدهم كان أول قتيل في الإسلام يوم أحد . (وانظر خبر زواجه وطلاقه وتعلقه بزوجه في الأغاني: ١٤/٣).

(١٥) انظر ديوانه ص ٤٥٥ وفيه يقول:

غلام أتاه اللؤم من شطر خاله
له جانبٌ وافٍ وآخر أكشَمُ
(الأكشم: الناقص في جسمه وحسبه، يقول: أبوه حرٌّ وأمه أمةٌ).

فقالَت تجيبه:

غلام أتاه اللؤم من نحو عمّة
ومن خير أعراق ابن حسان أسلمُ

(١٦) هي أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ.

(١٧) انظر ديوانه ص ٢٥٩ وقصيدته التي مطلعها:

أجمعتُ عمرةً صُرماً فابتكرُ
إنما يدهنُ للقلب الحصرُ

(١٨) أورد صاحب «الشعر والشعراء» ص ١٠٥ الخبر الآتي: «فانقرض عقب حسان، فلم يبقَ منهم أحد».

(١٩) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري من ٤١٦/٤٧٦ والبيتان مطلع قصيدة (نُؤان: ج: نوء).

(٢٠) المرجع السابق ص ٤٨٣/٤٠٧ والبيتان من قصيدة له مطلعها:

لك الخير غَضَي اللوم عني فإنني
أحبُّ من الأخلاق ما كان أجَملاً

(٢١) المرجع السابق ص ٣٢٨/٣٨٤ والبيت مطلع قصيدة.

(٢٢) المرجع السابق ص ٣٧٦/٤٣٣ والأبيات من قصيدة له، مطلعها:

منع النوم بالعشاء الهمومُ
وخيالٌ إذا تغور النجومُ

(٢٣) جابية الجولان: الجابية في الأصل الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل، قال الأعشى:

(كجابية الشيخ العراقي تفهق)، وهي قرية من أعمال دمشق قرب مرج الصفر شمالي حوران، وبالقرب منها تل يسمى «تل الجابية» وفي هذا الموضع خطب عمر بن الخطاب خطبته المشهورة. وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع.

(٢٤) النعمان: أراد بالنعمان هنا «بني جفنة» الغساسنة، فكأن اللقب هنا اكتسب صفة الحاكمية على طريقة تسمية: كسرى، قيصر، امبراطور.. ويحسن أن يلاحظ أن «النعمان» اسم حمله عدة ملوك عرب في الجاهلية من المناذرة والغساسنة تداخلت أخبارهم حتى صعب التمييز بينها، ومنهم:

- النعمان بن الأسود بن المنذر (الأول) اللخمي (ت ١٢٣ ق.هـ / ٥٠٤ م).

- النعمان بن امرئ القيس اللخمي (ت ١٩٨ ق.هـ / ٤٣١ م).

- النعمان بن المنذر آخر ملوك اللخمين (٤٣ - ٢٠ ق.هـ / ٥٨٠ - ٦٠٢ م).

وهو المشهور بأبي قابوس صاحب يومي البؤس والنعيم.

- النعمان بن الحارث بن جبلة الغساني، وكنيته أبو كُرب، كان ملكه في أطراف الشام وللنابغة فيه نصيحة له ورثاء (ت ٤٣ ق.هـ - ٥٨١ م).

(٢٥) سُمَيحة: يوم من أيام الأوس والخزرج في جاهليتهم حُكِّم فيه جدُّ الشاعر «المنذر» أو والده، «ثابت بن المنذر»، فأهدر دماء عشيرته الخزرج، واحتل دماء الأوس(*).

(٢٦) ابن سلمى: هو الملك النعمان بن المنذر اللخمي، وأمه هي: سلمى بنت عطية، وعطية صائغ كان بفدك (الأغاني ١١/١٣).

(٢٧) نعمان: هو أحد الأسرى الذين تشفع فيهم الشاعر لدى الملك فأطلقه له (وهو نعمان بن مالك بن قوقل).

(٢٨) أبي هو: أبي بن كعب من بني النجار، ووافد هو: وافد بن عمرو بن الإطنابة من الخزرج، والمعنى: هذان الرجلان أطلقهما الملك لأجلي، ثم ذهبنا وقد تكسر قفل إيسارهم.

(❖) جاء في طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨٤: «والمنذر كان الحاكم بين الأوس والخزرج في يوم سميحة وهو يوم من أيامهم».

بيئته \$ المدينة

وأما بيئته في المدينة فالأوس والخزرج - كما يحدثنا المؤرخون - من عرب الجنوب كانوا ذوي حياة دينية وثنية يعبدون اللات ومناة، ولعلمهم حملوا - فيما حملوا - معهم شيئاً من حضارة الجنوب وتفكيره، ونزلوا «يثرب»، وكونوا هم ويهود جماعة ثلاثية لها حروب ووقائع وأيام. وكانت المدينة في ذلك الوقت بيئة متحضرة موفورة الثراء، يشتغل كثير من أهلها بالزراعة، وكانت - كما يذكر حسان في شعره - ذات نخل وآطام،^(١) وجداول وحدائق، وربما كان لوجود يهود فيها أثر في انتشار القراءة والكتابة والثقافة الدينية، وليس من شك في أن ذلك كان له أثره في إعداد المدنيين لتلقي رسالة التوحيد، وتهيئة أذهان شعرائهم، وتثقيفهم لقبول دعوة الرسول ﷺ، والمبادرة إلى نصرته وتأييده.

وكانت كثيراً ما تقوم الخلافات بين الأوس والخزرج في المدينة، ويظهر أن يهود أججوا نيران هذه الخصومات بينهما ليشغل الحيان بأنفسهما عن الالتفات إلى العدو المشترك، فكانت تقوم بينهما أحياناً المفاخر والشتائم، وأحياناً تشتد المشاحنات فتتجاوز المفاخر والشتائم إلى رمي الحجارة، والمضاربة بالسعف والخشب^(٢)، وقد يتجاوز الأمر قذف الحجارة إلى المجادلة بالسيوف، فقد استنشد رسول الله ﷺ الخزرج يوماً في مجلس ليس فيه إلا خزرجي قصيدة «قيس بن الخطيم»^(٣) البائية:

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كَأَطْرَادِ الْمَذَاهِبِ

لِعَمْرَةٍ وَحِشاً غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبٍ

فأنشده إياها بعضهم، فلما بلغ إلى قوله:

أَجَالِدُهُمْ يَوْمَ الْحَدِيقَةِ حَاسِراً

كَأَن يَدِي بِالسَّيْفِ مَخْرَاقَ لَاعِبٍ

التفت إليهم رسول الله ﷺ، فقال: هل كان كما ذكر؟ فشهد له «ثابت بن قيس بن شماس»^(٤)، وقال له: «والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة وملحفة موروسة، فجالدنا كما ذكر»^(٥).

ومن أشهر أيامهم «يوم بُعث»^(٦) «فإنه كان عظيماً»^(٧)، و«يوم سُميحة»^(٨)، وفيه حُكِّم جدُّ حسان أو أبوه، و«يوم البقيع»^(٩) و«يوم الربيع»^(١٠) و«يوم الجسر»^(١١) وكان لكل من الفريقين شعراء يذَّبون عنه ويهاجمون عدوه، فكان أشهر شعراء الخزرج «حسان بن ثابت»، وأشهر شعراء الأوس «قيس بن الخطيم»، وقد تهاجيا، ونشرا مثالب العشيرتين، وتعرض كل منهما لعرض الآخر ونسائه، فكان حسان يذكر «ليلى بنت الخطيم»^(١٢) أخت قيس، وكان قيس يذكر «عمرة بنت صامت» زوج حسان التي طلقها فيما بعد^(١٣).

ويظهر أنه كان لكل من الشعاعين من يعطف عليه أو يتعاطف معه، أو يستحسنه، فيأبى إيقاع الأذى به، فقد طلب حسان من «الخنساء»^(١٤) أن تهجو قيس بن الخطيم فتريثت حتى تراه، فلما استعرضته مقبلاً ومدبراً أبّت أن تهجوه^(١٥).

وبلغ بالشاعرين التنافس أن تنازعا الإجابة بين يدي «النابعة الذبياني»^(١٦) حين قدم إلى يثرب، واستتشد شعراءها، فأنشده قيس بن الخطيم بأثيته:

أُعرف رسماً كاطراد المذاهب

لعمرة وحشاً غير موقف راكب

حتى أتى على نهايتها، فقال له: «أنت أشعر الناس». فاستثير حسان، «قال حسان: فدخلني منه، وإني في ذلك لأجد القوة في نفسي عليهما، ثم تقدمت فجلست بين يديه فقال: أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم، قال: وكان يعرفني قبل ذلك، فأنشدته، فقال: أنت أشعر الناس»^(١٧).

وظلت القبيلتان في شقاق وخصام حتى أسلمتا، وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فألف بين قلوبهم، وجمع شتاتهم، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً.

اجتمع إذاً للمدنيين شيء من الخصب، ولون من الحضارة والمعرفة والدين، وكثر بينهم الشعراء نتيجة للخلافات والمشاحنات التي كانت قائمة بينهم^(١٨)، وعرفت القرى العربية الأخرى هذه المكانة للمدينة، وظل ذلك متوارثاً مذكوراً حتى سجله ابن سلام^(١٩)، فقد ذكر أن المدينة كانت أشعر القرى العربية، وكان أشعر شعرائها حسان بن ثابت^(٢٠).

الهوامش

- (١) الأطلام: ج الأطم: القصر والحصن المبني بالحجارة، وكل بيت مربع مسطح وكل بناء مرتفع.
- (٢) الأغاني: ٨/٣ «كانوا يخرجون فيترامون بالحجارة ويتضاربون بالخشب»، و«ما اقتتلوا يوماً إلا بالركائب والسعف».
- (٣) قيس بن الخطيم (..... - نحو ٢ ق.هـ / ٦٢٠ م). قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي: أبوزيد: شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية، أول ما أشتهر به تتبع قاتلي جده وأبيه حتى قتلها، وقال في ذلك شعراً. وله في وقفة «بعث» بين الأوس والخزرج أشعار كثيرة، أدرك الإسلام وتريث في قبوله فقتل قبل أن يدخل فيه. شعره جيد، وله ديوان شعر مطبوع.
- (٤) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري (..... - ١٢ هـ / - ٦٣٣ هـ) كان خطيب رسول الله ﷺ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وفي الحديث: «نعم الرجل ثابت» ودخل عليه النبي ﷺ وهو عليل، فقال: «أذهب الباس رب الناس عن ثابت بن قيس بن شماس». قتل يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.
- (٥) الأغاني: ٧/٣ . مفردات الخبر: أطراد: تتابع. المذاهب: واحدها مذهب وهو جلد تجعل فيه خطوط مذهبة بعضها في أثر بعض. عمرة: هي عمرة بنت رواحة، وقيل: عمرة بنت صامت زوج حسان عرض بها لأن حسان عرض بأخته ليلي. يوم الحديقة: الحديقة قرية من أعراض المدينة في طريق مكة، كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام (معجم البلدان - ياقوت: ٢٣٢/٢). المخراق: خرقة مفتولة يلعب بها الصبيان. الغلالة: تكون تحت الثوب (ما تحت الدثار من اللباس الذي يلي شعر الجسد). مورسة: مصبوغة بالورس وهو نبات أصفر تصبغ به الثياب، ويتخذ منه طلاء للوجه.
- (٦) يوم بُعث: بعث: موضع بالقرب من المدينة المنورة سكنته قبيلة «بني قريظة» اليهودية، اشتهر بالحرب بين الأوس والخزرج بفعل دسائس يهود، وكان ذلك قبل الهجرة النبوية ببضع سنين، ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة أصلح بين الأوس والخزرج وسماهم الأنصار.
- (٧) الأغاني: ٨/٣ .
- (٨) يوم سميحة: سبق الحديث عنه ، ص ٥٨.

(٩) يوم البقيع: البقيع: الموضع فيه أروم الشجر من ضرروب شتّى، وبقيع الغرقد منبته. وهناك مواضع عدة في المدينة: بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة المنورة. وبقيع الزبير بالمدينة أيضاً فيه دور ومنازل، وبقيع الخيل عند دار زيد بن ثابت، وبقيع الخبجبة (وهو شجر) وليس بين أيدينا ما يرجح أحدها، وإن ملنا إلى الأول منها.

(١٠) يوم الربيع: الربيع موضع من نواحي المدينة، قال قيس بن الخطيم:

ونحن الفوارس يوم الربيع

ع قد علموا كيف فرسانها

(١١) يوم الجسر: وهو يوم من أيامهم ويقال له يوم مضرس ومعبس وهما حائطان بنوهما شبه خندقين بين الدخشة وأطم بني عدي وما بين الشرج إلى الجانب الآخر مما يلي الحارث من الخزرج. فالأوس تكون مما يلي الشرج، والخزرج مما يلي الحارث، فالتقوا هناك فمكثوا ثلاثاً يبيتون الليل على الجدارين حتى يصبحوا فيقتتلوا فبلغوا في ذلك مبلغاً عظيماً لم يكن في مواطنهم مثله وظفرت فيه الخزرج على الأوس حتى أدخلوهم بيوتهم منهزمين فذلك حيث يقول حسان قصيدته النونية «ديوانه ص ٤٧٧».

ألا أبلغ أبا قيس رسولاً

إذا ألقى لها سمعاً تبين

(١٢) مما قاله حسان في ليلى بنت الخطيم، في يوم الربيع:

لقد هاج نفسك أشجائها

وعاودها اليوم أديانها

تذكرت ليلي وأتى بها

إذا قطعت منك أقرانها

وحجل في الدار غربانها

وخف من الدار سكانها

(١٣) الخنساء: الشاعرة المشهورة (..... - ٢٤هـ / - ٦٤٥م) تُمَاضِر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من بني سليم من قيس عيلان من مضر، أشهر شواعر العرب من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في الجاهلية، وأدركت الإسلام، فأسلمت، ووفدت على رسول الله ﷺ مع قومها «بني سليم» فكان الرسول ﷺ يستشدها، ويعجبه شعرها، ويقول: هيه يا خنساء. أكثر شعرها وأجوده رثاؤها أخويها صخراً ومعاوية، وكانا قتلا في الجاهلية،

وكان لها أربعة بنين شهدوا القادسية سنة (١٦هـ)، فحُرضتهم على القتال والثبات، واستشهدوا، فقالت كلمتها المشهورة: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته». لها ديوان شعر مطبوع.

(١٥) الأغاني: ١٠/٣ (مصورة).

(١٦) النابغة الذبياني (..... - نحو ١٨ ق.هـ / - نحو ٦٤٠م). زياد بن معاوية الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر في سوق عكاظ، فتقصده الشعراء وتعرض عليه أشعارها فكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة. وهو أحد الأشراف في الجاهلية وكان حظياً عند النعمان بن المنذر حتى شَبَّ يزوجه «المتجرّدة» فغضب عليه النعمان، فقَرَّ منه، ووفد على الفساسنة بالشام، وغاب زمناً، ثم رضي عنه النعمان فعاد إليه وشعره كثير جمع بعضه في ديوان صغير مطبوع.

(١٧) الأغاني: ٩/٣ (مصورة). وقوله: أنت أشعر الناس» حكم كثير التداول على الألسنة وربما أطلق في جلسة واحدة على أكثر من واحد كما حصل هنا إذ أطلق على قيس وعلى حسان. يروى أن العتبي أنشد مروان بن أبي حفصة لزهير فقال: هذا أشعر الناس، ثم أنشده للأعشى فقال: بل هذا أشعر الناس، ثم أنشده لامرئ القيس فقال: امرؤ القيس والله أشعر الناس.. ولذا قيل: أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه. (انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٩، وانظر العمدة لابن رشيق ص ٩٠).

(١٨) وهذا تعليل لابن سلام الجمحي، فقد رأى أن مكة شعراؤها قليلون لقلّة الخلافات بينهم فقال: «والذي قلل شعر قريش أنه لم تكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا» (طبقات الشعراء ص ١٠٢).

(١٩) ابن سلام (١٥٠ - ٢٣٢هـ / ٧٦٧ - ٨٤٦م). محمد بن سلام الجمحي بالولاء، أبو عبد الله: إمام في الأدب من أهل البصرة، مات ببغداد، له كتب منها: «طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين»، و«بيوتات العرب»، و«غريب القرآن».

(٢٠) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨٤: «وأشعرهن قرية المدينة، شعراؤها الفحول خمسة... وأشعرهم حسان بن ثابت».

مع أولاد عمه الملوك والأمراء

اطلعنا على بيئته في المدينة، وسنحاول أن نلم ببعض وفاداته خارجها، وأشهرها ما كان على أولاد عمه ملوك الغساسنة والمناذرة:

١ - مع الغساسنة:

مد حسان عينييه إلى بلاط أقاربه الغسانيين حيث العيش الهنيء الضاحك والبساتين الغناء المثمرة والخمور والألبسة المترفة.. ومن المرجح - كما يقول الأستاذ نولدكه: - «أن حسان اتصل ببلاط بني جفنة حوالي سنة ٦١٠م، ولعله وفد عليهم مرات أخرى، كثيرة وهو يفاخر بالقرابة التي تربطه بهم»^(١)

ونرجح أنه قصد أول ما قصد الأمير الغساني «جيلة بن الأيهم»^(٢)، فأحسن الأمير لقاءه، وأجاد حسان الشكر والثناء، وحظي عند ممدوحه بالتكريم والعطاء الجزيل، حتى صار يغدو عليه سنة، ويقيم في أهله سنة^(٣).

ويبدو أن رونق الحياة لدى الأمير قد بهت قليلاً في عيني حسان، أو أنه قد طمح إلى ما هو أرفع أو لعله أراد محض التجديد، أو التعرف، أو البر بالرحم، فطمع في عشرة الأمير (يسميه الأغاني: الملك) «الحارث بن أبي شمر الغساني»^(٤)، فوفد عليه وقد هياً له مديحاً، فقدم له حاجبه بعض النصائح عن طبع الملك وتصرفه، فأحسن الاستفادة منها، وحضر طعامه وشرابه ولهوه، وأنشده شعراً أعجبه^(٥)، ثم نصحه الحاجب بعد أن أقام عنده أياماً أن يستأذنه بالانصراف لأن النابغة سيفد عليه، فأذن له وأجزل عطاءه^(٦).

والأسباب الموجبة للزيارة لدى حسان أن هذا الأمير له قرابة ورَّحمٌ بصاحبه «جيلة»، وأنه أبذل الناس للمعروف، وأنه قد يئس من أن يفد عليه الشاعر لما يعرف من انقطاعه إلى «جيلة»^(٧). وطبيعي أن قرابة هذا الأمير من جيله تعني أيضاً قرابته من الشاعر. وقد ذهب إليه في السنة التي جعلها للإقامة في المدينة^(٨).

وقد تعرض الديوان^(٩) لوفادة حسان على «الحارث»، وذكر أن الأمير عاتبه عتاباً رقيقاً، واتهمه بأنه يفضل عليه «النعمان بن المنذر اللخمي»^(١٠)، فتبرأ حسان من هذه التهمة قائلاً:

«وكيف أفضله عليك؟! فوالله لقفاك أحسن من وجهه، ولأملك أشرف من أبيه، ولأبوك أشرف من جميع قومه، ولشمالك أجود من يمينه، ولحرمانك أنفع من نداء، ولقليلك أكثر من كثيره، ولشمالك^(١١) أشرع^(١٢) من غديره، ولكرسيك أرفع من سريريه، ولجدولك أغور^(١٣) من بحره، وليومك أطول من شهره، ولشهرك أمد من حوله، ولحولك خير من حقه^(١٤)، ولزندك أوري^(١٥) من زنده، ولجندك أعز من جنده، وإنك من غسان وإنه من لحم، فكيف أفضله عليك وأعدله بك؟»

فقال الأمير: يا ابن الفريعة هذا لا يسمع إلا في شعر، فقال:

نُبِّئْتُ أَنْ أَبَا مَنذَرٍ

يُسَامِيكَ لِلْحَارِثِ الْأَصْفَرِ^(١٦)

قَفَاكَ لِأَحْسَنَ مِنْ وَجْهِهِ

وَأَمَّكَ خَيْرٌ مِنَ الْمَنذَرِ^(١٧)

وَيَسْرِي يَدِيكَ عَلَى عُسْرَهَا

كَيْمَنِي يَدِيهِ عَلَى الْمَعْسَرِ

وَشَتَانِ بَيْنَكُمْ فِي النَّدَى

وَفِي الْبَأْسِ وَالْخَيْرِ وَالْمَنْظَرِ^(١٨)

هذه كانت الوفادة الوحيدة - التي أوردتها المصادر القديمة - على «الحارث»، وإذا سلمنا بما حكم به «نولدكه» أن حسان اتصل ببلاط «بني جفنة» حوالي سنة (٦١٠م)، وإذا صحَّ ترجيحنا أن حسان قصد أولاً الأمير «جبلة»، فإن وفادته هذه على «الحارث» يغلب أن تكون حوالي سنة (٦١٥م).^(١٩)

ومن خلال هذه الوفادة يمكن أن تلاحظ أمورٌ عدة أهمها:

- رغبة حسان في توثيق الصلة بأمراء الغساسنة بوجه عام، وإن فضل بعضهم على بعض.
- ظاهرة انقطاع شاعر ما إلى أمير ما .
- توجه ركاب الشعراء إلى من يبذل المعروف:
- يسقط الطير حيث ينتثر الحب
- بُ وثُغشى منازل الكرماء^(٢٠)
- قيام الحاجب بتعليم الشاعر الزائر شيئاً ممّا نسميه آداب زيارة الملوك بطريقة لبقّة.
- حرص الأمير على اختيار زوّاره، وعلى معرفة رأي الناس في غيره من الأمراء (استطلاع الرأي العام).
- اكتشاف جانب من أخلاق الأمير، فهو يكره أن يقع أحد في «جبلّة»، أو أن يطري محاسنه بإطناب.
- حرص الأمير على معرفة أوضاع أبناء عمّه الأوس والخزرج في الحجاز، وعلاقتهم بيهود.
- ظاهرة الطعام الكثير وألوان الأشربة، والمنازل، واللهو والطرب، وقيام الوصفاء على رأس الأمير والضيوف.
- استئذان الشاعر الأمير بالانصراف قبل أن يعرض عنه إذا جاء سواء من أهل الحظوة.
- الاستماع إلى الشعر في أثناء النشوة من الشراب.
- استشارة الأمير الشاعر لكي يجود ويحسن، وينضمّ إلى جانب «الأمير» ضد عدوه، ثم لكي ينظم ما نثر من ثناء.
- العطاء الجزيل^(٢١).

وانطلاقاً من فكرة توثيق الصلة بأمراء الغساسنة، أو ما سواها طمح «حسان» إلى عشرة الأمير الغساني القوي «عمرو بن الحارث»^(٢٢)، فأحسن استقباله، وأكرم مثواه، وبلغ من شدة عنايته به، وحرصه عليه أنه كان خاف عليه - وهو الشاعر الناشئ - من الشعارين الفحلين النابغة وعلقمة^(٢٣) أن يبرزاه أو يسقطاه، وقد وصف حسان زيارته كما ذكر الأغاني^(٢٤).

«قال حسان: قدمت على عمرو بن الحارث، فاعتاص عليّ الوصول إليه، فقلت للحاجب بعد مدة: إن أذنت لي عليه، وإلا هجوت اليمن كلها ثم انقلبت عنكم، فأذن لي فدخلت عليه، فوجدت عنده النابغة، وهو جالس عن يمينه، وعلقمة بن عبدة وهو جالس عن يساره، فقال لي: يا ابن الفريعة! قد عرفت عيصك^(٢٥) ونسبك في «غسان»، فارجع فأني باعث إليك بصلة سنيّة، ولا أحتاج إلى الشعر، فأني أخاف عليك هذين السبعين: النابغة وعلقمة أن يفضحك، وفضيحتك فضيحتي، وأنت والله لا تحسن أن تقول:

رقائق النعال طيب جزائهم

يُحيّون بالريحان يوم السباسب^(٢٦)

فأبيتُ وقلت: لا بدّ منه. فقال: ذاك إلى عمّيك. فقلت لهما: بحقّ الملك إلا قدّمتماني عليكما. فقالا: قد فعلنا. فقال عمرو بن الحارث: هات يا ابن الفريعة. فانشأت:

أسالت رسم الدار أم لم تسال

بين الحواني فالْبُضَيْع فحومل^(٢٧)

فقال: فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل^(٢٨) عن موضعه سروراً حتى شاطر البيت وهو يقول: هذا وأبيك الشعر لا ما تعللاني به منذ اليوم! هذه والله البتارة التي قد بترت المدائح، أحسنت يا ابن الفريعة، هات له يا غلام ألف دينار مرجوحة، وهي التي في كلّ دينار عشرة دنانير، فأعطيت ذلك ثم قال: لك علي في كل سنة مثلها.

«ثم أقبل على النابغة، فقال: قم يا زياد، فهات الثناء المسجوع، فقام النابغة فقال: ألا أنعم صباحاً أيها الملك المبارك، السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك، ووادي فداؤك،

والعرب وقاؤك، والعجم حماؤك، والحكماء جلساؤك... فرفع عمرو رأسه إلى جارية كانت قائمة على رأسه، وقال: بمثل هذا فليُثَنَّ على الملوك، ومثل ابن الفريعة فليمدحهم، وأطلق له أسرى قومه...»^(٢٩).

وها هنا سؤال يطرح، ومن الضرورة أن يجاب عليه:

ترى متى وفد حسان بن ثابت على الأمير «عمرو بن الحارث»؟

الدلائل تشير إلى أن حسان كان في مطلع حياته الفنية ولم يتمّ نضجه، والواقع يملي أن تلك الزيارة تمّت قبل موت الشاعر «علقمة الفحل» (سنة ٦٠٣م / ٢٠ ق.هـ)، وهو يستطيع أن ينفذ وفاداته في سن الخامسة والعشرين، فإذا سلّمنا أن ولادته كانت سنة ٥٦٤ أو ٥٦٣م (٦٠ أو ٦١ ق.هـ) فالوفادة يمكن حصرها ما بين سنة ٥٩٠ و ٦٠٣م (٣٥ - ٢٠ ق.هـ)، ويرجح أنها حصلت في أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل القرن السابع. ويؤيد هذا التاريخ المبكر أن الأمير عمرأ خاف عليه وهو الشاعر الناشئ أن يفضحه السبعان (الناطقة وعلقمة) ولكن هذا الرأي يعارض ما ذهب إليه «نولدكه» الذي جعل وفاداته على الغساسنة حوالي ٦١٠م، وجعل جبلة أول من قصده^(٣١).

وظل شاعرنا يتذوق أفانيق^(٣١) الهناء والسعادة والترف وبلهنية^(٣٢) العيش حيث فرش تحت الملك أو الأمير «الأس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأُتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة، وأُوقد له العود المندى إن كان شاتيا، وإن كان صائفاً بطن بالثلج، وأُتي هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل بها هو وأصحابه في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفَنَك^(٣٣)، وما أشبهه، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم، وعلى غيري من جلسائه، هذا مع حلم عمّن جهل، وضحك وبذل من غير مسألة، مع حُسْن وجه وحُسْن حديث، ما رأيت منه خنى قط ولا عريضة...»^(٣٤).

ولم يعكّر صفو هذا العيش الرخي إلا انقضااض الفرس على الروم سنة ٦١٣م (٩ ق.هـ) وقضاؤهم على ملك آل جفنة، ففر بعض أمرائهم إلى بلاد الروم، والتجأ بعضهم - ومنهم جبلة بن الأيهم - إلى الصحراء^(٣٥)، فراح حسان يكفكف العبرة، ويكتم

الحسرة، وقد تلقى من الدهر أبلغ عبرة:

من يَغُرُّ الدهرُ أو يَأْمَنُهُ

من قبيل بعد عمرو وخُجْر^(٣٦)

وظل وفيّاً لذكراهم حتى آخر أيامه، فكان يغلب البكاء عليه إذا ذكروا: دُعي مرة هو وابنه عبدالرحمن إلى مأدبة آل نُبَيْط^(*)، وقد ذهب بصره « فلما فرغوا من الطعام أتوا بجاريتين إحداهما رائقة والأخرى عرّة، فجلستا، وأخذتا مزهريهما، وضربتا ضرباً عجيماً، وغنّتا بقول حسان: ^(٣٧)

انظر خليلي بباب جلق هل

تبصر دون البلقاء من أحد

يقول راوي الخبر: فأسمع حسان يقول:

قد أراني بها سميعاً بصيراً

وعيناه تدمعان، فإذا سكتتا سكت عنه البكاء، وإذا غنّتا بكى...»

وقال سعيد بن عبدالرحمن بن حسان في تكملة الخبر: «لما انقلب حسان من مأدبة بني نُبَيْط إلى منزله، استلقى على فراشه، ووضع إحدى رجليه على الأخرى، وقال: لقد أذكرتني رائقة وصاحبتهما أمراً ما سمعته أذنائي بعيد ليالي جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم. فقلت: يا أبا الوليد، أكان القيان. يكنّ عند جبلة؟ فتبسم ثم جلس، فقال: لقد رأيت عشر قيان: خمس روميّات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة... وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها...»^(٣٨).

ودعي مرة إلى وليمة ختان في بيت «زيد بن ثابت الأنصاري»^(٣٩) وقد كُفَّ بصره يومئذ، وثقل سمعه، ووُضع بين يديه خوان^(٤٠) ليس عليه إلا عبدالرحمن ابنه، فكان يسأله: أطلعام يد أم يدين^(٤١)؟ فلم يزل يأكل حتى جاؤوا بالشواء، فقال: طعام يدين، فأمسك يده حتى إذا فرغ

(*) هنالك نُبَيْط بن جابر: أنصاري خزرجي من بني النجّار شهد أحداً، وله عَقَب، ومن أبنائه رجل يدعى عبدالملك. وهنالك نُبَيْط بن شُرَيْط الأشجعي صحابي ممن روى عن النبي ﷺ. وله ولد يدعى سلمة كان يروي عنه. والأول هو المقصود على الأرجح (انظر أسد الغابة / ٣١٢/٥).

من الطعام ثنيت وسادة، وأقبلت الميلاء^(٤٣)، وهي يومئذٍ شابة، فوَضِعَ في حجرها مزهر،
فضربت به، ثم تغنت، فكان أول ما ابتدأت به شعر حسان:

فلا زالَ قَبْرُ بَيْنِ بَصْرَى وَجَلَّقَ
عَلَيْهِ مِنَ الْوَسْمِيِّ جَوْدٌ وَوَابِلٌ^(٤٤)

فطرب حسان، وجعلت عيناه تتضحان، وهو مصغٍ لها...^(٤٥)

ومن الغريب أن تستخدم مزية الوفاء هذه سلاحاً يشهر ضد حسان في بعض المواضع:

فقد روى الأغاني^(٤٦) أن القوم لما فرغوا من الطعام في مأدبة آل نبيط ثقل عليهم
جلوس حسان فأوماً ابنه إلى عزة الميلاء فغنت:

انظر خَلِيلِي بِبَابِ جَلَقِ هَلْ
تَبْصُرُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ

فبكى حسان حتى سَدِرَ^(٤٧)، ثم قال: هذا عمل الفاسق^(٤٨)، أما لقد كرهتم
مجالستي، فقبح الله مجلسكم سائر اليوم، وقام وانصرف...».

وأورد الأغاني خبراً آخر مشابهاً عن شيخ من قريش أنه قال:^(٤٩)

«إني وفتية من قريش عند قينة من قيان المدينة، ومعنا عبدالرحمن بن حسان بن
ثابت إذ استأذن حسان، فكرهنا دخوله، وشق ذلك علينا، فقال لنا عبدالرحمن، أيسرُكم
ألا يجلس؟ قلنا: نعم. قال: فمروها إذا نظرت إليه أن ترفع عقيرتها وتغني:

أولاد جَفْنَةٍ عِنْدَ قَبْرِ أَبِيهِمْ
قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
يُغَشَّوْنَ حَتَّى مَا تَهْرَأَ كَلَابُهُمْ
لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ^(٥٠)

قال: فوالله لقد بكى حتى ظننا أنه سقطت نفسه، ثم قال: أفيكم الفاسق؟ لعمرى
لقد كرهتم مجلسي سائر اليوم، وقام، وانصرف...».

وكذلك الغساسنة لم ينسوا حسان وشعره، وبادلوه وفاء بوفاء، فقد كان أمراؤهم يسألون عنه الغادي والرائح، ويخصّونه بالهدايا السنّية بعد انقطاعه عنهم، وذهاب دولتهم:

فقد أرسل «عمر بن الخطاب»^(٥١) مرة برسالة إلى «قيصر». فسأل قيصر الرسول: هل رأيت ابن عمك هذا الذي رغب في ديننا؟ قال: لا. قال: فالحق. فتوجّه الرجل نحو مقرّه فألقى جبلة بن الأيهم في بهو فخم وأبهة عظيمة. وبعد قليل قال جبلة للجواري: أطربنني! فحققن بعيدانهن يغنين:

لله درُّ عصابة نادمٌهم

يوماً بجلق في الزمان الأول^(٥٢)

فاستهلّ، واستبشر، وطرب، ثم قال: زدني! فاندفعن يغنين:

لمن الدار أقفرت بمعان

بين شاطي اليرموك فالصمّان^(٥٣)

فقال: أتعرف هذه المنازل؟ قال الرجل: لا. قال: هذه منازلنا في ملكنا بأكناف دمشق، وهذا شعر ابن الضريعة حسان بن ثابت. فقال له الرسول: أما إنه ضرور كبير السن. قال: يا جارية! هاتي. فأتته بخمسمئة دينار وخمسة أثواب من الديباج، فقال: ادفع هذا إلى حسان وأقرئه مني السلام...

وعاد الرجل إلى المدينة، فأخبر عمر بن الخطاب، فأرسل عمر إلى حسان، «فأقبل يقوده قائده حتى دنا فسلم، وقال: يا أمير المؤمنين إني لأجد أرواح آل جفنة. فقال عمر رضي الله عنه: قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رغم أنفه، وأتاك بمعونة، فانصرف عنه، وهو يقول:

إن ابن جفنة من بقيّة معشرٍ

لم يغنّهم أبائهم بالأووم

لم ينسنني بالشام إذ هو ربّها

كلا ولا مُتَنَصِّراً بالروم

يعطي الجزيل ولا يراه عنده

إلا كبعض عطية المذموم

وَأَتَيْتُهُ يَوْمًا فَقَرَّبَ مَجْلِسِي

وَسَقَى فَرَوَانِي مِنَ الْخَرْطُومِ^(٥٤)

وقال: ما كان خليلي ليخلَّ بي، فما قال لك؟ قال: قال إن وجدته حيا فادفعها إليه، وإن وجدته ميتاً فاطرح الثياب على قبره. فقال حسان: ليتك وجدتني ميتاً ففعلت ذلك بي...»^(٥٥).

ولم تستطع الأيام والسنون أن تخمد جذوة الوفاء بين الأخلاء، ولا أن تضعفها على بعد الدار وشحط المزار، فقد حدث بعد عشرين سنة تقريبا ما يشبه هذه الحادثة، وما يبرهن على بقاء أواصر المودة والوفاء حتى أيام «معاوية بن أبي سفيان»^(٥٦).

فقد أورد الأغاني عن رجل اسمه عبدالله بن مسعدة الفزاري قوله:^(٥٧)

«وَجَّهَنِي مُعَاوِيَةَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا عِنْدَهُ رَجُلٌ عَلَى سُرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ دُونَ مَجْلِسِهِ، فَكَلَمَنِي بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنَا رَجُلٌ غَلِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ، أَنَا جَبَلَةٌ بَنُ الْأَيْهَمِ، إِذَا صَرْتُ إِلَى مَنْزِلِي فَالْقَنِي.

«فلما انصرف وانصرفتُ أتيتُه في داره، فألقيتُه على شرابه، وعنده قينتان تغنيانه بشعر حسان بن ثابت:

قَدْ عَفَا جَاسِمٌ إِلَى بَيْتِ رَأْسِ

فَالْحَوَانِي فَجَانِبِ الْجَوْلَانِ^(٥٨)

وذكر بقية الأبيات..

«فلما فرغنا من غنائهما أقبل علي، ثم قال: ما فعل حسان بن ثابت؟ قلت: شيخ كبير قد عمي فدعا بألف دينار فدفعها إلي، وأمرني أن أدفعها إليه...».

قال: «وقدمت المدينة فدخلت مسجد رسول الله ﷺ، فلقيت حسان، فقلت: يا أبا الوليد، صديقك جبلة يقرأ عليك السلام. فقال: هات ما معك. قلت: وما علمك أن معي شيئاً؟ قال: ما أرسل إلي بالسّلام قط إلا ومعه شيء. قال: فدفعته إليه المال.»^(٥٩)

٢ - مع المناذرة:

واتصل حسان من المناذرة بالنعمان بن المنذر أبي قابوس^(٦٠) مدة غياب النابغة عن الحيرة، وها هو ذا يقول:

«قدمت على النعمان بن المنذر، وقد امتدحته، فأتيت حاجبه عصام بن شَهْبَر^(٦١)، فجلست إليه فقال: إني لأرى عريباً، أضمن الحجاز أنت؟ قلت: نعم. قال: فكن قحطانياً، فقلت: فأنا قحطاني. قال: فكن يثريباً، قلت: فأنا يثربي. قال: فكن خزرجياً، قلت: فأنا خزرجي. قال: فكن حسان بن ثابت. قلت: فأنا هو. قال: أجئت بمدحة الملك؟ قلت: نعم. قال: فإني أرشدك:

إذا دخلت إليه فإنه يسألك عن جيلة بن الأيهم، ويسبّه، فإياك أن تساعده على ذلك، ولكن أمرّ ذكّره إمراراً لا توافق فيه ولا تخالف، وقل: ما دخول مثلي أيها الملك بينك وبين جيلة، وهو منك وأنت منه؟ وإن دعاك إلى الطعام فلا تؤاكله، فإن أقسم عليك فأصّب منه اليسير إصابة بارٍّ قَسَمَهُ متشرفٌ بمؤاكلته لا أكل جائع سغب، ولا تطل محادثته، ولا تبدأه بإخبار عن شيء حتى يكون هو السائل لك، ولا تطل الإقامة في مجلسه. فقلت: أحسن الله رفدك قد أوصيت واعياً. «دخل ثم خرج إلي فقال لي: ادخل فدخلت فسلمت وحييت تحية الملوك، فجاراني من أمر جيلة ما قاله عصام كأنه كان حاضراً، وأجبت بما أمرني، ثم استأذنته في الإنشاد فأذن لي فأنشدته ثم دعا بالطعام، ففعلت ما أمرني عصام به، وبالشراب ففعلت مثل ذلك. فأمر لي بجائزة سنية، وخرجت، فقال لي عصام: بقيت عليّ واحدة لم أوصك بها: قد بلغني أن النابغة الذبياني قدم عليه، وإذا قدم فليس لأحد منه حظ سواه، فاستأذن حينئذٍ وانصرف مكرماً خيراً من أن تنصرف مجفوّاً، فأقمت ببابه شهراً...».

ولقي حسان عند الملك حظوة حتى إذا أدنى النعمان النابغة - بوساطة بعضهم - بعد جفوة وغضب، شعر حسان أنه لا نصيب له في ذاك البلاط بعد الآن - كما نصحه عصام - فانصرف، وفي ذلك يقول حسان واصفاً موقفه من النابغة:

«فحسدته على ثلاث (أي النابغة) لا أدري على أيّتهنّ كنت له أشدّ حسداً، على

إدناء النعمان له بعد المباحدة، ومسامرته له وإصفائه إليه، أم على جودة شعره، أم على
مئة بغير من عصافيره أمر له بها»^(٦٢).

وفي ديوانه^(٦٣) إشارات إلى أنه وفد على «ابن سلمى»^(٦٤)، وشفع لديه في بعض
قومه، فأطلقهم^(٦٥).

وقد رأى شارح الديوان أن «ابن سلمى» المشار إليه هو النعمان بن المنذر^(٦٦)،
ووافقه في ذلك البستاني صاحب الروائع^(٦٧)، بينما ذهب نولدكه إلى أنه من
الغساسنة^(٦٨) وهذا غلط. والحق أن «ابن سلمى» هو النعمان بن المنذر وسلمى هي أمه،
وهي: سلمى بنت عطية، وعطية هذا كان صائغاً بفدك^(٦٩).

هذا ولم نقع على «مدحة الملك» التي ذكرها عصام، وسأل حسان عنها، كما أننا
لم نجد في ديوانه أية قصيدة في مدح النعمان.

الهوامش

- (١) كتابه: أمراء غسان ص ٤٥ .
- (٢) جبلة بن الأيهم بن جبلة الغساني (..... - ٢٠هـ / - ٦٤١م). من آل جفنة آخر ملوك الغساسنة في بلاد الشام، عاش زمنًا في الجاهلية، وقاتل جيوش المسلمين مع الروم في دومة الجندل واليرموك، ثم أسلم وهاجر إلى المدينة المنورة، ثم ارتدَّ وهرب إلى بلاد الروم، فأقام في القسطنطينية حتى مات.
- (٣) الأغاني: ١٧٠/١٥ (مصورة دار الكتب)، ويظهر ذلك في قوله: «كان حسان يفد على جبلة سنة، وقيم سنة في أهله، فقال: لو وفدت على الحارث بن أبي شمر الغساني، فإن له قرابة ورحماً بصاحبي، وهو أبذل الناس للمعروف، وقد يئس مني أن أفد عليه لما يعرف من انقطاعي إلى جبلة، فخرجت...».
- (٤) الحارث بن أبي شمر الغساني (..... - ٨هـ / - ٦٣٠م). من أمراء غسان في أطراف الشام، كانت إقامته بغوطة دمشق، وأدرك الإسلام، فأرسل إليه النبي ﷺ كتاباً مع شجاع بن وهب، ومات في عام الفتح (فتح مكة). وهو - بلا شك - غير الحارث الأصغر والد النعمان وعمرو اللذين ورد ذكرهما في المقدمة (*).
- (٥) لم يورد الأغاني شيئاً من مديحه، ولكن الديوان أورد (ص ٣٢٨) مقطوعة تتألف من أربعة أبيات مطلعها:
- (و) نُبِّئْتُ أَنْ أَبَا مَنْذَرٍ
يُسَامِيكَ لِحَارِثِ الْأَصْغَرِ
- (٦) الأغاني: ١٧٠/١٥ وقد ذكر الأغاني: ١٦١/١٥ ما يشبه هذه الزيارة قام بها النابغة لعمرو بن الحارث.
- (٧) المرجع السابق.
- (٨) لأنه كان يغدو على جبلة سنة، وقيم في أهله في المدينة سنة.
- (٩) ديوانه ص ٢٣٧ .
- (❖) انظر ص ٢٨ من هذا المؤلف وما بعدها.

(١٠) سبقت الإشارة إليه ص ٦١ من هذا المؤلف.

(١١) الثماد: الماء القليل يتجمع شتاء وينضب صيفاً.

(١٢) أشرعُ هنا: أفضل وروداً وورداً.

(١٣) أغور: أعمق.

(١٤) الحَقَب: ج الحَقَبَة: المدة من الزمن، السنة.

(١٥) أورى: أشد اشتعلاً.

(١٦) كذا ورد البيت في الديوان ص ٢٣٨، وقد ورد في موطن آخر في الأغاني ١٦١/١٥ على

الشكل الآتي:

وئُبِّئْتُ أَنْ أَبَا مَنْذَرٍ
يُسَامِيكَ لِاحْدَثِ الْأَكْبَرِ

وهذه الرواية أفضل للوزن وللمعنى.

(١٧) كذا ورد البيت في الديوان ص ٢٣٨، وفي الأغاني ١٦١/١٥:

قَدْ ذَلَّكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ

وهذا أفضل وزناً ومعنى.

(١٨) الخير: بكسر الخاء الكرم، وقيل الشرف.

(١٩) تحديد «نولده» حوالي سنة ٦١٠ م غير دقيق كما سيرد بعد قليل، إذ إن حسان وفد على

عمرو بن الحارث وعنده النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة، ومعروف أن علقمة مات سنة

٦٠٣ م، ولذا يفضل أن يصحَّح الرقم فيصبح: حوالي سنة ٦٠٠ كان اتصاله ببلاط بني

جفنة وقصده جبلة. ويكون وفوده على الحارث بعدها بسنتين أو ثلاث، ويرجح أن وفوده

على عمرو ابن الحارث كان قبل اتصاله بجبلة، كما يرجح أن هذا الوفود كان ما قبل سنة

٦٠٠ م بدلالة شبابه وخوف الأمير عمرو عليه.

(٢٠) البيت للشاعر بشار بن برد من قصيدة يمدح فيها عُقبة بن سَلَم، مطلعها:

حَيِّيا صاحبِي أُم العلاءِ

واحذرا طَرَفَ عَيْنِها الحوراءِ

(ديوانه: ١٠٧/١ - تحقيق محمد الطاهر بن عاشور - القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م).

(٢١) انظر الخبر في كل من المرجعين: الأغاني: ١٧٠/١٢، وديوان حسان ص ٢٣٧ .

(٢٢) سبقت ترجمته والإشارة إليه ص ٢٨ من هذا المؤلف وهو: عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شَمِر. وأم الحارث الأعرج هي: مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مُرْتَع الكندية وهي «ذات القرطين» اللذين يضرب بهما المثل فيقال لما يُغْلَى به الثمن: «خذه ولو بقرطي مارية»، وأختها: هند الهنود امرأة حجر آكل المرار وإياها عنى حسان بقوله في مديح جبلة:

أولادُ جفنةٍ حول قبر أبيهم

قبر ابن مارية الكريم المفضل

(٢٣) علقمة الفحل (..... - نحو ٢٠ ق.هـ/..... - نحو ٦٠٣م). هو علقمة بن عبدة (يفتح العين والباء) بن ناشرة بن قيس من بني تميم: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصراً لامرئ القيس، وله معه مساجلات، وقد أسر الأمير «الحارث الأصغر» والد عمرو هذا «شأساً» أخوا علقمة، فتشفع به علقمة، ومدح الحارث بأبيات فأطلقه.

(٢٤) الأغاني: ١٥٨/١٥ .

(٢٥) العيص: (بكسر العين): الأصل.

(٢٦) البيت للناطقة الذبياني من قصيدة في مدح الأمير الغساني «عمرو بن الحارث الأصغر» مطلعها:

كليني لهم يا أميمة ناصبٍ

وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ

ومنها:

عليَّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمةٍ

لوالده ليست بذات عقاربِ

رقاق النُّعال: أراد أنهم ملوك لا يخصصون نعالهم وإنما يخصص نعله من يمشي.. طيّب حجازتهم: أي: هم أعفّة مُحصّنون وأصل الحجة الوسط، أي: يشدون أزرهم على عفة. يوم السباسب: يوم الشعانين هو عيد من أعياد النصارى، وكان عمرو نصرانياً.

(٢٧) وردت القصيدة في ديوانه ص ٣٦٣. وردت في الديوان «الجوابي» بدلاً من «الحواني» وفي الشرح ذكر أنه أراد جابية الجولان. والجولان ما بين دمشق والأردن. البضيع بالتصغير جبل بالشام أسود. وحومل: موضع وهو فوعل لكثرة التحميل كقولك نوفل من النفل.

(٢٨) يزحل: ينتحي أو يتباعد.

(٢٩) يلاحظ أن الأغاني لم يذكر شيئاً يتعلق بعلقمة بن عبدة. (انظر الأغاني: ١٥٨/١٥ وديوانه ص ٣٦١). وتتممة الخبر في الأغاني أن النابغة تعرّض في كلمته للمفاضلة بين عمرو بن الحارث، والمنذر اللخمي (لعله النعمان بن المنذر) وأن الأمير عمراً طلب منه أن يصوغ هذه المفاضلة شعراً، ففعل، وقال:

وَنَبَّئْتُ أَنْ أَبَا مَنَـنْـذَرٍ

يَسَامِيكَ لِاحْدَثِ الْأَكْبَرِ

وهنا يختلط هذا الخبر مع ما أورده ديوانه ص ٢٣٧ وذكرناه فيما سبق؛ إذ يرد هنا شيء من السجع الذي ذكره لحسان في مديح الحارث وبعض الأبيات التي نظمها وقد رجح الأغاني أن تكون للنابغة (١٦١/١٥) بعد أن ذكر أن هناك من جعلها لحسان.

(٣٠) ويضعف رأي «نولدكه» كذلك أن الغساسنة نكبوا - كما سيرد بعد قليل - سنة ٦١٣م (٩ قه) وشردوا، ولجأ جيلة إلى الصحراء.. وبذا يغدو ما ذهبنا إليه أقرب إلى الصواب حتى يأتي ما يعارضه، وهذا يجعلنا نحدد بشيء من الطمأنينة ما يأتي على وجه التقريب:

- حوالي سنة ٦٠٠م كان اتصال حسان ببلاط بني جفنة وقصده جيلة.

- كان وفوده على الحارث بن أبي شمر الغساني بعد هذا التاريخ بسنتين أو ثلاث.

- كان وفوده على «عمرو بن الحارث» قبل اتصاله بجيلة كما يرجح، وقُبيل سنة ٦٠٠م أو ما بعدها بقليل.

(٣١) أفاويق الليل: أكثره.

(٣٢) بلهنية العيش: رخاؤه.

(٣٣) المختار: «يفرأء الفنك» والفنك: جنس من الثعالب أصغر من الثعلب المعروف، وفروته من أحسن الفراء.

(٣٤) الأغاني: ١٧/١٦٦، والكلام لحسان في وصف مجلس جبلة بن الأيهم.

(٣٥) أمراء غسان ص ٤٥ .

(٣٦) البيت لحسان من قصيدة وردت في ديوانه ص ٢٥٩ مطلعها:

أَجْمَعَتْ عَمْرُؤُ صُرْمًا فَا بْتَكِرُ
إِنَّمَا يُدْهِنُ لِّلْقَلْبِ الْحَصِرُ

وعمرو وحجر من ملوك غسان:

الأول عمرو بن الحارث بن عمرو بن عدي بن حجر بن الحارث الغساني.

الثاني: حجر بن النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني.

(٣٧) ديوانه - دار الأندلس ص ١٦٦ والبيت مطلع القصيدة وفيه «تؤنس» بدلاً من تبصر. جلق: مرَّ شرحها. البلقاء: كورة من أعمال دمشق. المزهر: ج مزاهر: العود آلة الطرب المعهودة ومثله البربط.

(٣٨) الأغاني: ١٧/١٦٥ وقد روى الخبر بأوجه متعددة كلها بهذا التوجه مع خلاف في التفصيل.

(٣٩) زيد بن ثابت بن الضحّاك الأنصاري الخزرجي، أبو خارجة (١١١ق هـ - ٤٥هـ / ٦١١ - ٦٦٥م) من أكابر الصحابة كان كاتب الوحي، ولد في المدينة ونشأ بمكة، وقتل أبوه وهو ابن ست سنين، وهاجر مع النبي ﷺ وهو ابن ١١ سنة، وتعلم وتفقه في الدين، فكان رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض. وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ من الأنصار، وعرضه عليه، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار، ولما توفي رثاه حسان بن ثابت.

(٤٠) الخوان: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل.

(٤١) أهو ممّا يؤكل بيد واحدة كالثرید؟ أم مما يحتاج إلى يدين كالشواء؟

(٤٢) قال له ابنه: هذا طعام يدين (شواء) لأنه كان من قبل قد سأله.

(٤٣) عَزَّةُ المِيلَاءِ (..... - نحو ١١٥هـ / - نحو ٧٣٣م). مولاة للأنصار إقامتها بالمدينة المنورة، كانت وافرة السمن، جميلة الوجه، لُقِّبَت بالمِيلَاءِ لتماميلها في مشيها، كانت أقدم مَنْ غنَّى غناءً موقعاً في الحجاز، وكانت تضرب بالعيدان والمعازف، وقد سمعها معبد المغنِّي وحسان الشاعر، وزارها في بيتها النعمان بن بشير الأنصاري، وسمع غناءها، وكذلك كان عبدالله بن جعفر وعمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق يزورونها في منزلها فتغنيهم. كانت على خلقٍ كريم وإسلام لا يشوبه دنس تأمر بالخير وهي من أهله وتنتهى عن السوء وهي مجانية له..

(٤٤) انظر الأغاني: ١٦٥/١٧ ولم يرد في ديوانه... وفي الأغاني: ١٦١/١٧:

فلا زال قَبْرُ بَيْنِ تَبْنَى وَجاسمٍ
عليه من الوسمي جَوْدٌ ووابلُ
فِيُنْبِت حَوذَانًا وَعَوْفًا مَنْوَرًا
سَأَتْبَعُهُ مِنْ خَيْرِ مَا قَالَ قائلُ

تبني: بلدة بحوران من أعمال دمشق، الوسمي: أول المطر. الجود: الغزير، الحوذان والعوف: نبتان طيبا الرائحة، والقبر فيما يقال: قبر الأيهم بن جبلة بن الأيهم الغساني، وقيل إنه قبر الحارث بن مارية الجفني.

(٤٥) انظر الخبر بتمامه في الأغاني ١٦٤/١٧ .

(٤٦) الأغاني: ١٦٧/١٧ .

(٤٧) سدر: أصابه شبه دوار وتحير.

(٤٨) يقصد ابنه لأنه أعرف بنقطة الضعف هذه لديه من غيره.

(٤٩) الأغاني: ١٧٢/١٧ .

(٥٠) البيتان من قصيدة له في ديوانه ص ٣٦٣ في مديح عمرو بن الحارث سبق ذكرها، ومطلعها:

أَسَأَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ
بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبُضْئِيعِ فَحَوْمِلِ

جفنة: أبوملوك آل غسان وهو: جفنة بن عمرو مزيقياء الذي تقدم نسبه، ومارية هي بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة وابنها: الحارث الأعرج.

(٥١) عمر بن الخطاب بن نُفَيْل القرشي العدوي، أبوحفص (٤٠ ق.هـ - ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م) ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمر المؤمنين، الصحابي الجليل، الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرفهم، وله السفارة فيهم، وهو أحد العمرين اللذين كان النبي ﷺ يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحدهما. أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع، ويبيع له بالخلافة يوم وفاة أبي بكر سنة ١٣هـ / ٦٣٥م بعهد منه، وهو أول من وضع للمسلمين التاريخ الهجري، واتخذ بيت مال للمسلمين، وكان يطوف في الأسواق منفرداً. لقبه النبي ﷺ بالفاروق، قتله اللعين أبولؤلؤة الفارسي غيلة، وهو في صلاة الصبح.

(٥٢) البيت من قصيدة لحسان وردت في ديوانه ص ٣٦٣ في مدح عمرو بن الحارث ومطلعها:

أَسْأَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ

بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبَضِيعِ فَحَوْمَلِ

(٥٣) البيت مطلع قصيدة لحسان في ديوانه ص ٤٧٤ في مدح جبلة بن الأيهم، ويليهِ:

فَالْقُرَيَّاتِ مِنْ بِلَاسِ فِدَارِي

يَا، فَسَكَّاءَ فَالْقُصُورِ الدَّوَانِي

فَقَفَا جَاسِمٌ فَأَوْدِيَةَ الصَّفِّ

فَرَمَعْنِي قِبَائِلُ وَهْجَانِ

وهي مواضع بأكناف دمشق كانت مقرّ ملك آل جفنة.

(٥٤) الأبيات وردت في ديوانه ص ٤٤٧ دون خلاف.

(٥٥) انظر الأغاني: ١٥/١٦٤ وديوانه ص ٤٤٧.

(٥٦) معاوية بن أبي سفيان القرشي الأموي (٢٠ ق.هـ - ٦٠هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠م). مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب الكبار، كان فصيحاً حليماً وقوراً، ولد بمكة المكرمة، وأسلم يوم فتحها (سنة ٨هـ)، وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله ﷺ في كتابه، ولما ولي أبوبكر ولأه قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد فأسهم في فتح عدد من المدن، وولاه عمر الأردن ثم دمشق، وجمع له عثمان الديار الشامية كلها. وعندما قتل عثمان نادى بثأره

وَأَتَّهَمَ عَلِيًّا بِدَمِهِ، فَتَنَشَبَتْ بَيْنَهُمَا حُرُوبٌ طَاحِنَةٌ، وَبَعْدَ مَقْتَلِ عَلِيٍّ سَلَّمَ ابْنُهُ الْحَسَنُ الْخُلَافَةَ لِمَعَاوِيَةَ سَنَةَ ٤١ هـ. وَهُوَ أَحَدُ عِظَمَاءِ الْفَاتِحِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَمِنْ رِجَالِ الدُّوَلِ النَّاجِحِينَ.

(٥٧) عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودَ بْنِ مَسْعُودِ الْفَزَارِيِّ (..... - نَحْوَ ٦٥ هـ / - نَحْوَ ٦٨٥ م). مِنْ كِبَارِ الْقَوَادِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ يُلقَبُهُ الْمُؤَرِّخُونَ بِصَاحِبِ الْجِيُوشِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُؤَمِّرُ عَلَى الْجِيُوشِ فِي غَزَا الرُّومِ أَيَّامَ مَعَاوِيَةَ، تَرَبَّى فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ كَانَ عِنْدَ عَلِيٍّ، وَاسْتَمَالَهُ مَعَاوِيَةُ فَصَارَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى عَلِيٍّ، وَغَزَا الرُّومَ سَنَةَ ٤٩ هـ، ثُمَّ كَانَ عَلَى جَنْدِ دِمَشْقَ بَعْدَ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ (سَنَةَ ٦٣ هـ) وَعَاشَ إِلَى خُلَافَةِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ.

(٥٨) لَمْ يَرِدِ الْبَيْتُ فِي الدِّيَوَانِ وَإِنْ وَرَدَتْ قَصِيدَةٌ مِنْ بَحْرِهِ وَيُظَنُّ أَنَّهُ مَعَ بَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ أَوْرَدَهُمَا. الْأَغَانِي مِمَّا صُنِّعَ وَانْتَحَلَ وَأُضِيفَ إِلَى الْقَصِيدَةِ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

لَمَنِ الدَّارُ أَوْحَشَتْ بِمَعَانٍ
بَيْنَ أَعْلَى الْيَرْمُوكِ فَالْخُمَانِ

أو: فَالْصَّمَانِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي الرِّوَايَةِ (انْظُرْ دِيَوَانَهُ ص ٤٧٤).

(٥٩) انْظُرِ الْأَغَانِي: ١٦٨/١٥ .

(٦٠) سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ص ٥٨ مِنْ هَذَا الْمُؤَلَّفِ.

(٦١) عَصَامُ بْنُ شَهْبَرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ ذُبْيَانَ بْنِ عَذْرَةَ (مَجْهُولُ الْوِلَادَةِ وَالْوَفَاةِ). فَارَسَ فَصِيحٌ جَاهِلِيٌّ يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فَيَمُنُّ شَرَفًا بِالْاِكْتِسَابِ لَا بِالْاِنْتِسَابِ. كَانَ حَاجِبًا لِلنَّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ، وَبَلَغَتْ بِهِ هِمَّتُهُ أَنْ قَالَ فِيهِ النَّابِغَةُ:

نَفْسُ عَصَامٍ سَوَدَتْ عَصَامَا
وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامَا

وَفِي الْأَمْثَالِ: «كَنْ عَصَامِيًّا وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا».

(٦٢) الْأَغَانِي: ٢٦/١١ .

(٦٣) انْظُرِ دِيَوَانَهُ ص ٤٣٢: الْقَصِيدَةُ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

منع النوم بالعشاء الهموم
وخيال إذا تغور النجوم

(٦٤) ابن سلمى: هو النعمان بن المنذر اللخمي. وسلمى هي أمه، وهي: سلمى بنت عطية، وعطية هذا صائغ كان بفدك (انظر الأغاني: ١٣/١١)، وانظر ص ٥٨ من هذا المؤلف.

(٦٥) أوردنا الأبيات فيما سبق من هذا المؤلف، ص ٥٣.

(٦٦) انظر ديوانه ص ٤٣٣ .

(٦٧) عدد الروائع ٣٣ لفؤاد أفرام البستاني ط ٢ ص ١٢٧ .

(٦٨) كتابه: أمراء غسان ص ٤٧ .

(٦٩) انظر الأغاني: ١٣/١١ (مصورة).

شخصية حسان

ملامحه الجسدية والنفسية:

أما كيف كان حسان في هيئته العامة؟ وما ملامحه الجسدية؟ وما مكوناته النفسية؟ وما تصرفاته اليومية مع أهل بيته وجيرانه وأبناء عشيرته؟ فتلك مسائل حظها من الوضوح قليل، وشأن حسان في هذا المجال شأن جل شعرائنا الفحول إن لم نقل كلهم، وما وصلنا من الأوصاف نزرٌ لا يمكننا معه أن نقيم كياناً تاماً لشخصه، على أية حال - ومن خلال ما بلغنا عنه - علينا أن نتصور رجلاً له ناصية قد سد لها بين عينيه^(١)، وعنفة وشارب مخضبان بالحناء من دون سائر لحيته^(٢)، فإذا ما سأله ابنه عبدالرحمن: يا أبتِ لم تفعل هذا؟ قال: لأكون كأني أسدٌ والغ في دم، ونضع - إكمالاً للصورة - في فيه مقولاً يفري مالا تفريه الحربة أو يبلغه السيف، طويلاً طويلاً يستطيع أن يضرب به أرنبة أنفه، ويضرب به ذقنه، وبطرفه شامة سوداء كأنه لسان شجاع^(٣) هذا فقط ما نستطيع أن نعرفه من ملامحه الجسدية من خلال ما أوردته المصادر القديمة، ولعلها وقفت عند الجانب الأهم في حسان فأبرزته، عند لسانه الذي أذل به الكثير من رؤس الكبر والبطر، وجعل بعض الناس يستجير برسول الله ﷺ منه. أما تقاطيع وجهه ومعالمه: جبهته، عيناه، أنفه.. وأما هيكل جسمه: طوله، عرضه، منكبه... وأما لون بشرته.. فتلك أشياء يمكننا أن نتخيلها بعد أن نتم الاطلاع على شخصيته الشعرية، وإذا سيكون نصيب التخيل في تصور شخصيته ورسم صورته أكثر من نصيب الرواية والنقل.

لعلنا نستطيع لبلوغ عوامل فنه ومكونات نجاحه في أدائه أن نستشف من تلك الأوصاف شيئاً ينبئ عن طبع الرجل ونفسيته، فنكوّن صورة ما عن عالمه الداخلي تضيء لنا جوانب من سلوكه وتصرفاته إن صحت العلاقة بين داخل المرء وخارجيه.

سنتساءل: لم كان حسان يخضب شاربيه وعنفقته من دون سائر لحيته؟ وهل لهذا صلة بنفسيته؟ هل يريد أن يعوض بمظهره الخارجي - مظهر الأسد الوالغ في الدم - عن حقيقته الداخلية؟ بل لماذا اختار هذا التشبيه من دون سواه؟ وماذا يفيد مظهر الأسد هذا مادام أهل المدينة - على الأقل كما ذكروا - يعرفون جنبه؟ هل فعل ذلك ليخيف أعداءه؟ وكيف يخيف أعداءه وهو لا يخرج للقتال كما زعموا؟ ثم علام تدل تلك الناصية المسدولة بين عينيه؟ وهل كان اجتماعُ المقول الطويل والناصية المسدولة مع الشاربين والعنفقة المخضبة بالحمرة يعطي حسان صورة خاصة...؟

هذه طائفة من التساؤلات لا بد أن تثيرها في الذهن قراءة مثل هذا الخبر، فإلى أي مدى نستطيع أن نصل في بحث نفسية هذا الرجل؟

هذا ما سنحاول تعرّفه من خلال ما ينقل، وما يستنتج في الصفحات الآتية:

١ - لقد رأى فيه بعض القدماء طبيعةً لا تليق بأمثاله، هي «الجبن»، ورووا من مواقف جنبه قصصاً متعددة:

أ - منها أنه كان يوماً في حصنه «فارغ» مع النساء خلال غزوة الخندق، وقد خرج الرسول ﷺ والمسلمون لمواجهة أعدائهم، وكان عليه الصلاة والسلام يضع نساءه في «فارغ» حصن حسان لثقت به، فتقدم يهودي من الحصن يحاول تبيّنه، فقالت «صفيّه بنت عبدالمطلب»^(٤) لحسان: أخرج إليه فاقتله. فقال: يرحمك الله يا ابنة عبدالمطلب لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فأخذت عموداً، ثم نزلت إليه من الحصن فضربت به بالعمود حتى قتلت، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، ثم طلبت من حسان أن يسلبه، فقال: يرحمك الله يا ابنة عبدالمطلب مالي بسلبه من حاجة^(٥).

وقد تبين أن هذه القصة منقطعة وغير صحيحة بعد أن قام الأستاذ «ناصر الدين الألباني» بتحقيقها^(٦)، فنستطيع أن نرفضها مطمئنين.

ب - ويروون قصة أخرى يزعمون أنها حدثت يوم الخندق أيضاً، ملخصها أنه كان مع النساء ينظر إلى المحاربين من أعلى أطمه، فإذا حملوا «حمل هو بسيفه على وتدٍ

يضره، وإذا تراجعوا رجع»،^(٧) ويروي ابن عساكر أن الرسول ﷺ لما ذكروا له هذا ضحك حتى بدت نواجذه «ولم يُرَ ضَحْكٌ من شيء قط ضحكه منه»^(٨).

وقد تبين كذلك بعد تحقيق الأستاذ ناصر الدين الألباني لها أنها ضعيفة السند، فلا يؤخذ بها.

ج - ويروون كذلك قصة الثالثة موجزها أن حسان أنشد يوماً بين يدي رسول الله ﷺ:

لقد غدوتُ أمام القوم منتظماً
بصارمٍ مثل لون الملح قطّاع
تَحَفَّرُ عني نجاد السيف سابغة
فضفاضة مثل لون النّهي بالقاع^(٩)

وأن رسول الله ﷺ ضحك.. ويعلق صاحب الأغاني تعليقاً له قيمته فيقول: «فظن حسان أنه ضحك من صفته نفسه مع جنبه»^(١٠).

وما أحسب نصيب هذه الأقصوصة من الصدق أوفر من نصيب ما سبقها. وأمثال هذه الأقصوصة وما سبقها راجت قديماً للتفكّه، أو التندر، أو الإساءة، أو الانتقام ممن أخرس ألسنة الضلال والكفر وأفحمها، علماً أن صاحب الأغاني أموي وقد وُتِرَ يوم بدر وغير بدر وعُيِّرَ ذوائب قومه بالجن والفرار، وترك أحبّتهم بين براثن المرففات والسهمريات، كما سيرد معنا.

على أن هذه الأخبار لم تعد من تصدى لها:

- فقد قيظ الله سبحانه وتعالى في الحديث الأستاذ ناصر الدين الألباني لها فبهرجها وزيفها^(١١).

- ولم يخل ما مضى من الأيام من وجود بعض القدماء الذين اعترضوا على مثل هذه الأخبار:

- فابن عبد البرّ القرطبيّ صاحب الاستيعاب ساءه إيراد مثل هذه الأخبار فقال:

«إن أهل الأخبار والسير ذكروا عن جبنه أشياء مستشنة.. كرهت ذكرها لنكارتها.. وأنكر بعض أهل العلم بالخبر ذلك، وقالوا: لو كان حقاً لهُجِيَ به...» وهو لا يعدم تعليلاً إن صح ما يُروى فيقول: «وقيل إنما أصابه ذلك الجبن منذ ضربه صفوان بن المعطل^(١٣) بالسيف^(١٤)».

ووقف ابن الكلبي الذي روى عنه ابن عساكر موقفاً وسطاً: فهو يرى أن الجبن لم يكن من عادته «بل كان لسناً شجاعاً، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر إلى قتال ولا شهده»^(١٥).

أما الواقدي فقد قال: «كان أكحل^(١٦) حسان قد قطع، فلم يكن يضرب بيده»^(١٧).

وذكر الزركلي حديثاً في ترجمته له أنه «لم يشهد مع النبي ﷺ مشهداً لعلّة أصابته» من دون أن يحدد تلك العلة^(١٨).

وهكذا نلاحظ أن معظم من تعرضوا لبحث هذه الصفة في حسان أجمعوا على أنها لم تكن طبعاً فيه، ولا خليفة من خلأته، وإنما وجدت فيه في ظرف من حياته، وعلّلها بعضهم بضربة سيف ابن المعطل، أو بعلّة أصابته، أو بالعطل الجسدي الذي حل به بسبب أن أكحله كان قد قطع، فلم يكن يضرب بيده كما ذهب إليه الواقدي.

ومن الحق أن أقول: إنني أوافق ابن الكلبي فيما رأى، فلو كانت صفة الجبن فيه حقاً أو طبعاً، لكانت أولى المثالب التي تلحق بشاعر يتغنّى ببلاء المجاهدين المسلمين في ساحات القتال، ويشيد بنضالهم في مثار النقع، ويعير خصمه من المشركين بأنه:

تَرَكَ الْأَحْبَبَةَ أَنْ يَقَاتِلَ دُونَهُمْ

وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ^(١٩)

ولا يفوتني هنا أن أذكر أنه في حقبة التنازع بين الأوس والخزرج أيام الجاهلية كان حسان لا يفخر بلسانه فحسب، وإنما بلسانه وسيفه وها هو ذا يقول:

لساني وسيفي صارمان كلاهما
ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي^(٢٠)

ويقول «بوجه عام» مشيراً إلى بطولته:
لقد علمت بنو النجار أنني
أنود عن العشيرة بالحسام^(٢١)

ويقول متحدثاً عن فروسيته وخلوه من المغامر والمطاعن:
ويعلم أكفائي من الناس أنني
أنا الفارس الحامي الذمار المناجد
وما وجد الأعداء في غميمة
ولا طاف لي منهم بوحشي صائد^(٢٢)

وفخره في جاهليته وإسلامه كثير: فخر بسيفه، ولسانه، وكرمه، وإزجائه المطي
على الوجي^(٢٣) وقد أوردنا شيئاً مما يؤيد صحة ما ذكرنا، ولاداعي للإكثار فمن يلحق
من العسل لعقة واحدة يدرك طعمه.

وأمام هذا الفخر العريض بالسيف واللسان وحماية الذمار والنقاء من كل غميمة،
أفلا يبادر أحد من خصومه وهم كثر عدداً، وقد تسربلوا اللدد في الخصومة، وشدة
الجدل والعناد، وذراية القول، وذلاقة اللسان فيكذبه؟ إن شيئاً من هذا لم يحدث.

ولعل ابن الكلبي في رواية ابن عساكر السابقة أراد أن يوفق في كلامه بين ما
يروى عن جنبه وأمثال هذه الأبيات الحافلة بالفخر بالشجاعة والبطولة.

وأما تزكية ابن عباس^(٢٤) فخير شاهد وأبلغ دليل وإليها:

عن سعيد بن جبير^(٢٥) قال: «كنا عند ابن عباس فجاء حسان، فقالوا: قد جاء
اللعين. فقال ابن عباس: ما هو بلعين، لقد نصر رسول الله ﷺ بسيفه ولسانه»^(٢٦).

وأما ما ورد من أخبار حول نبو سيفه وتخلفه عن لسانه فقد تبين أنها غير صحيحة
بعد تحقيق الأستاذ ناصرالدين لها، بالإضافة إلى أن العقل والمنطق لا يستسيغانها.

إنني - والحق يقال - أميل إلى نفي صفة الجبن هذه التي ألصقها به بعضهم نفيًا باتًا، وأحيل القارئ إلى ديوانه ليطلع بنفسه^(٢٧)، وإلى عقله ومنطقه وثقافته وتتبعه ليحكم بنفسه، وأعزو رواج أمثال تلك الروايات إلى أمور عديدة، لعل أهمها:

١ - بيته:

لساني وسيوفي صارمان كلاهما

ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي

فتناقل الناس أن لسان حسان أشد من سيفه وأمضى وأنكى.. والأخبار بطبيعتها قابلة للزيادة، إذا لم تدوّن، والناس بطبيعتهم يحبون التزديد والمبالغة، ويجعلون من الحبة قبة، فصار اللسان صمصاماً وغدا السيف خشبة أو مادونها.

ب - لم يكن حسان بطلاً في طبقة حمزة وعلي رضي الله عنهما مثلاً، فيشيع ذكر بلائه على الألسن وإنما كان فرداً في الجيش الإسلامي، وبما أنه لم تسمع له فتكات كبرى - وشأنه في هذا شأن معظم الأفراد وشهرته في الشعر طبقت الآفاق - كان الناس يريدون منه في النزال ما رأوا منه في الشعر، فلما لم يجدوا مثل هذا رموه بهذه الصفة، ولفقوا لها ما يشيعها.

وحسان كان في العقد السابع من عمره عند وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، فعلياً أن نترث قليلاً قبل الحكم عليه بالجبن، فسنة هذه لا تساعد على الفتكات الكبرى، ومن هم في مثل سنه يميلون إلى الراحة في بيوتهم غالباً، هذا بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من إصابته بقطع أكحله مما أفقده قدرة الضرب بيده، وكيف يكون جباناً من كان يصاحب رسول الله ﷺ في غزواته؟^(٢٨).

وأخيراً نقول: لقد تبين كذب هذه الأخبار والروايات ونحلها بعد تحقيق الأستاذ ناصر الدين لها، فكان أن محا بذلك الجهد القيم عن الرجل تهمةً لازمت صيته طويلاً، وروجها أناس مغرضون، أو حاسدون، أو متشققون، أو موتورون، فجزى الله سبحانه وتعالى من أحسن التحقيق عن الحق وأهله خير الجزاء.

٢ - يحدثنا الرواة أنه كان سريع الغضب حاد المزاج مستوفر الإحساس، ويروون لنا حادثتين تؤيدان ما ذهبوا إليه:

أولاهما: وقعت في جاهليته، والثانية كانت في إسلامه:

وتتلخص الحادثة الأولى بأن حسان جاء إلى النابغة الذبياني - وكانت تضرب له قبة حمراء من آدم في سوق عكاظ ليحكم بين الشعراء - فأنشده شيئاً من شعره، وكان قد سبقه الأعشى^(٢٩)، فقال النابغة: لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت: إنك أشعر الإنس والجن، فغضب حسان لهذا الخطأ من قيمة شعره وقال: والله لأننا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك...^(٣٠).

لقد سَعَّرَ نيران غيظه أن يتحفظ النابغة مثل هذا التحفظ إذ إنه لا يرى لنفسه نداءً، فصب جاحم بركانه على سيد التحكيم نفسه ذاك الذي ارتضاه الشعراء حكماً يثمن إنتاجهم، وطعن في بصيرته وتبصره، وأعلن أنه أشعر منه ومن أبيه وجده. وأما الحادثة الثانية فقد جرت أيام الخليفة الثاني «عمر بن الخطاب»^(٣١)، وموجزها:

قدم «ابن الزُبَيْرِ»^(٣٢) و«ضرار بن الخطاب»^(٣٣) - وهما اللذان كانا يهاجيان حسان قبل إسلامهما - إلى المدينة المنورة، وأرسلا في طلبه، فلما جاء قالا له: إن شعرك قد حُمِلَ وسار، أما شعرنا فليس له من يحمل، فعمال نتذاكر! أتتشد أم ننشد؟ فقال: بل أنشدا. فأنشدها بعض ما قالاه «حتى فارَ فصار كالمرجل غضباً» ثم تركاه، ولم يستمعا إليه، وسارا، فشكاهما إلى عمر، فأرسل من يأتي بهما، وأمر حسان أن ينشدهما، فأنشدهما حتى اشتفى^(٣٤).

ويهمنا نحن من هاتين الحادثتين أن نتبين تلك الخليقة النارية المتأججة التي اتسم بها حسان: فقد غضب من النابغة تلك الغضبة الشديدة لكلمة بسيطة جرت على لسانه، وهو المتخذ حكماً، وصاحب رأيٍ أُريد له أن يكون فيصلاً فلم يجده شروى نقيراً.. وصار كالمرجل يغلي غضباً حين أنشده ابن الزبير وضرار بن الخطاب ولم يسمعا منه، ولم يسكت ما به من اضطرام حتى صب عليهما ما في نفسه.

٣ - وهم يحدثونا أنه لا يخلو من عناد وإصرار مع ثقة كبيرة بنفسه:

فهو حين وفد على الأمير الغساني «عمرو بن الحارث»، وطال انتظاره، واعتاص عليه الوصول إليه، قال للحاجب: «إن أذنت لي، وإلا هجوت اليمن كلها...» وهذا قول يحمل في ثناياه - بلا ريب - عنف قائله وشدة اعتداده بنفسه وإصراره على بلوغ هدفه، فلم يجد الحاجب بداً من أن يأذن له.

ولما دخل على الأمير نصحه أن يرجع لأنه يخاف عليه السبعين «الناغبة» و«علقمة»، وتعهد له بمنحه صلته، وطمأنه أن يرعى نسبه وعيصره، ويحترم قربته ورَحِمه، ولا حاجة له بشعره لكيلا يُفضح أمام هذين العملاقين، وهما كبيران في عيني الأمير، وحسان لا يزال ناشئاً.. ولكن حسان أصر أصراً شديداً قوامه ثقة كبيرة بالنفس يمازجها لون من العناد، ولو كان غيره في موقفه لكان من المحتمل كثيراً أن يقنع بوصول الصلة التي تجشّم لأجلها مشقة الأسفار، ولتهبّ وجود السبعين بعد أن حذره الأمير من خطرهما وخوفه من الفضيحة بحضورهما، ولكن أبا الحسام لم يتراجع، ولم ينكص على عقبه، بل طلب من الشاعرين أن يسمحا له بدوريهما، ففعلاً، فانطلق ينشد:

أسألت رَسَمَ الدار أم لم تَسأل

بين الحواني فالْبُضَيْعِ فحومل^(٣٥)

وحظي - كما توقع - بإعجاب الأمير وتكريمه، بل وباكتفائه بشعره عما سواه، وبوصف قصيدته بأنها البتارة التي بترت ما سواها من المدائح، ولذا طلب من الناغبة أن يمدحه نثراً، بعد أن فاز ابن الفريعة بنصيب الشعر من الثناء.

٤ - وهم يحدثوننا عن حبه شعره حياً لا يرى معه بأساً أن يزعج الناس ولو في جوف الليل - كما لو أن غارة استباححت المدينة - ليسمعهم إياه، فقد صاح في إحدى الليالي بأعلى أطمه «فارغ»: يا للخزرج! فجأؤوه، وقد فزعوا، فقالوا: مالك يا ابن الفريعة؟ فقال: بيت قلته، فخشيت أن أموت قبل أن أصبح، فيذهب ضيعةً. قالوا: وما قلت؟ قال:

ربّ حلم أضاعه عدم الما

ل، وجهل غطى عليه النعيم

ويقال: إنه أنشدهم القصيدة بكاملها، وفيها هذا البيت، ومطلعها:

مَنَعَ النوم بالعشاء الهمومُ
وخيالٌ إذا تغور النجوم^(٣٦)

٥ - وهم يحدثونا كذلك أنه شديد عند المراغمة، تهيجه المنافسة، وتسعّر المباراة أو التحدي وتؤجج طبعه، فما أن رأى «قيس بن الخطيم» ينشد بين يدي النابغة بائيته:
أتعرف رسماً كاطراد المذاهب...

وسمع النابغة يقول له: أنت أشعر الناس يا ابن أخي... حتى أغاظه ذلك واستثاره، يقول حسان: «فدخلني منه، وإنني في ذلك لأجد القوة في نفسي عليهما...» ولم تهدأ ثورته حتى أنشد النابغة شيئاً من شعره، وسمع ثناء عليه، يقول: «ثم تقدمت، فجلست بين يديه (النابغة) فقال: أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم، قال: وكان يعرفني قبل ذلك، فأنشدته، فقال: أنت أشعر الناس...»^(٣٧).

بل إن المباراة لتثيره ولو كانت مع أعز الناس لديه، مع فلذة كبده، فقد كان له «بنت شاعرة»، وأرق ليلة، فعن له الشعر، فقال:

متاريك أذناب الأمور إذا اعترت
أخذنا الفروع واجتثثنا أصولها

ثم أجبل^(٣٨) فقالت له ابنته: كأنك أجبلت؟ قال: أجل. قالت: فأجيز عنك؟ قال: وعندك ذلك؟ قالت: نعم. قال: فافعلي، فقالت:

مقاويل بالمعروف خرسٌ عن الخنا
كرامٌ يعاطون العشيرة سؤلها

فحمي الشيخ، فقال:

وقافية مثل السنان رزئتُها
تناولتُ من جو السماء نزولها

فقلت:

براهما الذي لا ينطق الشعر عنده

ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فقال: (والغضب هو الذي يحركه بلا ريب): لا قلت شعراً، وأنت حية! قالت: أوؤؤؤمك؟ قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، لا قلت شعراً، وأنت حي^(٣٩).

وفي هذا الخبر ما يدل على تهيجه عند المنافسة، وكأنه في ضرام الوغى، وكأن خصماً عنيداً يهتف (نَزَال) بألف لسان، وإن بعض الكلمات لتحمل بين ثناياها عنفاً وتوقُداً «فحمي الشيخ، أو تدل على حالته و كأنه أصيب بطعنة سنان» وقافية مثل السنان رزئتُها»، ثم تتبدى تلك الثورة العنيفة اللاظية يكبتها حسان بصرامة وقسوة: «لا قلت شعراً وأنت حية» ولم يطفئ جذوة تلك اللهب العارمة أو يهدئ منها على الأقل إلا تطمين ابنته له: «لا قلت شعراً وأنت حي».

إنها مباراة حامية الوطيس، ويؤسف لها أن تكون قصيرة الأمد سريعة الحسم، فالشيخ الشاعر المفلق يداخله الاستغراب أن تستطيع مجاراته ابنته الناشئة، وهي ما زالت غضة الإهاب نضرة العود، وكأنه نسي كيف وقف وهو الشاب الناشئ ينشد الأمير «عمرو ابن الحارث» قصيدته الشهيرة بحضرة السبعين النابغة وعلقمة؟ إن الحوادث قد تتشابه بعض التشابه وإن اختلفت الشخوص وتنوعت الأحداث وتباينت المستويات، وإن انسحبت الفتاة في نهاية المناشدة إرضاء لأبيها، وكأنها تعيد إلى الذهن قصة السباق بين صخر بن عمرو^(٤٠) أخي الخنساء الشاعرة المشهورة وأبيه عمرو بن الشريد السلمي^(٤١).

٦ - وحسان الذي يحمل بين جنبيه نفساً رهيقة الإحساس يظلّ أبداً دائم التأثر بالكلمة سريع الانفعال باللفظة شديد التوهج عند سماعها:

فقد بلغ من شدة تأثره يوماً - حين دخل هو والأعشى حانة أيام الجاهلية فسكرا، فنام حسان، فسمع الأعشى يقول لصاحب الحانة: كره الشيخ الغُرم - أن اشترى كلّ مافي الحانة من خمر بعد أن نام الأعشى، ثم سكب في البيت، فسال الخمر تحت الأعشى، فانتبه، فعلم أن حسان قد سمع كلامه، فاعتذر إليه^(٤٢).

٧ - وتحدث كتب الأدب والسير أن حسان قد يُستشهد به أحياناً، ويوضع في موضع الحكم ليبيدي رأيه في قول ما ثقة بما لديه من ذوق وخبرة، وربما أدلى برأيه أحياناً مع لون من التهكم أو السخرية المرة حسبما يقتضيه الموقف:

فقد أورد صاحب العمدة أن «بني العجلان»^(٤٣) كانوا يفخرون بهذا الاسم لتعجيل صاحبه في قرى الأضياف إلى أن هجاهم به «النجاشي»^(٤٤)، فضجروا منه، وسُبُّوا به، فاستعدوا عليه «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

إِذَا اللَّهُ عَادَى أَهْلَ لَوْمٍ وَرُقَّةٍ
فَعَادَى بَنِي عَجْلَانَ رَهْطَ ابْنِ مُقْبِلٍ

فقال عمر بن الخطاب: إنما دعا عليكم ولعلَّه لا يجاب، فقالوا: إنه قال:

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ
وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

فقال عمر رضي الله عنه: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك، أو كلاماً ما يشبه هذا، قالوا: فإنه قال:

وَلَا يَرْدُونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً
إِذَا صَدَرَ الْوَرَادُ عَنْ كُلِّ مَنْهَلٍ

فقال عمر: ذلك أقلُّ للسَّكَاك، يعني الزحام، قالوا: فإنه قال:

وَمَا سَمَّى الْعَجْلَانَ إِلَّا لِقَوْلِهِمْ
خُذِ الْقَعْبَ وَاحْلِبْ أَيُّهَا الْعَبْدُ وَاعْجَلْ

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم خادمهم. فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل «حسان بن ثابت»، فسأله، فقال: ما هجاهم، ولكن سَلَحَ عليهم.

وكان عمر رضي الله عنه أبصر الناس بما قال النجاشي، ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات، فلما قال حسان ما قال سَجَنَ النجاشي، وقيل: إنه حدَّه^(٤٥).

وحسان حين رأى أن عمر أراد أن يدفع فكرة الهجاء لم يرد - لعله - أن يعاكسه
ويضادده، ولكنه آثر أن يأتي بحكمٍ يجمع بين الحسم في الأمور والطرفة فكان ما كان.

٩ - وربما تفاعل حسان بما ينقع الغلّة ويبلّ الصدى ويملأ النفس حبوراً، فقد
تفاعل - على حدّ قول صاحب العمدة - للنبي ﷺ بفتح مكة، فقال في كلمته المشهورة
يخاطب بذلك مشركي أهل مكة ويتوعددهم:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرْوَهَا
تَثِيرُ النِّقْعَ مَوْعِدَهَا كَدَاءُ
يَبَارِينِ الْأَعْنَّةِ مُصْغِيَاتٍ
عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الظِّمَاءِ
تَظِلُّ جِيَادَنَا مَتَمَطَّرَاتٍ
يَلْطَمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النِّسَاءُ^(٤٦)

فلما كان يوم الفتح أقبل النساء يمسحن وجوه الخيل، وينفضن الغبار عنها
بخمرهن، فقال قائل: لله درُّ حسان إذ يقول (وأنشد الأبيات)..^(٤٧)

هذا التفاؤل الرائع مبعثه - بلا ريب - الثقة الراسخة بصدق رسول الله ﷺ،
وصدق وعد الله وتحقيق النصر لمن نصرُوا الله ورسوله ودافعوا عن دينه بكل ما يملكون
من أرواح وأموال.

والآن وبعد استعراضنا هذه الحوادث بمجملها نستطيع أن نفهم بدقة وعمق لماذا
أسدل حسان ناصيته بين عينيهِ؟ ولماذا كان يخضب من سائر لحيته عنفوقته وشاربيه
فحسب؟ إن ذلك يدلّ على نفسيته العنيفة الغضوب وروحه المتعالية، إنه يأبى أن يفضله
شاعر في شعره، أو أن تفضل عشيرةٌ عشيرته، وإنه ليرى في نفسه بطلاً شجاعاً لا ندّ
له، ويرى في لسانه مِذوداً ماضياً يبلغ ما لا يبلغه الصارم الصمصام، وهو مستوفز
الإحساس دائماً، سريع الغضب، شديد التأثر شدة تسوقنا إلى أن نؤمن إيماناً لا يتفرع
الشك أفقانه بأن أعصابه تنتشر بظاهر جلده، فتتأثر بأدقّ النّامات. وهو بعد هذا وذاك

عزیز النفس، أشم العرنین، لا یسکت علی الضیم، ولا یذل عند الجد، بل تغریه المنافسة
وتستثیره المراغمة، فتضرم فی أعماقه نار ناجر حتی لیکاد قلبه أن یبلغ حنجرته.. علی
أنه وهو فی أحلك أوقات الضیق لا ینسى أن یتفاعل بالفرج والنصر ولعله کان آخذاً
بقوله ﷺ: «تفألوا بالخیر تجدوه».

لعلی أفلحت إلى حد ما فی إعطاء صورةٍ ما لهذا الکیان الذی تجسّد فی خیالی
علی الأقلّ لحسان بن ثابت أشعر أهل المدر.

الهوامش

(١) و(٢) الأغاني: ١٣٦/٤، وسيمّر معنا ص ١٤٤ و ١٤٥ كيف وصف نفسه بالأسد وكيف أثنى على لسانه.

(٣) تاريخ ابن عساكر: ١٢٧/٤ (التهذيب). والشجاع: الأفعوان (ذكر الأفاعي).

(٤) صفية بنت عبدالمطلب بن هاشم (..... - ٢٠هـ / - ٦٤١م): سيدة قرشية، شاعرة بأسلة، وهي عمة النبي ﷺ، أسلمت قبل الهجرة، وهاجرت إلى المدينة، وكان رسول الله ﷺ إذا خرج لقتال عدوه يرفع أزواجه ونساءه ومعهنّ صفية في حصن حسان.. حتّت المسلمين المتراجعين يوم أحد على العودة إلى القتال.. توفيت في المدينة المنورة رحمها الله وهي أم الصحابي المشهور الزبير بن العوام.

(٥) الأغاني: ١٦٥/٤: وفي رواية أخرى للأغاني (١٦٦/٤) أنه: «جاء يهودي يرتقي الحصن فقالت صفية له (لحسان) أعطني السيف فأعطاه، فلما ارتقى اليهودي ضربته حتى قتلتها، ثم احتزّت رأسه فأعطته حسان: وقالت: طوّح به فإن الرجل أقوى وأشدّ رمية من المرأة، تريد أن ترعب به أصحابه..».

(٦) كنا نتمنى أن يكثر الأستاذ الألباني من إخراج كتب أو تحرير مقالات في تحقيق مثل هذه الآثار، وكان قميناً بذلك.

(٧) الأغاني: ١٦٥/٤، وكنز العمال: ٢٨٥/٥، وتاريخ ابن عساكر: ١٢٦/٤ .

(٨) تاريخ ابن عساكر المشار إليه.

(٩) ديوانه ص ٣١٣ والبيتان من قصيدة مطلعها:

بانت لميسٌ بحبلٍ منك أقطاع

واحتلت الغمّر نزعاً ذات أشراع

لميس: امرأة، أقطاع: منقطع. الغمر: الماء الكثير أي: أصبحت في خصب من العيش. منتطق بصارم: شادّ وسطي بسيف قاطع. قطّاع: صيغة مبالغة من القطع. تحفز: تدفع. نجاد السيف: حمائله، سابغة: درع سابغة. فضفاضة: واسعة. النهي: الغدير. ومعنى البيتين: أنه خرج في طليعة القوم وقد شدّ وسطه بسيف قاطع مثل لون الملح في بياضه. وتدفع عنه حمائل السيف درع طويلة واسعة مثل لون الغدير بالقاع في صفائه وأطراده.

(١٠) الأغاني: ١٦٦/٤ و ١٦٧ .

(١١) قام بتحقيقاته هذه بتكليف شخصي مني أيام كان يعمل في الظاهرية، وكنا نتردد عليها للاستفادة من مراجعها الكثيرة، وقد تمنيت أن تكتب هذه التحقيقات وتُنشر، لتكتسب صفة الوثائق، ولئلا تضعفها شفهيته، ولكن ذلك لم يتم.

(١٢) صفوان بن المعطل السلمي (..... - ١٩هـ / - ٦٧٠م). أبوعمر: صحابي شهد الخندق والمشاهد كلها، وحضر فتح دمشق، واستشهد بأرمينية، وقيل في سميساط، وهو الذي قال أهل الإفك فيه وفي السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ما قالوا وكان حصوراً (لا يأتي النساء).

(١٣) ضربه بالسيف بعد قوله بعض الأبيات إثر تنازع فتية من المهاجرين والأنصار على الماء بعد غزوة بني المصطلق.. واسترضى حسان رسول الله أكثر من مرة حتى رضي عنه بعد أن أنشده شيئاً من الشعر الذي قاله في الدفاع عن رسول الله ﷺ والدعوة الإسلامية، ووهب له «سيرين» أخت مارية أم ولد رسول الله ﷺ «إبراهيم» وقيل إن رسول الله ﷺ أعطاه عوضاً من ضربته «بيرحاء»، وهي اسم مال وموضع بالمدينة وكانت أيام حياة صاحب الأغاني قصر بني جديلة، وقد كانت مالاً لأبي طلحة بن سهل تصدق بها إلى رسول الله ﷺ فأعطاه حسان في ضربته وأعطاه «سيرين» «أمة قبطية» فولدت له عبدالرحمن بن حسان.

(١٤) الاستيعاب لابن عبدالبر القرطبي: ١٣٠/١ .

(١٥) تاريخ ابن عساكر: ١٤٠/٤ وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٢٨/٣ .

(١٦) الأكل: عرق في وسط الذراع: قال ابن سيده: يقال له عرق النسا في الفخذ، وفي الظهر: الأبهـر. ويسمى: عرق الحياة ونهر البدن.

(١٧) انظر الأغاني: ١٦٦/٤، و ١٦٤/١٧ لتجده يؤكد أنه قد قُطع عرق أكحله، فهو لا يستطيع أن يستخدم إلا يداً واحدة، والدليل أنه حين يدعى إلى وليمة يسأل: أ طعام يد أم يدين؟ فإن قيل له طعام يد (ثريد) أكل وإن قيل له: طعام يدين (أي شواء) أمسك؛ لأنه لا يستطيع استخدام اليد الثانية.

(١٨) معجم الأعلام لخير الدين الزركلي: ١٧٥/٢ .

(١٩) ديوانه ص ٤١٩، والبيت من قصيدة مطلعها:

تَبَلَّتْ فَوَادِكُ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةً
تَسْقِي الضَّجِيعَ بِبَارِدٍ بِسَامِ

وفي هذه القصيدة يعيب الشاعر على «الحارث بن هشام» أنه هرب يوم بدر وترك الأحبة ومنهم أخوه أبوجهل صرعى في ميدان المعركة. وقد أسلم الحارث يوم فتح مكة، ونفر للجهاد، وظل مجاهداً بالشام حتى مات سنة ١٨هـ / ٦٣٩م. الطمرة: الفرس الكثير الجري.

(٢٠) ديوانه ص ١٨٣، والبيت من قصيدة:

لَعَمْرُ أُبَيْكَ الْخَيْرُ يَا شَعَثَ مَا نَبَا
عَلِيَّ لِسَانِي فِي الْخَطُوبِ وَلَا يَدِي

المذود: اللسان، لأنه يذاد به عن العرض.

(٢١) ديوانه ص ٤٥٩، وهو مطلع قصيدة قالها في هجاء ابن الزُّبَيْرِ.

(٢٢) ديوانه ص ١٦٩ والبيت من قصيدة مطلعها:

أَلَا أَبْلَغُ الْمُسْتَسْمَعِينَ بَوَاقِعَ
تَخَفُ لَهَا شَمَطُ النِّسَاءِ الْقَوَاعِدُ

الأَكْفَاء: النظراء، الذمار: ما يلزمك حفظه والذود عنه. المناجد: المقاتل السريع الإجابة إلى ما دعي إليه خيراً كان أمّ شراً. الغميرة: هنا الضعف أو موطن العيب. ولا طاف بوحشي صائد: أنا من يحمي صيده.

(٢٣) وَجِيَّ الْمَاشِي: حَفِيَّ وَرَقَّتْ قدمه، والمقصود هنا إتعاب المطيِّ بالسير حتى ترق أخفافها.

(٢٤) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي (٣ق هـ - ٦٨هـ / ٦١٩ - ٦٨٧م).

أبوالعباس: حَبَرُ الأُمة الصحابي الجليل، ولد بمكة، ونشأ في بدء عصر النبوة. فلازم رسول الله ﷺ، وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي موقعة الجمل، وصفين، وكف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي فيها. وكان عالماً بالحلال والحرام والعربية والشعر والأنساب وأيام العرب.

(٢٥) سعيد بن جبير الأسدي بالولاء (٤٥ - ٩٥هـ / ٦٦٥ - ٧١٤م): الكوفي، أبو عبدالله: تابعي وكان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة من بني أسد، وأخذ العلم عن عبدالله بن عباس وابن عمر، وكان ابن عباس يقول إذا جاءه أهل الكوفة

يستفتونه: أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء؟ (يقصد سعيداً) شايع عبدالرحمن بن محمد
الأسعث في خروجه على عبدالملك ولما قتل هذا ذهب سعيد إلى مكة المكرمة، فقبض عليه
واليها، وأرسله إلى الحجاج، فقتله بواسط.

(٢٦) تهذيب ابن حجر: ٢/٢٤٨، والأغاني: ٤/١٤٦ وفي رواية: بلسانه ويده، أو بلسانه ونفسه:
أو (جاهد) أو: لقد جاهد مع رسول الله ﷺ بلسانه ونفسه.

(٢٧) لا تكاد تخلو قصيدة في ديوانه من الفخر بنجدته وشهامته ومروءته.. وأشهر القصائد
ما كان في الصفحات: ١٦١، ١٦٩، ١٩٥، ٢٥٢، ٢٥٦، ٣٢١، ٣٧٢، ٣٧٦، ٤٠٥، ٤٢٦، ٤٢٨،
٤٣١، ٤٤٥، ٤٥٩ .

(٢٨) انظر الأغاني: ٤/١٤٣ وسيرد ذكر هذا فيما يأتي.

(٢٩) الأعشى (..... - ٧هـ / - ٦٢٩م). ميمون بن قيس بن جندل الوائلي أبوبصير،
المعروف بأعشى قيس، ويقال له، أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة
الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، كان كثير الوفود على الملوك من العرب
والفرس. غزير الشعر يسلك فيه كل مسلك، وكان يُغنى بشعره فسمي «صنّاجة العرب»
أدرك الإسلام ولم يسلم، وقد عمي في أواخر عمره. مولده ووفاته في قرية «منفوحة»
باليمامة قرب (الرياض) في نجد، وفيها داره وقبره، وله ديوان شعر مطبوع.

(٣٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢٣ .

(٣١) سبق التعريف به ص ٨١ من هذا المؤلف.

(٣٢) عبدالله بن الزبير بن قيس السهمي القرشي: أبوسعد (..... - نحو ١٥هـ / - نحو
٦٣٦م): شاعر قريش في الجاهلية كان شديداً على المسلمين وكان يهاجي حسان، وظل
معانداً حتى فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال فيه حسان أبياتاً أثارت، فلما بلغته عاد
إلى مكة، فأسلم واعتذر ومدح النبي ﷺ، فأمر له بحلة.

(٣٣) ضرار بن الخطّاب بن مرداس القرشي الفهري: (..... - ١٣هـ / - ٦٣٤م). فارس
شاعر صحابي من القادة، من سكان الشراة فوق الطائف، قاتل المسلمين في أحد والخندق
أشدّ قتال، وأسلم يوم فتح مكة، ولم يكن في قريش أشعر منه، له أخبار في فتح الشام،
واستشهد في وقعة «أجنادين».

(٣٤) الأغاني: ١٤٠/٤ .

(٣٥) سبقت الإشارة إلى مصدر هذه القصة ص ٦٧ من هذا المؤلف.. ارجع إلى ديوانه ص ٣٦١، وإلى الأغاني: ١٥٨/١٥ .

(٣٦) تاريخ ابن عساكر: ١٣٢/٤ و ١٣٣، والقصيدة في ديوانه ص ٤٣٢، وفيها يذكر عدة أصحاب اللواء «لواء المشركين» يوم أحد، ولكن البيت الذي أشير إليه قيل في زمن الجاهلية غالباً وقد علق شارح الديوان - على البيت قائلاً: ويحكى أن حسان صاح قبل النبوة فقال: يا بني قيلة! فجاءه الأنصار يهرعون إليه وقالوا: ما دهالك؟ قال: قلت الساعة بيتاً خشيت أن أموت فيدعيه غيري. قالوا: هاته فأنشدهم هذا البيت.

(٣٧) الأغاني: ١١/٣، وقد سبقت الإشارة إلى الحادثة ص ٦٠ من هذا المؤلف.

(٣٨) أجبل: انقطع.

(٣٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ص ١٠٤، وقد وردت الأبيات (في ديوانه ص ٣٩١ وأندلس) على الترتيب الآتي: وقافية..... براها..... متاريك..... مقاويل..... وأوردت القصة في الهامش ص ٥٥ من هذا المؤلف.

(٤٠) صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحي السُّلَمي: (..... - نحو ١٠٠ق.هـ/..... - نحو ٦١٣م). من بني سليم بن منصور، من قيس عيلان، أخو الخنساء الشاعرة المشهورة. كان من فرسان بني سليم وغزاتهم. جرح في غزوة له على بني أسد بن خزيمة وممرض حوالى حول فمَلَّته زوجته سليمة، وفي هذا يقول أبياتاً، أولها:

أرى أمَّ صخرٍ لا تملَّ عيادتي

وملَّتْ سليمةً مضجعي ومكاني

وقد نتأت قطعة في جنبه ومات بعد أن أزيلت، ولأخته الخنساء شعر كثير في رثائه ورثاء أخيه معاوية المقتول قبله.

(٤١) هو والد صخر ومعاوية والخنساء، وقد قام سباق في الخيل بينه وبين ابنه صخر فتساويا بادئ ذي بدء، ولكن الأب سبق ابنه فيما بعد، والخنساء ذهبت إلى أنه حريٌّ بالولد أن يسبق أباه لولا جلال السن والكبر، وقد وصفت الخنساء هذا السباق وصفاً جميلاً: تقول: (ديوان الخنساء ص ٧١).

جارى أباه فأقبلا وهما
يتعاوران ملاءة الفخر
حتى إذا بدت القلوب وقد
ساوى هناك القدر بالقدّر
وعلا هتاف الناس أيُّهما
قال المجيب هناك لا أدري
برقت صحيفة وجه والده
ومضى على غلوائه يجري
أولى فأولى أن يساويه
لولا جلال السن والكبر
وهما وقد برزا كأنهما
صقران قد حطّا على وكر

(٤٢) الأغاني: ١٦٧/٤ .

(٤٣) العجلان بن عبدالله بن كعب من بني عامر بن صعصعة: (مجهول الولادة والوفاة) جدّ جاهلي، بنوه قبيلة ضخمة، منها الشاعر تميم بن أبي بن مقبل، قال النجاشي يهجو:
إذا الله عاды أهل لؤم وذلةٍ
فعاды بني العجلان رهط ابن مقبل

وتميم بن أبي بن مقبل من بني العجلان: أبوكعب (.... - بعد ٢٧هـ / - بعد ٦٥٧م).
شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، فكان يبكي أهل الجاهلية، عاش نيّفًا ومئة سنة، وعدّ في المخضرمين، وكان يهاجي النجاشي الشاعر. له ديوان شعر مطبوع ورد فيه ذكر وقعة صفين سنة ٣٧هـ.

(٤٤) النجاشي: قيس بن عمرو بن مالك من بني الحارث بن كعب من كهلان (..... - نحو ٤٠هـ / - نحو ٦٦٠م). شاعر هجاء مخضرم، اشتهر في الجاهلية والإسلام، أصله من نجران (باليمن)، انتقل إلى الحجاز، واستقر في الكوفة وهجا أهلها. وهدده عمر بقطع لسانه، وضربه عليّ على السكر في رمضان، ومن شعره في مدح معاوية:

إني امرؤ قلميما أثني على أحد
حتى أرى بعض ما يأتي وما يذر

وقد قيل إنه كان من أشرف العرب، ولكنه كان فاسقاً، وكانت أمه من الحبشة فنسب إليها.

(٤٥) العمدة لابن رشيق: ٥٢/١ .

(٤٦) الأبيات من قصيدة لحسان وردت في ديوانه ص ٥٧ مطلعها:

عفت ذات الأصابع فالجواء
إلى عذراء منزلها خلاء

كَدَاء: الثنية العليا بمكة (المعلّى) ومنها دخل الرسول ﷺ مكة عام الفتح. الأسل: الرماح.
متمطّرات: مسرعات يسبق بعضها بعضاً، وهنالك خلاف في رواية بعض الكلمات.

(٤٧) العمدة لابن رشيق: ٦٧/١، وسيرد الحديث عن هذه الظاهرة مع بعض الخلاف في
موقعه في فتح مكة.



الباب الأول

اسمه ونسبه

هذا لسان غضب نطَّلَع اليوم بالتعرض له على صفحة خالدة من تاريخ النضال الإسلامي لإعلاء كلمة الله، ومآثرة من مآثر الرعيل الأول من الموحدين الصابرين، والعاملين المخلصين، فمن هو يا ترى؟!

إنه «أبو الحسام حسَّان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدِي بن عمرو بن مالك بن النجار (وهم تيم الله)^(١) بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج»^(٢). ويكنى أبا الوليد وهي الأشهر، وأبا المضرب وأبا الحسام وأبا عبدالرحمن^(٣). ولقب بألقاب شتى، فقليل له الحسام^(٤)، وشاعر رسول الله ﷺ^(٥). ودعي باسم أمه: ابن الفُرَيْعَة^(٦).

وأمه: الفريعة بنت خالد بن حُبَيْش بن لَوْذَان خزرجية أيضاً أدركت الإسلام، فأسلمت وبايعت^(٧).

حسان إذا خزرجي من بني النَجَّار، وهؤلاء أحوال رسول الله ﷺ، لأن أم جده «عبدالمطلب»^(٨) منهم؛ فلحسان برسول الله ﷺ صلة قرابة بعيدة.

وبنو النَجَّار - كما ذكر - من قبيلة الخزرج، وهي القبيلة التي أقامت مع قبيلة الأوس في يثرب^(٩) (المدينة المنورة)، وكلتا القبيلتين من «الأزد»^(١٠) القحطانيين، هاجرتا مع بعض القبائل الأخرى من موطنهما الأول في اليمن إثر خراب سد مأرب^(١١)، فسكنتا يثرب، بينما ذهب أولاد عميهما المناذرة والغساسنة، فسكنوا الشام والعراق^(١٢). ومن هنا اتصل نسب حسان بأولاد عمه أمراء جُلِّق^(١٣) والحيرة^(١٤). وها هو ذا يفتخر بنسبه^(١٥):

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامر

لنا شرف يعلو على كل مرتقي^(١٦)

ملوك وأبناء الملوك كأئنا

سواري نجوم طالعات بمشرق^(١٧)

كجفنة والقمقام عمرو بن عامر
وأولاد ماء المزن وابني مُحَرَّق^(١٨)
وحارثة الغطريف أو كابن منذر
ومثل أبي قابوس ربّ الخورنق^(١٩)

مولده: ولد حسان في يثرب قبل مولد الرسول ﷺ بثماني سنين أو سبع؛ أي سنة ٦٠ق هـ (٥٦٤م)، أو سنة ٦١ق هـ (٥٦٣م)، وهو يؤرخ ميلاده بحادثة نستغربها نحن، وإن كانت مما يتداول، وربما كان لها أثر كبير انطبع في ذاكرته، وأثر في بعض مجاري حياته:

فقد حدّث حسان فقال:

«إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان إذا بيهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود!!! فلما اجتمعوا إليه، قالوا: ويلك مالك؟! قال: طلع نجمٌ أحمد الذي يولد به في هذه الليلة...»^(٢٠).

ترى ما نصيب هذه الحادثة من الصحة؟! هل نستطيع إثباتها؟ أو هل نستطيع نفيها؟ أهى مما أضافه الرواة والقصاص فيما بعد؟ أم ممّا دسّه بعضهم لأمر أو لآخر؟ لقد تضافرت على رواية الحادثة مراجع كثيرة أشرت هنا إلى بعضها، وهذا يُدّنيها كثيراً من الصحة، أما إن كانت موضوعة فهي - لا شك - وضع ذكي، لأن يهود كانوا يعرفون - كما حدّثنا القرآن الكريم - أنه سيأتي نبيٌّ «النبى الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل...»^(٢١) لا بل كانوا يستمدون منه الغوث في حربهم مع الأوس والخزرج «يستفتحون على الذين كفروا»^(٢٢).

على أية حال إنني لم أرتح بادئ ذي بدء إلى صحتها تمام الارتياح، وليس لدي ما ينفيها ويزيفها، يبد أن الأستاذ «ناصر الدين الألباني» حقّق الرواية فتبيّن أنّها صحيحة^(٢٣).

ولا يفوتني هنا أن أذكر أنني لم أقع على تاريخ ولادته مضبوطاً بدقة، وإنما بشكل

تقريبى، وقد أثرت حوله الشكوك، ولا سيما ما أثاره «نولدكه»^(٢٤).

على أن كثيراً من الباحثين اعتمد على حادثة اليهودي هذه، وبذا يكون عمر حسان يوم قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة ستين أو إحدى وستين سنة، وتاريخ ميلاده على وجه التقريب سنة ٦٠ ق.هـ أو ٦١ ق.هـ / حوالي سنة ٥٦٣م أو ٥٦٤م^(٢٥).
وتوفي رحمه الله في المدينة المنورة سنة ٥٤هـ / ٦٧٤م.^(٢٦)

الهوامش

(١) تيم الله: هم بنو النجار، ويقال: الأصل تيم اللات، وسماهم الرسول ﷺ: تيم الله كراهية وجود اسم صنم.

(٢) الأغاني: ٢/٤: الخزرج بن حارثة بن ثعلبة وهو العنقاء بن عمرو وهو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد وهو ذري بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.. وللخزرج بطون كثيرة منها: بنو النجار، وبنو عوف، وبنو غنم، وبنو جشم وغيرهم. وقد ذكر النسابون أن «عمرو مزيقياء بن عامر» كان سيد قومه، وقد توفي قبل خراب سد مأرب عن عدد من الأولاد، فخلفه على رئاسة قومه أخوه «عمران بن عامر»، وكان ذا ثروة وبساتين، وليس له أبناء، وحين شعر بقرب خراب سد مأرب ارتحل هو وأبناء أخيه، وتفرقوا في البلاد:

- فنزل «ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر» يثرب، ومن نسله الأوس والخزرج.
 - ونزل «حارثة العنقاء بن عمرو بن عامر» مكة، ومن نسله خزاعة.
 - وذهب «عمران بن عامر» نفسه إلى عمان، ومن نسله أزد عمان.
 - وسار «جفنة» نحو الشام، ومن نسله الغساسنة.
 - ويمم «لخم» شطر وجهه نحو العراق، ومن نسله المناذرة (أو آل نصر).
- وذهب آخرون إلى بلاد أخرى.

وبذا يمكن أن يُبين سبب افتخار حسان بانتماؤه إلى «عمرو بن عامر» كما سيرد فيما بعد، ويتبدى نسبه وقربه من غسان ويتأول بالتالي مدحه آل جفنة الغساسنة وآل المنذر.. كما يلحظ من جانب آخر أنه من بني النجار، وهؤلاء أخوال رسول الله ﷺ.

(٣) و (٥) الاستيعاب: ١٢٨/١ .

(٤) المزياني: ص ٨٩ .

(٦) معجم المزياني ص ١٦٥ .

(٧) الإصابة: ٨/٢ (وقد اختلف في نسبها:

- ففي الأغاني ١٢٤/٤: هي بنت خالد بن قيس بن لؤذان بن عبدود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج.

- وفي خزنة الأدب ١١١/١: هي بنت خنس.

- وفي الاستيعاب: ١٢٨/١: هي بنت خالد بن خنيس بن لؤذان.

- وفي سيرة ابن هشام: ٦٠٨/٣: ويقال خنيس بن حارثة).

(٨) عبدالمطلب بن هاشم (نحو ١٢٧ ق.هـ - ٤٥ ق.هـ / ٥٠٠ - ٥٧٩م): عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف، أبوالحارث زعيم قريش في الجاهلية، وأحد سادات العرب ومقدميهم، مولده في المدينة (يثرب)، ومنشؤه في مكة كان: عاقلاً ذا أناة ونجدة، فصيح اللسان، حاضر القلب، أحبه قومه، ورفعوا من شأنه، فكانت له السقاية والرفادة، وبحسن تصرفه أنقذ الله مكة من غارة الأحباش. وهو جدُّ رسول الله ﷺ، وقيل اسمه «شيبة»، أما عبدالمطلب فهو لقب غلب عليه، والمطلب هو أخوه.

(٩) يَثْرِب: مدينة رسول الله ﷺ، يقال سميت باسم أول من سكنها، وهو يثرب بن قانية.. بن نوح، وسمّاها الرسول ﷺ طيبة وطابة كراهية للثريب، وهي الآن تدعى «المدينة المنورة»، وفيها قبر خاتم الأنبياء ومسجده، وقال ابن عباس رضي الله عنه: من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثاً، إنما هي طيبة، وقد قال النبي ﷺ لما هاجر: «اللهم إنك أخرجتني من أحب أرضك إليّ فأسكني أحبّ أرضك إليك»، فأسكنه المدينة. وهي تقع في حرّة سبخة الأرض، وفيها نخيل كثير ومياه.

(١٠) الأزد: (.....) مجهول الولادة والوفاة: أزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان من القحطانية: جد جاهلي يماني قديم، بنوه أكبر قبيلة في كهلان، انقسم بنوه إلى ثلاثة أقسام: أزد شنوءة، وأزد السراة وأزد عمان، ومن سلالاته قبائل غسان وخزاعة وأسلم وبارق وآل جفنة والأوس والخزرج.. ويقال إنهم بلغوا ستا وعشرين قبيلة.

(١١) سدّ مأرب: شيد في مدينة مأرب عاصمة المملكة السبئية الثانية لتنظيم الري ووقاية العاصمة من أخطار الفيضانات الموسمية. ينسب خرابه إلى السيل العرم بين ٥٤٢ - ٥٧٠ ق.م.

(١٢) بجوار الروم والفرس.

(١٣) جَلَّقَ: اسم لغوطة دمشق كلها، أو لدمشق نفسها، أو موضع لقرية من قرى دمشق.

(١٤) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة العراقية في موضع يقال له «النجف». وفي الحيرة قصر «الخورنق» مما يلي الشرق على نحو ميل، و«السدير» في وسط البرية التي بينها وبين الشام والحيرة كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من آل نصر ولخم والنعمان وآبائه.

(١٥) انظر ديوانه ص ٣٤٢.

(١٦) عمرو بن عامر: هو مزريقاء بن عامر.. ومزريقاء هم الذين تفرقوا بعد سيل العرم في البلاد، وقد نزح معهم من اليمن قومهم من الأزد.

(١٧) سوارى نجوم: أي نجوم ساريات.

(١٨) جفنة: هو جفنة بن عمرو أول ملوك الغساسنة آل جفنة بالشام. القمقام: السيد الكثير الخير الواسع الفضل. ماء المزن: يريد ماء السماء، وماء السماء لقب عامر أبي عمرو مزريقاء، لقب بذلك لأنه كان إذا أجذب قومه احتل مؤونتهم وقوتهم حتى يأتيهم الخصب وقيل لولده: بنو ماء السماء. قال بعض الأنصار:

أنا ابن مزريقيا عمرو وجدي

أبوهم عامر ماء السماء

وماء السماء أيضاً: لقب أم المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر اللخمي، وهي ابنة عوف بن جشم من النمر بن قاسط سميت بذلك لجمالها، وقيل لولدها بنو ماء السماء. ومحرق لقب الحارث بن عمرو بن آل جفنة سمي بذلك لأنه أول من حرق العرب في ديارهم وهو الحارث الأكبر أبو الحارث الأعرج. وكان امرؤ القيس بن عمرو بن عدي أبو المنذر يدعى أيضاً محرقاً.

(١٩) حارثة الغطريف هو أبو عامر أبي عمرو مزريقاء. ابن منذر هو عمرو بن هند مضرط الحجارة وهند أمه وهو من ملوك الحيرة اللخمين، وكان يلقب أيضاً بالمحرق؛ لأنه حرق مئة من تميم (تسعة وتسعين من بني دارم وواحداً من البراجم). أبو قابوس: هو النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي وهو الذي بنى الخورنق، وهو الذي لبس المسوح وساح في الأرض وفيه يقول عدي بن زيد:

وَتَبَّيَّنَ رَبُّ الْخَوْرَنْقِ إِذْ

أَشْرَفَ يَوْمًا وَلِلْهَدَى تَعْكِيرُ

سِرُّ ماله وكثرة ما يم
لكُ والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال وما غب
سطة حي إلى الممات يصير

(٢٠) الأغاني: ٣/٤ وتاريخ ابن عساكر: ١٢٦/٤ (المهذب)، تهذيب ابن حجر: ٢/٢٤٨،
والمستدرک: ٤٨٦/٢ واليَفْعَة: الغلام إذا ترعرع وناهز البلوغ.

(٢١) القرآن الكريم: سورة الأعراف: ١٥٧/٧ .

(٢٢) القرآن الكريم: سورة البقرة: ٨٩/٢: قال تعالى: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما
معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة
الله على الكافرين».

(٢٣) الأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني أبو عبد الرحمن (١٣٣٢-١٤٢٠هـ/١٩١٤-
١٩٩٩م) من كبار علماء الحديث في دمشق وفي العالم الإسلامي، وله يد بيضاء في تحقيق
الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ. من سكان دمشق وله آثار عديدة منها: صلاة النبي ﷺ
كأنك تراها.

والأستاذ الألباني نَشَرَ في المجلات والكتب تحقيق بعض هذه الأخبار والأحاديث فجراه الله
عنا وعن الإسلام والمسلمين خيراً.

(٢٤) نولدكه: تيودور نولدكه: Theodor Noldeke (١٢٥١ - ١٣٤٩هـ/ ١٨٣٦ - ١٩٣٠م).

من أكابر المستشرقين الألمان، ولد في «هامبورغ» بألمانيا، وتعلّم في عدة جامعات ألمانية،
وانصرف إلى اللغات السامية والتاريخ الإسلامي، فعين أستاذاً لهما في عدة جامعات. له
كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهم، ومنها: تاريخ القرآن، وحياة النبي محمد (ﷺ). وقد
أثار في كتابه (أمراء غسان ص ٤٥ و ٧١ ترجمة جوزي و زريق - بيروت ١٩٣٣) بعض
الشكوك حول ولاده حسان.

(٢٥) المراجع التي ذكرتها آنفاً.. وهذا ماجر «دي برسفال» إلى جعل مولده سنة ٥٦٣م. كما قال
البستاني في عدد الروائع ٣٣ص آ. وكتاب الأغاني استفاد من حادثة اليهودي بصورة

واضحة، فقال (الأغاني: ١٣٥/٤). «فهذا يدل على مدة عمره في الجاهلية لأنه ذكر أنه أدرك ليلة ولد النبي ﷺ، وله يومئذ ثمان سنين والنبي ﷺ بعث وله أربعون سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، فقدم المدينة ولحسان يومئذ على ما ذكره ستون سنة أو إحدى وستون سنة وحينئذ أسلم. ولعله أسلم قبل الهجرة بقليل كما سيمر معنا.

(٢٦) ورد في الأغاني أن حسان عُمِّرَ عشرين ومئة سنة: ستين في الجاهلية وستين في الإسلام (الأغاني: ١٣٦/٤). وجاء في كتاب أسد الغابة: (٧/٢): «وتوفي حسان قبل الأربعين في خلافة علي، وقيل: بل مات سنة خمسين، وقيل سنة أربع وخمسين، وهو ابن مئة وعشرين سنة. لم يختلفوا في عمره، وأنه عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام (❖)، وكذلك عاش أبوه ثابت، وجده المنذر، وأبو جده حرام، عاش كل واحد منهم مئة وعشرين سنة، ولا يُعرف في العرب أربعة تناسلوا من صلب واحد، وعاش كل منهم مئة وعشرين سنة غيرهم. قال سعيد بن عبد الرحمن (ابن حسان) ذكر عند أبي عبد الرحمن عمر أبيه وأجداده، فاستلقى على فراشه وضحك، فمات وهو ابن ثمان وأربعين».

(❖) هذا يفرض أن تكون وفاته سنة ستين للهجرة.

نشأته

لا نعلم الكثير من تفاصيل نشأته وشبابه، ولم يصلنا من الأخبار الدقيقة - اللهم إلا النزر اليسير الذي يكاد يستوي وجوده وعدمه - عن معيشته في يثرب (المدينة المنورة)، ولا عن نوع الحياة التي عاشها، وماذا كان يجري من دقائق حوادثها اليومية؟ وما كانت الانطباعات الأولى التي ارتسمت في ذهنه، فرسخت منذ طفولته، وبدت آثارها في شبابه وكهولته؟ وما الثقافة التي تلقاها؟ وهل روى لأحد من الشعراء كما كان يفعل أمثاله من الشعراء الناشئين، إذ يبدوون حيواتهم الشعرية بالرواية للشعراء المشهورين، أو لشعراء آخرين؟

والحق أن شأن حسان في هذا المجال شأن كثيرين من أعلام الشعراء الأوائل في تاريخنا الأدبي، إذ لم يذكر لنا هذا التاريخ إلا نتفاً من أخبارهم الخاصة خلال نشأتهم الأولى، وكان الاهتمام ينحصر بهم بعد اشتهارهم أو نبوغهم، ويكاد يقتصر هذا الاهتمام على الجانب الشعري حتى بعد هذا الاشتهار أو النبوغ.

على أية حال من الممكن أن نتبين من خلال تصفحنا شعر حسان وبعض الأخبار التي وردت عنه أنه ولد في مدينة «يثرب»، في بيت عريق الأصالة يتوارث الشعر فيه الأبناء عن الآباء، فقد كان أبوه «ثابت بن المنذر» من أشرف الخزرج وشعرائها، وكان جدّه «المنذر بن حرام» سيداً في قومه وشاعراً، وكان أبو جده «حرام بن عمرو» شاعراً ومقديماً في قومه.

وكان له أخ يدعى «أوس بن ثابت»^(١) استشهد يوم أحد، وهو والد «شداد بن أوس» المعروف بعلمه وحلمه. وله كذلك أخ آخر يدعى «أبيّ بن ثابت» أبوشيخ، وهو ممن حضر معركة بدر^(٢).

وكما ورث حسان عن آبائه موهبة الشعر فقد أورها أبناءه: فابنه «عبدالرحمن»^(٣) شاعر، وحفيده «سعيد بن عبدالرحمن»^(٤) شاعر أيضاً، وله كذلك ابنة شاعرة^(٥). ولذا قال المبرد: «وأعرق قوم في الشعر آل حسان، فإنهم يعتدون ستة في نسق كلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام». وهذه الظاهرة تشير بوضوح إلى أن حسان مُعَرِّق في الشعر مُخَلِّف فيه، وأن الشعر قد جرى منه مجرى الدم في العروق، ثم إنه على ذلك واسطة العقد^(٦).

وكتب التراجم وتواريخ الأدب على عاداتها شحيحة في تبيان الحياة الأسرية للأعلام، فنحن لم نستطيع أن نتبين تماماً بقية أفراد أسرة حسان، ولم نعرف زوجاته ولا وضعه الأسري، إنما نعرف من خلال شعره أنه شبيب - كما يصنع الكثير من الشعراء - بعدد من النسوة منهن «زينب»، و«شعشاء»^(٧)، و«سعدى»^(٨)، و«النضيرة»^(٩)، و«ليس»^(١٠)، و«أم عمرو»، و«خود»^(١١)، و«ليلي»^(١٢).

وعرفنا أنه تزوج امرأة من «أسلم»^(١٤)، فولدت له غلاماً، فهجاها^(١٥)، كما عرفنا أن رسول الله ﷺ أهداه «سيرين» أخت «مارية القبطية»^(١٦)، وهما الجاريتان اللتان أرسلهما ملك مصر «المقوقس» إلى رسول الله ﷺ، وسيرين هي التي ولدت له ابنه «عبدالرحمن» وتزوج امرأة من الأنصار من الأوس يقال لها عمرة أو (عميرة) بنت صامت بن خالد وكان كل واحد منهما محباً، لصاحبه، وتكلم حسان مرة بكلام أغضبها فغيرته أخواله وفخرت عليه بالأوس، فطلقها، فأصابها من ذلك شدة، وندم هو بعد ذلك^(١٧). ويبدو أن عقبه قد انقرض إذ لم يرد ذكر لنسله بعد حفيده «سعيد»^(١٨).

وكانت نشأة حسان في عشيرته «بني النجار» التي كانت زعيمة الخزرج، وزعيمة العرب المدنيين، هذه الزعامة التي تتضافر على ذكرها روايات التاريخ، ويؤيدها الطابع العام لشعر حسان، مما يجعلنا نفترض مطمئنين أن الشعور بها كان عاملاً كبير الأثر في منزعه الشعري، بل وفي صلته برسول الله ﷺ، وإننا لنقرأ المشهورات من شعره طوال حياته فلا نكاد نظفر بواحدة منها تخلو من الإشارة إلى مجد قبيلته، وعراقتها، ونفوذ أبنائها، وحسن بلائهم، وها هو ذا يقول: ^(١٩)

فِيثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّا بِهَا
إِذَا التَّبَسَّ الْأَمْرُ مِيزَانُهَا
وَيِثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّا بِهَا
إِذَا قَحَطَ الْقَطْرُ نُؤَانُهَا

ويقول: (٢٠)

فَنَحْنُ الدُّرَا مِنْ نَسْلِ آدَمَ وَالْعُرَا
تَرْبِعُ فَيُنَا الْمَجْدُ حَتَّى تَأْتُلَا
بَنَى الْعَرْزُ بَيْتًا فَاسْتَقَرَّ عِمَادُهُ
عَلَيْنَا فَأَعْيَا النَّاسُ أَنْ يَتَحَوَّلَا

ويقول: (٢١)

وَكُنَّا مَلُوكَ النَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ
فَلَمَّا أَتَى الْإِسْلَامَ كَانَ لَنَا الْفَضْلُ

هذه الوراثة السامية في النسب أيديتها وراثة زاهية في الأدب؛ فقد كان آباء حسان «ثابت» و«المنذر» و«حرام» شعراء كما أسلفنا، وكان من قومه الخطيب والفيصل وصاحب النفوذ والجاه عند الملوك، وفيهم يقول - بعد الإسلام - (٢٢):

إِنَّ خَالِي خَطِيبٌ جَابِيَةُ الْجَوِّ
لَانِ (٢٣) وَعِنْدَ النِّعْمَانِ (٢٤) حِينَ يَقُومُ
وَأَبِي فِي سُمَيْحَةٍ (٢٥) الْقَائِلُ الْفَا
صَلُّ يَوْمَ التَّقَتِّ عَلَيْهِ الْخُصُومُ
وَأَنَا الصَّقَرُ عِنْدَ بَابِ ابْنِ سَلَمَى (٢٦)
يَوْمَ نَعْمَانَ (٢٧) فِي الْكَبُولِ مَقِيمٍ
وَأَبِي وَوَأَفْدُ (٢٨) أَطْلِقْ لِي
ثُمَّ رَحْنَا وَقُفْلَهُمْ مُحْطُومٍ
وَسَطَّتْ نَسَبَتِي الذَّوَابُ مِنْهُمْ
كُلُّ دَارٍ فِيهَا أَبٌ لِي عَظِيمٍ

الهوامش

(١) أوس بن ثابت: وهو أخو «حسان» من أبيه، وأمه «سخطى بنت حارثة بن لوزان» بنت عم والدة حسان، وكان ممن حضر بيعة العقبة الثانية (بيعة الحرب) مع الأنصار الخمسة والسبعين، وقد شهد موقعة بدر، وموقعة أُحُد، واستشهد يوم أُحُد: ٣هـ / ٦٢٥م، وفيه قال حسان: (ديوانه ص ١٧٣)

**ومنا قتيلُ الشَّعبِ أوسُ بنُ ثابتٍ
شهيداً وأسنى الذكرِ مني المَشاهدُ**

وهو والد «شداد بن أوس» وشداد هذا ابن أخي حسان ممن آتاه الله العلم والحلم، قال فيه أبو الدرداء: «إن الله عز وجل يؤتي الرجل العلم ولا يؤتيه الحلم، ويؤتيه الحلم ولا يؤتيه العلم، وإن أبا يعلى (كنية شداد) ممن آتاه الله العلم والحلم». (انظر ديوانه ص ١٧٣)، وفيه قال حسان:

**ومن جـدُّه الأدنى أبي وابن أمِّه
لأم أبي ذاك الشهيد المجاهدُ**

(٢) انظر سيرة ابن هشام: ٥٢٢/٢ وقد قال بعضهم إنه ابن أخيه:

أبوشيوخ بن ثابت: يقال هو أبوشيوخ أبي بن ثابت، فهو إذاً أخو حسان، ويقال: بل هو أبو شيخ بن أبي بن ثابت، فيصبح ابن أخي حسان. شهد بدرًا وقُتل يوم بُئر معونة سنة ٤هـ / ٦٢٦م. وفي الحاليين فلحسان أخ اسمه «أبي» سواء أكانت كنيته «أبا شيخ»، أو كانت كنية ابنه «أبا شيخ».

(٣) عبدالرحمن بن حسان (٦ - ١٠٤هـ / ٦٢٧ - ٧٢٢م) شاعر وابن شاعر كان مقيماً في المدينة المنورة، وتوفي فيها، وقد اشتهر بالشعر في زمن أبيه، وهو ابن الجارية «سيرين» التي أهداها ملك مصر هي وأختها «مارية» للرسول ﷺ، وقد أهداها الرسول ﷺ لشاعره حسان. وفيه قال أبوه حسان: (ديوانه ص ١٢٣)

فمن للقوافي بعد حسان وابنِه!

ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت!

وقد شَبَّ برملة بنت معاوية، وهجا عبدالرحمن بن الحكم أخا مروان وهاجي «النجاشي» الشاعر المشهور. وله ديوان شعر مطبوع. (انظر الأعلام للزركلي ١٧٦/٢)

(٤) سعيد بن عبد الرحمن (..... - نحو ١١٥هـ / - ٧٣٤م) من شعراء الحماسة الشجرية ومن سكان المدينة المنورة وهو آخر من عرف من أبناء حسان بن ثابت. (انظر الأعلام للزركلي: ٩٧/٣).

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٠٤ .

(٦) انظر العمدة لابن رشيق: ٣٠٦/٢ وقد أوردت كتب الأدب أخباراً تتحدث عن تناشد حسان وأبنائه الأشعار.

- يقال إن حسان أنشد يوماً:

وإن امرأً يمسي ويصبح سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيد

فأنشد بعده ابنه عبد الرحمن:

وإن امرأً نال الغنى ثم لن ينل
صديقاً ولا ذا حاجة لزهد

ثم أنشد بعده سعيد بن عبد الرحمن هذا البيت:

وإن امرأً لاحى الرجال على الغنى
ولم يسأل الله الغنى لحسود

(انظر ديوانه ص ٤٠ و ١٩٨).

- ويقال إن حسان أرق ليلةً فعنَّ له الشعر فقال:

متاريك أذئاب الأمور إذا اعترت
أخذنا الفروع واجتثنا أصولها

ثم أجبل: أي انقطع، فقالت له ابنته: كأنك أجبلت؟ قال: أجل. قالت: فأجيز عنك؟

قال: وعندك ذلك؟ قالت: نعم. قال: فافعلي. فقالت:

مقاويل بالمعروف خرسٌ عن الخنا
كرامٌ يعاطون العشيرة سؤلها

فحمي الشيخ، فقال:

وقافية مثل السنان رُزئتُها
تناولتُ من جوِّ السماء نزولها

فقلت:

براهما الذي لا ينطق الشعر عنده
ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فقال: لا قلت شعراً، وأنت حية.

قالت: أو أؤمّنك؟ قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، لا قلت شعراً وأنت حيّ.

(انظر الشعر والشعراء ص ١٠٤ وديوانه ص ٤٠ و ٣٩١).

(٧) انظر مثلاً ديوانه ص ٧٠ وص ٧٧ . وشعثاء امرأة من أسلم تزوجها وولدت منه بنتاً يقال لها أم فراس، تزوجها عبدالرحمن بن أم الحكم، وذكر الشيباني أن حسان خطبها، فردّه أهلها فهجّاهم.. وقيل: إنها شعثاء بنت عمرو من بني ماسكة من يهود، وكان أبوها رأس يهود مقدماً فيهم. (الأغاني: ١٦٩/١٧، وديوانه ص ٣٢٣).

(٨) المرجع السابق: ص ٩٢ .

(٩) المرجع السابق: ص ٢٢٤ .

(١٠) المرجع السابق: ص ١٠ .

(١١) المرجع السابق: ص ١٢٣ .

(١٢) المرجع السابق: ص ٣٣٠ . والراجح أن «خَوْد» صفة وليست علماً، والخود هي الفتاة الحسنة الخلق.

(١٣) ديوانه لم يورد أبيات الغزل وإنما أوردها الأغاني: ١٢/٣ (مصورة دار الكتب).

(١٤) أسلم بن أفصى جد جاهلي من بني إلياس بن مضر ومن أبنائه جماعة من الصحابة، وأحدهم كان أول قتيل في الإسلام يوم أحد . (وانظر خبر زواجه وطلاقه وتعلقه بزوجه في الأغاني: ١٤/٣).

(١٥) انظر ديوانه ص ٤٥٥ وفيه يقول:

غلام أتاه اللؤم من شطر خاله
له جانبٌ وافٍ وآخر أكشَمُ
(الأكشم: الناقص في جسمه وحسبه، يقول: أبوه حرٌّ وأمه أمةٌ).

فقالَت تجيبه:

غلام أتاه اللؤم من نحو عمّة
ومن خير أعراق ابن حسان أسلمُ

(١٦) هي أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ.

(١٧) انظر ديوانه ص ٢٥٩ وقصيدته التي مطلعها:

أَجْمَعْتُ عَمْرَةً صُرْمًا فابْتَكِرُ
إنما يدهنُ للقلب الحَصِرُ

(١٨) أورد صاحب «الشعر والشعراء» ص ١٠٥ الخبر الآتي: «فانقرض عقب حسان، فلم يَبْقَ منهم أحدٌ».

(١٩) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري من ٤١٦/٤٧٦ والبيتان مطلع قصيدة (نُؤان: ج: نوء).

(٢٠) المرجع السابق ص ٤٨٣/٤٠٧ والبيتان من قصيدة له مطلعها:

لك الخير غَضَيَّ اللوم عني فإنني
أحبُّ من الأخلاق ما كان أجَمَلا

(٢١) المرجع السابق ص ٣٢٨/٣٨٤ والبيت مطلع قصيدة.

(٢٢) المرجع السابق ص ٣٧٦/٤٣٣ والأبيات من قصيدة له، مطلعها:

منع النوم بالعشاء الهمومُ
وخيالٌ إذا تغور النجومُ

(٢٣) جابية الجولان: الجابية في الأصل الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل، قال الأعشى:

(كجابية الشيخ العراقي تفهق)، وهي قرية من أعمال دمشق قرب مرج الصفر شمالي حوران، وبالقرب منها تل يسمى «تل الجابية» وفي هذا الموضع خطب عمر بن الخطاب خطبته المشهورة. وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع.

(٢٤) النعمان: أراد بالنعمان هنا «بني جفنة» الغساسنة، فكأن اللقب هنا اكتسب صفة الحاكمية على طريقة تسمية: كسرى، قيصر، امبراطور.. ويحسن أن يلاحظ أن «النعمان» اسم حمله عدة ملوك عرب في الجاهلية من المناذرة والغساسنة تداخلت أخبارهم حتى صعب التمييز بينها، ومنهم:

- النعمان بن الأسود بن المنذر (الأول) اللخمي (ت ١٢٣ ق.هـ / ٥٠٤ م).

- النعمان بن امرئ القيس اللخمي (ت ١٩٨ ق.هـ / ٤٣١ م).

- النعمان بن المنذر آخر ملوك اللخمين (٤٣ - ٢٠ ق.هـ / ٥٨٠ - ٦٠٢ م).

وهو المشهور بأبي قابوس صاحب يومي البؤس والنعيم.

- النعمان بن الحارث بن جبلة الغساني، وكنيته أبو كُرب، كان ملكه في أطراف الشام وللنابغة فيه نصيحة له ورثاء (ت ٤٣ ق.هـ - ٥٨١ م).

(٢٥) سُمَيْحَة: يوم من أيام الأوس والخزرج في جاهليتهم حُكِّم فيه جدُّ الشاعر «المنذر» أو والده، «ثابت بن المنذر»، فأهدر دماء عشيرته الخزرج، واحتل دماء الأوس (*).

(٢٦) ابن سلمى: هو الملك النعمان بن المنذر اللخمي، وأمه هي: سلمى بنت عطية، وعطية صائغ كان بفدك (الأغاني ١١/١٣).

(٢٧) نعمان: هو أحد الأسرى الذين تشفع فيهم الشاعر لدى الملك فأطلقه له (وهو نعمان بن مالك بن قوقل).

(٢٨) أبيّ هو: أبي بن كعب من بني النجار، ووافد هو: وافد بن عمرو بن الإطنابة من الخزرج، والمعنى: هذان الرجلان أطلقهما الملك لأجلي، ثم ذهبنا وقد تكسر قفل إيسارهم.

(❖) جاء في طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨٤: «والمنذر كان الحاكم بين الأوس والخزرج في يوم سميحة وهو يوم من أيامهم».

بيئته \$ المدينة

وأما بيئته في المدينة فالأوس والخزرج - كما يحدثنا المؤرخون - من عرب الجنوب كانوا ذوي حياة دينية وثنية يعبدون اللات ومناة، ولعلمهم حملوا - فيما حملوا - معهم شيئاً من حضارة الجنوب وتفكيره، ونزلوا «يثرب»، وكونوا هم ويهود جماعة ثلاثية لها حروب ووقائع وأيام. وكانت المدينة في ذلك الوقت بيئة متحضرة موفورة الثراء، يشتغل كثير من أهلها بالزراعة، وكانت - كما يذكر حسان في شعره - ذات نخل وآطام،^(١) وجداول وحدائق، وربما كان لوجود يهود فيها أثر في انتشار القراءة والكتابة والثقافة الدينية، وليس من شك في أن ذلك كان له أثره في إعداد المدنيين لتلقي رسالة التوحيد، وتهيئة أذهان شعرائهم، وتثقيفهم لقبول دعوة الرسول ﷺ، والمبادرة إلى نصرته وتأييده.

وكانت كثيراً ما تقوم الخلافات بين الأوس والخزرج في المدينة، ويظهر أن يهود أججوا نيران هذه الخصومات بينهما ليشغل الحيان بأنفسهما عن الالتفات إلى العدو المشترك، فكانت تقوم بينهما أحياناً المفاخر والشتائم، وأحياناً تشتد المشاحنات فتتجاوز المفاخر والشتائم إلى رمي الحجارة، والمضاربة بالسعف والخشب^(٢)، وقد يتجاوز الأمر قذف الحجارة إلى المجادلة بالسيوف، فقد استنشد رسول الله ﷺ الخزرج يوماً في مجلس ليس فيه إلا خزرجي قصيدة «قيس بن الخطيم»^(٣) البائية:

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كَأَطْرَادِ الْمَذَاهِبِ

لِعَمْرَةٍ وَحِشاً غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبٍ

فأنشده إياها بعضهم، فلما بلغ إلى قوله:

أَجَالِدُهُمْ يَوْمَ الْحَدِيقَةِ حَاسِراً

كَأَن يَدِي بِالسَّيْفِ مَخْرَاقَ لَاعِبٍ

التفت إليهم رسول الله ﷺ، فقال: هل كان كما ذكر؟ فشهد له «ثابت بن قيس بن شماس»^(٤)، وقال له: «والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة وملحفة موروسة، فجالدنا كما ذكر»^(٥).

ومن أشهر أيامهم «يوم بُعث»^(٦) «فإنه كان عظيماً»^(٧)، و«يوم سُميحة»^(٨)، وفيه حُكِّم جدُّ حسان أو أبوه، و«يوم البقيع»^(٩) و«يوم الربيع»^(١٠) و«يوم الجسر»^(١١) وكان لكل من الفريقين شعراء يذَّبون عنه ويهاجمون عدوه، فكان أشهر شعراء الخزرج «حسان بن ثابت»، وأشهر شعراء الأوس «قيس بن الخطيم»، وقد تهاجيا، ونشرا مثالب العشيرتين، وتعرض كل منهما لعرض الآخر ونسائه، فكان حسان يذكر «ليلى بنت الخطيم»^(١٢) أخت قيس، وكان قيس يذكر «عمرة بنت صامت» زوج حسان التي طلقها فيما بعد^(١٣).

ويظهر أنه كان لكل من الشعاعين من يعطف عليه أو يتعاطف معه، أو يستحسنه، فيأبى إيقاع الأذى به، فقد طلب حسان من «الخنساء»^(١٤) أن تهجو قيس بن الخطيم فتريثت حتى تراه، فلما استعرضته مقبلاً ومدبراً أبَّت أن تهجوه^(١٥).

وبلغ بالشاعرين التنافس أن تنازعا الإجابة بين يدي «النابغة الذبياني»^(١٦) حين قدم إلى يثرب، واستتشد شعراءها، فأنشده قيس بن الخطيم بأثيته:

أُعرف رسماً كاطراد المذاهب

لعمرة وحشاً غير موقف راكب

حتى أتى على نهايتها، فقال له: «أنت أشعر الناس». فاستثير حسان، «قال حسان: فدخلني منه، وإني في ذلك لأجد القوة في نفسي عليهما، ثم تقدمت فجلست بين يديه فقال: أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم، قال: وكان يعرفني قبل ذلك، فأنشدته، فقال: أنت أشعر الناس..»^(١٧).

وظلت القبيلتان في شقاق وخصام حتى أسلمتا، وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فألف بين قلوبهم، وجمع شتاتهم، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً.

اجتمع إذاً للمدنيين شيء من الخصب، ولون من الحضارة والمعرفة والدين، وكثر بينهم الشعراء نتيجة للخلافات والمشاحنات التي كانت قائمة بينهم^(١٨)، وعرفت القرى العربية الأخرى هذه المكانة للمدينة، وظل ذلك متوارثاً مذكوراً حتى سجله ابن سلام^(١٩)، فقد ذكر أن المدينة كانت أشعر القرى العربية، وكان أشعر شعرائها حسان بن ثابت^(٢٠).

الهوامش

- (١) الأطلام: ج الأطم: القصر والحصن المبني بالحجارة، وكل بيت مربع مسطح وكل بناء مرتفع.
- (٢) الأغاني: ٨/٣ «كانوا يخرجون فيترامون بالحجارة ويتضاربون بالخشب»، و«ما اقتتلوا يوماً إلا بالركائب والسعف».
- (٣) قيس بن الخطيم (..... - نحو ٢ ق.هـ / ٦٢٠ م). قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي: أبوزيد: شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية، أول ما أشتهر به تتبع قاتلي جده وأبيه حتى قتلها، وقال في ذلك شعراً. وله في وقفة «بعث» بين الأوس والخزرج أشعار كثيرة، أدرك الإسلام وتريث في قبوله فقتل قبل أن يدخل فيه. شعره جيد، وله ديوان شعر مطبوع.
- (٤) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري (..... - ١٢ هـ / - ٦٣٣ هـ) كان خطيب رسول الله ﷺ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وفي الحديث: «نعم الرجل ثابت» ودخل عليه النبي ﷺ وهو عليل، فقال: «أذهب الباس رب الناس عن ثابت بن قيس بن شماس». قتل يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.
- (٥) الأغاني: ٧/٣ . مفردات الخبر: أطراد: تتابع. المذاهب: واحدها مذهب وهو جلد تجعل فيه خطوط مذهبة بعضها في أثر بعض. عمرة: هي عمرة بنت رواحة، وقيل: عمرة بنت صامت زوج حسان عرض بها لأن حسان عرض بأخته ليلي. يوم الحديقة: الحديقة قرية من أعراض المدينة في طريق مكة، كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام (معجم البلدان - ياقوت: ٢٣٢/٢). المخراق: خرقة مفتولة يلعب بها الصبيان. الغلالة: تكون تحت الثوب (ما تحت الدثار من اللباس الذي يلي شعر الجسد). مورسة: مصبوغة بالورس وهو نبات أصفر تصبغ به الثياب، ويتخذ منه طلاء للوجه.
- (٦) يوم بُعث: بعث: موضع بالقرب من المدينة المنورة سكنته قبيلة «بني قريظة» اليهودية، اشتهر بالحرب بين الأوس والخزرج بفعل دسائس يهود، وكان ذلك قبل الهجرة النبوية ببضع سنين، ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة أصلح بين الأوس والخزرج وسماهم الأنصار.
- (٧) الأغاني: ٨/٣ .
- (٨) يوم سميحة: سبق الحديث عنه ، ص ٥٨.

(٩) يوم البقيع: البقيع: الموضع فيه أروم الشجر من ضرروب شتّى، وبقيع الغرقد منبته. وهناك مواضع عدة في المدينة: بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة المنورة. وبقيع الزبير بالمدينة أيضاً فيه دور ومنازل، وبقيع الخيل عند دار زيد بن ثابت، وبقيع الخبجبة (وهو شجر) وليس بين أيدينا ما يرجح أحدها، وإن ملنا إلى الأول منها.

(١٠) يوم الربيع: الربيع موضع من نواحي المدينة، قال قيس بن الخطيم:

ونحن الفوارس يوم الربيع

ع قد علموا كيف فرسانها

(١١) يوم الجسر: وهو يوم من أيامهم ويقال له يوم مضرس ومعبس وهما حائطان بنوهما شبه خندقين بين الدخشة وأطم بني عدي وما بين الشرج إلى الجانب الآخر مما يلي الحارث من الخزرج. فالأوس تكون مما يلي الشرج، والخزرج مما يلي الحارث، فالتقوا هناك فمكثوا ثلاثاً يبيتون الليل على الجدارين حتى يصبحوا فيقتتلوا فبلغوا في ذلك مبلغاً عظيماً لم يكن في مواطنهم مثله وظفرت فيه الخزرج على الأوس حتى أدخلوهم بيوتهم منهزمين فذلك حيث يقول حسان قصيدته النونية «ديوانه ص ٤٧٧».

ألا أببلغ أبا قيس رسولاً

إذا ألقى لها سمعاً تبين

(١٢) مما قاله حسان في ليلى بنت الخطيم، في يوم الربيع:

لقد هاج نفسك أشجائها

وعاودها اليوم أديانها

تذكرت ليلي وأتت بها

إذا قطعت منك أقرانها

وحجل في الدار غربانها

وخف من الدار سكانها

(١٣) الخنساء: الشاعرة المشهورة (..... - ٢٤هـ / - ٦٤٥م) تُمَاضِر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من بني سليم من قيس عيلان من مضر، أشهر شواعر العرب من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في الجاهلية، وأدركت الإسلام، فأسلمت، ووفدت على رسول الله ﷺ مع قومها «بني سليم» فكان الرسول ﷺ يستشدها، ويعجبه شعرها، ويقول: هيه يا خنساء. أكثر شعرها وأجوده رثاؤها أخويها صخراً ومعاوية، وكانا قتلا في الجاهلية،

وكان لها أربعة بنين شهدوا القادسية سنة (١٦هـ)، فحُرضتهم على القتال والثبات، واستشهدوا، فقالت كلمتها المشهورة: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته». لها ديوان شعر مطبوع.

(١٥) الأغاني: ١٠/٣ (مصورة).

(١٦) النابغة الذبياني (..... - نحو ١٨ ق.هـ / - نحو ٦٤٠م). زياد بن معاوية الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر في سوق عكاظ، فتقصده الشعراء وتعرض عليه أشعارها فكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة. وهو أحد الأشراف في الجاهلية وكان حظياً عند النعمان بن المنذر حتى شَبَّ يزوجه «المتجرّدة» فغضب عليه النعمان، فقَرَّ منه، ووفد على الفساسنة بالشام، وغاب زمناً، ثم رضي عنه النعمان فعاد إليه وشعره كثير جمع بعضه في ديوان صغير مطبوع.

(١٧) الأغاني: ٩/٣ (مصورة). وقوله: أنت أشعر الناس» حكم كثير التداول على الألسنة وربما أطلق في جلسة واحدة على أكثر من واحد كما حصل هنا إذ أطلق على قيس وعلى حسان. يروى أن العتبي أنشد مروان بن أبي حفصة لزهير فقال: هذا أشعر الناس، ثم أنشده للأعشى فقال: بل هذا أشعر الناس، ثم أنشده لامرئ القيس فقال: امرؤ القيس والله أشعر الناس.. ولذا قيل: أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه. (انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٩، وانظر العمدة لابن رشيق ص ٩٠).

(١٨) وهذا تعليل لابن سلام الجمحي، فقد رأى أن مكة شعراؤها قليلون لقلّة الخلافات بينهم فقال: «والذي قلل شعر قريش أنه لم تكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا» (طبقات الشعراء ص ١٠٢).

(١٩) ابن سلام (١٥٠ - ٢٣٢هـ / ٧٦٧ - ٨٤٦م). محمد بن سلام الجمحي بالولاء، أبو عبد الله: إمام في الأدب من أهل البصرة، مات ببغداد، له كتب منها: «طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين»، و«بيوتات العرب»، و«غريب القرآن».

(٢٠) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨٤: «وأشعرهن قرية المدينة، شعراؤها الفحول خمسة... وأشعرهم حسان بن ثابت».

مع أولاد عمه الملوك والأمراء

اطلعنا على بيئته في المدينة، وسنحاول أن نلم ببعض وفاداته خارجها، وأشهرها ما كان على أولاد عمه ملوك الغساسنة والمناذرة:

١ - مع الغساسنة:

مد حسان عينييه إلى بلاط أقاربه الغسانيين حيث العيش الهنيء الضاحك والبساتين الغناء المثمرة والخمور والألبسة المترفة.. ومن المرجح - كما يقول الأستاذ نولدكه: - «أن حسان اتصل ببلاط بني جفنة حوالي سنة ٦١٠م، ولعله وفد عليهم مرات أخرى، كثيرة وهو يفاخر بالقرابة التي تربطه بهم»^(١)

ونرجح أنه قصد أول ما قصد الأمير الغساني «جيلة بن الأيهم»^(٢)، فأحسن الأمير لقاءه، وأجاد حسان الشكر والثناء، وحظي عند ممدوحه بالتكريم والعطاء الجزيل، حتى صار يغدو عليه سنة، ويقيم في أهله سنة^(٣).

ويبدو أن رونق الحياة لدى الأمير قد بهت قليلاً في عيني حسان، أو أنه قد طمح إلى ما هو أرفع أو لعله أراد محض التجديد، أو التعرف، أو البر بالرحم، فطمع في عشرة الأمير (يسميه الأغاني: الملك) «الحارث بن أبي شمر الغساني»^(٤)، فوفد عليه وقد هياً له مديحاً، فقدم له حاجبه بعض النصائح عن طبع الملك وتصرفه، فأحسن الاستفادة منها، وحضر طعامه وشرابه ولهوه، وأنشده شعراً أعجبه^(٥)، ثم نصحه الحاجب بعد أن أقام عنده أياماً أن يستأذنه بالانصراف لأن النابغة سيفد عليه، فأذن له وأجزل عطاءه^(٦).

والأسباب الموجبة للزيارة لدى حسان أن هذا الأمير له قرابة ورَّحمٌ بصاحبه «جيلة»، وأنه أبذل الناس للمعروف، وأنه قد يئس من أن يفد عليه الشاعر لما يعرف من انقطاعه إلى «جيلة»^(٧). وطبيعي أن قرابة هذا الأمير من جيله تعني أيضاً قرابته من الشاعر. وقد ذهب إليه في السنة التي جعلها للإقامة في المدينة^(٨).

وقد تعرض الديوان^(٩) لوفادة حسان على «الحارث»، وذكر أن الأمير عاتبه عتاباً رقيقاً، واتهمه بأنه يفضل عليه «النعمان بن المنذر اللخمي»^(١٠)، فتبرأ حسان من هذه التهمة قائلاً:

«وكيف أفضّله عليك؟! فوالله لقفاك أحسن من وجهه، ولأملك أشرف من أبيه، ولأبوك أشرف من جميع قومه، ولشمالك أجود من يمينه، ولحرمانك أنفع من نداء، ولقليلك أكثر من كثيره، ولشمالك^(١١) أشرع^(١٢) من غديره، ولكرسيك أرفع من سريريه، ولجدولك أغور^(١٣) من بحره، وليومك أطول من شهره، ولشهرك أمدّ من حوله، ولحولك خير من حقبه^(١٤)، ولزندك أوري^(١٥) من زنده، ولجندك أعزّ من جنده، وإنك من غسان وإنه من لحم، فكيف أفضله عليك وأعدله بك؟»

فقال الأمير: يا ابن الفريعة هذا لا يُسمع إلا في شعر، فقال:

نُبِّئْتُ أَنْ أَبَا مَنَـنْـذَرٍ

يُسَامِيكَ لَلْحَارِثِ الْأَصْغَرِ^(١٦)

قَفَاكَ لِأَحْسَنَ مِنْ وَجْهِهِ

وَأَمَّكَ خَيْرٌ مِنَ الْمَنَـنْـذَرِ^(١٧)

وَيَسْرِي يَدِيكَ عَلَى عُسْرِهَا

كَيْمُنِي يَدِيهِ عَلَى الْمَعْسَرِ

وَشَتَانِ بَيْنَكُمْ فِي النَّدَى

وَفِي الْبَأْسِ وَالْخَيْرِ وَالْمَنْظَرِ^(١٨)

هذه كانت الوفادة الوحيدة - التي أوردتها المصادر القديمة - على «الحارث»، وإذا سلمنا بما حكم به «نولدكه» أن حسان اتصل ببلاط «بني جفنة» حوالي سنة (٦١٠م)، وإذا صحّ ترجيحنا أن حسان قصد أولاً الأمير «جبلة»، فإن وفادته هذه على «الحارث» يغلب أن تكون حوالي سنة (٦١٥م).^(١٩)

ومن خلال هذه الوفادة يمكن أن تلاحظ أمورٌ عدة أهمها:

- رغبة حسان في توثيق الصلة بأمراء الغساسنة بوجه عام، وإن فضل بعضهم على بعض.
- ظاهرة انقطاع شاعر ما إلى أمير ما .
- توجه ركاب الشعراء إلى من يبذل المعروف:
- يسقط الطير حيث ينتثر الحب
- بُ وثُغشى منازل الكرماء^(٢٠)
- قيام الحاجب بتعليم الشاعر الزائر شيئاً ممّا نسميه آداب زيارة الملوك بطريقة لبقّة.
- حرص الأمير على اختيار زوّاره، وعلى معرفة رأي الناس في غيره من الأمراء (استطلاع الرأي العام).
- اكتشاف جانب من أخلاق الأمير، فهو يكره أن يقع أحد في «جبلّة»، أو أن يطري محاسنه بإطناب.
- حرص الأمير على معرفة أوضاع أبناء عمّه الأوس والخزرج في الحجاز، وعلاقتهم بيهود.
- ظاهرة الطعام الكثير وألوان الأشربة، والمنازل، واللهو والطرب، وقيام الوصفاء على رأس الأمير والضيوف.
- استئذان الشاعر الأمير بالانصراف قبل أن يعرض عنه إذا جاء سواء من أهل الحظوة.
- الاستماع إلى الشعر في أثناء النشوة من الشراب.
- استشارة الأمير الشاعر لكي يجود ويحسن، وينضمّ إلى جانب «الأمير» ضد عدوه، ثم لكي ينظم ما نثر من ثناء.
- العطاء الجزيل^(٢١).

وانطلاقاً من فكرة توثيق الصلة بأمراء الغساسنة، أو ما سواها طمح «حسان» إلى عشرة الأمير الغساني القوي «عمرو بن الحارث»^(٢٢)، فأحسن استقباله، وأكرم مثواه، وبلغ من شدة عنايته به، وحرصه عليه أنه كان خاف عليه - وهو الشاعر الناشئ - من الشعارين الفحلين النابغة وعلقمة^(٢٣) أن يبرزاه أو يسقطاه، وقد وصف حسان زيارته كما ذكر الأغاني^(٢٤).

«قال حسان: قدمت على عمرو بن الحارث، فاعتاص عليّ الوصول إليه، فقلت للحاجب بعد مدة: إن أذنت لي عليه، وإلا هجوت اليمن كلها ثم انقلبت عنكم، فأذن لي فدخلت عليه، فوجدت عنده النابغة، وهو جالس عن يمينه، وعلقمة بن عبدة وهو جالس عن يساره، فقال لي: يا ابن الفريعة! قد عرفت عيصك^(٢٥) ونسبك في «غسان»، فارجع فإني باعث إليك بصلة سنيّة، ولا أحتاج إلى الشعر، فإني أخاف عليك هذين السبعين: النابغة وعلقمة أن يفضحاك، وفضيحتك فضيحتي، وأنت والله لا تحسن أن تقول:

رَقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حِجْزَانُهُمْ

يُحَيُّونَ بِالرِّيحَانِ يَوْمَ السِّبَاسِ^(٢٦)

فأبيتُ وقلت: لا بدّ منه. فقال: ذاك إلى عمّيك. فقلت لهما: بحقّ الملك إلا قدّمتماني عليكما. فقالا: قد فعلنا. فقال عمرو بن الحارث: هات يا ابن الفريعة. فانشأت:

أَسْأَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أُمَ لَمْ تَسْأَلْ

بَيْنَ الْحَوَانِي فَالْبُضَيْعِ فَحَوْمِل^(٢٧)

فقال: فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل^(٢٨) عن موضعه سروراً حتى شاطر البيت وهو يقول: هذا وأبيك الشعر لا ما تعلّلاني به منذ اليوم! هذه والله البتارة التي قد بترت المدائح، أحسنت يا ابن الفريعة، هات له يا غلام ألف دينار مرجوحة، وهي التي في كلّ دينار عشرة دنانير، فأعطيت ذلك ثم قال: لك علي في كل سنة مثلها.

«ثم أقبل على النابغة، فقال: قم يا زياد، فهات الثناء المسجوع، فقام النابغة فقال: ألا أنعم صباحاً أيها الملك المبارك، السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك، ووادي فداؤك،

والعرب وقاؤك، والعجم حماؤك، والحكماء جلساؤك... فرفع عمرو رأسه إلى جارية كانت قائمة على رأسه، وقال: بمثل هذا فليثنَّ على الملوك، ومثل ابن الفريضة فليمدحهم، وأطلق له أسرى قومه...»^(٢٩).

وها هنا سؤال يطرح، ومن الضرورة أن يجاب عليه:

ترى متى وفد حسان بن ثابت على الأمير «عمرو بن الحارث»؟

الدلائل تشير إلى أن حسان كان في مطلع حياته الفنية ولم يتمّ نضجه، والواقع يملي أن تلك الزيارة تمّت قبل موت الشاعر «علقمة الفحل» (سنة ٦٠٣م / ٢٠ ق.هـ)، وهو يستطيع أن ينفذ وفاداته في سن الخامسة والعشرين، فإذا سلّمنا أن ولادته كانت سنة ٥٦٤ أو ٥٦٣م (٦٠ أو ٦١ ق.هـ) فالوفادة يمكن حصرها ما بين سنة ٥٩٠ و ٦٠٣م (٣٥ - ٢٠ ق.هـ)، ويرجح أنها حصلت في أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل القرن السابع. ويؤيد هذا التاريخ المبكر أن الأمير عمرأ خاف عليه وهو الشاعر الناشئ أن يفضحه السبعان (الناطقة وعلقمة) ولكن هذا الرأي يعارض ما ذهب إليه «نولدكه» الذي جعل وفاداته على الغساسنة حوالي ٦١٠م، وجعل جبلة أول من قصده^(٣١).

وظل شاعرنا يتذوق أفانيق^(٣١) الهناء والسعادة والترف وبلهنية^(٣٢) العيش حيث فرش تحت الملك أو الأمير «الأس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأُتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة، وأُوقد له العود المندى إن كان شاتيا، وإن كان صائفاً بطن بالثلج، وأُتي هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل بها هو وأصحابه في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفَنَك^(٣٣)، وما أشبهه، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم، وعلى غيري من جلسائه، هذا مع حلم عمّن جهل، وضحك وبذل من غير مسألة، مع حُسْن وجه وحُسْن حديث، ما رأيت منه خنى قط ولا عريضة...»^(٣٤).

ولم يعكّر صفو هذا العيش الرخي إلا انقضااض الفرس على الروم سنة ٦١٣م (٩ ق.هـ) وقضاؤهم على ملك آل جفنة، ففر بعض أمرائهم إلى بلاد الروم، والتجأ بعضهم - ومنهم جبلة بن الأيهم - إلى الصحراء^(٣٥)، فراح حسان يكفكف العبرة، ويكتم

الحسرة، وقد تلقى من الدهر أبلغ عبرة:

من يَغُرُّ الدهرُ أو يَأْمَنُهُ

من قبيل بعد عمرو وخُجْر^(٣٦)

وظل وفيًّا لذكراهم حتى آخر أيامه، فكان يغلب البكاء عليه إذا ذكروا: دُعي مرة هو وابنه عبدالرحمن إلى مأدبة آل نُبَيْط^(*)، وقد ذهب بصره « فلما فرغوا من الطعام أتوا بجاريتين إحداهما رائقة والأخرى عرّة، فجلستا، وأخذتا مزهريهما، وضربتا ضربا عجيبا، وغنّتا بقول حسان: ^(٣٧)

انظر خليلي بباب جلق هل

تبصر دون البلقاء من أحد

يقول راوي الخبر: فأسمع حسان يقول:

قد أراني بها سميعاً بصيراً

وعيناه تدمعان، فإذا سكتتا سكت عنه البكاء، وإذا غنّتا بكى...»

وقال سعيد بن عبدالرحمن بن حسان في تكملة الخبر: «لما انقلب حسان من مأدبة بني نُبَيْط إلى منزله، استلقى على فراشه، ووضع إحدى رجليه على الأخرى، وقال: لقد أذكرتني رائقة وصاحبتهما أمراً ما سمعته أذنائي بعيد ليالي جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم. فقلت: يا أبا الوليد، أكان القيان. يكنّ عند جبلة؟ فتبسم ثم جلس، فقال: لقد رأيت عشر قيان: خمس روميّات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة... وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها...»^(٣٨).

ودعي مرة إلى وليمة ختان في بيت «زيد بن ثابت الأنصاري»^(٣٩) وقد كُفَّ بصره يومئذ، وثقل سمعه، ووُضع بين يديه خوان^(٤٠) ليس عليه إلا عبدالرحمن ابنه، فكان يسأله: أطلعام يد أم يدين^(٤١)؟ فلم يزل يأكل حتى جاؤوا بالشواء، فقال: طعام يدين، فأمسك يده حتى إذا فرغ

(*) هنالك نُبَيْط بن جابر: أنصاري خزرجي من بني النجّار شهد أحداً، وله عَقَب، ومن أبنائه رجل يدعى عبدالملك. وهنالك نُبَيْط بن شُرَيْط الأشجعي صحابي ممن روى عن النبي ﷺ. وله ولد يدعى سلمة كان يروي عنه. والأول هو المقصود على الأرجح (انظر أسد الغابة / ٣١٢/٥).

من الطعام ثنيت وسادة، وأقبلت الميلاء^(٤٣)، وهي يومئذٍ شابة، فوَضِعَ في حجرها مزهر،
فضربت به، ثم تغنت، فكان أول ما ابتدأت به شعر حسان:

فلا زالَ قَبْرُ بَيْنِ بَصْرَى وَجَلَّقَ
عَلَيْهِ مِنَ الْوَسْمِيِّ جَوْدٌ وَوَابِلٌ^(٤٤)

فطرب حسان، وجعلت عيناه تتضحان، وهو مصغٍ لها...^(٤٥)

ومن الغريب أن تستخدم مزية الوفاء هذه سلاحاً يشهر ضد حسان في بعض المواضع:

فقد روى الأغاني^(٤٦) أن القوم لما فرغوا من الطعام في مأدبة آل نبيط ثقل عليهم
جلوس حسان فأوماً ابنه إلى عزة الميلاء فغنت:

انظر خَلِيلِي بِبَابِ جَلَقِ هَلْ
تَبْصُرُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ

فبكى حسان حتى سَدِرَ^(٤٧)، ثم قال: هذا عمل الفاسق^(٤٨)، أما لقد كرهتم
مجالستي، فقبح الله مجلسكم سائر اليوم، وقام وانصرف...».

وأورد الأغاني خبراً آخر مشابهاً عن شيخ من قريش أنه قال:^(٤٩)

«إني وفتية من قريش عند قينة من قيان المدينة، ومعنا عبدالرحمن بن حسان بن
ثابت إذ استأذن حسان، فكرهنا دخوله، وشق ذلك علينا، فقال لنا عبدالرحمن، أيسرَّكم
ألا يجلس؟ قلنا: نعم. قال: فمروها إذا نظرت إليه أن ترفع عقيرتها وتغني:

أولاد جَفْنَةٍ عِنْدَ قَبْرِ أَبِيهِمْ
قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةِ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
يُغَشَّوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَّ كَلَابُهُمْ
لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ^(٥٠)

قال: فوالله لقد بكى حتى ظننا أنه سقطت نفسه، ثم قال: أفيكم الفاسق؟ لعمرى
لقد كرهتم مجلسي سائر اليوم، وقام، وانصرف...».

وكذلك الغساسنة لم ينسوا حسان وشعره، وبادلوه وفاء بوفاء، فقد كان أمراؤهم يسألون عنه الغادي والرائح، ويخصّونه بالهدايا السنّية بعد انقطاعه عنهم، وذهاب دولتهم:

فقد أرسل «عمر بن الخطاب»^(٥١) مرة برسالة إلى «قيصر». فسأل قيصر الرسول: هل رأيت ابن عمك هذا الذي رغب في ديننا؟ قال: لا. قال: فالحق. فتوجّه الرجل نحو مقرّه فألقى جبلة بن الأيهم في بهو فخم وأبهة عظيمة. وبعد قليل قال جبلة للجواري: أطربنني! فحققن بعيدانهن يغنين:

لله درُّ عصابة نادمٌهم

يوماً بجلق في الزمان الأول^(٥٢)

فاستهلّ، واستبشر، وطرب، ثم قال: زدني! فاندفعن يغنين:

لمن الدار أقفرت بمعان

بين شاطي اليرموك فالصمّان^(٥٣)

فقال: أتعرف هذه المنازل؟ قال الرجل: لا. قال: هذه منازلنا في ملكنا بأكناف دمشق، وهذا شعر ابن الضريعة حسان بن ثابت. فقال له الرسول: أما إنه ضرور كبير السن. قال: يا جارية! هاتي. فأتته بخمسمئة دينار وخمسة أثواب من الديباج، فقال: ادفع هذا إلى حسان وأقرئه مني السلام...

وعاد الرجل إلى المدينة، فأخبر عمر بن الخطاب، فأرسل عمر إلى حسان، «فأقبل يقوده قائده حتى دنا فسلم، وقال: يا أمير المؤمنين إني لأجد أرواح آل جفنة. فقال عمر رضي الله عنه: قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رغم أنفه، وأتاك بمعونة، فانصرف عنه، وهو يقول:

إن ابن جفنة من بقيّة معشرٍ

لم يغنّهم أبائهم بالأووم

لم ينسنني بالشام إذ هو ربّها

كلا ولا مُتَنَصِّراً بالروم

يعطي الجزيل ولا يراه عنده

إلا كبعض عطية المذموم

وَأَتَيْتُهُ يَوْمًا فَقَرَّبَ مَجْلِسِي

وَسَقَى فَرَوَانِي مِنَ الْخَرْطُومِ^(٥٤)

وقال: ما كان خليلي ليخلَّ بي، فما قال لك؟ قال: قال إن وجدته حيا فادفعها إليه، وإن وجدته ميتاً فاطرح الثياب على قبره. فقال حسان: ليتك وجدتني ميتاً ففعلت ذلك بي...»^(٥٥).

ولم تستطع الأيام والسنون أن تخمد جذوة الوفاء بين الأخلاء، ولا أن تضعفها على بعد الدار وشحط المزار، فقد حدث بعد عشرين سنة تقريبا ما يشبه هذه الحادثة، وما يبرهن على بقاء أواصر المودة والوفاء حتى أيام «معاوية بن أبي سفيان»^(٥٦).

فقد أورد الأغاني عن رجل اسمه عبدالله بن مسعدة الفزاري قوله:^(٥٧)

«وَجَّهَنِي مُعَاوِيَةُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا عِنْدَهُ رَجُلٌ عَلَى سُرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ دُونَ مَجْلِسِهِ، فَكَلَمَنِي بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنَا رَجُلٌ غَلِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ، أَنَا جَبَلَةٌ بَنُ الْأَيْهَمِ، إِذَا صَرْتُ إِلَى مَنْزِلِي فَالْقَنِي.

«فلما انصرف وانصرفتُ أتيتُه في داره، فألقيتُه على شرابه، وعنده قينتان تغنيانه بشعر حسان بن ثابت:

قَدْ عَفَا جَاسِمٌ إِلَى بَيْتِ رَأْسٍ

فَالْحَوَانِي فَجَانِبِ الْجَوْلَانِ^(٥٨)

وذكر بقية الأبيات..

«فلما فرغنا من غنائهما أقبل علي، ثم قال: ما فعل حسان بن ثابت؟ قلت: شيخ كبير قد عمي فدعا بألف دينار فدفعها إلي، وأمرني أن أدفعها إليه...».

قال: «وقدمت المدينة فدخلت مسجد رسول الله ﷺ، فلقيت حسان، فقلت: يا أبا الوليد، صديقك جبلة يقرأ عليك السلام. فقال: هات ما معك. قلت: وما علمك أن معي شيئاً؟ قال: ما أرسل إلي بالسّلام قط إلا ومعه شيء. قال: فدفعته إليه المال.»^(٥٩)

٢ - مع المناذرة:

واتصل حسان من المناذرة بالنعمان بن المنذر أبي قابوس^(٦٠) مدة غياب النابغة عن الحيرة، وها هو ذا يقول:

«قدمت على النعمان بن المنذر، وقد امتدحته، فأتيت حاجبه عصام بن شَهْبَر^(٦١)، فجلست إليه فقال: إني لأرى عريباً، أضمن الحجاز أنت؟ قلت: نعم. قال: فكن قحطانياً، فقلت: فأنا قحطاني. قال: فكن يثريباً، قلت: فأنا يثربي. قال: فكن خزرجياً، قلت: فأنا خزرجي. قال: فكن حسان بن ثابت. قلت: فأنا هو. قال: أجئت بمدحة الملك؟ قلت: نعم. قال: فإني أرشدك:

إذا دخلت إليه فإنه يسألك عن جيلة بن الأيهم، ويسبّه، فإياك أن تساعده على ذلك، ولكن أمرّ ذكّره إمراراً لا توافق فيه ولا تخالف، وقل: ما دخول مثلي أيها الملك بينك وبين جيلة، وهو منك وأنت منه؟ وإن دعاك إلى الطعام فلا تؤاكله، فإن أقسم عليك فأصّب منه اليسير إصابة بارٍّ قَسَمَهُ متشرفٌ بمؤاكلته لا أكل جائع سغب، ولا تطل محادثته، ولا تبدأه بإخبار عن شيء حتى يكون هو السائل لك، ولا تطل الإقامة في مجلسه. فقلت: أحسن الله رفدك قد أوصيت واعياً. «دخل ثم خرج إلي فقال لي: ادخلْ فدخلت فسلمت وحييت تحية الملوك، فجاراني من أمر جيلة ما قاله عصام كأنه كان حاضراً، وأجبت بما أمرني، ثم استأذنته في الإنشاد فأذن لي فأنشدته ثم دعا بالطعام، ففعلت ما أمرني عصام به، وبالشراب ففعلت مثل ذلك. فأمر لي بجائزة سنية، وخرجت، فقال لي عصام: بقيت عليّ واحدة لم أوصك بها: قد بلغني أن النابغة الذبياني قدم عليه، وإذا قدم فليس لأحد منه حظ سواه، فاستأذن حينئذٍ وانصرف مكرماً خيراً من أن تتصرف مجفوّاً، فأقمت ببابه شهراً...».

ولقي حسان عند الملك حظوة حتى إذا أدنى النعمان النابغة - بوساطة بعضهم - بعد جفوة وغضب، شعر حسان أنه لا نصيب له في ذاك البلاط بعد الآن - كما نصحه عصام - فأنصرف، وفي ذلك يقول حسان واصفاً موقفه من النابغة:

«فحسدته على ثلاث (أي النابغة) لا أدري على أيّتهنّ كنت له أشدّ حسداً، على

إدناء النعمان له بعد المباحدة، ومسامرته له وإصفائه إليه، أم على جودة شعره، أم على
مئة بغير من عصافيره أمر له بها»^(٦٢).

وفي ديوانه^(٦٣) إشارات إلى أنه وفد على «ابن سلمى»^(٦٤)، وشفع لديه في بعض
قومه، فأطلقهم^(٦٥).

وقد رأى شارح الديوان أن «ابن سلمى» المشار إليه هو النعمان بن المنذر^(٦٦)،
ووافقه في ذلك البستاني صاحب الروائع^(٦٧)، بينما ذهب نولدكه إلى أنه من
الغساسنة^(٦٨) وهذا غلط. والحق أن «ابن سلمى» هو النعمان بن المنذر وسلمى هي أمه،
وهي: سلمى بنت عطية، وعطية هذا كان صائغاً بفدك^(٦٩).

هذا ولم نقع على «مدحة الملك» التي ذكرها عصام، وسأل حسان عنها، كما أننا
لم نجد في ديوانه أية قصيدة في مدح النعمان.

الهوامش

- (١) كتابه: أمراء غسان ص ٤٥ .
- (٢) جبلة بن الأيهم بن جبلة الغساني (..... - ٢٠هـ / - ٦٤١م). من آل جفنة آخر ملوك الغساسنة في بلاد الشام، عاش زمنًا في الجاهلية، وقاتل جيوش المسلمين مع الروم في دومة الجندل واليرموك، ثم أسلم وهاجر إلى المدينة المنورة، ثم ارتدَّ وهرب إلى بلاد الروم، فأقام في القسطنطينية حتى مات.
- (٣) الأغاني: ١٧٠/١٥ (مصورة دار الكتب)، ويظهر ذلك في قوله: «كان حسان يفد على جبلة سنة، ويقيم سنة في أهله، فقال: لو وفدت على الحارث بن أبي شمر الغساني، فإن له قرابة ورحماً بصاحبي، وهو أبذل الناس للمعروف، وقد يئس مني أن أفد عليه لما يعرف من انقطاعي إلى جبلة، فخرجت...».
- (٤) الحارث بن أبي شمر الغساني (..... - ٨هـ / - ٦٣٠م). من أمراء غسان في أطراف الشام، كانت إقامته بغوطة دمشق، وأدرك الإسلام، فأرسل إليه النبي ﷺ كتاباً مع شجاع بن وهب، ومات في عام الفتح (فتح مكة). وهو - بلا شك - غير الحارث الأصغر والد النعمان وعمرو اللذين ورد ذكرهما في المقدمة (*).
- (٥) لم يورد الأغاني شيئاً من مديحه، ولكن الديوان أورد (ص ٣٢٨) مقطوعة تتألف من أربعة أبيات مطلعها:
- (و) نُبِّئْتُ أَنْ أَبَا مَنْذَرٍ
يُسَامِيكَ لِحَارِثِ الْأَصْغَرِ
- (٦) الأغاني: ١٧٠/١٥ وقد ذكر الأغاني: ١٦١/١٥ ما يشبه هذه الزيارة قام بها النابغة لعمرو بن الحارث.
- (٧) المرجع السابق.
- (٨) لأنه كان يغدو على جبلة سنة، ويقيم في أهله في المدينة سنة.
- (٩) ديوانه ص ٢٣٧ .
- (❖) انظر ص ٢٨ من هذا المؤلف وما بعدها.

(١٠) سبقَت الإشارة إليه ص ٦١ من هذا المؤلف.

(١١) الثَّمَاد: الماء القليل يتجمع شتاء وينضب صيفاً.

(١٢) أشرعُ هنا: أفضل وروداً وورداً.

(١٣) أغور: أعمق.

(١٤) الحَقَب: ج الحَقَبَة: المدة من الزمن، السنة.

(١٥) أورى: أشد اشتعلاً.

(١٦) كذا ورد البيت في الديوان ص ٢٣٨، وقد ورد في موطن آخر في الأغاني ١٦١/١٥ على

الشكل الآتي:

وئُبِّئْتُ أَنْ أَبَا مَنْذَرٍ
يُسَامِيكَ لِاحْدَثِ الْأَكْبَرِ

وهذه الرواية أفضل للوزن وللمعنى.

(١٧) كذا ورد البيت في الديوان ص ٢٣٨، وفي الأغاني ١٦١/١٥:

قَدْ ذَلَّكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ

وهذا أفضل وزناً ومعنى.

(١٨) الخَيْر: بكسر الخاء الكرم، وقيل الشرف.

(١٩) تحديد «نولده» حوالي سنة ٦١٠ م غير دقيق كما سيرد بعد قليل، إذ إن حسان وفد على

عمرو بن الحارث وعنده النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة، ومعروف أن علقمة مات سنة

٦٠٣ م، ولذا يفضّل أن يصحّح الرقم فيصبح: حوالي سنة ٦٠٠ كان اتصاله ببلاط بني

جفنة وقصده جبلة. ويكون وفوده على الحارث بعدها بسنتين أو ثلاث، ويرجع أن وفوده

على عمرو ابن الحارث كان قبل اتصاله بجبلة، كما يرجح أن هذا الوفود كان ما قبل سنة

٦٠٠ م بدلالة شبابه وخوف الأمير عمرو عليه.

(٢٠) البيت للشاعر بشار بن برد من قصيدة يمدح فيها عُقبة بن سَلَم، مطلعها:

حَيِّيا صاحبِي أم العلاءِ

واحذرا طَرَفَ عَيْنِها الحوراءِ

(ديوانه: ١٠٧/١ - تحقيق محمد الطاهر بن عاشور - القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م).

(٢١) انظر الخبر في كل من المرجعين: الأغاني: ١٧٠/١٢، وديوان حسان ص ٢٣٧ .

(٢٢) سبقت ترجمته والإشارة إليه ص ٢٨ من هذا المؤلف وهو: عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شَمِر. وأم الحارث الأعرج هي: مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مُرْتَع الكندية وهي «ذات القرطين» اللذين يضرب بهما المثل فيقال لما يُغْلَى به الثمن: «خذه ولو بقرطي مارية»، وأختها: هند الهنود امرأة حجر آكل المرار وإياها عنى حسان بقوله في مديح جيلة:

أولادُ جفنةٍ حول قبر أبيهم

قبر ابن مارية الكريم المفضل

(٢٣) علقمة الفحل (..... - نحو ٢٠ ق.هـ/..... - نحو ٦٠٣م). هو علقمة بن عبدة (يفتح العين والباء) بن ناشرة بن قيس من بني تميم: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصراً لامرئ القيس، وله معه مساجلات، وقد أسر الأمير «الحارث الأصغر» والد عمرو هذا «شأساً» أخوا علقمة، فتشفع به علقمة، ومدح الحارث بأبيات فأطلقه.

(٢٤) الأغاني: ١٥٨/١٥ .

(٢٥) العيص: (بكسر العين): الأصل.

(٢٦) البيت للناطقة الذبياني من قصيدة في مدح الأمير الغساني «عمرو بن الحارث الأصغر» مطلعها:

كليني لهم يا أميمة ناصبٍ

وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ

ومنها:

عليّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمةٍ

لوالده ليست بذات عقاربِ

رقاق النُّعال: أراد أنهم ملوك لا يخصصون نعالهم وإنما يخصص نعله من يمشي.. طيّب حجازاتهم: أي: هم أَعَفَّةٌ مُحَصَّنُونَ وأصل الحجة الوسط، أي: يشدون أزرهم على عفة. يوم السباسب: يوم الشعانين هو عيدٌ من أعياد النصارى، وكان عمرو نصرانياً.

(٢٧) وردت القصيدة في ديوانه ص ٣٦٣. وردت في الديوان «الجوابي» بدلاً من «الحواني» وفي الشرح ذكر أنه أراد جابية الجولان. والجولان ما بين دمشق والأردن. البضيع بالتصغير جبل بالشام أسود. وحومل: موضع وهو فوعل لكثرة التحميل كقولك نوفل من النفل.

(٢٨) يزحل: ينتحي أو يتباعد.

(٢٩) يلاحظ أن الأغاني لم يذكر شيئاً يتعلق بعلقمة بن عبدة. (انظر الأغاني: ١٥٨/١٥ وديوانه ص ٣٦١). وتنتمى الخبر في الأغاني أن النابغة تعرّض في كلمته للمفاضلة بين عمرو بن الحارث، والمنذر اللخمي (لعله النعمان بن المنذر) وأن الأمير عمراً طلب منه أن يصوغ هذه المفاضلة شعراً، ففعل، وقال:

وَنَبَّئْتُ أَنْ أَبَا مَنَـنْـذَرٍ

يَسَامِيكَ لِاحْدَثِ الْأَكْبَرِ

وهنا يختلط هذا الخبر مع ما أورده ديوانه ص ٢٣٧ وذكرناه فيما سبق؛ إذ يرد هنا شيء من السجع الذي ذكره لحسان في مديح الحارث وبعض الأبيات التي نظمها وقد رجح الأغاني أن تكون للنابغة (١٦١/١٥) بعد أن ذكر أن هناك من جعلها لحسان.

(٣٠) ويضعف رأي «نولدكه» كذلك أن الغساسنة نكبوا - كما سيرد بعد قليل - سنة ٦١٣م (٩ قه) وشردوا، ولجأ جيلة إلى الصحراء.. وبذا يغدو ما ذهبنا إليه أقرب إلى الصواب حتى يأتي ما يعارضه، وهذا يجعلنا نحدد بشيء من الطمأنينة ما يأتي على وجه التقريب:

- حوالي سنة ٦٠٠م كان اتصال حسان ببلاط بني جفنة وقصده جيلة.

- كان وفوده على الحارث بن أبي شمر الغساني بعد هذا التاريخ بسنتين أو ثلاث.

- كان وفوده على «عمرو بن الحارث» قبل اتصاله بجيلة كما يرجح، وقُبِّلَ سنة ٦٠٠م أو ما بعدها بقليل.

(٣١) أفاويق الليل: أكثره.

(٣٢) بلهنية العيش: رخاؤه.

(٣٣) المختار: «يفرأء الفنك» والفنك: جنس من الثعالب أصغر من الثعلب المعروف، وفروته من أحسن الفراء.

(٣٤) الأغاني: ١٧/١٦٦، والكلام لحسان في وصف مجلس جبلة بن الأيهم.

(٣٥) أمراء غسان ص ٤٥ .

(٣٦) البيت لحسان من قصيدة وردت في ديوانه ص ٢٥٩ مطلعها:

أَجْمَعَتْ عَمْرُؤُ صُرْمًا فَا بَتَكِرُ
إِنَّمَا يُدْهِنُ لَلْقَلْبِ الْحَصِرُ

وعمرو وحجر من ملوك غسان:

الأول عمرو بن الحارث بن عمرو بن عدي بن حجر بن الحارث الغساني.

الثاني: حجر بن النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني.

(٣٧) ديوانه - دار الأندلس ص ١٦٦ والبيت مطلع القصيدة وفيه «تؤنس» بدلاً من تبصر. جلق: مرَّ شرحها. البلقاء: كورة من أعمال دمشق. المزهر: ج مزاهر: العود آلة الطرب المعهودة ومثله البربط.

(٣٨) الأغاني: ١٧/١٦٥ وقد روى الخبر بأوجه متعددة كلها بهذا التوجه مع خلاف في التفصيل.

(٣٩) زيد بن ثابت بن الضحّاك الأنصاري الخزرجي، أبو خارجة (١١١ق هـ - ٤٥هـ / ٦١١ - ٦٦٥م) من أكابر الصحابة كان كاتب الوحي، ولد في المدينة ونشأ بمكة، وقتل أبوه وهو ابن ست سنين، وهاجر مع النبي ﷺ وهو ابن ١١ سنة، وتعلم وتفقه في الدين، فكان رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض. وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ من الأنصار، وعرضه عليه، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار، ولما توفي رثاه حسان بن ثابت.

(٤٠) الخوان: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل.

(٤١) أهو ممّا يؤكل بيد واحدة كالثريد؟ أم مما يحتاج إلى يدين كالشواء؟

(٤٢) قال له ابنه: هذا طعام يدين (شواء) لأنه كان من قبل قد سأله.

(٤٣) عَزَّةُ المِيلَاءِ (..... - نحو ١١٥هـ / - نحو ٧٣٣م). مولاة للأنصار إقامتها بالمدينة المنورة، كانت وافرة السمن، جميلة الوجه، لُقِّبَت بالمِيلَاءِ لتمايلها في مشيها، كانت أقدم مَنْ غَنَّى غناءً موقعاً في الحجاز، وكانت تضرب بالعيدان والمعازف، وقد سمعها معبد المغنِّي وحسان الشاعر، وزارها في بيتها النعمان بن بشير الأنصاري، وسمع غناءها، وكذلك كان عبدالله بن جعفر وعمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق يزورونها في منزلها فتغنيهم. كانت على خلقٍ كريم وإسلام لا يشوبه دنس تأمر بالخير وهي من أهله وتنتهى عن السوء وهي مجانية له..

(٤٤) انظر الأغاني: ١٦٥/١٧ ولم يرد في ديوانه... وفي الأغاني: ١٦١/١٧:

فلا زال قَبْرُ بَيْنِ تَبْنَى وَجاسمٍ
عليه من الوسمي جَوْدٌ ووابلُ
فِيُنْبِت حَوذَانًا وَعَوْفًا مَنْوَرًا
سَأَتْبَعُهُ مِنْ خَيْرِ مَا قَالَ قائلُ

تبني: بلدة بحوران من أعمال دمشق، الوسمي: أول المطر. الجود: الغزير، الحوذان والعوف: نبتان طيبا الرائحة، والقبر فيما يقال: قبر الأيهم بن جبلة بن الأيهم الغساني، وقيل إنه قبر الحارث بن مارية الجفني.

(٤٥) انظر الخبر بتمامه في الأغاني ١٦٤/١٧ .

(٤٦) الأغاني: ١٦٧/١٧ .

(٤٧) سدر: أصابه شبه دوار وتحير.

(٤٨) يقصد ابنه لأنه أعرف بنقطة الضعف هذه لديه من غيره.

(٤٩) الأغاني: ١٧٢/١٧ .

(٥٠) البيتان من قصيدة له في ديوانه ص ٣٦٣ في مديح عمرو بن الحارث سبق ذكرها، ومطلعها:

أَسَأَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أُمَ لَمْ تَسْأَلِ
بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبُضَيْعِ فَحَوْمِلِ

جفنة: أبوملوك آل غسان وهو: جفنة بن عمرو مزيقياء الذي تقدم نسبه، ومارية هي بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة وابنها: الحارث الأعرج.

(٥١) عمر بن الخطاب بن نُفَيْل القرشي العدوي، أبوحفص (٤٠ ق.هـ - ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م) ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمر المؤمنين، الصحابي الجليل، الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرفهم، وله السفارة فيهم، وهو أحد العمرين اللذين كان النبي ﷺ يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحدهما. أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع، وبويع له بالخلافة يوم وفاة أبي بكر سنة ١٢هـ / ٦٣٥م بعهد منه، وهو أول من وضع للمسلمين التاريخ الهجري، واتخذ بيت مال للمسلمين، وكان يطوف في الأسواق منفرداً. لقبه النبي ﷺ بالفاروق، قتله اللعين أبولؤلؤة الفارسي غيلة، وهو في صلاة الصبح.

(٥٢) البيت من قصيدة لحسان وردت في ديوانه ص ٣٦٣ في مدح عمرو بن الحارث ومطلعها:

أَسْأَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ

بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبَضِيعِ فَحَوْمِلِ

(٥٣) البيت مطلع قصيدة لحسان في ديوانه ص ٤٧٤ في مدح جبلة بن الأيهم، ويليهِ:

فَالْقُرَيَّاتِ مِنْ بِلَاسِ فِدَارِي

يَا، فَسَكَّاءَ فَالْقُصُورِ الدَّوَانِي

فَقَفَا جَاسِمٌ فَأَوْدِيَةَ الصَّفِّ

فَرَمَعْنِي قِبَائِلٌ وَهَجَّانِ

وهي مواضع بأكناف دمشق كانت مقرّ ملك آل جفنة.

(٥٤) الأبيات وردت في ديوانه ص ٤٤٧ دون خلاف.

(٥٥) انظر الأغاني: ١٥/١٦٤ وديوانه ص ٤٤٧.

(٥٦) معاوية بن أبي سفيان القرشي الأموي (٢٠ ق.هـ - ٦٠هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠م). مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب الكبار، كان فصيحاً حليماً وقوراً، ولد بمكة المكرمة، وأسلم يوم فتحها (سنة ٨هـ)، وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله ﷺ في كتابه، ولما ولي أبوبكر ولأه قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد فأسهم في فتح عدد من المدن، وولاه عمر الأردن ثم دمشق، وجمع له عثمان الديار الشامية كلها. وعندما قتل عثمان نادى بثأره

وَأَتَّهَمَ عَلِيًّا بِدَمِهِ، فَتَنَشَبَتْ بَيْنَهُمَا حُرُوبٌ طَاحِنَةٌ، وَبَعْدَ مَقْتَلِ عَلِيٍّ سَلَّمَ ابْنُهُ الْحَسَنُ الْخُلَافَةَ
لِمَعَاوِيَةَ سَنَةَ ٤١ هـ. وَهُوَ أَحَدُ عِظَمَاءِ الْفَاتِحِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَمِنْ رِجَالِ الدُّوَلِ النَّاجِحِينَ.

(٥٧) عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودَ بْنِ مَسْعُودِ الْفَزَارِيِّ (..... - نَحْوَ ٦٥ هـ / - نَحْوَ ٦٨٥ م). مِنْ
كِبَارِ الْقَوَادِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ يُلقبُهُ الْمُؤَرِّخُونَ بِصَاحِبِ الْجِيُوشِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُؤَمِّرُ عَلَى
الْجِيُوشِ فِي غَزَا الرُّومِ أَيَّامَ مَعَاوِيَةَ، تَرَبَّى فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ كَانَ عِنْدَ
عَلِيٍّ، وَاسْتَمَالَهُ مَعَاوِيَةُ فَصَارَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى عَلِيٍّ، وَغَزَا الرُّومَ سَنَةَ ٤٩ هـ، ثُمَّ كَانَ عَلَى
جَنْدِ دِمَشْقَ بَعْدَ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ (سَنَةَ ٦٣ هـ) وَعَاشَ إِلَى خُلَافَةِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ.

(٥٨) لَمْ يَرِدِ الْبَيْتُ فِي الدِّيَوَانِ وَإِنْ وَرَدَتْ قَصِيدَةٌ مِنْ بَحْرِهِ وَيُظَنُّ أَنَّهُ مَعَ بَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ
أُورِدَهُمَا. الْأَغَانِي مِمَّا صُنِّعَ وَانْتَحَلَ وَأُضِيفَ إِلَى الْقَصِيدَةِ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

لَمَنِ الدَّارُ أَوْحَشَتْ بِمَعَانٍ
بَيْنَ أَعْلَى الْيَرْمُوكِ فَالْخُمَانِ

أو: فَالْصَّمَانِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي الرِّوَايَةِ (انْظُرْ دِيَوَانَهُ ص ٤٧٤).

(٥٩) انْظُرِ الْأَغَانِي: ١٦٨/١٥ .

(٦٠) سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ص ٥٨ مِنْ هَذَا الْمُؤَلَّفِ.

(٦١) عَصَامُ بْنُ شَهْبَرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ ذُبْيَانَ بْنِ عَذْرَةَ (مَجْهُولُ الْوِلَادَةِ وَالْوَفَاةِ). فَارَسَ فَصِيحٌ
جَاهِلِيٌّ يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فَيَمُنُّ شَرَفٌ بِالْاِكْتِسَابِ لَا بِالْاِنْتِسَابِ. كَانَ حَاجِبًا لِلنَّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ،
وَبَلَغَتْ بِهِ هِمَّتُهُ أَنْ قَالَ فِيهِ النَّابِغَةُ:

نَفْسُ عَصَامٍ سَوَدَتْ عَصَامَا
وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامَا

وَفِي الْأَمْثَالِ: «كَانَ عَصَامِيًّا وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا».

(٦٢) الْأَغَانِي: ٢٦/١١ .

(٦٣) انْظُرِ دِيَوَانَهُ ص ٤٣٢: الْقَصِيدَةُ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

منع النوم بالعشاء الهموم
وخيال إذا تغور النجوم

(٦٤) ابن سلمى: هو النعمان بن المنذر اللخمي. وسلمى هي أمه، وهي: سلمى بنت عطية، وعطية هذا صائغ كان بفدك (انظر الأغاني: ١٣/١١)، وانظر ص ٥٨ من هذا المؤلف.

(٦٥) أوردنا الأبيات فيما سبق من هذا المؤلف، ص ٥٣.

(٦٦) انظر ديوانه ص ٤٣٣ .

(٦٧) عدد الروائع ٣٣ لفؤاد أفرام البستاني ط ٢ ص ١٢٧ .

(٦٨) كتابه: أمراء غسان ص ٤٧ .

(٦٩) انظر الأغاني: ١٣/١١ (مصورة).

شخصية حسان

ملامحه الجسدية والنفسية:

أما كيف كان حسان في هيئته العامة؟ وما ملامحه الجسدية؟ وما مكوناته النفسية؟ وما تصرفاته اليومية مع أهل بيته وجيرانه وأبناء عشيرته؟ فتلك مسائل حظها من الوضوح قليل، وشأن حسان في هذا المجال شأن جل شعرائنا الفحول إن لم نقل كلهم، وما وصلنا من الأوصاف نزرٌ لا يمكننا معه أن نقيم كياناً تاماً لشخصه، على أية حال - ومن خلال ما بلغنا عنه - علينا أن نتصور رجلاً له ناصية قد سد لها بين عينيه^(١)، وعنفة وشارب مخضبان بالحناء من دون سائر لحيته^(٢)، فإذا ما سأله ابنه عبدالرحمن: يا أبت لم تفعل هذا؟ قال: لأكون كأني أسدٌ والغ في دم، ونضع - إكمالاً للصورة - في فيه مقولاً يفري مالا تفريه الحربة أو يبلغه السيف، طويلاً طويلاً يستطيع أن يضرب به أرنبة أنفه، ويضرب به ذقنه، وبطرفه شامة سوداء كأنه لسان شجاع^(٣) هذا فقط ما نستطيع أن نعرفه من ملامحه الجسدية من خلال ما أوردته المصادر القديمة، ولعلها وقفت عند الجانب الأهم في حسان فأبرزته، عند لسانه الذي أذل به الكثير من رؤس الكبر والبطر، وجعل بعض الناس يستجير برسول الله ﷺ منه. أما تقاطيع وجهه ومعالمه: جبهته، عيناه، أنفه.. وأما هيكل جسمه: طوله، عرضه، منكبه... وأما لون بشرته.. فتلك أشياء يمكننا أن نتخيلها بعد أن نتم الاطلاع على شخصيته الشعرية، وإذا سيكون نصيب التخيل في تصور شخصيته ورسم صورته أكثر من نصيب الرواية والنقل.

لعلنا نستطيع لبلوغ عوامل فنه ومكونات نجاحه في أدائه أن نستشف من تلك الأوصاف شيئاً ينبئ عن طبع الرجل ونفسيته، فنكوّن صورة ما عن عالمه الداخلي تضيء لنا جوانب من سلوكه وتصرفاته إن صحت العلاقة بين داخل المرء وخارجه.

سنتساءل: لم كان حسان يخضب شاربيه وعنفقته من دون سائر لحيته؟ وهل لهذا صلة بنفسيته؟ هل يريد أن يعوض بمظهره الخارجي - مظهر الأسد الوالغ في الدم - عن حقيقته الداخلية؟ بل لماذا اختار هذا التشبيه من دون سواه؟ وماذا يفيد مظهر الأسد هذا مادام أهل المدينة - على الأقل كما ذكروا - يعرفون جنبه؟ هل فعل ذلك ليخيف أعداءه؟ وكيف يخيف أعداءه وهو لا يخرج للقتال كما زعموا؟ ثم علام تدل تلك الناصية المسدولة بين عينيه؟ وهل كان اجتماعُ المقول الطويل والناصية المسدولة مع الشاربين والعنفقة المخضبة بالحمرة يعطي حسان صورة خاصة...؟

هذه طائفة من التساؤلات لا بد أن تثيرها في الذهن قراءة مثل هذا الخبر، فإلى أي مدى نستطيع أن نصل في بحث نفسية هذا الرجل؟

هذا ما سنحاول تعرّفه من خلال ما ينقل، وما يستنتج في الصفحات الآتية:

١ - لقد رأى فيه بعض القدماء طبيعةً لا تليق بأمثاله، هي «الجبن»، ورووا من مواقف جنبه قصصاً متعددة:

أ - منها أنه كان يوماً في حصنه «فارغ» مع النساء خلال غزوة الخندق، وقد خرج الرسول ﷺ والمسلمون لمواجهة أعدائهم، وكان عليه الصلاة والسلام يضع نساءه في «فارغ» حصن حسان لثقتهم به، فتقدم يهودي من الحصن يحاول تبيّنه، فقالت «صفيّه بنت عبدالمطلب»^(٤) لحسان: أخرج إليه فاقتله. فقال: يرحمك الله يا ابنة عبدالمطلب لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فأخذت عموداً، ثم نزلت إليه من الحصن فضربتته بالعمود حتى قتلتته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، ثم طلبت من حسان أن يسلبه، فقال: يرحمك الله يا ابنة عبدالمطلب مالي بسلبه من حاجة^(٥).

وقد تبين أن هذه القصة منقطعة وغير صحيحة بعد أن قام الأستاذ «ناصر الدين الألباني» بتحقيقها^(٦)، فنستطيع أن نرفضها مطمئنين.

ب - ويروون قصة أخرى يزعمون أنها حدثت يوم الخندق أيضاً، ملخصها أنه كان مع النساء ينظر إلى المحاربين من أعلى أطمه، فإذا حملوا «حمل هو بسيفه على وتدٍ

يضربه، وإذا تراجعوا رجع»،^(٧) ويروي ابن عساكر أن الرسول ﷺ لما ذكروا له هذا ضحك حتى بدت نواجذه «ولم يُرَ ضَحْكٌ من شيء قط ضحكه منه»^(٨).

وقد تبين كذلك بعد تحقيق الأستاذ ناصر الدين الألباني لها أنها ضعيفة السند، فلا يؤخذ بها.

ج - ويروون كذلك قصة الثالثة موجزها أن حسان أنشد يوماً بين يدي رسول الله ﷺ:

لقد غدوتُ أمام القوم منتظِماً
بصارمٍ مثل لون الملح قطّاع
تَحَفَّرُ عني نجاد السيف سابغة
فضفاضة مثل لون النُّهي بالقاع^(٩)

وأن رسول الله ﷺ ضحك.. ويعلق صاحب الأغاني تعليقاً له قيمته فيقول: «فظن حسان أنه ضحك من صفته نفسه مع جنبه»^(١٠).

وما أحسب نصيب هذه الأقصوصة من الصديق أوفر من نصيب ما سبقها. وأمثال هذه الأقصوصة وما سبقها راجت قديماً للتفكّه، أو التندر، أو الإساءة، أو الانتقام ممن أخرس ألسنة الضلال والكفر وأفحمها، علماً أن صاحب الأغاني أموي وقد وُتِرَ يوم بدر وغير بدر وعُيِّرَ ذوائب قومه بالجن والفرار، وترك أحبّتهم بين براثن المرففات والسمهريات، كما سيرد معنا.

على أن هذه الأخبار لم تعد من تصدى لها:

- فقد قيظ الله سبحانه وتعالى في الحديث الأستاذ ناصر الدين الألباني لها فبهرجها وزيفها^(١١).

- ولم يخل ما مضى من الأيام من وجود بعض القدماء الذين اعترضوا على مثل هذه الأخبار:

- فابن عبد البرّ القرطبيّ صاحب الاستيعاب ساءه إيراد مثل هذه الأخبار فقال:

«إن أهل الأخبار والسير ذكروا عن جبنه أشياء مستشنة.. كرهت ذكرها لنكارتها.. وأنكر بعض أهل العلم بالخبر ذلك، وقالوا: لو كان حقاً لهُجِيَ به...» وهو لا يعدم تعليلاً إن صح ما يُروى فيقول: «وقيل إنما أصابه ذلك الجبن منذ ضربه صفوان بن المعطل^(١٣) بالسيف^(١٤)».

ووقف ابن الكلبي الذي روى عنه ابن عساكر موقفاً وسطاً: فهو يرى أن الجبن لم يكن من عادته «بل كان لسناً شجاعاً، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر إلى قتال ولا شهده»^(١٥).

أما الواقدي فقد قال: «كان أكحل^(١٦) حسان قد قطع، فلم يكن يضرب بيده»^(١٧).

وذكر الزركلي حديثاً في ترجمته له أنه «لم يشهد مع النبي ﷺ مشهداً لعلّة أصابته» من دون أن يحدد تلك العلة^(١٨).

وهكذا نلاحظ أن معظم من تعرضوا لبحث هذه الصفة في حسان أجمعوا على أنها لم تكن طبعاً فيه، ولا خليفة من خلأته، وإنما وجدت فيه في ظرف من حياته، وعلّلها بعضهم بضربة سيف ابن المعطل، أو بعلّة أصابته، أو بالعطل الجسدي الذي حل به بسبب أن أكحله كان قد قطع، فلم يكن يضرب بيده كما ذهب إليه الواقدي.

ومن الحق أن أقول: إنني أوافق ابن الكلبي فيما رأى، فلو كانت صفة الجبن فيه حقاً أو طبعاً، لكانت أولى المثالب التي تلحق بشاعر يتغنّى ببلاء المجاهدين المسلمين في ساحات القتال، ويشيد بنضالهم في مثار النقع، ويعير خصمه من المشركين بأنه:

تَرَكَ الْأَحْبَبَةَ أَنْ يَقَاتِلَ دُونَهُمْ

وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ^(١٩)

ولا يفوتني هنا أن أذكر أنه في حقبة التنازع بين الأوس والخزرج أيام الجاهلية كان حسان لا يفخر بلسانه فحسب، وإنما بلسانه وسيفه وها هو ذا يقول:

لساني وسيفي صارمان كلاهما
ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودي^(٢٠)

ويقول «بوجه عام» مشيراً إلى بطولته:
لقد علمت بنو النجار أنني
أنود عن العشيرة بالحسام^(٢١)

ويقول متحدثاً عن فروسيته وخلوه من المغامر والمطاعن:
ويعلم أكفائي من الناس أنني
أنا الفارس الحامي الذمار المناجد
وما وجد الأعداء في غميمة
ولا طاف لي منهم بوحشي صائد^(٢٢)

وفخره في جاهليته وإسلامه كثير: فخر بسيفه، ولسانه، وكرمه، وإزجائه المطي
على الوجي^(٢٣) وقد أوردنا شيئاً مما يؤيد صحة ما ذكرنا، ولاداعي للإكثار فمن يلحق
من العسل لعقة واحدة يدرك طعمه.

وأمام هذا الفخر العريض بالسيف واللسان وحماية الذمار والنقاء من كل غميمة،
أفلا يبادر أحد من خصومه وهم كثر عدداً، وقد تسربلوا اللدد في الخصومة، وشدة
الجدل والعناد، وذراية القول، ودلاقة اللسان فيكذبه؟ إن شيئاً من هذا لم يحدث.

ولعل ابن الكلبي في رواية ابن عساكر السابقة أراد أن يوفق في كلامه بين ما
يروى عن جنبه وأمثال هذه الأبيات الحافلة بالفخر بالشجاعة والبطولة.

وأما تزكية ابن عباس^(٢٤) فخير شاهد وأبلغ دليل وإليها:

عن سعيد بن جبير^(٢٥) قال: «كنا عند ابن عباس فجاء حسان، فقالوا: قد جاء
اللعين. فقال ابن عباس: ما هو بلعين، لقد نصر رسول الله ﷺ بسيفه ولسانه»^(٢٦).

وأما ما ورد من أخبار حول نبو سيفه وتخلفه عن لسانه فقد تبين أنها غير صحيحة
بعد تحقيق الأستاذ ناصرالدين لها، بالإضافة إلى أن العقل والمنطق لا يستسيغانها.

إنني - والحق يقال - أميل إلى نفي صفة الجبن هذه التي ألصقها به بعضهم نفيًا باتًا، وأحيل القارئ إلى ديوانه ليطلع بنفسه^(٢٧)، وإلى عقله ومنطقه وثقافته وتتبعه ليحكم بنفسه، وأعزو رواج أمثال تلك الروايات إلى أمور عديدة، لعل أهمها:

١ - بيته:

لساني وسيفي صارمان كلاهما

ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي

فتناقل الناس أن لسان حسان أشد من سيفه وأمضى وأنكى.. والأخبار بطبيعتها قابلة للزيادة، إذا لم تدوّن، والناس بطبيعتهم يحبون التزيد والمبالغة، ويجعلون من الحبة قبة، فصار اللسان صمصاماً وغدا السيف خشبة أو مادونها.

ب - لم يكن حسان بطلاً في طبقة حمزة وعلي رضي الله عنهما مثلاً، فيشيع ذكر بلائه على الألسن وإنما كان فرداً في الجيش الإسلامي، وبما أنه لم تسمع له فتكات كبرى - وشأنه في هذا شأن معظم الأفراد وشهرته في الشعر طبقت الآفاق - كان الناس يريدون منه في النزال ما رأوا منه في الشعر، فلما لم يجدوا مثل هذا رموه بهذه الصفة، ولفقوا لها ما يشيعها.

وحسان كان في العقد السابع من عمره عند وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، فعلياً أن نترث قليلاً قبل الحكم عليه بالجبن، فسنة هذه لا تساعد على الفتكات الكبرى، ومن هم في مثل سنه يميلون إلى الراحة في بيوتهم غالباً، هذا بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من إصابته بقطع أكحله مما أفقده قدرة الضرب بيده، وكيف يكون جباناً من كان يصاحب رسول الله ﷺ في غزواته؟^(٢٨).

وأخيراً نقول: لقد تبين كذب هذه الأخبار والروايات ونحلها بعد تحقيق الأستاذ ناصر الدين لها، فكان أن محا بذلك الجهد القيم عن الرجل تهمةً لازمت صيته طويلاً، وروجها أناس مغرضون، أو حاسدون، أو متشققون، أو موتورون، فجزى الله سبحانه وتعالى من أحسن التحقيق عن الحق وأهله خير الجزاء.

٢ - يحدثنا الرواة أنه كان سريع الغضب حاد المزاج مستوفر الإحساس، ويروون لنا حادثتين تؤيدان ما ذهبوا إليه:

أولاهما: وقعت في جاهليته، والثانية كانت في إسلامه:

وتتلخص الحادثة الأولى بأن حسان جاء إلى النابغة الذبياني - وكانت تضرب له قبة حمراء من آدم في سوق عكاظ ليحكم بين الشعراء - فأنشده شيئاً من شعره، وكان قد سبقه الأعشى^(٢٩)، فقال النابغة: لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت: إنك أشعر الإنس والجن، فغضب حسان لهذا الخطأ من قيمة شعره وقال: والله لأننا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك...^(٣٠).

لقد سَعَّرَ نيران غيظه أن يتحفظ النابغة مثل هذا التحفظ إذ إنه لا يرى لنفسه نداءً، فصب جاحم بركانه على سيد التحكيم نفسه ذاك الذي ارتضاه الشعراء حكماً يثمن إنتاجهم، وطعن في بصيرته وتبصره، وأعلن أنه أشعر منه ومن أبيه وجده. وأما الحادثة الثانية فقد جرت أيام الخليفة الثاني «عمر بن الخطاب»^(٣١)، وموجزها:

قدم «ابن الزُّبَيْرِ»^(٣٢) و«ضرار بن الخطاب»^(٣٣) - وهما اللذان كانا يهاجيان حسان قبل إسلامهما - إلى المدينة المنورة، وأرسلا في طلبه، فلما جاء قالا له: إن شعرك قد حُمِلَ وسار، أما شعرنا فليس له من يحمل، فعمال نتذاكر! أتتشد أم ننشد؟ فقال: بل أنشدا. فأنشدها بعض ما قالاه «حتى فارَّ فصار كالمرجل غضباً» ثم تركاه، ولم يستمعا إليه، وسارا، فشكاهما إلى عمر، فأرسل من يأتي بهما، وأمر حسان أن ينشدهما، فأنشدهما حتى اشتفى^(٣٤).

ويهمنا نحن من هاتين الحادثتين أن نتبين تلك الخليقة النارية المتأججة التي اتسم بها حسان: فقد غضب من النابغة تلك الغضبة الشديدة لكلمة بسيطة جرت على لسانه، وهو المتخذ حكماً، وصاحب رأيٍ أُريد له أن يكون فيصلاً فلم يجده شروى نقير.. وصار كالمرجل يغلي غضباً حين أنشده ابن الزبير وضرار بن الخطاب ولم يسمعا منه، ولم يسكت ما به من اضطرام حتى صب عليهما ما في نفسه.

٣ - وهم يحدثونا أنه لا يخلو من عناد وإصرار مع ثقة كبيرة بنفسه:

فهو حين وفد على الأمير الغساني «عمرو بن الحارث»، وطال انتظاره، واعتاص عليه الوصول إليه، قال للحاجب: «إنْ أذنتَ لي، وإلا هجوت اليمن كلها...» وهذا قول يحمل في ثناياه - بلا ريب - عنف قائله وشدة اعتداده بنفسه وإصراره على بلوغ هدفه، فلم يجد الحاجب بداً من أن يأذن له.

ولما دخل على الأمير نصحه أن يرجع لأنه يخاف عليه السبعين «الناغبة» و«علقمة»، وتعهد له بمنحه صلته، وطمأنه أن يرعى نسبه وعيصره، ويحترم قربته ورَحِمه، ولا حاجة له بشعره لكيلا يُفضح أمام هذين العملاقين، وهما كبيران في عيني الأمير، وحسان لا يزال ناشئاً.. ولكن حسان أصر أصراراً شديداً قوامه ثقة كبيرة بالنفس يمازجها لون من العناد، ولو كان غيره في موقفه لكان من المحتمل كثيراً أن يقنع بوصول الصلة التي تجشّم لأجلها مشقة الأسفار، ولتهبّ وجود السبعين بعد أن حذره الأمير من خطرهما وخوفه من الفضيحة بحضورهما، ولكن أبا الحسام لم يتراجع، ولم ينكص على عقبه، بل طلب من الشاعرين أن يسمحا له بدوريهما، ففعلاً، فانطلق ينشد:

أسألتَ رَسَمَ الدار أم لم تَسألْ

بين الحواني فالْبُضَيْعِ فحومل^(٣٥)

وحظي - كما توقع - بإعجاب الأمير وتكريمه، بل وباكتفائه بشعره عما سواه، وبوصف قصيدته بأنها البتّارة التي بترت ما سواها من المدائح، ولذا طلب من الناغبة أن يمدحه نثراً، بعد أن فاز ابن الفريعة بنصيب الشعر من الثناء.

٤ - وهم يحدثوننا عن حبّه شعره حباً لا يرى معه بأساً أن يزعج الناس ولو في جوف الليل - كما لو أن غارة استباححت المدينة - ليسمعهم إياه، فقد صاح في إحدى الليالي بأعلى أطمه «فارغ»: يا للخزرج! فجأؤوه، وقد فزعوا، فقالوا: مالك يا ابن الفريعة؟ فقال: بيت قلته، فخشيت أن أموت قبل أن أصبح، فيذهب ضيعةً. قالوا: وما قلت؟ قال:

ربّ حلم أضاعه عدم الما

ل، وجهل غطى عليه النعيم

ويقال: إنه أنشدهم القصيدة بكاملها، وفيها هذا البيت، ومطلعها:

مَنَعَ النوم بالعشاء الهمومُ
وخيالٌ إذا تغور النجوم^(٣٦)

٥ - وهم يحدثونا كذلك أنه شديد عند المراغمة، تهيجه المنافسة، وتسعّر المباراة أو التحدي وتؤجج طبعه، فما أن رأى «قيس بن الخطيم» ينشد بين يدي النابغة بائيته:
أتعرف رسماً كاطراد المذاهب...

وسمع النابغة يقول له: أنت أشعر الناس يا ابن أخي... حتى أغاظه ذلك واستثاره، يقول حسان: «فدخلني منه، وإنني في ذلك لأجد القوة في نفسي عليهما...» ولم تهدأ ثورته حتى أنشد النابغة شيئاً من شعره، وسمع ثناء عليه، يقول: «ثم تقدمت، فجلست بين يديه (النابغة) فقال: أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم، قال: وكان يعرفني قبل ذلك، فأنشدته، فقال: أنت أشعر الناس...»^(٣٧).

بل إن المباراة لتثيره ولو كانت مع أعز الناس لديه، مع فلذة كبده، فقد كان له «بنت شاعرة»، وأرق ليلة، فعن له الشعر، فقال:

متاريك أذناب الأمور إذا اعترت
أخذنا الفروع واجتثثنا أصولها

ثم أجبل^(٣٨) فقالت له ابنته: كأنك أجبلت؟ قال: أجل. قالت: فأجيز عنك؟ قال: وعندك ذلك؟ قالت: نعم. قال: فافعلي، فقالت:

مقاويل بالمعروف خرسٌ عن الخنا
كرامٌ يعاطون العشيرة سؤلها

فحمي الشيخ، فقال:

وقافية مثل السنان رزئتُها
تناولتُ من جو السماء نزولها

فقلت:

براهما الذي لا ينطق الشعر عنده

ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فقال: (والغضب هو الذي يحركه بلا ريب): لا قلت شعراً، وأنت حية! قالت: أوؤؤؤمك؟ قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، لا قلت شعراً، وأنت حي^(٣٩).

وفي هذا الخبر ما يدل على تهيجه عند المنافسة، وكأنه في ضرام الوغى، وكأن خصماً عنيداً يهتف (نَزَال) بألف لسان، وإن بعض الكلمات لتحمل بين ثناياها عنفاً وتوقُداً «فحمي الشيخ، أو تدل على حالته و كأنه أصيب بطعنة سنان» وقافية مثل السنان رزئتُها»، ثم تتبدى تلك الثورة العنيفة اللاظية يكبتها حسان بصرامة وقسوة: «لا قلت شعراً وأنت حية» ولم يطفئ جذوة تلك اللهب العارمة أو يهدئ منها على الأقل إلا تطمين ابنته له: «لا قلت شعراً وأنت حي».

إنها مباراة حامية الوطيس، ويؤسف لها أن تكون قصيرة الأمد سريعة الحسم، فالشيخ الشاعر المفلق يداخله الاستغراب أن تستطيع مجاراته ابنته الناشئة، وهي ما زالت غضة الإهاب نضرة العود، وكأنه نسي كيف وقف وهو الشاب الناشئ ينشد الأمير «عمرو ابن الحارث» قصيدته الشهيرة بحضرة السبعين النابغة وعلقمة؟ إن الحوادث قد تتشابه بعض التشابه وإن اختلفت الشخوص وتنوعت الأحداث وتباينت المستويات، وإن انسحبت الفتاة في نهاية المناشدة إرضاء لأبيها، وكأنها تعيد إلى الذهن قصة السباق بين صخر بن عمرو^(٤٠) أخي الخنساء الشاعرة المشهورة وأبيه عمرو بن الشريد السلمي^(٤١).

٦ - وحسان الذي يحمل بين جنبيه نفساً رهيقة الإحساس يظلّ أبداً دائم التأثر بالكلمة سريع الانفعال باللفظة شديد التوهج عند سماعها:

فقد بلغ من شدة تأثره يوماً - حين دخل هو والأعشى حانة أيام الجاهلية فسكرا، فنام حسان، فسمع الأعشى يقول لصاحب الحانة: كره الشيخ الغُرم - أن اشترى كلّ مافي الحانة من خمر بعد أن نام الأعشى، ثم سكب في البيت، فسال الخمر تحت الأعشى، فانتبه، فعلم أن حسان قد سمع كلامه، فاعتذر إليه^(٤٢).

٧ - وتحدث كتب الأدب والسير أن حسان قد يُستشهد به أحياناً، ويوضع في موضع الحكم ليبيدي رأيه في قول ما ثقة بما لديه من ذوق وخبرة، وربما أدلى برأيه أحياناً مع لون من التهكم أو السخرية المرة حسبما يقتضيه الموقف:

فقد أورد صاحب العمدة أن «بني العجلان»^(٤٣) كانوا يفخرون بهذا الاسم لتعجيل صاحبه في قرى الأضياف إلى أن هجاهم به «النجاشي»^(٤٤)، فضجروا منه، وسُبُّوا به، فاستعدوا عليه «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

إِذَا اللَّهُ عَادَى أَهْلَ لَوْمٍ وَرُقَّةٍ
فَعَادَى بَنِي عَجْلَانَ رَهْطَ ابْنِ مُقْبِلٍ

فقال عمر بن الخطاب: إنما دعا عليكم ولعلَّه لا يجاب، فقالوا: إنه قال:

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ
وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

فقال عمر رضي الله عنه: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك، أو كلاماً ما يشبه هذا، قالوا: فإنه قال:

وَلَا يَرْدُونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً
إِذَا صَدَرَ الْوَرَادُ عَنْ كُلِّ مَنْهَلٍ

فقال عمر: ذلك أقلُّ للسَّكَاك، يعني الزحام، قالوا: فإنه قال:

وَمَا سَمَّى الْعَجْلَانَ إِلَّا لِقَوْلِهِمْ
خُذِ الْقَعْبَ وَاحْلِبْ أَيُّهَا الْعَبْدُ وَاعْجَلْ

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم خادمهم. فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل «حسان بن ثابت»، فسأله، فقال: ما هجاهم، ولكن سَلَحَ عليهم.

وكان عمر رضي الله عنه أبصر الناس بما قال النجاشي، ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات، فلما قال حسان ما قال سَجَنَ النجاشي، وقيل: إنه حدَّه^(٤٥).

وحسان حين رأى أن عمر أراد أن يدفع فكرة الهجاء لم يرد - لعله - أن يعاكسه
ويضادده، ولكنه آثر أن يأتي بحكمٍ يجمع بين الحسم في الأمور والطرفة فكان ما كان.

٩ - وربما تفاعل حسان بما ينقع الغلّة ويبلّ الصدى ويملأ النفس حبوراً، فقد
تفاعل - على حدّ قول صاحب العمدة - للنبي ﷺ بفتح مكة، فقال في كلمته المشهورة
يخاطب بذلك مشركي أهل مكة ويتوعددهم:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرْوَهَا
تَثِيرُ النِّقْعَ مَوْعِدَهَا كَدَاءُ
يَبَارِينِ الْأَعْنَّةِ مُصْغِيَاتٍ
عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءُ
تَظِلُّ جِيَادَنَا مَتَمَطَّرَاتٍ
يَلْطَمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النِّسَاءُ^(٤٦)

فلما كان يوم الفتح أقبل النساء يمسحن وجوه الخيل، وينفضن الغبار عنها
بخمرهن، فقال قائل: لله درُّ حسان إذ يقول (وأنشد الأبيات)..^(٤٧)

هذا التفاؤل الرائع مبعثه - بلا ريب - الثقة الراسخة بصدق رسول الله ﷺ،
وصدق وعد الله وتحقيق النصر لمن نصرُوا الله ورسوله ودافعوا عن دينه بكل ما يملكون
من أرواح وأموال.

والآن وبعد استعراضنا هذه الحوادث بمجملها نستطيع أن نفهم بدقة وعمق لماذا
أسدل حسان ناصيته بين عينيهِ؟ ولماذا كان يخضب من سائر لحيته عنفوقته وشاربيه
فحسب؟ إن ذلك يدلّ على نفسيته العنيفة الغضوب وروحه المتعالية، إنه يأبى أن يفضله
شاعر في شعره، أو أن تفضل عشيرة عشيرته، وإنه ليرى في نفسه بطلاً شجاعاً لا ندّ
له، ويرى في لسانه مژوداً ماضياً يبلغ ما لا يبلغه الصارم الصمصام، وهو مستوفز
الإحساس دائماً، سريع الغضب، شديد التأثر شدة تسوقنا إلى أن نؤمن إيماناً لا يتفرع
الشك أفقانه بأن أعصابه تنتشر بظاهر جلده، فتتأثر بأدق النأامات. وهو بعد هذا وذاك

عزیز النفس، أشم العرنین، لا یسکت علی الضیم، ولا یذل عند الجد، بل تغریه المنافسة
وتستثیره المراغمة، فتضرم فی أعماقه نار ناجر حتی لیکاد قلبه أن یبلغ حنجرته.. علی
أنه وهو فی أحلك أوقات الضیق لا ینسى أن یتفاعل بالفرج والنصر ولعله کان آخذاً
بقوله ﷺ: «تفألوا بالخیر تجدوه».

لعلی أفلحت إلى حد ما فی إعطاء صورةٍ ما لهذا الکیان الذی تجسّد فی خیالی
علی الأقلّ لحسان بن ثابت أشعر أهل المدر.

الهوامش

(١) و(٢) الأغاني: ١٣٦/٤، وسيمّر معنا ص ١٤٤ و ١٤٥ كيف وصف نفسه بالأسد وكيف أثنى على لسانه.

(٣) تاريخ ابن عساكر: ١٢٧/٤ (التهذيب). والشجاع: الأفعوان (ذكر الأفاعي).

(٤) صفية بنت عبدالمطلب بن هاشم (..... - ٢٠هـ / - ٦٤١م): سيدة قرشية، شاعرة بأسلة، وهي عمة النبي ﷺ، أسلمت قبل الهجرة، وهاجرت إلى المدينة، وكان رسول الله ﷺ إذا خرج لقتال عدوه يرفع أزواجه ونساءه ومعهنّ صفية في حصن حسان.. حتّت المسلمين المتراجعين يوم أحد على العودة إلى القتال.. توفيت في المدينة المنورة رحمها الله وهي أم الصحابي المشهور الزبير بن العوام.

(٥) الأغاني: ١٦٥/٤: وفي رواية أخرى للأغاني (١٦٦/٤) أنه: «جاء يهودي يرتقي الحصن فقالت صفية له (لحسان) أعطني السيف فأعطاه، فلما ارتقى اليهودي ضربته حتى قتلتها، ثم احتزّت رأسه فأعطته حسان: وقالت: طوّح به فإن الرجل أقوى وأشدّ رمية من المرأة، تريد أن ترعب به أصحابه..».

(٦) كنا نتمنى أن يكثر الأستاذ الألباني من إخراج كتب أو تحرير مقالات في تحقيق مثل هذه الآثار، وكان قميناً بذلك.

(٧) الأغاني: ١٦٥/٤، وكنز العمال: ٢٨٥/٥، وتاريخ ابن عساكر: ١٢٦/٤ .

(٨) تاريخ ابن عساكر المشار إليه.

(٩) ديوانه ص ٣١٣ والبيتان من قصيدة مطلعها:

بانت لميسٌ بحبلٍ منك أقطاع

واحتلت الغمر نزعاً ذات أشراع

لميس: امرأة، أقطاع: منقطع. الغمر: الماء الكثير أي: أصبحت في خصب من العيش. منتطق بصارم: شادّ وسطي بسيف قاطع. قطّاع: صيغة مبالغة من القطع. تحفز: تدفع. نجاد السيف: حمائله، سابغة: درع سابغة. فضفاضة: واسعة. النهي: الغدير. ومعنى البيتين: أنه خرج في طليعة القوم وقد شدّ وسطه بسيف قاطع مثل لون الملح في بياضه. وتدفع عنه حمائل السيف درع طويلة واسعة مثل لون الغدير بالقاع في صفائه وأطراده.

(١٠) الأغاني: ١٦٦/٤ و ١٦٧ .

(١١) قام بتحقيقاته هذه بتكليف شخصي مني أيام كان يعمل في الظاهرية، وكنا نتردد عليها للاستفادة من مراجعها الكثيرة، وقد تمنيت أن تكتب هذه التحقيقات وتُنشر، لتكتسب صفة الوثائق، ولئلا تضعفها شفهيته، ولكن ذلك لم يتم.

(١٢) صفوان بن المعطل السلمي (..... - ١٩هـ / - ٦٧٠م). أبوعمر: صحابي شهد الخندق والمشاهد كلها، وحضر فتح دمشق، واستشهد بأرمينية، وقيل في سميساط، وهو الذي قال أهل الإفك فيه وفي السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ما قالوا وكان حصوراً (لا يأتي النساء).

(١٣) ضربه بالسيف بعد قوله بعض الأبيات إثر تنازع فتية من المهاجرين والأنصار على الماء بعد غزوة بني المصطلق.. واسترضى حسان رسول الله أكثر من مرة حتى رضي عنه بعد أن أنشده شيئاً من الشعر الذي قاله في الدفاع عن رسول الله ﷺ والدعوة الإسلامية، ووهب له «سيرين» أخت مارية أم ولد رسول الله ﷺ «إبراهيم» وقيل إن رسول الله ﷺ أعطاه عوضاً من ضربته «بيرحاء»، وهي اسم مال وموضع بالمدينة وكانت أيام حياة صاحب الأغاني قصر بني جديلة، وقد كانت مالاً لأبي طلحة بن سهل تصدق بها إلى رسول الله ﷺ فأعطاه حسان في ضربته وأعطاه «سيرين» «أمة قبطية» فولدت له عبدالرحمن بن حسان.

(١٤) الاستيعاب لابن عبدالبر القرطبي: ١٣٠/١ .

(١٥) تاريخ ابن عساكر: ١٤٠/٤ وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٢٨/٣ .

(١٦) الأكل: عرق في وسط الذراع: قال ابن سيده: يقال له عرق النسا في الفخذ، وفي الظهر: الأبهـر. ويسمى: عرق الحياة ونهر البدن.

(١٧) انظر الأغاني: ١٦٦/٤، و ١٦٤/١٧ لتجده يؤكد أنه قد قُطع عرق أكحله، فهو لا يستطيع أن يستخدم إلا يداً واحدة، والدليل أنه حين يدعى إلى وليمة يسأل: أ طعام يد أم يدين؟ فإن قيل له طعام يد (ثريد) أكل وإن قيل له: طعام يدين (أي شواء) أمسك؛ لأنه لا يستطيع استخدام اليد الثانية.

(١٨) معجم الأعلام لخير الدين الزركلي: ١٧٥/٢ .

(١٩) ديوانه ص ٤١٩، والبيت من قصيدة مطلعها:

تَبَلَّتْ فَوَادِكُ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةً
تَسْقِي الضَّجِيعَ بِبَارِدٍ بِسَامِ

وفي هذه القصيدة يعيب الشاعر على «الحارث بن هشام» أنه هرب يوم بدر وترك الأحبة ومنهم أخوه أبوجهل صرعى في ميدان المعركة. وقد أسلم الحارث يوم فتح مكة، ونفر للجهاد، وظل مجاهداً بالشام حتى مات سنة ١٨هـ / ٦٣٩م. الطمرة: الفرس الكثير الجري.

(٢٠) ديوانه ص ١٨٣، والبيت من قصيدة:

لَعَمْرُ أُبَيْكَ الْخَيْرُ يَا شَعَثَ مَا نَبَا
عَلِيَّ لِسَانِي فِي الْخَطُوبِ وَلَا يَدِي

المذود: اللسان، لأنه يذاد به عن العرض.

(٢١) ديوانه ص ٤٥٩، وهو مطلع قصيدة قالها في هجاء ابن الزُّبَيْرِ.

(٢٢) ديوانه ص ١٦٩ والبيت من قصيدة مطلعها:

أَلَا أَبْلَغُ الْمُسْتَسْمَعِينَ بَوَاقِعَ
تَخَفُ لَهَا شَمَطُ النِّسَاءِ الْقَوَاعِدُ

الأَكْفَاءُ: النظراء، الذمار: ما يلزمك حفظه والذود عنه. المناجد: المقاتل السريع الإجابة إلى ما دعي إليه خيراً كان أمّ شراً. الغميرة: هنا الضعف أو موطن العيب. ولا طاف بوحشي صائد: أنا من يحمي صيده.

(٢٣) وَجِيَّ الْمَاشِي: حَفِيَّ وَرَقَّتْ قدمه، والمقصود هنا إتعاب المطيِّ بالسير حتى ترق أخفافها.

(٢٤) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي (٣ق هـ - ٦٨هـ / ٦١٩ - ٦٨٧م).

أبوالعباس: حَبَرُ الأُمة الصحابي الجليل، ولد بمكة، ونشأ في بدء عصر النبوة. فلازم رسول الله ﷺ، وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي موقعة الجمل، وصفين، وكف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي فيها. وكان عالماً بالحلال والحرام والعربية والشعر والأنساب وأيام العرب.

(٢٥) سعيد بن جبير الأسدي بالولاء (٤٥ - ٩٥هـ / ٦٦٥ - ٧١٤م): الكوفي، أبو عبدالله: تابعي وكان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة من بني أسد، وأخذ العلم عن عبدالله بن عباس وابن عمر، وكان ابن عباس يقول إذا جاءه أهل الكوفة

يستفتونه: أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء؟ (يقصد سعيداً) شايع عبدالرحمن بن محمد
الأسعث في خروجه على عبدالملك ولما قتل هذا ذهب سعيد إلى مكة المكرمة، فقبض عليه
واليها، وأرسله إلى الحجاج، فقتله بواسط.

(٢٦) تهذيب ابن حجر: ٢/٢٤٨، والأغاني: ٤/١٤٦ وفي رواية: بلسانه ويده، أو بلسانه ونفسه:
أو (جاهد) أو: لقد جاهد مع رسول الله ﷺ بلسانه ونفسه.

(٢٧) لا تكاد تخلو قصيدة في ديوانه من الفخر بنجدته وشهامته ومروءته.. وأشهر القصائد
ما كان في الصفحات: ١٦١، ١٦٩، ١٩٥، ٢٥٢، ٢٥٦، ٣٢١، ٣٧٢، ٣٧٦، ٤٠٥، ٤٢٦، ٤٢٨،
٤٣١، ٤٤٥، ٤٥٩ .

(٢٨) انظر الأغاني: ٤/١٤٣ وسيرد ذكر هذا فيما يأتي.

(٢٩) الأعشى (..... - ٧هـ / - ٦٢٩م). ميمون بن قيس بن جندل الوائلي أبوبصير،
المعروف بأعشى قيس، ويقال له، أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة
الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، كان كثير الوفود على الملوك من العرب
والفرس. غزير الشعر يسلك فيه كل مسلك، وكان يُغنى بشعره فسمي «صنّاجة العرب»
أدرك الإسلام ولم يسلم، وقد عمي في أواخر عمره. مولده ووفاته في قرية «منفوحة»
باليمامة قرب (الرياض) في نجد، وفيها داره وقبره، وله ديوان شعر مطبوع.

(٣٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢٣ .

(٣١) سبق التعريف به ص ٨١ من هذا المؤلف.

(٣٢) عبدالله بن الزبير بن قيس السهمي القرشي: أبوسعد (..... - نحو ١٥هـ / - نحو
٦٣٦م): شاعر قريش في الجاهلية كان شديداً على المسلمين وكان يهاجي حسان، وظل
معانداً حتى فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال فيه حسان أبياتاً أثارت، فلما بلغته عاد
إلى مكة، فأسلم واعتذر ومدح النبي ﷺ، فأمر له بحلة.

(٣٣) ضرار بن الخطّاب بن مرداس القرشي الفهري: (..... - ١٣هـ / - ٦٣٤م). فارس
شاعر صحابي من القادة، من سكان الشراة فوق الطائف، قاتل المسلمين في أحد والخندق
أشدّ قتال، وأسلم يوم فتح مكة، ولم يكن في قريش أشعر منه، له أخبار في فتح الشام،
واستشهد في وقعة «أجنادين».

(٣٤) الأغاني: ١٤٠/٤ .

(٣٥) سبقت الإشارة إلى مصدر هذه القصة ص ٦٧ من هذا المؤلف.. ارجع إلى ديوانه ص ٣٦١، وإلى الأغاني: ١٥٨/١٥ .

(٣٦) تاريخ ابن عساكر: ١٣٢/٤ و ١٣٣، والقصيدة في ديوانه ص ٤٣٢، وفيها يذكر عدة أصحاب اللواء «لواء المشركين» يوم أحد، ولكن البيت الذي أشير إليه قيل في زمن الجاهلية غالباً وقد علق شارح الديوان - على البيت قائلاً: ويحكى أن حسان صاح قبل النبوة فقال: يا بني قيلة! فجاءه الأنصار يهرعون إليه وقالوا: ما دهالك؟ قال: قلت الساعة بيتاً خشيت أن أموت فيدعيه غيري. قالوا: هاته فأنشدهم هذا البيت.

(٣٧) الأغاني: ١١/٣، وقد سبقت الإشارة إلى الحادثة ص ٦٠ من هذا المؤلف.

(٣٨) أجبل: انقطع.

(٣٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ص ١٠٤، وقد وردت الأبيات (في ديوانه ص ٣٩١ وأندلس) على الترتيب الآتي: وقافية..... براها..... متاريك..... مقاويل..... وأوردت القصة في الهامش ص ٥٥ من هذا المؤلف.

(٤٠) صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحي السُّلَمي: (..... - نحو ١٠٠ق.هـ/..... - نحو ٦١٣م). من بني سليم بن منصور، من قيس عيلان، أخو الخنساء الشاعرة المشهورة. كان من فرسان بني سليم وغزاتهم. جرح في غزوة له على بني أسد بن خزيمة وممرض حوالي حول فمَلَّتَه زوجته سليمة، وفي هذا يقول أبياتاً، أولها:

أرى أمَّ صخرٍ لا تملَّ عيادتي

وملَّتْ سليمةٌ مضجعي ومكاني

وقد نتأت قطعة في جنبه ومات بعد أن أزيلت، ولأخته الخنساء شعر كثير في رثائه ورثاء أخيه معاوية المقتول قبله.

(٤١) هو والد صخر ومعاوية والخنساء، وقد قام سباق في الخيل بينه وبين ابنه صخر فتساويا بادئ ذي بدء، ولكن الأب سبق ابنه فيما بعد، والخنساء ذهبت إلى أنه حريٌّ بالولد أن يسبق أباه لولا جلال السن والكبر، وقد وصفت الخنساء هذا السباق وصفاً جميلاً: تقول: (ديوان الخنساء ص ٧١).

جارى أباه فأقبلا وهما
يتعاوران ملاءة الفخر
حتى إذا بدت القلوب وقد
ساوى هناك القدر بالقدْر
وعلا هتاف الناس أيُّهما
قال المجيب هناك لا أدري
برقت صحيفة وجه والده
ومضى على غلوائه يجري
أولى فأولى أن يساويه
لولا جلال السن والكبر
وهما وقد برزا كأنهما
صقران قد حطّا على وكر

(٤٢) الأغاني: ١٦٧/٤ .

(٤٣) العجلان بن عبدالله بن كعب من بني عامر بن صعصعة: (مجهول الولادة والوفاة) جدّ جاهلي، بنوه قبيلة ضخمة، منها الشاعر تميم بن أبي بن مقبل، قال النجاشي يهجو:
إذا الله عاды أهل لؤم وذلةٍ
فعاды بني العجلان رهط ابن مقبل

وتميم بن أبي بن مقبل من بني العجلان: أبوكعب (.... - بعد ٢٧هـ / - بعد ٦٥٧م).
شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، فكان يبكي أهل الجاهلية، عاش نيّفًا ومئة سنة، وعدّ في المخضرمين، وكان يهاجي النجاشي الشاعر. له ديوان شعر مطبوع ورد فيه ذكر وقعة صفين سنة ٣٧هـ.

(٤٤) النجاشي: قيس بن عمرو بن مالك من بني الحارث بن كعب من كهلان (..... - نحو ٤٠هـ / - نحو ٦٦٠م). شاعر هجاء مخضرم، اشتهر في الجاهلية والإسلام، أصله من نجران (باليمن)، انتقل إلى الحجاز، واستقر في الكوفة وهجا أهلها. وهدده عمر بقطع لسانه، وضربه عليّ على السكر في رمضان، ومن شعره في مدح معاوية:

إني امرؤ قلميما أُثنِي على أحدٍ
حتى أرى بعض ما يأتي وما يذرُ

وقد قيل إنه كان من أشرف العرب، ولكنه كان فاسقاً، وكانت أمه من الحبشة فنسب إليها.

(٤٥) العمدة لابن رشيق: ٥٢/١ .

(٤٦) الأبيات من قصيدة لحسان وردت في ديوانه ص ٥٧ مطلعها:

عَفْتُ ذات الأصابع فالجِواءُ
إلى عذراء منزلها خلاءُ

كَدَاء: الثنية العليا بمكة (المعلّى) ومنها دخل الرسول ﷺ مكة عام الفتح. الأسل: الرماح.
متمطّرات: مسرعات يسبق بعضها بعضاً، وهنالك خلاف في رواية بعض الكلمات.

(٤٧) العمدة لابن رشيق: ٦٧/١، وسيرد الحديث عن هذه الظاهرة مع بعض الخلاف في
موقعه في فتح مكة.



الباب الثالث

— |

| —

— |

| —

الشاعر والدعوة

لا ريب أن مهمة تمحيص الأخبار الواردة في حسان، والقصائد المنسوبة إليه، واستخلاص صحيحها من زيفها، ووضع الصحيح منها في موقعه زماناً ومكاناً، ليست باليسيرة، فقد حُمِلَ عليه - كما قال ابن سلام - ما لم يحمل على غيره، ووضعت عليه أشعار كثيرة لا تليق به^(١). وإنه ليترتّب في هذا المجال الذي رسمناه لهذا الكتاب القيام بأمور ثلاثة:

١ - تمييز الصحيح من المنحول من أشعاره.

٢ - تمييز الإسلامي منها من الجاهليّ.

٣ - تعيين تواريخ القصائد والمقطوعات الإسلامية.

أما الأمر الأول فقد قام به ابن هشام في السيرة أو بالكثير منه، «وقرر في غير موضع أن أهل العلم بالشعر لا يعرفون هذه القصيدة، أو تلك لحسان^(٢)، ولكنه من ناحية أخرى تصرف في الرواية، فحذف كثيراً من الشعر الهجائي المقذع سواء أكان من جانب المشركين أم من جانب المسلمين^(٣)، فقلّل بذلك نجاح الباحث في تصوير الفنّ الهجائي لتلك المرحلة تصويراً مرضياً...»^(٤).

ولن أحاول هنا أن ألتمس الأعذار لما فعله صاحب السيرة^(٥)، لضيق المجال هنا عن مثل هذا التسويغ، ولن أحاول كذلك أن أزجّ قلمي في هذا الخضم خضم تمييز الصحيح من المنحول على نحو شامل ودقيق^(٦)، وإنما سأعتمد ما جاء في ديوانه على أنه صحيح النسبة له بعد أن نال ما نال من جهد جامعه وشارحه^(٧)، ويستثنى من هذا الحكم ما كان

ظاهر الغلط في عزّوه أو تمييزه.

وأما الأمران الآخران الثاني والثالث^(٨)، فهما اللذان ندبت نفسي للقيام بهما، وتخصيص هذا الكتاب لبحثهما على ما في الأمر من مشقة، ولئن قام الأستاذ البرقوقي المشرف على ضبط الديوان وتصحيحه بكثير من هذا العبء، فقد ترك الكثير من القصائد والمقطوعات في انتظار اليوم الذي تُنسب فيه لمناسباتها، وتوضع فيه تواريخها الدقيقة لها.

وإذا كنت قد نهدت للقيام بمثل هذا العمل، فليس ذلك لا اعتقادي أنني قادر على إنجازها كاملاً فذلك ليس في حسابي، ولكن ما لا يُدرَكُ جله لا يُترك كله، ولعل عملي هذا أن يكون خطوة عملية يمكن أن تتبعها خطوات أخرى مصححة ومكملة.

تنتظر من حسان - قبل استعراض نتاجه - وقد أصبح شاعر الدعوة الإسلامية أن يواكب خطوات هذه الدعوة في مربيعها الجديد الذي اختاره قائدها بين سيوف الأنصار وقلوبهم، ونتظر منه أيضاً أن يطلع على الناس بقصيدة أو بمقطوعة على الأقل في كلّ موقف من مواقف الدعوة ورجالها، أو كل ما يتعلق بها نصراً كان أم هزيمة حسب قيمة الحدث، ونتوقع أن تتضمن قصائده أو أشعاره إشارات إلى الإسلام وأهله، وعبارات مما كان ينزل به الوحي، أو ممّا يتحدث به الرسول الكريم ﷺ في تلك المواقف أو الأحداث.

وتبدأ هذه المرحلة التي شهدت تحوّل شاعر يثرب أو شاعر الخزرج إلى شاعر الدعوة الإسلامية، وعايّنت ذوده عن حياضها وذبه عن رجالها منذ أول يوم أعلن فيه الأوس والخزرج (أو الأنصار كما سماهم رسول الله ﷺ)^(٩). أنهم سيدافعون عن رسول الله ﷺ، ويحمونه مما يحمون منه نساءهم وأطفالهم وأزهرهم^(١٠)، وكان ذلك في أوسط أيام التشريق - ليلاً - من شهر ذي الحجة في السنة التي ما قبل السنة الهجرية الأولى^(١١)، وتنتهي في اليوم الذي أعلن فيه المرتدون من العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ، أنهم قد عادوا إلى سرادق الجماعة والإيمان سنة ١٢هـ/٦٣٤م).

فهي إذاً تلك المرحلة الخطيرة في تاريخ الدعوة الإسلامية، المرحلة التي قرّرت مصيرها، وكتبت لها الخلود بإذن ربها، وإن هو لم يَطوِّ كشْحاً بعد عودة المرتدين إلى

جماعة المسلمين، فليس من المسلمين من لم يهتم بأمورهم. وقد ظل ملتصقاً بالدعوة الإسلامية ورجالها، وإن خفت حدة الصراع الشعري حول العقيدة وتنحى لسان القريحة عن الكرسي الأول في حياة الناس ليتبوأه بيان السماء موجهاً وأمرًا وناهياً ورأساً طريقاً للحياة والسلوك والفكر.

هذا النتاج الشعري الذي تدفق على مقول حسان خلال هذه المرحلة يمكن أن يتبين فيه الباحث بعد الدراسة والموازنة والاستقصاء ثلاث زمر:

الزمرة الأولى: يمكن تحديد تأريخ دقيق لكل من قصائدها مع المناسبة.

الزمرة الثانية: يمكن تحديد تأريخ تقريبي لكل من قصائدها.

الزمرة الثالثة: يصعب تحديد تأريخ واضح لكل من قصائدها.

وسنعرض لها جميعاً بالبحث والمناقشة والتوضيح متوخي القصد في السير، مبتعدين عن التفصيل الممل من جهة والإيجاز المخل من جهة أخرى.

الهوامش

- ١ - طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي ص ٨٤ وقد سبق (إيراد الخبر ص ١٠٧) من هذا المؤلف.
- ٢ - انظر سيرة النبي ﷺ لابن هشام: ٦٥٧/٢ مثلاً تجد قوله: «وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان». والقصيدة في رثاء سيد الشهداء «حمزة» بعد استشهاده في موقعة أحد.
- ٣ - ومن طريقته في غريبة القصائد أن يعزو قصيدة ما - ذكر أنها لحسان - لشاعر آخر غيره: فقد أورد (٦٤٣/٣) قصيدة ذكر أنها لحسان ردَّ فيها على «هبيرة بن أبي وهب» أو غيره، وبعد أن انتهى من إيراد القصيدة قال: أنشد فيها أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك.
- ٤ - من مقال للأستاذ محمد خلف الله: مجلة الثقافة - العدد ٢٢٥ - ص ١٩.
- ٥ - لعله في هذا التصرف كان يهدف إلى عدم استثارة الكوامن وبعث الأحقاد في النفوس، إلى جانب محاولة مراعاة الآداب، وإن كان هذا الأمر أقل احتمالاً من سابقه.
- ٦ - أي: تمييز الصحيح من المنحول في شعر حسان بن ثابت في مختلف مظاهره.
- ٧ - شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري - ضبط الديوان وصححه عبدالرحمن البرقوقي نشر دار الأندلس: بيروت - لبنان - سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- ٨ - الأمران: اللذان أشرت إليهما في بداية البحث وهما: أ - تمييز الإسلامي من أشعاره من الجاهلي، ب - تعيين تواريخ القصائد والمقطوعات الإسلامية.
- ٩ - لوحظت تحولات جديدة في الأسماء تتناسب والظرف الجديد منها:
 - مدينة يثرب تحول أسمها وأصبح: المدينة المنورة، أو مدينة رسول الله ﷺ أو طيبة، أو طابة، والأول أكثر الأسماء شيوعاً.
 - الأوس والخزرج صار يطلق عليهما اسم «الأنصار».
 - حسان بن ثابت: تحول من شاعر يثرب أو شاعر الخزرج إلى: شاعر الدعوة الإسلامية، أو شاعر النبي ﷺ.

١٠ - بايع الأوس والخزرج (الأنصار) رسول الله ﷺ قبل هجرته إلى المدينة مرتين: الأولى: بيعة العقبة الأولى» أو «بيعة النساء» عام ٢ ق.هـ، وذلك قبل أن تُفرض عليهم الحرب، وقد ذكرها عبادة بن الصامت بقوله: «بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفترقه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتكم فلکم الجنة، وإن غشيتكم من ذلك شيئاً أخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتكم عليه إلى يوم القيامة، فأمركم إلى الله عزوجل إن شاء عذب وإن شاء غفر». الثانية: وهي «بيعة العقبة الثانية» أو «بيعة الحرب» (١ ق.هـ)، وفيها التقى رسول الله ﷺ بعض الأنصار - وعدتهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان في الشعب عند العقبة أوّسط أيام التشريق ليلاً.

وبعد أن فرغوا من الحجّ وكانت الليلة الموعودة تسللوا من رحالهم بعد مضي ثلث الليل. وبعد اجتماعهم في الشعب جاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس وكان على دين قومه، فتكلم العباس أولاً ليؤكد الأمر. فبين للأنصار أن الرسول ﷺ في عزٍّ من قومه وأنه مانعوه، ولكنّه أحب الانحياز إلى الانصار «فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه...» ثم تكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن. ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثاها كابراً عن كابر، انظر سيرة ابن هشام: ٢٩٥/٢ و ٣٠٢.

وقبل هاتين البيعتين، وفي موسم الحج (سنة ٣ ق.هـ) أي الذي سبق «بيعة العقبة الأولى» وبينما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب كما يصنع في كل موسم التقى ستة نفر من الخروج - وبعضهم من بني النجار: عند العقبة، فعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم شيئاً من القرآن الكريم فأسلموا، وأخبروه أنهم قد تركوا قومهم وبينهم عداوة وشرٌّ، وتمنوا أن يجمعهم الله سبحانه وتعالى برسوله على الإسلام، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، ولما قدموا المدينة (يثرب) ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعواهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ (انظر سيرة ابن هشام: ٢٩٢/٢...).

١١ - وهو الشهر الذي بايع فيه الأنصار رسول الله ﷺ ببيعة الحرب (بيعة العقبة الثانية)، وقد حدّد هذا الوقت لأنهم يذهبون فيه إلى الحج.. وقد أقام رسول الله ﷺ في مكة بعد هذه البيعة بقية شهر ذي الحجة، من تلك السنة، والمحرم وصفرًا من السنة التي تلي، وخرج مهاجرًا إلى المدينة في شهر ربيع الأول، وقدمها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت منه. (انظر: الطبري: ٢/٢٤٠).

الفصل الأول

شعره الذي تأكّدت

— |

| —

— |

| —

أول شعره في الإسلام

لقي رسول الله ﷺ من قبيلته «قريش»^(١) ومن عشيرته الأقربين أشد العنت، وأسوأ أنواع الأذى والاستهزاء: وكان كبار المستهزئين خمسة من قومه، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، وهم: الأسود بن المطلب من بني أسد بن عبد العزى^(٢)، والأسود بن عبد يغوث بن وهب من بني زهرة بن كلاب^(٣)، والوليد بن المغيرة من بني مخزوم^(٤)، والعاص بن وائل من بني سهم^(٥)، والحارث بن الطلائع من بني خزاعة^(٦). ولما تمادوا في الشر والاستهزاء أنزل الله سبحانه وتعالى: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون»^(٧).

وقد انتقم الله سبحانه من هؤلاء الخمسة شرَّ انتقام بسوء أفعالهم وخلص رسوله ﷺ منهم^(٨).

وكان هنالك خمسة نفر من جيرانه ﷺ يؤذونه في بيته، وهم: عمه أبولهب عبد العزى ابن عبد المطلب^(٩)، والحكم بن أبي العاص بن أمية^(١٠)، وعقبة بن أبي معيط^(١١)، وعدي بن حمراء الثقفي^(١٢) وابن الأصداء الهذلي^(١٣)، فكان بعضهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي، وآخر يطرحها في بُرْمَتِهِ^(١٤) إذا نُصِبَتْ له.. وازدادت عليه المصائب بوفاة زوجته خديجة بنت خويلد^(١٥)، وكانت له وزير صدق على الإسلام، وبوفاة عمه أبوطالب^(١٦)، وكان عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصرًا على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين، فنالت قريش منه ﷺ ما لم تكن تستطيعه في حياة عمه أبي طالب حتى نثر بعضهم التراب على رأسه، فدخل ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بُنَيَّةُ فإن الله مانع أباك، ويقول: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبوطالب^(١٧).

وانطلق ﷺ بعد وفاة عمه وازدياد الأذى عليه إلى الطائف^(١٨) يلتمس النصرة من ثقيف^(١٩)، والمنعة بهم من قومه، فردّوه ردّاً قبيحاً، وأغروا به سفهاءهم فأدموا كعبيه، ورجموه بالحجارة^(٢٠)، فعاد إلى مكة وقومه أشدّ ما يكونون عليه من خلاف وفراق دينه إلا قليلاً من المستضعفين ممن آمن به. وراح يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، فيقف على منازلهم يدعوهم إلى الله عزّ وجل، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه، ويمنعوه، حتى يبين لهم عن الله ما بعثه به، وكان عمه أبولهب يتبعه، فإذا فرغ من قوله رد عليه وسفه كلامه.. وكلما سمع ﷺ بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف تصدى له، فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده^(٢١).

وظل ﷺ يتخذ الصبر درعاً واليقين شعاراً والثقة بنصر الله وحمايته دثاراً واستمر في الدعوة إلى الله، وعرض نفسه على القبائل والأشراف من الناس فتؤذيه ثقيف كما لاحظنا، وتعرض عنه كلب^(٢٢) وكنده^(٢٣)، وتردّه بنو حنيفة^(٢٤) ردّاً قبيحاً، وتشتط عليه بنو عامر^(٢٥) بن صعصعة الأمر من بعده، وتطوي دونه كشحاً فزاره^(٢٦)، وغسان^(٢٧) ومرة وسليم^(٢٩) وعبس^(٢٠) وبنو النضر^(٢١) وعُدرة^(٢٢) وبنو الحارث بن كعب^(٢٣) والحضارمة^(٢٤) فلم يستجب منهم أحد.

وفي موسم الحجّ سنة ٣ ق.هـ/٦١٩م بينما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل في منازلها - كما كان يصنع - التقى ستة نفرٍ من الخزرج عند العقبة - كما أسلفنا - فقال لهم: من أنتم: قالوا نفر من الخزرج. قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، وكانت لديهم أرضية سابقة ولّدها احتكاكهم بيهود، فأسلموا، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، فذكروا رسول الله ﷺ لقومهم: ودعوههم إلى الإسلام حتى فشوا فيهم. وفي العام التالي (٢ ق.هـ/٦٢٠م) وافى موسم الحج من الأوس والخزرج أثنا عشر رجلاً، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة، فأمنوا به، وبايعوهبيعة العقبة الأولى، ولما انصرفوا بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، وراحوا ينشرون الدعوة في ربوع يثرب، حتى إذا ما استدار العام وحلّ موسم الحج سنة ١

ق هـ/ ٦٢١، خرج إلى موسم الحج عدد من مسلمي الأوس والخزرج مع حجّاج قومهم من أهل الشرك، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة في أوسط أيام التشريق ليلاً، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، فوافاهم الرسول ﷺ ومعه عمه العباس، وبايعوه بيعة العقبة الثانية على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأزهرهم.. وأخرجوا له بناء على طلبه من بينهم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ثم ارفضوا إلى رحالهم.

وبلغ الخبر مسامع قريش، فغعدوا في اليوم التالي على الأنصار في منازلهم يستفسرون منهم فالتقوا بعض مشركي الأوس والخزرج، فحلف لهم هؤلاء - وهم صادقون - أن ما بلغهم لم يكن. ولما نَفَرَ الناس من منى، واستقصت قريش الأمر علمت بأمر هذه البيعة، وهي بين مصدّق ومكذّب، فأرسلت من يلحق بهم يستجلي حقيقة ما حصل، ومن بين هؤلاء كان ضرار بن الخطاب بن مرداس^(٣٦) شاعر قريش وفارسها، فأدركوا سعد بن عبادة^(٣٧) بأذاخر^(٣٨)، والمنذر بن عمرو^(٣٩)، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأسروه، وربطوا يديه إلى عنقه، وردّوه إلى مكة، وهم «يضربونه، ويجيذون بجمّته^(٤٠)»، وكان ذا شعر كثير حتى أجاره الحارث بن حرب بن أمية^(٤١) وجبير بن مطعم^(٤٢) أو المطعم بن عدي لأنه كان يجير لهما قوافلهما المارة ببثرب. وفي ذلك قال ضرار بن الخطاب^(٤٣):

تَدَارَكْتُ سَعْدًا عَنُوءَةً فَأَخَذْتَهُ

وَكَانَ شِفَاءً لَوْ تَدَارَكْتُ مَنْذِرًا

وَلَوْ نِلْتُهُ طُلْتُ هَنَّاكَ جِرَاحُهُ

وَكَانَ حَرِيًّا أَنْ يَهَانَ وَيَهْدِرَا^(٤٤)

فأجابه حسان بن ثابت، وهذا أول شعر قاله في الإسلام^(٤٥):

لَسْتُ إِلَى سَعْدٍ وَلَا الْمَرْءِ مَنْذِرٍ

إِذَا مَا مَطَايَا الْقَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمُرًا^(٤٦)

وَلَوْلَا أَبُو وَهْبٍ لَمَرَّتْ قِصَائِدُ

عَلَى شَرَفِ الْبَرْقَاءِ يَهْوِينَ حُسْرًا^(٤٧)

فَإِنَّا وَمَنْ يَهْدِي الْقَصَائِدَ نَحُونَا
 كَمُسْتَبْذِعٍ تَمَرًا إِلَى أَهْلِ خَيْبَرَا^(٤٨)
 فَلَاتُكَ كَالْوَسْنَانِ يَحْلُمُ أَنَّهُ
 بِقَرْيَةٍ كَسْرَى أَوْ بِقَرْيَةٍ قَيْصَرَا^(٤٩)
 وَلَا تَكُ كَالشَّاةِ الَّتِي كَانَ حَتْفُهَا
 بِحَفَرٍ ذَرَاغِيهَا فَلَمْ تَرْضَ مَحْفَرَا^(٥٠)
 وَلَا تَكُ كَالْعَاوِي فَأَقْبَلَ نَحْوَهُ
 وَلَمْ يَخْشَهُ سَهْمًا مِنَ النَّبْلِ مُضْمَرَا^(٥١)
 أَتَفْخَرُ بِالْكَتَّانِ لَمَّا لَبَسَتْهُ
 وَقَدْ يَلْبِسُ الْأَنْبَاطُ رِيْطًا مُّقْصَرَا^(٥٢)

والأبيات كما نرى ليس فيها بعد الروح الإسلامية ولا النفس الإيماني، إذ إنها أول
 قصيدة يقولها في الإسلام، وهو لما يستطع بعد تمثل المعاني الجديدة التي جاء بها الإسلام،
 ولكن فيها ذلك الروح التهكمي والتهديدي، وذلك النفس الشعري الذي أسلفنا أن حسان
 كان مهيباً له باستعداده الفطري، وظروفه ومكانته بين شعراء المدينة^(٥٣)

الهوامش

١ - قريش: كانت قريش تدعى «النَّضْر بن كنانة» ونسبه كما ذكر النسَّابون: النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وكانوا متفرقين في بني كنانة، فجمعهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.. من كلٍّ أَوْبٍ إلى البيت فسُمُّوا قريشاً (والتقرُّش: التجمُّع) وسمي قصي بن كلاب مجمَّعاً. وفيه قال الشاعر حذافة بن غانم القرشي:

قصي أبوكم كان يُدعى مُجمَّعاً

به جمع الله القبائل من فهر

وإنما جمع قصي إلى مكة بني فهر بن مالك، فجدم قريش كلها فهر بن مالك، فما دونه قريش وما فوقه عرب مثل كنانة وأسد وغيرها من قبائل مضر، وأما قبائل قريش فإنما تنتهي إلى فهر بن مالك لا تجاوزه.

وكانت قريش تسمَّى آل الله وجيران الله وسكان حرم الله وللنَّسَّابين خلاف طويل في قريش ونسبها والقرشيون قسمان:

أ - قريش البطاح: سُمُّوا كذلك لأنهم سكنوا بطحاء مكة وهم عشرة: «بنو هاشم بن عبدمناف، بنو أمية بن عبدشمس بن عبدمناف، بنونوفل بن عبدمناف، بنوعبدالدار بن قصي، بنوأسد بن عبدالعزى، بنوتيم بن مرة، بنومخزوم بن يقظة بن مرة، بنوعدي بن كعب، بنوجمع بن هُصَيص بن كعب، بنوسهم بن هصيص بن كعب (وأضاف بعضهم: بني عامر بن لؤي).

ب - قريش الظواهر: سُمُّوا كذلك لأنهم نزلوا حول مكة وما والاها، وهم: «بنو الحارث، وبنو محارب، ابنا فهر بن مالك بن النضر (وأضاف بعضهم: بني تيم بن غالب وهم بنوا الأدرم، وعامة بني عامر بن لؤي).

وهناك الأحابيش وهم حلفاء قريش، وهم: «بنوالمصطلق، وبنوالحياء بن سعد بن عمرو، وبنوالهُون بن خزيمة وسمُّوا كذلك لأنهم اجتمعوا بذيئ جبل «حُبَشِيَّ» هو جبل بأسفل مكة، فتحالفوا بالله إنا ليد على غيرنا ما سجا ليل، وأوضح نهاراً وما رسا حُبَشِيَّ مكانه. ولذا سموا الأحابيش.

ومن تجمعات قريش: المطييون والأحلاف:

- المطيّبون: سموا كذلك لخلُوق صنعته لهم أم حكيم «لعلها أم حكيم البيضاء بنت بعد المطلب»، فغمسوا أيديهم فيه، وتعاهدوا، وهم: «بنوعبدمناف، (وهم بنوهاشم وبنوعبدشمس، وبنونوفل)، وبنوأسد بن عبدالعُزَّى، وبنوزهرة بن كلاب، وبنوتيم بن مرة بن كعب، وبنوالحارث بن فهر، وبنوعبدقصي بن قصي».

- الأحلاف: سموا كذلك لجزور نحروه، فداؤوا دمه في جفنة، فمسهو بأيديهم ولعقوا منه، وقد سمي الأحلاف كذلك «لَعَقَة الدم»، وهم: «بنوعبدالدار بن قصي، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو سهم وبنوجمح ابنا عمرو بن هُصَيص بن كعب، وبنو عدي بن كعب».

٢ - الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعُزَّى بن قصي بن كلاب.. وقد دعا عليه رسول الله ﷺ لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به، فقال: اللَّهُمَّ أَعْمِ بصره وأَكْلَهُ وَلَدَهُ. فعمي.

٣ - الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب... وقد استسقى بطنه فمات منه حبناً.

٤ - الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة.. (٩٥ ق.هـ - ٥٣٠ هـ / ٦٢٢ م) أبوعبدشمس: من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقنها. يقال له «العدل» لأنه كان عدل قريش كلها: كانت قريش تكسو «البيت» جميعها والوليد يكسوه وحده، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه، وهو الذي جمع قريشاً وقال: إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد (ﷺ) فتختلف أقوالكم فيه. فيقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحدا مما يقولون ولكن أصلح ما قيل فيه: ساحر، لأنه يفرق بين المرء وأخيه والزوج وزوجته.. هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، إذ انتقض عليه جرح قديم أصابه بسبب سهم خدشه، فقتله. وهو والد سيف الله المسلول: خالد بن الوليد.

٥ - العاص بن وائل بن هشام (وقيل: هاشم) بن سَعِيد بن سهم من قريش (٠٠ - ٣ ق.هـ / ٠٠٠ - نحو ٦٢٠ م) أحد الحكّام في الجاهلية، وأدرك الإسلام، فعاداه وهو من المستهزئين والزنادقة، وكان على رأس بني سهم في حرب الفجار. خرج على حمار له يريد الطائف فريض به على شبارقة (نوع من الشجر) فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته، وهو والد عمرو.

٦ - الحارث بن الطلائع بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن لؤي بن مَلَكَن من بني خزاعة وقد امتخض رأسه قيحاً فقتله.

٧ - القرآن الكريم - سورة الحجر: ٩٤/١٥ - ٩٦.

٨ - انظر السيرة لابن هشام: ٢٧٧/٢: وقد فصل في تخلص الله رسوله منهم.

٩ - عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، أبولهب من قريش (٠٠٠ - ٢ هـ/ ٠٠٠ - ٦٢٤ م) عم رسول الله ﷺ وأحد الأشراف الشجعان في الجاهلية، ومن أشد الناس عداوة للمسلمين في الإسلام ولابن أخيه كان غنياً عتياً كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه، فأذى أتباعه وحرّض عليهم، وقاتلهم، وكان إذا خرج رسول الله ﷺ في الموسم يدعو القبائل في منازلها إلى الله تتبعه وسفه رأيه وخذل عنه. وفيه نزلت السورة «تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب...» وكان أحمر الوجه، مشرقاً، فلقب في الجاهلية بأبي لهب، مات بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها، وإنما بعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة. وأبولهب سلط الله عليه العدس، فقتلته، وهي بثرة مرضية.

١٠ - الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس (الأموي الفرشي) (٠٠٠ - ٣٢ هـ/ ٠٠٠ - ٦٥٣ م) ممن كانوا يؤذونه ﷺ وقد أسلم يوم الفتح وسكن المدينة فكان مما قيل فيه أنه يفشي سر رسول الله ﷺ ويطلع عليه من باب بيته نفاه إلى الطائف مع حلمه ﷺ وإعضائه على ما يكره وما فعل ذلك به إلا لأمر عظيم وقد أعيد إلى المدينة في خلافة عثمان فمات فيها وقد كفّ بصره وهو عم عثمان بن عفان ووالد مروان بن الحكم رأس الدولة مروانية.

١١ - عتبة بن أبي مُعَيْط: عتبة بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس (٠٠٠ - ٢ هـ/ ٠٠٠ - ٦٢٤ م) من مقدمي قريش في الجاهلية، كنيته أبو الوليد، وكنية أبيه أبو معيط. كان شديد الأذى للمسلمين عند ظهور الدعوة وقد أسروه يوم بدر وقتلوه ثم صلبوه: وهو أول مصلوب في الإسلام.

١٢ - عدي بن حمراء الثقفي: لم نعثر على ترجمه له.

١٣ - ابن الأصداء الهذلي: لم نعثر على ترجمة له.

١٤ - البرمة: ج بُرم وُبرام: القدر أو القدر من الحجر.

١٥ - أم المؤمنين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى من قريش (٦٨-٣ ق.هـ/٥٥٦-٦٢٠م) زوج رسول الله ﷺ الأولى، وكانت أسنّ منه بخمس عشرة سنة. ولدت بمكة، ونشأت في بيت شرف ويسار، ومات أبوها يوم الفجار، وتزوجت بأبي هالة بن زرارة التميمي فمات عنها. وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام تستأجر الرجال. فلما بلغ رسول الله ﷺ الخامسة والعشرين خرج في تجارة لها إلى سوق بصرى بحوران وعاد رابحاً، فدمست له من عرض عليه الزواج بها، فأجاب، وتزوجها قبل النبوة فولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. ولما بُعث رسول الله ﷺ كانت أول من أسلم من الرجال والنساء. وأولاد النبي كلهم منها ما عدا إبراهيم فهو من مارية القبطية.

١٦ - أبوطالب: عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم: والد عليّ وعمّ النبي ﷺ (٨٥ ق.هـ - ٣ ق.هـ/ ٥٤٠ - ٦٢٠) وكافله ومربيّه ومناصره وكان من أبطال بني هاشم ورؤسائهم، ومن الخطباء العقلاء الأباة، وله تجارة كسائر قريش. نشأ النبي ﷺ في بيته، وسافر معه إلى الشام في صباه، ولما أظهر الدعوة إلى الإسلام همّ أقرباؤه بقتله، فحمّاه الله وصدهم عنه. دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فامتنع خوفاً من أن تعيره العرب بترك دين آبائه ولكن وعد بنصرته وحمايته حتى توفي فنالت منه قريش واضطر المسلمون للهجرة من مكة. مولده ووفاته بمكة وينسب إليه مجموع صغير باسم ديوان شيخ الأباطح أبي طالب ولعله منحول.

١٧ - السيرة لابن هشام: ٢/٢٨٣ والأعلام للزركلي: ٤/١٦٦.

١٨ - الطائف بلدة سكنتها ثقيف بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً وكانت تسمى وج وهي ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وسائر الفواكة وبها مياة جارية وأودية وجلّ أهلها ثقيف وحمير وقوم من قريش وهي على ظهر جبل غزوان وبغزوان قبائل هذيل وقيل إن تسميتها جاءت من الحائط الذي بناه أهلها حولها ليحصنوها وقد سمّوه الطائف

لإطافته بهم. غزاها الرسول ﷺ في شوال سنة ثمان للهجرة عند مُنْصَرَفِهِ من حُنَيْن، فتحصَّن أهلُها منه، ثم انصرف عنها، فخاف أهلها أن يعود إليهم فبعثوا وفدهم وتصالحوها على أن يسلموا ويقرّوا على ما في أيديهم من أموال وركاز وكتب لهم ﷺ كتاباً وكان فتحها سنة تسع من الهجرة.

١٩ - ثقيف بن منبّه بن بكر بن هوازن من عدنان: جدّ جاهلي والنسبة إليه تَقَفِيّ كانت منازل بنيّه في الطائف وهم عدة بطون بقي منهم إلى عصرنا هذا كثيرون كان صنمهم في الجاهلية «اللات» مبنياً على صخرة في الطائف ، هدمه خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة وقد ثبتت ثقيف على الإسلام عندما ارتدت العرب بعد وفاة الرسول ﷺ . ومنهم الحجاج بن يوسف الوالي الأموي المشهور.

٢٠ - انظر السيرة: ٢٨٤/٢ وما بعدها .

٢١ - المرجع السابق: ٢٨٧/٢ وما بعدها .

٢٢ - كَلْب: هنالك أكثر من واحد:

أ - كَلْب جدّ جاهليّ بنوه من خثعم ومساكنهم في الحجاز .

ب - كَلْب بن عمرو من أنمار كهلان: جدّ جاهلي بنوه بطن من بجيلة .

ج - كَلْب بن وبرة بن قضاة: جدّ جاهليّ حثيما أطلق لفظ الكلبى فالنسبة إليه، كانوا ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام (المقصود هم هؤلاء) .

٢٣ - كندة بن عُفَيْر بن عديّ بن الحارث من كهلان، جدّ جاهليّ يمانيّ مجهول الولادة والوفاة، قيل: اسمه ثُور ولقبه كندة، كان لبنيه ملك بالحجاز واليمن في الجاهلية، وارتد بعضهم في أيام أبي بكر فقاتلهم، ونزلت جماعات منهم في الكوفة، وشاركوا في الفتوح، ودخلت بطون منهم الأندلس .

٢٤ - بنوحنيفة: حنيفة بن لُجَيْم بطن من بكر بن وائل انفصلت عنها أواخر حرب البسوس . وانضمت إلى تغلب. تبع بعضهم مسيلمة الكذاب فقاتلهم خالد بن الوليد، ودخلوا من بعد في الإسلام.

٢٥ - بنوعامر بن صعصعة: عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر من قيس عيلان من العدنانية جدّ جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، بنوه بطون كثيرة.

٢٦ - فزارة: فزارة بن ذبيان بن بغيض من غطفان، من العدنانية: جدّ جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، تفرع نسله عن خمسة من أبنائه: مازن، وسعد، وعديّ، وظالم، وشمخ، وتفرقت بطونهم في نجد ووادي القرى، ثم بإفريقية والمغرب الأقصى، وقيل أيضاً في الصعيد وضواحي القاهرة.

٢٧ - غسان: اسم ماء نزل عليه بنو مازن بن الأزد بن الغوث، وهم الأنصار وبنو جفنة وخزاعة فسمّوا به ويقال إن هذا الماء كان بسدّ مأرب باليمن أو قريباً منه، ويقال إنه ماء بالمشلل قريب من الجحفة، والذين شربوا منه سمّوا به، فسمّي به قبائل من ولد مازن بن الأزد قال حسان بن ثابت:

إِذَا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نَجِبٌ
الْأَزْدُ نَسَبَتْنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

(انظر ديوانه ص ٤٧٢ ومعجم البلدان: ٢٠٣/٤).

٢٨ - مرة: وردت قبائل عدّة بهذا الاسم:

أ - مرة بن صعصعة بن معاوية من هوازن، من قيس عيلان: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة يعرف بنوه ببني «سلول» وهي سلول بنت ذهل بن شيبان.

ب - مرة بن عبدمناة بن كنانة بن مضر من عدنان: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة بنوه بطون: منها: بنومدلج وفيهم القيافة والعيافة (أي معرفة تتبع الأثر والتكهّن بالطير وغيرها).

ج - مرة بن عبيد بن مقاعس من سعد بن زيد مناة من تميم: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة من نسله الأحنف بن قيس.

د - مرة بن عوف بن سعد من بني ذبيان من غطفان جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة من نسله هرم بن سنان (ممدوح زهير)، والنابعة الذبياني الشاعر.

هـ - مرة بن كعب بن لؤي من مضر من عدنان: جدّ جاهلي من سلسلة النسب النبوي مجهول الولادة والوفاة من نسله بنويقظة وبنو مخزوم وبنوتيم.

و - مرة بن مالك بن أوس من الأزد: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة. يقال لبنيه «الجعادرة» (ومعنى الجعدر لغة: القصير)، منهم أبوقيس بن الأسلت (صيفي بن عامر).

ز - مرة بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة يلقب بالعمّ ويقال لبنيه العميُّون نزلوا البصرة في خلافة عمرو وكان لهم بلاء حسن في الفتوح.

(٢٩) سُلَيْم:

أ - سليم بن قطرة بن غنم: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة، بنوه بطن من شنوءة من القحطانية والنسبة إليه «سُلَمي».

ب - سُلَيْم بن منصور بن عكرمة: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة بنوه قبيلة عظيمة من قيس عيلان من مضر كانت منازلها في عالية نجد بالقرب من خيبر، وتفرقت في شرقي إفريقيا والمغرب، واستقر بعضهم في البحرين وعمّان. ويطونهم: بنوعُصَيّة وبنو بهز وبنو بهثة وبنوزعب وبنورعل وبنومطرود وبنوذكوان وبنو الشريد رهط الخنساء.

٣٠ - عَبَس:

أ - عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان من عدنان: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة، بنوه العبسيُّون ومنهم عنتر بن شداد. كانت منازلهم قبل الإسلام بنجد وتفرقوا بعد ذلك.

ب - عبس بن رفاع بن الحارث من سُلَيْم من العدنانية: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة من نسله عباس بن مرداس.

٣١ - النَّضْر بن كنانة بن خُزَيْمة بن مدركة من بني نزار من عدنان: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة، من سلسلة النسب النبوي، كنيته أبو يَحْظَلد. بنوه قبائل ويطون كثيرة كانت مساكنهم حول مكة وما والاها وفي النسابين من يرى أنه هو «قريش».

٣٢ - عَذْرَة:

أ - عذرة بن زيد اللات بن رفيدة من بني كلب من قضاة من قحطان: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة.

ب - عذرة بن سعد هذيم بن زيد من قضاة من قحطان: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة. من بطونه: عامر وكاهل وعوف وانتقلت جماعات منهم إلى الأندلس وبنو عذرة هؤلاء هم المعروفون بشدة العشق والعفة.

٣٣ - الحارث بن كعب بن عمرو بن عُلّة من مذحج من كهلان: جد جاهلي مجهول الولادة والوفاة، من نسلة بنوالديان رؤساء نجران.

٣٤ - الحضارمة: أهل حضرموت وهي ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف وفيها قبر النبي هود عليه السلام. ومعظم أهلها من كندة.

٣٥ - وهي بيعة النساء وقد سبقت الإشارة إليها. وانظر الطبري: ٢٣٤/٢ و٢٣٥.

٣٦ - سبق التعريف به ص ١٠٠ من هذا المؤلف.

٣٧ - سعد بن عباد. سبق التعريف به.

٣٨ - أذَاخِر: كأنه جمع الجمع: يقال ذُخِرَ وَأَذْخُرَ وَأَذَاخِر: مكان يُدْخَلُ منه إلى مكة أو يُخْرَجُ منه وهو في شمالها. قال ابن اسحق في السيرة: لما وصل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح دخل من أذَاخِرِ حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت هناك قُبَّتُهُ.

٣٩ - المنذر بن عمرو بن خنيس الخزرجي الأنصاري: كان فيمن شهد العقبة من بني ساعدة. وكان نقيب بني ساعدة هو وسعد بن عباد، وكان يكتب في الجاهلية بالعربية. شهد بدرًا وأحدًا، وقتل يوم بئر معونة أول سنة ٤هـ/٦٢٦م - إذ بعثه رسول الله ﷺ في أربعين من الصحابة - بخديعة من ملاعب الأسنة، فقتلوا إلا اثنين منهم.

٤٠ - يجروُنه من شعره.

٤١ - الحارث بن حرب بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف القرشي من أصحاب القوافل ممن كان سعد بن عباد يجير له قوافله المارة بيثرب.

٤٢ - جُبَيْر بن مُطْعِم بن عدي بن نوفل بن عبدمناف بن قصي (٥٩ - ٠٠٠ هـ/ ٦٧٩م) أبوعدي، صحابي كان والده مطعم بن عدي قد أجاز رسول الله ﷺ لما قدم من الطائف حين دعا ثقيفًا إلى الإسلام، فأبوا وكان أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني عبدالمطلب وحاصرتهم في الشعب أما هو (أي جبير) فكان من حلماء قريش وساداتهم، وعنه كان يؤخذ النسب لقريش وللعرب عامة، وكان يقول: أخذت النسب عن أبي بكر الصديق أسلم بعد الحديبية وقبل الفتح. وقيل أسلم في الفتح. هذا ما ذهب إليه صاحب السيرة (٣٠٨/٢) من أن اللذين خلّصا سعدًا هما

الحارث بن حرب وجُبَيْر بن مطعم، بينما ذهب زاد المعاد(٥٢/٢) إلى أن اللذين خُلصاه هما الحارث ومطعم بن عدي ولعله الصحيح.

٤١ - سبق التعريف به.

٤٤ - ديوان حسان بن ثابت ص ٢٤٧ والسيرة: ٣٠٨/٢، عَنوة: قَهراً. طُلَّتْ جراحه: أهدر دمه لا يُثَار به ولا دية له.

٤٥ - كما يقول شارح الديوان ص ٢٤٧ وقد وردت هذه الأبيات كذلك في السيرة: ٣٠٩/٢ وعددها ثمانية بينما أورد الديوان سبعة فقط مع اختلاف بين المرجعين في ترتيب الأبيات والبيت الذي لم يورده الديوان:

ولاتك كالتكلى وكانت بمعرزل
عن التكل لو كان الفؤاد تفكرا

ويقع خامساً في الترتيب.

٤٦ - في الديوان: لستَ إلى عمرو.. وطبيعي أن الصحيح «سعد» كما ذكرنا وكما جاء في السيرة أصبحن ضمراً: معدة للحرب. وكانت العرب تُضمّر الخيل للسباق أو للركض إلى العدو، وذلك بأن تُشدّ عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ويشتدّ لحمها ويحمل غلمان خفاف يُجرونها ولا يعنفون بها، فإذا فعل ذلك بها أُمن عليها البهر الشديد عند الركض ولم يقطعها الشدّ.

٤٧ - لعل المعنى: لولا أن أبا وهب أبلغنا هذين البيتين لأهُوتَ من شرف البرقاء مُعييةً، ولم تصل إلينا لضاآلتها.

٤٨ - يقول: مالك وللشعر؟! فإنك إذ تتعرض لنا بالشعر تدعونا إلى أن نُخزّيك، فنحن أهلوه، وأنت إذا أهديت إلينا شعرك كنت كمن يهدي التمر إلى أهل خيبر.

٤٩ - الوسنان: النائم.

٥٠ - يشير إلى المثل: سعى إلى حتفه بظلفه. وأصله أن رجلاً عثر على شاة في فلاة وكان جائعاً، وليس لديه ما يذبحها به، فبحث الشاة الأرض فظهرت فيها مدية، فذبحها بها فصارت مثلاً لكل من أعان على نفسه بسوء تدبيره.

٥١ - ويشبهه في معناه البيت السابق.. يقول: ولا تكن كالذئب يعوي فيدلّ بعوائه على نفسه، فيرميه الرامي بسهم قاتل من حيث لا يدري.

٥٢ - الكتّان.. معروف: نبات جميل له ساق طويلة مستقيمة وأزهار زرقاء تصنع من أليافه الأنسجة الكتانية. الأنباط: جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق. الریط: الملاحف البيض. قصر الثوب: دقّه وبيّضه.

٥٣ - انظر الطبري: ٢٣٠/٢ - ٢٤٠ وسيرة ابن هشام: ٢٩٢/٢ وما بعدها. وديوان حسان ص ٢٤٦ وما بعدها.

أشعار الحقة الواقعة ما بين الهجرة وبدر

ما بين ربيع الأول من السنة الهجرية الأولى
ورمضان من السنة الثانية

وتمر الأيام على رسول الله ﷺ في مكة بعد بيعة العقبة الثانية، ويشد الضيق عليه وعلى أصحابه، فيأمرهم بالهجرة إلى المدينة المنورة إذ إن لهم فيها إخواناً وأنصاراً ثم يلحق بهم ومعه أبو بكر الصديق بعد أن جاءه الإذن وأعدّ للأمر عدته، وأنجاه الله سبحانه ممن ترصدوه وتأمروا على قتله، فيمرّ في طريقه على خيمتي أم معبد^(١) ويحلب بإذن شاتها الحائل التي خلفها الجهد عن الخروج مع الغنم للرعي، ويشرب منها هو ومن معه ويسقيها ويترك لها الإناء مملوءاً حليباً.

ويذكر صاحب الروض الأنف وصاحب السيرة عن أسماء بنت أبي بكر^(٢) «حين خفي عليها وعلى من معها أمر رسول الله ﷺ، ولم يدروا أين توجه، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه، حتى خرج من أعلى مكة، وهو يقول:

جزى الله ربّ الناس خيراً جزائه
رفيقين حلاً خيمتي أمّ معبدٍ
هما نزلا بالبرّ، ثم تروّحا
فأفلح من أمسى رفيقاً محمداً
ليهنّ بني كعب مكان فتاتهم
ومقعدهما للمؤمنين بمرصد^(٣)

قالت أسماء: «فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ وأن وجهه إلى المدينة»^(٤) وكانوا أربعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعامر بن فهيرة^(٥) مولى أبي بكر، وعبد الله بن أرقط^(٦) دليلهما.

ويُروى أن حسان بن ثابت لما بلغه شعر الجنّي، وما هتف به، قال يجيبه:
لقد خاب قوم غاب عنهم نبيُّهم
وقُدّس من يسري إليهم ويغتدي
ترحلّ عن قوم فضلت عقولهم
وحلّ على قوم بنور مجدّد
هداهم به بعد الضلالة ربُّهم
وأرشداهم من يتبع الحق يرشّد
وهل يستوي ضلّال قوم تسقّوها
عمى وهداة يهتدون بمُهتد
لقد نزلت منه على أهل يثرب
ركاب هدى حلّت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله
ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب
فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهنّ أبا بكر سعادة جدّه
بصحبتّه من يُسعد الله يُسعد

ويروى «أن قريشاً لما سمعت شعر الهاتف أرسلت إلى أم معبد، فقالوا: هل مرّ بك محمد؟ فقالت: لا أدري، وإنما ضافني حالب الشاة الحائل»^(٧).

وفي هذه الأبيات التي تعد الأثر الثاني لحسان في الإسلام - إن صحّت النسبة - يتجلى فارق كبير يميزها عن الأثر الأول الذي رد فيه حسان على ضرار بن الخطاب، وهو:
(لست إلى سعد ولا المرء منذر)

هذا الفارق يشكل فاصلاً واضحاً: فنياً وزمناً وروحياً وفكرياً، فكيف حصل هذا وهو ما يزال في خطواته الأولى في درب العقيدة السمحة؟!

فحسان يستخدم هنا عدداً من الكلمات ذات الطابع الإسلامي من مثل: نبي، قدس، ضلّت عقولهم، نور مجدد، أرشد، ضلال، هداة، كتاب الله، مسجد.. وهذا يدل على غزارة معجمه اللفظي الجديد، وسرعة تأثر لسانه وبيانه بالهدي الجديد .

ويستخدم بعض العبارات والجمل ذات الطابع الإسلامي من مثل: هداهم بعد الضلالة ربهم، من يتبع الحق يرشد، وهل يستوي ضلال قوم وهداة يهتدون بمهتدٍ، من يسعد الله يسعد.. وتشيع في الأبيات روح إسلامية واضحة من مثل: خاب قوم غاب عنهم نبيهم، وقدس من يسري إليهم ويفتدي، نبي يرى ما لا يرى الناس حوله، ويتلو كتاب الله، ويستطيع التنبؤ بالغيب أو يرى في منامه الرؤيا فتجيء مثل فلق الصبح وتتحقق في يومه أو غده: وإن قال في يوم.. والسعادة بيد الله سبحانه: من يسعد الله يسعد..

بل إن فكر حسّان الذي تفتحت أمامه سبل الهدى والرشاد ليوافق بدقة وموضوعية بين الخير والشر حسب المقاييس الإسلامية: بين من خابوا بعد ترحل نبيهم ومن قدسوا بحلوله عندهم، وبين من ترحّل عنهم فضلت عقولهم، ومن جاءهم بنور جديد يهتك ظلمات الشرك، ويوازن بين الضلال الذي استحوز عليهم العمى والهداة الذين يهتدون بالنبي ﷺ مستمداً من البيان الإلهي الرفيع أسلوب الإقناع والحوار:

«قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»^(٨)

«وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج...»^(٩)

«قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور...»^(١٠)

إن المسافة الفنية التي تفصل بين الأثرين شاسعة لا تتناسب والمسافة الزمنية التي تفصل بينهما، وهي على أية حال تدل أن أبا الوليد قد فتح قلبه للهدي الجديد، فاستوعب مفرداته وروحانيته وأفكاره وتوجهاته بنفس راضية وقلب مطمئن، إن الأبيات لتعيش في جوّ روحي متميز، فيه حب الدعوة والداعية، وفيه التأثر العميق بالنور الجديد ومراميه، وفيه النقد اللاذع لمن قوّتوا على أنفسهم فرص الاستفادة من هذا النور الغامر الذي فتح قلوباً موصدة، وأعيناً مضلّلة، فصدوا عن ورد ينبوعه النثر النмир.. كل هذا والنبي ﷺ لم تطأ

قدماء بعد أرض يثرب، ولم يجلس إليه حسان ويقبس من مشكاة النبوة ما يطهر الأدران
ويضيء الصدور، ويفجر على الألسنة ينابيع السحر الحلال والهدي الدفاق.

هذه القمة التي قفز إليها حسان في هذه الأبيات روحياً وفكرياً وفنياً تستدعي
الإعجاب بحسن تمثله وسرعته، مثلما تستدعي التعجب من حسن معاشته الجو الجديد،
وهو ابن الستين الذي صلب عوده، فلم يصعب عليه أن يجاري الجديد ويتلاءم معه تلاؤم
مَنْ في سن الشباب أو في غضارة العمر.. هذا كله بالإضافة إلى ما في الأبيات من سهولة
المأخذ وسلاسة العبارة ووضوح الفكرة ونصاعة الدلالة وهي سمات مميزة تمتاح نسفها
الأصيل من روح الدعوة ومنهجها وتعلن بوضوح تأثر الحقبة الثانية من حياة حسان بالنور
الإلهي وهذا يتجلى بوضوح إذا ما قيس - وإن على عجل - بنتاج الحقبة الأولى.

والآن إذا تساءلنا - والمرء طُلْعَة وفيه ركبٌ بارئ روح ارتياد المجهول وحبّ اكتشاف
المستقبل - عن خطوات حسان الفنية التالية:

ترى هل استطاع حسان أن يسمو فوق هذه القمة التي بلغها روحياً وفكرياً وفنياً بعد
تمرسه بالدعوة ولقائه النبي ﷺ والدعاة، ومعاصرته مشاهد نمو الدعوة وازدهارها؟!

أو هل كانت الموضوعات والحوادث والأمر التي جدت بعد وصول رسول الله ﷺ إلى
المدينة ذات طوابع أخرى لا تتطلب مثل هذا السمو الروحي؟

وهل فترت حماسة حسان ونال منه التقادم ما يمكن أن يناله؟

وهل أثّرت سنوات العمر، وتقدمه في السن عليه وعلى فنه وفكره وروحه؟!

هذا ما ستجيب عنه الصفحات القادمة من الكتاب.

ولما بلغ الأنصار في المدينة مُخْرَجَ رسول الله ﷺ من مكة، وقصده المدينة، أخذوا
يخرجون كل يوم إلى الحرّة بظاهر المدينة ينتظرونه أوّل النهار فإذا اشتد الحر رجعوا إلى
منزلهم، ولما كان يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة^(١١)
خرجوا على عادتهم ولما حمي حر الشمس رجعوا، وصعد رجل من يهود على أطم من أطام

المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول به السراب، فصرخ بأعلى صوته: «يا بني قَيْلَةَ»^(١٢) هذا صاحبكم قد جاء! هذا جدُّكم الذي تنتظرونه!، فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ، وسمع التكبير في بني عمرو بن عوف^(١٣)، وكبّر المسلمون فرحاً بقدومه، وتلقوه فحيوه بتحية النبوة، ثم سار حتى نزل بقُبَاء^(١٤) في بني عمرو بن عوف^(١٥) على بعد ميلين من المدينة حين اشتد الضَّحَاء وكادت الشمس تعتدل^(١٦)، وأقام رسول الله ﷺ بقبَاء في بني عمرو بن عوف بقية يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس، وأسس مسجده^(١٧) وفي يوم^(١٨) الجمعة ركب ناقته يريد المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف^(١٩) فجمعَ بهم في بطن الوادي، وادي رانوءا^(٢٠)، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة.

وركب راحلته متوجهاً نحو المدينة، فجاءه رجال من بني سالم بن عوف قائلين: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة! قال: خلُّوا سبيلها (أي ناقته) فإنها مأمورة! فخلُّوا سبيلها، فانطلقت، وعندما بلغت دار بني بياضة تلقاه بعض رجالهم، وعرضوا عليه النزول عليهم، فقال لهم ما قاله لبني سالم بن عوف، وتكرر المشهد عندما بلغت الناقة دار بني ساعدة^(٢١) ودار بني الحارث بن الخزرج^(٢٢)، ودار عدي بن النجار^(٢٣)، حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار^(٢٤) بركت في المكان الذي صار فيه فيما بعد باب مسجد رسول الله ﷺ، وهو يومئذٍ مَرِيد^(٢٥) لغلامين يتيمين^(٢٦) من بني مالك بن النجار وبقي رسول الله ﷺ على ظهرها لم ينزل، ثم وثبت فسارت غير بعيد، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مَبْرَكها أول مرة، فبركت فيه، ثم تَلَحَّحَتْ^(٢٧) وأَرْزَمَتْ^(٢٨) ووضعتُ جِرائها^(٢٩)، فنزل عنها رسول الله ﷺ، وبادر أبو أيوب خالد بن زيد^(٣٠) فاحتمل رحله فوضعه في بيته، ونزل رسول الله ﷺ عليه، وبقي عنده ما بين شهر ربيع الأول (من السنة الأولى) وشهر صفر (من السنة الثانية) حتى تم بناء مسجده ومساكنه، ثم انتقل من بيت أبي أيوب إلى مساكنه بعد أن تم إرضاء صاحبي المريد^(٣١).

ثم خطب في مسجده خطبته الأولى، وفيها وعظ وتوجيه وترغيب وترهيب وتبعثها خطب أخرى، وكتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادَّعَ فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار في دار أنس

ابن مالك^(٣٢) (٣٣).

ومضت الدولة الجديدة في مربعها الجديد تخطو في دروب الإيمان واليقين، وتبني صروح الهدى والنور، ولكن السنة الشرك التي ما فترت يوماً عن معاداة الإسلام امتلأت غيظاً، وازدادت شراسة وحقدًا، وانبرت لرسول الله ﷺ بعد أن ترك مكة قاذفة وشاتمة، وتصدى حسان بن ثابت لها فيمن تصدى هاجياً رؤوس الكفر والضلالة، ومننداً بمعاليهم، وناشراً مثالبهم، وبين هجرة الرسول ﷺ في شهر ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة ورمضان من السنة الثانية حين وقعة بدر تطالعنا قصائد ومقطوعات كثيرة في الهجاء صبَّ فيها سخطه على الكفرة الأشرار، ولا سيما أشدهم أذى لرسول الله ﷺ ودعوته، ويؤسفنا أننا لا نستطيع ترتيب كل تلك القصائد والمقطوعات ترتيباً تاريخياً دقيقاً، وإذا كنا قد استطعنا أن نقع على بعض الدلائل التي تثبت أنها قيلت قبل موقعة بدر فإننا لم نستطع أن نجد ما يدل على تقدم بعضها على بعض، فبقيت كلها تحت عنوان واحد هو: «شعر الحقبة الواقعة ما بين الهجرة وبدر»، ولهذا اضطررت إلى ترتيبها بحسب قوافيها:

١ - فمن الذين هجاهم في هذه الحقبة «الحارث بن هشام بن المغيرة»^(٣٤) في قصيدة، مطلعها^(٣٥):

يا حارث إن كنتَ امراً متوسّعاً

فأفدِ الألى يُنصِفن آلَ جناب^(٣٦)

وفيها عيَّره بخالاته اللاتي يخدمن آل جناب، وبأنه ورث اللؤم عن أمه وأبيه ومما رجع وضع هذه القصيدة في هذه الحقبة أنها خلت من ذكر الحروب، ثم إنها - وهذا الأهم - خلت من السبة الشنيعة التي لحقت بالحارث في بدر، تلكم هي هربه من المعركة، وتركه أخاه أبا جهل^(٣٧) صريعاً هو وأحبته^(٣٨).

٢ - ومن الذين هجاهم أيضاً «عمرو بن العاص السهمي»^(٣٩) في مقطوعة، مطلعها^(٤٠):

زعم ابن نابغة اللئيم بأننا

لا نجعل الأحساب دون محمد^(٤١)

ومما يرجح وضعها في هذه الحقبة هو أن الأقوال في البيئة القرشية قد كثرت بعد هجرة الرسول ﷺ، إلى المدينة، وأن الكثير من القرشيين ذهبوا إلى أن الأوس والخزرج لن ينصروا محمداً ﷺ ولن يبذلوا دماءهم لحفظه، ولن يجعلوا أعراضهم وأحسابهم دريئة لألسنة الهجائين... وأمثال هذه الأقوال تحدث عادة وتكثر في مقدمات الأمور الهامة وهي تمثل لوناً من التشكيك ومن الحرب النفسية ومن استرضاء بعض الناقمين أو الذين أخذوا على قريش أنها لم تستطع أن تحسم أمرها مع الدعوة الجديدة.. وقد انقطعت تلك الأقاويل أو قلّت أو مُنيت بخيبة أو صدمة حين برهن الأنصار في بدر أنهم جديرون بحمل أعباء الرسالة وأنهم - كما قال حسان - يقدمون لرسول الله ﷺ الأموال والنفوس:

أموالنا ونفوسنا من دونه

من يصطنع خيراً يُثبَّ ويُحمَّد^(٤٢)

هذا بالدرجة الأولى، وبالدرجة الثانية خلوّ الأبيات من الروح الحربية التي شاعت بعد بدر في أشعار حسان.

٣ - وهجا كذلك «أبا البخخري بن هشام الأسدي»^(٤٣) في مقطوعة^(٤٤) مطلعها:

وما طلعت شمسُ النهار ولا بدتْ

عليك بمجدٍ يا ابنَ مقطوعةِ اليدِ

وأبو البخخري هذا قُتل في بدر - كما يقول الطبري^(٤٥) - فلا يعقل أن يهجو بعد موته بمثل هذا الهجاء^(٤٦).

٤ - ولم تسلم «هند بنت عتبة»^(٤٧)، لسان الشرك السليط آنذاك - من سعيير قوافيه، وإنما كان لها نصيب وافر، فقد هجاها شاعر الدعوة في تلك الحقبة بمقطوعتين: الأولى مطلعها^(٤٨):

لمن الصبيُّ بجانبِ البطحاء

في التَّربِ مُلقًى غير ذي مَهْدٍ^(٤٩)

والثانية مطلعها: ^(٥٠)

لَمَنْ سَوَاقِطُ صَبِيَّانٍ مُنْبَبَذَةٌ
بَاتَتْ تَفْحَصُ فِي بَطْحَاءِ أَجْيَادٍ^(٥١)

والمقطوعتان متشابهتان في الروح، وفي المنحى الذي انداحت منه الفكر والصور
المغذية لهما، وخلصتا من الروح الحربية، ولا سيما الإشارة إلى بدر أو إلى تعيير هند بمقتل
أبيها وعمها وابنها وأخيها، وهذا ما حدث ببدر فغذى شاعرية حسان في القصائد الأخرى
التي قالها في هجاء هند بعد موقعة بدر^(*).

٥ - ويظهر أنه تعرض لـ «ابن الزبيري»^(٥٢) في ثلاث قصائد:

الأولى: مطلعها^(٥٣):

سَأَلْتَ قَرِيْشًا فَلَمْ يَكْذِبُوا
فَسَلَّ وَحَوْحًا^(٥٤) وَأَبَا عَامِرٍ^(٥٥)

وفيها افتخر بقومه ونسبه، وحطَّ من الزبيري، وعجب أخيراً:
وَكَيْفَ يَنْصَاصُ بُنِي مُفَحَّمٍ
يُنْصُصُ إِلَى مُلْصَقٍ بِائِرٍ

ومما جعلنا نضع هذه القصيدة في هذه الحقبة هو إحالة ابن الزبيري على وحوح بن
الأسلت أخي أبي قيس بن الأسلت الشاعر الذي كان حسان يهاجيه في الجاهلية وعلى أبي
عامر الراهب ليخبراه عن مكانة حسان في قومه وعن مآثر قومه.. ومعنى هذا بدء معركة
النقائض بين حسان وابن الزبيري، وأمر ثانٍ هو خلو الأبيات من رائحة الدماء.

الثانية: مطلعها^(٥٦):

لَقَدْ عَلِمْتُ بَنُو النَّجَّارِ أَتَى
أُذُودَ عَنِ الْعَشِيرَةِ بِالْحَسَامِ

وفيها اتهمه بوجود صفات عنده تشبه صفات العبيد، وانحطَّ به عن الانتساب إلى
قصي وزهرة وكعب ومخزوم من البطون القرشية.

الثالثة: مطلعها^(٥٧):

أَلَا إِنْ ادَّعَاءَ بَنِي قَصِيٍّ
عَلَى مَنْ لَا يَنْسَبُ بِهِمْ حَرَامٌ

وفيها ألحَّ على تجريده من الانتساب إلى «قصي» لانعدام الصفات التي تؤهله لهذا الانتساب، وعيَّره بأمه.

والذي سوغ وضع هذين الأثرين في هذه الحقبة خلو الأبيات من رائحة الدماء، والاقتصار على التعبير بالأنساب والأمهات.

٦ - وقد هجا أمية بن خلف^(٥٨) الخزاعي حسان بقوله^(٥٩):

أَلَا مَنْ مُبْلَغِ حَسَانَ عَنِي
مُغْلَغَلَةٌ تَدْبُ إِلَى عُكَازٍ^(٦٠)

فأجابه حسان^(٦١):

أَتَانِي عَنْ أُمِّيَّةٍ ذُرُوقُ قَوْلٍ
وَمَا هُوَ بِالْمَغِيبِ بَنِي حِفَازٍ^(٦٢)

وهدَّده بأنه سينشر في عكاظ كلاماً كالصم الصلاب تجلله هو وقومه بالعار والسعير، واتهمه بأنه ذو وجهين: فهو يغض الطرف إذا رأى حسان، ويرميه حين يدبر بالحاظ والنظر الشزر، وفي هذه الأبيات روح جاهلية إلى جانب نفسها المتعالي.

٧ - وأبو جهل^(٧٣) رأس الكفر وجرثومة البلاء هو أجدر الناس بأن يُعيره أبو الحسام لفتة من لفتاته الواخزة المبكَّنة، فقد هجاه بقصيدة، مطلعها^(٦٤):

سَمَّاهُ مَعْشَرُهُ أَبَا حَكَمٍ
وَاللَّهُ سَمَّاهُ أَبَا جَهْلٍ

ومن هذه المفارقة بين الحكم والجهل انداحت الصور الفنية آخذاً بعضها بحجز بعض: فمرجل جهله يغلي.. وهو يبدي الفجور وسورة الجهل.. يولع به عصارطة لا قيمة لهم.. ورئاسته لمعشره لم تجلب عليهم النفع لجهله، وإنما جلبت غضب الإله وذلة الأصل..

ومن المعروف أن أبا جهل قتل في موقعة بدر، فمن المرجح إذًا أن حسان قال هذه القصيدة قبل مقتله، إذ لا نجد ذكرًا لميتته على العكس من الأبيات الأخرى التي قالها بعد موته، كما سيُمرّ معنا، وفيها سجد آثار قتله ونصر الله رسوله وجنده..

٨ - ويغلب على الظن أنه في هذه الحقبة هجا «طلحة بن أبي طلحة»^(٦٥)، وهو أحد فرسان قريش المعدودين، وأول مقتولٍ يحمل اللواء يوم أحدٍ، وقد قال حسان في هجائه مقطوعة، مطلعها^(٦٦):

ألم تَرَ أن طَلْحَةَ من قَريشٍ
يُعدُّ من القمَاقمة الكرام^(٦٧)

وعلى الرغم من أن طلحة هذا تأخرت به الحياة إلى أحد حين قتله عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه مبارزةً، فإننا نرجح أنه هجاه قبل بدر لأن القطعة خلت من قعقة السلاح من جهة، ولأنّه جَدَّت في بدر حوادث أخرى من جهة ثانية استوحى منها حسان كثيرًا من معاني هجائه وصوره كما سنرى، وعلى الأخص أن طلحة هذا من بني عبدالدار، وهؤلاء كانوا يحملون لواء المشركين في بدر، وعلى أيديهم اندحر.

٩ - وممن هجاهم حسان في هذه الحقبة «أبو لهب»^(٦٨) عمّ الرسول ﷺ، هجاه بمقطوعة مطلعها^(٦٩):

أبا لهبِ أبْلُغْ بَأَن مُحَمَّدًا
سَيَعْلُو بما أدّى وإن كنت راغما

ووصمه بأنه ليس حرًا في أرومة هاشم، وأنه لو كان كذلك لمنع المظالم عن ابن أخيه محمد ﷺ، وألحقه بِلَحِيان^(٧٠)، وألحق به اللؤم والخسّة، ودعاه إلى الانسلاخ عن هاشم، وأبو لهب لم يشهد بدرًا وإنما مات بعدها بقليل، «رماه الله عز وجل بالعدسة فقتلته»^(٧١).

١٠ - ومنهم «الوليد بن المغيرة»^(٧٢)، وهو أحد كبار المستهزئين، وهو الذي قال: «أينزلُ على محمدٍ وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟» ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي^(٧٣) سيد ثقيف، ونحن عظيمَا القريتين؟^(٧٤)، فأنزل الله تعالى فيه: «وقالوا لولا نزل هذا

القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا ورحمة ربك خير مما يجمعون»^(٧٥).

وهو الذي كان يستمدّ من خبرته الواسعة في حياته المديدة ما يحاول به الإساءة إلى رسول الله ﷺ والتأليب عليه، وهو الذي طلع على قريش بفكرة الادعاء بأن رسول الله ﷺ - حاشاه - ساحر لكي يوحد رأيهم فيه أمام العرب الذين ينفذون إلى الحرم، فلا يقول بعضهم إنه كاهن، وآخر إنه مجنون فتهازأ بهم العرب وتستخف.. ولذا كان نصيبه من لسان أبي الحسام وافراً قارصاً، فقد هجاه بأربع مقطوعات، وهجا بني المغيرة عامة بقصيدتين:

أ - المقطوعة الأولى في هجاء الوليد، مطلعها: ^(٧٦)

وَصَفْعَبُ وَالِدُ لَابِيكَ قَيْنٌ

لِئَلَّيْمٍ حَلٌ فِي شُعْبِ الْأُرُومِ ^(٧٧)

وفيها عيّرهُ بأنه ابن صقعب القين العبد، ورأى أن ادعاء الانتماء إلى المغيرة ظلم، كما عيّرهُ بأمه، وذكرهُ باسمه القديم «دَيْسَم».

ب - الثانية، مطلعها ^(٧٨):

بَاهِي ابْنُ صَقْعَبٍ إِذْ أَثَرَى بِكَلْبَتِهِ

قَلْ لَابْنِ صَقْعَبٍ: أَخْفِ الشَّخْصَ وَاكْتَتِمِ ^(٧٩)

وفيها عيّرهُ بأنه بعد ثرائه يباهي بكلبته ليذكرهُ بأنه قين، ودعا إلى أن يخفي صورة «صقعب» التي صورها أبوه على الحائط، وأكد فكرة التزوير في تسميته «الوليد»، فهو «ديسم»، وهذه الكلمة بحد ذاتها تحمل الإزراء، فالديسم لغة ولد الثعلب أو الذئب من الكلبة.. وأزرى بأمه التي أفلس، فلا هي نكحت زوجاً شريفاً ذا حسب، ولا هي بقيت من غير زوج، وأهاب به أن يلحق بأبيه القين فَصَنَعَتْهُمْ ضَرْبَ النِّصَالِ وَرَقَعَ الْبَرَمِ.

ج - الثالثة، مطلعها ^(٨٠):

مَتَى تُنْسَبُ قَرِيشٌ أَوْ تُحَاصِلُ

فما لك في أرومتِها نِصابُ

وفيهما ذكر أن بني هُصَيص - وهم أعمامه في النسب - قد نفوه عن دوحته، وتنصلوا منه، وقذفوه إلى قبيلة «شَجَع» (وهم بطن من كنانة أو من عُدْرَة) حيث تُسْتَرَقُ أوعية المتاع والثياب، وجعله عبداً وراعي إبل يحمل على كتفيه زقاق اللبث حتى أثرت فيه، ودعاه إلى أن ينتهي عن الانتساب إلى مخزوم حيث الحسب الخالص النقي^(٨١).

د - الرابعة، مطلعها^(٨٢):

ما ولدتكم قروم من بني أسدٍ
ولا هُصَيصٌ ولا تَيْمٌ ولا عُمَرُ

وفيهما نفاه عن سلسلة النسب المعروفة، وبراً منه أعمامه كبني أسد بن خزيمه وهصيص بن كعب، وتيم بن مرة، وعمر أو عامر بن تيم، وعدي بن كعب^(٨٣)، ووصف هؤلاء - زيادة في النكايه - بأنهم ذوو أصول عريقة، أما هو فإنه عبد لِقَيْنٍ من آل شجع حيث اللؤم والخسة.

وقد سوَّغ وضع هذه المقطوعات في هذه الحقبة أن الوليد بن المغيرة مات في السنة الأولى للهجرة بالإضافة إلى شدة وطأته على المسلمين.

١١ - وهجا بني المغيرة الوليد وإخوته بقصيدتين اثنتين:

الأولى: مطلعها^(٨٤):

سألت قريشاً فقد خبروا
وكل قريشٍ بكم عالمٌ

وفيهما سلك سبيلاً أخرى في الإزراء ببني المغيرة، ذكر فيها أنه استقصى معلوماته من قريش، إذ سألهم عن بني المغيرة، فذكروا له أنهم عبيد قيون أبوهم جاثم على كیره..

الثانية: مطلعها^(٨٥):

نالت قريشُ ذرى العلياء فأخَنَّتْ
بنو المغيرة عن مجد اللّهاميم^(٨٦)

وفيها ذكر أن قريشاً بلغت ذرى المعالي، أما بنو المغيرة فقد نكصوا عن المكارم، وأهاب بهم أن يتركوا الفخر بمآثر قريش عامة، وأن يفتخروا بما لديهم من مآثر خاصة، أو بمآثر بني شجع، وعيّرهم بأمهم..

١٢ - وهجا مَخْرَمَةَ بن المطلب وأبا صيفي بن هشام^(٨٧) بمقطوعة مطلعها^(٨٨):

إِذَا ذُكِرَتْ عُقْيَالُهُ بِالْمَخَازِي
تَقْنَعُ مِنْ مَخَازِيهَا اللَّئَامُ

وفيها عرض بأمهما.

١٣ - وهجا قبيلة «جُذَام»^(٨٩) بمقطوعة تتألف من بيتين اثنين، وهما^(٩٠):

لَعَمْرُ أَبِي سُمَيَّةَ مَا أَبَالِي
أَنْبُ التَّيْسُ أُمَ نَطَقْتُ جُذَامُ
إِذَا مَا شَأْنُهُمْ وَلَدَتْ تَنَادَوْا
أَجَادِي تَحْتَ شِشَاتِكَ أُمَ غَلَامُ

وهي شديدة الإيلام كما ترى.

وكلمة عامة نقولها في معاني هذا الهجاء:

إنه اتسم بتجريد المهجّو من نسبه، وإلحاقه بنسب آخر وضيق، ووصمه باللؤم والخسة وهذا يتكرر في كثير من هذا الهجاء، أما حين تسنح الفرصة لحسان فإنه يسمو بخياله، ويولد صوراً مبتكرة وطريقة مبدعة نلمس فيها الروح الشاعرة والخيال الوثاب اللذين يحسنان الحط من المهجّو والإزراء به والسخرية منه كما حدث في هجائه لهند ولأبي جهل، وإن ظلت صنعة القَيْن عاراً يلصق بالمهجّو، وتلتمس له سبل متعددة لإلحاقه به.

ولم ينقذ شاعر الدعوة من هذا التكرار في كثير من معاني الهجاء إلا موقعة بدر،

فقد كانت فتحةً جديدةً في مسيرة الدعوة وقائدها ودعاتها وشاعرها، وقد أتت بأحداث جديدة أغنت مخيلة حسان، وبمعانٍ جديدة ثرةً أمدت شاعريته، وفتحت له أبواباً واسعة من التدفق الفني والفخر العريض والاعتداد بنصر الله وبطولة المجاهدين، ومن النيل المؤلم من أعداء الله الذين تغطرسوا وتجبرّروا، فكانت بدر خَصْداً لشوكتهم، وكانت قصائد حسان وخزاً حاداً لجاهليتهم، وتنديداً مرّاً بدعاواهم الفارغة.. وهذا ما سيتبين لنا فيما بعد.

ونستطيع أن نضع في هذه الحقبة رثاء حسان «المطعم بن عدي»^(٩١) الذي أجاز رسول الله ﷺ عندما انصرف عن أهل الطائف وعاد متوجّهاً إلى مكة ونزل بقرب «حراء» وبعث إلى بعض حلفاء قريش ليجيروه عند دخول مكة فامتنعوا، ولما بعث إلى المطعم بن عدي وافق وتسلم هو وأهل بيته، ودعا رسول الله إلى دخول مكة، فدخلها، وطاف بالبيت، ثم انصرف إلى منزله آمناً، وهو الذي أجاز سعد بن عباد، حين تعلق به قريش أطلقه، وكان أحد الذين مزقوا الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم، وقد توفي قبل موقعة بدر بسبعة أشهر، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ - بعد أن كلمه كثيرون مستشفعين لإطلاق أسرى بدر من المشركين: «لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء لنتى - يعني أسارى بدر - لتركهم له»^(٩٢)، وقد بكاه حسان بقصيدة تتألف من ثمانية أبيات، وتعد من جيد الشعر وعيونه^(٩٣):

أَعَيْنَ أَلَا ابْكِي سَيِّدَ النَّاسِ وَاسْفَحِي

بِدَمْعٍ فَإِنْ أَنْزَفْتِهِ فَاسْكَبِي الدَّمَ

وَبَكَّى عَظِيمَ الْمَشْعَرَيْنِ وَرَبُّهَا

عَلَى النَّاسِ مَعْرُوفٌ لَهُ مَا تَكَلَّمَا

وَلَوْ أَنَّ مَجْدًا أَخْلَدَ الدَّهْرَ وَاحِدًا

مَنْ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِمًا

أَجَرَّتْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا:
عِبَادُكَ مَا لَبَّى مُلَبٍّ وَأَحْرَمًا
فَلَوْ سَأَلْتُ عَنْهُ مَعْدُ بِأَسْرَهَا
وَقَحْطَانِ أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا
لَقَالُوا هُوَ الْمُوفِي بِخُفْرَةِ جَارِهِ
وَذِمَّتِهِ يَوْمًا إِذَا مَا تَذَمُّمَا
فَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ الْمَنِيرَةُ فَوْقَهُمْ
عَلَى مِثْلِهِ مِنْهُمْ أَعَزُّ وَأَكْرَمًا
إِبَاءً إِذَا يَأْبَى وَأَكْرَمَ شَيْمَةً
وَأَنُومَ عَنْ جَارٍ إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا

الهوامش

❖ - قتل في بدر: أبوها: عتبة بن ربيعة، وعمها: شيبة بن ربيعة، وأخوها الوليد بن عتبة، وابنها: حنظلة بن أبي سفيان، وهذا ما دفعها إلى التعاضم في عكاظ، فقد كانت تركب جملاً وتعاضم غيرها بمصيبتها التي لا تدانيها مصيبة وكانت الخنساء التي فقدت أخويها ممن عاضمتهم (أسواق العرب للأفغاني: ٢٩٧).

١ - أم معبد: عاتكة بنت خالد (وقيل بنت كعب) بن منقذ بن ربيعة الخزاعية الكعبية، صحابية كانت نازلة بخباء في طريق المدينة وهي التي نزل عليها رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقي من مر بها.

٢ - أسماء بنت أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) (٠٠٠ - ٧٣ هـ / ٦٩٢ م). صحابية من الفضليات، آخر المهاجرين وفاة، وهي أخت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لأبيها وأم عبدالله بن الزبير، تزوجها الزبير بن العوام، فولدت له عدة أبناء من بينهم عبدالله، ثم طلقها الزبير، فعاشت بمكة مع ابنها عبدالله إلى أن قتل رحمه الله، فعميت بعد مقتله وتوفيت بمكة، شهدت اليرموك هي وابنها عبدالله وزوجها، وكانت فصيحة حاضرة القلب واللب، عاشت مئة سنة وهي محتفظة بعقلها، وسميت «ذات النطاقين» لأنها صنعت طعاماً للنبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة، فلم تجد ما تشده به، فشقت نطاقها، وأخذت النصف، فشدت به الطعام.

٣ - الروض الأنف: ٧/٨، وسيرة ابن هشام: ٢/٣٣٦، والطبري: ٢/٢٤٨ وديوان حسان ص ١٢٨ وفيه وردت سبعة أبيات أبرزت معجزة الرسول ﷺ في حلب الشاة الحائل.

٤ - السيرة: ٢/٢٣٧.

٥ - عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يكنى أبا عمر، وكان مؤدباً من مولدي الأزد، أسود اللون وهو أخو عائشة لأمها وكان من السابقين إلى الإسلام فقد أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم وحسن إسلامه، أسلم وهو مملوك وعذب في الله، فاشتراه أبو بكر وأعتقه، وهو الذي كان يسيّر الغنم على آثار عبدالله بن أبي بكر الذي كان يزود الرسول ﷺ وأباه أبا بكر بأخبار المشركين، وعلى آثار أسماء بنت أبي بكر التي كانت تجلب الطعام للرسول ﷺ ولأبيها عندما اختفيا في غار ثور. شهد بدرًا وأحدًا، وقتل يوم بدر معونة ستة أربع للهجرة وهو ابن أربعين سنة.

٦ - عبدالله بن أرقط (أو ابن الأريقط) الليثي، من بني الدئل بن بكر، وكانت أمه من بني سهم ابن عمرو وهو الذي استأجره الرسول ﷺ وأبو بكر ليديهما على الطريق وكان هادياً ماهراً، وكان مشركاً على دين قومه، فدفعاً إليه راحتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما، وكان أبو بكر قد أعدهما للهجرة من قبل.

٧ - انظر ديوانه ص ١٣٨ والروض الألف ٧/٢ و٨ والطبري: ٢/٢٤٨. والأبيات التي صدع بها الهاتف وذكر حلب الشاة الحائل (وهي الشاة التي لم تحمل، وهذه ليس فيها حليب عادة) هي:

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حالاً خيمتي أم معبد
هما نزلها بالهدى واهتدت به
فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا قصي ما زوى الله عنكم
به من فخار لا يباري وسؤدد
ليهن بني كعب مقام فتاتهم
ومقعدهما للمؤمنين بمصرمد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها
فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاهها بشاة حائل فتحلبت
له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهناً لديها لحالب
يرددها في صدر ثم موربد

(ديوانه ص ١٤٢).

٨ - القرآن الكريم: سورة الزمر: ٩/٣٩.

٩ - القرآن الكريم - سورة فاطر: ١٢/٣٥.

١٠ - القرآن الكريم - سورة الرعد: ١٣/١٧.

١١ - توافق ١٢ ربيع الأول من السنة الهجرية الأولى، و٢٦ أيلول سنة ٦٢٢ للميلاد.

١٢ - قَيْلَة: أم الأوس والخزرج (المحيط: ٤ / ٤٣).

١٣ - عمرو بن عوف بن الخزرج بن حارثة من الأزد من القحطانية: جد جاهلي مجهول الولادة والوفاة كان له من الولد «عوف» ومنه سلالته، وهي بطون. وهناك عمرو بن عوف بن مالك بن أوس وهو جاهلي أيضاً.. والمقصود الأول.

١٤ - قُبَا (يُمدُّ وَيُقَصَّر): أصله اسم بئر هناك عُرِفَت القرية به، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الخزرج من الأنصار، والغالب أن الكلمة جمع قَبْوَة (وتعني الجمع والضم) والقَبْوَة الآن بناء يتخذ له قبة في سطحه بيضوية الشكل غالباً. وهي قرية على بعد ميلين من المدينة المنورة على يمين القادم من مكة المكرمة، وفيها مسجد التقوى وهو المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم، قال تعالى (سورة التوبة: ٩ / ١٠٩): «لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجالٌ يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين»، وكان أمامه رصيف وفضاء حسن وآبار ومياه عذبة، وفيها كذلك مسجد الضرار، وهو الذي بناه بعض المنافقين ضراراً أو مضارّة لأهل مسجد قباء وليكون معقلاً لهم، وفيه يقول تعالى: (سورة التوبة: ٩ / ١٠٨): «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون».

١٥ - ورد في السيرة (٢ / ٣٤١) أنه ﷺ نزل على كلثوم بن هدم أخي بني عمرو بن عوف ثم أحد بني عُبَيْد، ويقال: بل نزل على سعد بن خَيْثَمَة، وقال أصحاب الرأي الأول: إنه إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم جلس للناس في بيت سعد بن خَيْثَمَة إذ إنه كان عزباً لا أهل له، ومنزله منزل الأعزاب من المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ.

١٦ - السيرة: ٢ / ٣٤١.

١٧ - مسجد قُبا وهو أول مسجد أُسِّس بعد النبوة.

١٨ - هذه المدة هي التي وردت في سيرة ابن هشام (٢ / ٣٤٢)، وكذا في معجم البلدان لياقوت الحموي (٤ / ٣٠٢) وقد اعتمد على السيرة، أما بنو عمرو بن عرف فيزعمون - كما ورد في السيرة - أنه مكث فيهم أكثر من تلك المدة (السيرة: ٢ / ٣٤٣). وأما كتاب «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٢ / ٥٤) فيذكر أنه ﷺ أقام فيهم أربع عشرة ليلة، ولا يعرف المصدر الذي أَعتمد عليه.

- ١٩ - سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج: جد جاهلي مجهول الولادة والوفاة، من بنيه مالك بن العجلان سيد الأنصار وعدة من الصحابة.
- ٢٠ - رانوءاء بوزن عاشوراء كذا جاء في السيرة: ٢ / ٣٤٣، وقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان: ٣ / ١٩ أنه لم يجد هذا الاسم في غير كتاب السيرة بعد أن ذكر الخبر الذي أورده قبل قليل.
- ٢١ - ٢٢ و ٢٣ بنوساعدة وبنو الحارث بن الخزرج وبنوعدي بن النجار هذه عشائر وبطون من الخزرج وكلّ منهم يريد أن يكون له شرف الخطوة بنزول رسول الله ﷺ عليه.
- ٢٤ - مالك بن النجار (واسمه تميم اللات) بن ثعلبة من الخزرج: جد جاهلي مجهول الولادة والوفاة بنوه عدة بطون، وينسب إليه كثير من الصحابة.
- ٢٥ - المربد بوزن منبر: هو المحبس، محبس الدواب.
- ٢٦ - هما سهل وسهيل ابنا عمرو، وكانا في حجر معاذ بن عفراء الصحابي المعروف.
- ٢٧ - تلحلت: ثبتت في مكانها (ضد) أو تحركت في مكانها الذي بركت فيه يمينا ويسرة شأن الناقة حينما تبرك على الأرض ويدرك ذلك من يراقبها.
- ٢٨ - أرزمت: أخرجت صوتاً، والإرزام في الأصل: صوت حنين الناقة على ولدها.
- ٢٩ - وضعت جرانها: أي استقرت، وجران الناقة: مقدم عنقها من مذبحتها إلى منحراها.
- ٣٠ - أبو أيوب الأنصاري: خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة من بني النجار (الخزرج): (٠٠٠ - ٥٢هـ / ٦٧٢م) صحابي، شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد، كان شجاعاً صابراً تقياً محباً للجهاد عاش إلى أيام بني أمية وكان يسكن المدينة فرحل إلى الشام، وصحب يزيد بن معاوية في غزوة القسطنطينية أيام خلافة أبيه، فحضر الوقائع، ومرض فأوصى أن يوغل به في أرض العدو، فلما توفي دفن في أصل حصن القسطنطينية.
- ٣١ - أرضاهما معاذ بن عفراء الصحابي الذي كان اليتيمان في حجره: وقد سأل رسول الله ﷺ «عن المريد: لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهيل وسهل ابني عمرو وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه، فاتخذ مسجداً» (السيرة: ٢ / ٣٤٤). أما معاذ بن عفراء فهو: معاذ بن الحارث بن رفاعة من بني غنم بن مالك بن النجار ويعرف بابن عفراء وهي أمه وهو أنصاري خزرجي نجاري ومن أوائل من أسلموا من الأنصار ان لم

يكن أولهم، وقد كان أحد النفر الستة من الخزرج الذي التقوا رسول الله ﷺ، وشهد العقبة الأولى ثم العقبة الثانية، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقد قتل أخواه عوف ومعوذ ابنا عفراء ببدر وسلم هو وهو الذي حمل على أبي جهل ببدر، وضربه ضربة عظيمة أطنت قدمه بنصف ساقه، ولكن ابنة عكرمة ضربه على عاتقه، فطرح يده، فتعلقت بجنبه وأعاقته عن القتال، فلما آذته وضع قدمه عليها وتمطى حتى طرحها واستمر يقاتل وقد أجهز ابن مسعود على أبي جهل فيما بعد وتوفي معاذ أيام حرب عليٍّ ومعاوية بصفين سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م.

٣٢ - أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري (١٠ ق.هـ - ٩٣ هـ / ٦١٢ - ٧١٢م) أبو ثمامة أو أبو حمزة صاحب رسول الله ﷺ، وخادمه، مولده بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض، ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة فمات فيها وهو من المكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ.

٣٣ - أنظر السيرة لابن هشام: ٢ / ٢٤١ وما بعدها، وزاد المعاد: ٢ / ٥١ وما بعدها.

٣٤ - الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي: أبو عبد الرحمن (أخو أبي جهل): (٠٠٠ - ١٨هـ / ٠٠٠ - ٦٣٩م) صحابي، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، شهد بدرًا مع المشركين فانهزم، فعيّره حسان فاعتذر بأبيات. أسلم يوم فتح مكة، وخرج إلى الشام من مكة بأهله وماله، وبقي مجاهدًا فيها حتى مات في طاعون عمواس، وقد انتهت إليه سيادة بني مخزوم وكان من المؤلفة قلوبهم.

٣٥ - ديوانه ص ١١٥ وهي تتألف من سبعة أبيات.

٣٦ - متوسع: ذو سعة وغنى وثروة، أفد: من الفداء أو الإنقاذ، ينصفن: يخدمن، آل جناب: يريد جناب بن عبد الله بن هبل الكلبي (انظر ديوانه ص ١١٦ والأعلام للزركلي: ١٣٩/٢).

٣٧ - أبو جهل: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي (٠٠٠ - ٢هـ / ٠٠٠ - ٦٢٤م) أحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية، وأشد الناس عداوة للنبي ﷺ في صدر الإسلام، سوّده قريش وأدخلته دار الندوة مع الكهول ولم يطّر شاربه، كان يقال له «أبو الحكم» فدعاه المسلمون «أبا جهل»، استمرّ على عناده يثير الناس على رسول الله ﷺ حتى قتل في «بدر».

٣٨ - سيرد الحديث عن هذه الحادثة بعد قليل.

٣٩ - سبق التعريف به ص ١٥٢.

٤٠ - ديوانه ص ٢٠٧ وتتألف من خمسة أبيات.

٤١ - النابغة هي أم عمرو بن العاص وهي: النابغة بنت حرملة سُبَيْتٌ من بني جلان بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، ومما يروى أنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرو بن العاص عن أمه وهو على المنبر فسأله الرجل فقال: أُمي سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بني عنزة ثم أحد بني جلان أصابتها رماح العرب، فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبدالله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل، فولدت له فأنجبت، فإن كان جُعِلَ لك شيء فخذْه.

٤٢ - من المقطوعة التي هجا فيها عمرو بن العاص.. ديوانه ص ٢٠٧.

٤٣ - أبو البَحْتَرِيِّ بن هشام الأسديّ (٠٠٠ - ٢ هـ / ٠٠٠ - ٦٢٤م) العاص (أو العاصي) بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي من زعماء قريش في الجاهلية، كان ممن نقض الصحيفة التي تعاقد فيها مشركو قريش على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب حتى يسلموا إليهم محمداً ﷺ، وقد اتفق مع آخرين على تمزيقها، فشقوها، ولم يعرف عنه أنه آذى النبي ﷺ، بل كان في بدء الدعوة يكف الناس عنه، ولما كانت وقعة «بدر» حضرها مع المشركين من قريش، وقد نهى النبي ﷺ عن قتله، وطلب أن يؤتى به حياً، ولكن أحد المسلمين عثر عليه ومعه «أمية بن خلف»، فطلب إليه أن يترك أمية وينجو بنفسه، فأبى، فُقْتِلَا.

٤٤ - ديوانه ص ٢١٢ وتتألف من ثلاثة أبيات.

٤٥ - الطبري: ٢ / ٢٨٢.

٤٦ - انظر السيرة: ٢ / ٤٥٩.

٤٧ - هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف (٠٠٠ - ١٤ هـ / ٠٠٠ - ٦٣٥م)! صحابية قرشية مشهورة، وهي أم الخليفة الأموي «معاوية بن أبي سفيان»، تزوجت أباه

بعد مفارقتها زوجها الأول «الفاكه بن المغيرة المخزومي»، كانت فصيحة وجريئة وتقول الشعر، وقد رثت قتلى بدر من المشركين قبل إسلامها، ومثّلت مع بعض النسوة ببعض قتلى المسلمين في أحد، وكانت ممن أهدر الرسول ﷺ دمها، ولكنها جاءت مع بعض النسوة معلّات إسلامهن، فرحب بهن، وأخذ العهد عليهن.

٤٨ - ديوانه ص ٢١٣ وتتألف من ستة أبيات.

٤٩ - بطحاء مكة (وأبطحها) معروفة سميت بذلك لانبطاحها، ومهد الصبي موضعه، والأبيات تشير إلى طفل غير شرعي ملقى وأصبح الاتهام توجه إلى هند.

٥٠ - ديوانه ص ٢١٤ وتتألف من خمسة أبيات.

٥١ - أجياد: موضع بمكة معروف من شعابها، والأبيات تشير كذلك إلى طفل غير شرعي ألقته أمه دون وجود قابلة، وتركته مع أنها من أناس هم سادة النادي.. والاتهام موجه إلى هند.

٥٢ - الشاعر المشهور الذي أكثر من هجاء المسلمين وقد مر التعريف به ١٠٠ من هذا المؤلف.

٥٣ - ديوانه ص ٢٥١ وتتألف من اثني عشر بيتاً.

٥٤ - وَحَوْح بن الأسلت: عامر بن جُشَم بن وائل الأنصاري الأوسي وهو أخو أبي قيس بن الأسلت والذي سبقت ترجمته ص ١١٥ من هذا المؤلف، كانت لوحوح صحبة وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد، وله يقول أخوه أبو قيس حين خرج إلى مكة مع أبي عامر الراهب:

أرى وَحَوْحًا وَلِيَّ عَلِيٍّ بُوْدَه

كَأَنِّي امْرُؤٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ غَرِيبُ

كَأَنِّي امْرُؤٌ وَلِيَّ وَلَؤْدٍ بَيْنِنَا

وَأَنْتَ حَبِيبٌ فِي الْفَوَادِ قَرِيبُ

وَإِنْ بَنِي الْعِلَاتِ قَوْمٌ وَإِنِّي

أَخْوَكُ فَلَا يَكْذِبُكَ عَنْكَ كَذُوبُ

أَخْوَكُ إِذَا تَأْتِيكَ يَوْمًا عَظِيمَةً

تَحْمَلُهَا، وَالنَّائِبَاتُ تَنْوِبُ

٥٥ - أبو عامر الراهب: عمرو بن صيفي بن مالك بن أمية من الأوس (٥٠٠ - ٩٠ هـ / ٥٠٠ - ٦٣٠ م): جاهلي من أهل المدينة كان يذكر البعث ودين الحنيفية، ويعرف بالراهب، ولما ظهر الإسلام حسد النبي ﷺ وعانده، وخرج من المدينة فشهد مع مشركي قريش وقعة أحد، ثم سكن مكة، ولما انتشر الإسلام خرج إلى بلاد الروم فمات فيها.

٥٦ - ديوانه ص ٤٥٩، وتتألف من ستة أبيات، (وقد خالفنا ترتيب القوافي حرصاً على وحدة البحث).

٥٧ - ديوانه ص ٤٦٠، وتتألف من ثمانية أبيات (وقد خالفنا ترتيب القوافي حرصاً على وحدة البحث).

٥٨ - أمية بن خلف الخزاعي: لم نعثر على ترجمة له وهو بلا شك غير أمية بن خلف سيد بلال الذي قتل ببدر.

٥٩ - ديوان حسان ص ٢٩٧.

٦٠ - مغلفة: رسالة، عكاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، كانت قبائل العرب تجتمع فيها في كل سنة، ويتفاخرون، ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، وكانوا يتبايعون فيها ويقضون حاجاتهم، ويعلنون عن أهم الحوادث لديهم، وعكاظ: نخل في وادٍ بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وسمي عكاظاً لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضها بعضاً بالفخار والمحاججة، (انظر أسواق العرب للأفغاني) ص ٢٨٩.

٦١ - ديوانه ص ٢٩٨ والقصيدة تتألف من ثمانية أبيات.

٦٢ - ذرو قول، طرف من قول: لم يتكامل، الحفاظ: المحافظة على العهد.

٦٣ - سبق التعريف به قبل قليل.

٦٤ - ديوانه ص ٤٠٠، وتتألف من تسعة أبيات.

٦٥ - طلحة بن أبي طلحة من بني عبدالدار (٥٠٠ - ٣٠ هـ / ٥٠٠ - ٦٢٥ م) فارس معروف وأول مقتول يحمل اللواء في معركة أحد، خرج إلى أحد بزوجه سُلَافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية، وهي أم بني طلحة (مسافع والجلال وكلاب) فقتلوا يومئذ جميعاً هم وأبوه في أحد، وهو من أصحاب اللواء قتله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مبارزة.

٦٦ - ديوانه ص ٤٦٤، وتتألف من أربعة أبيات.

٦٧ - القماقمة: (ج) قمقام وهو السيد الكثير الخير الواسع الفضل.

٦٨ - سبق التعريف به ص ١٧١ من هذا المؤلف.

٦٩ - ديوانه ص ٤٦٥، وتتألف من خمسة أبيات.

٧٠ - لِحْيَان: أبو بطن، وهاشم أبو عبدالمطلب، ومما ورد في معجم الأعلام: أ - لحيان (غير منسوب) جد جاهلي قديم، بنوه بطن من قحطان. ب - لحيان بن هذيل بن مدركة من عدنان: جد جاهلي أظهرت الآثار أنه كانت لبنيه إمارة في شمالي شبه الجزيرة العربية قبل الميلاد أو بعده، ووجد في جهات (العلأ) من منازل الحج بين الشام والمدينة بضع مئات من الكتابات اللحيانية، وبعضهم يجعل «لحيان» هذا يمانى الأصل من جرهم، من قحطان، دخل بنوه في هذيل (وانظر ص ٢٥ من هذا المؤلف): وقصد حسان أن يبعده عن أرومة هاشم وينسبه إلى الغرياء لأن فعله مع الرسول ﷺ كفعل الغرياء والأعداء^(*) ومن المعروف أن بني لحيان من هذيل هم الذين انقضوا على وفد المسلمين يوم الرجيع وقتلوه كما سيأتي.

٧١ - الطبري: ٢٨٨/٢، السيرة: ٢٧٤/٢، والعدسة بثرة مرضية تشبه حبة العدس وكان قد أرسل مكانه إلى بدر العاصي بن هشام بن المغيرة، وكذلك صنعوا، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً.

٧٢ - سبق التعريف به ص ١٧٠ من هذا المؤلف.

٧٣ - أبومسعود عمرو بن عمير سيد ثقيف التي كانت تسكن الطائف، والمقصود بالقريتين: مكة والطائف هذا ما ورد في السيرة: ٢٤٣/٢ أبوسعود: عمرو بن عمير وجاء في تفسير ابن كثير ١٢٦/٤ وما بعدها أن المقصود بهما: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، وقيل: المقصود الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو الثقفي، وقيل المقصود عمير بن عمر والثقفي.. وهنالك أقوال أخرى.

٧٤ - السيرة: ٢٤٣/٢.

❖ - وفي المنجد ص ٦١٢: لحيان قبيلة عربية فرع من هذيل قطنت شمال شرقي مكة. كانت عند

٧٥ - القرآن الكريم: سورة الزخرف ٤٣ / ٣١ - ٣٣.

٧٦ - ديوانه ص ٤٥٧، وتتألف من ثلاثة أبيات.

٧٧ - يروى أن الوليد بن المغيرة كان يقال له: «دَيْسَم (*) بن صقعب (**)»، وصقعب هذا كان عبداً رومياً، فرغب فيه المغيرة، فادّعا.. ثم ألحقه بالشام فاشتاق له، فصوره في الحائط، القين: الحداد، الأروم: الأصول.

٧٨ - ديوانه ص ٤٥٨، وتتألف من خمسة أبيات.

٧٩ - الكَلْبَة: الآلة التي تكون مع الحدادين (الكمّاشة)، أخف الشخص... يشير إلى ما كان من الوليد من تصويره «صقعباً» على الحائط.

٨٠ - ديوانه ص ١١٤، وتتألف من خمسة أبيات، وقد شك شارح الديوان هل المراد الوليد بن المغيرة أو ابنه الوليد بن المغيرة؟ ومن المعروف أن الابن حضر بدمراً مع المشركين، فأُسِرَ فافتداه أخواه هشام وخالد وقد أسلم بعد الفداء، فحبسه أخواله، فدعا له النبي ﷺ بالنجاة هو والمستضعفون من المؤمنين، ثم هرب ونجا ولحق برسول الله ﷺ وكتب إلى أخيه خالد يحبب الإسلام إليه فوقع في نفسه، وهاجر. ونحن نرجح أن يكون المراد هو الأب، فالابن لم يصدر عنه ما يؤذي المسلمين فيستحق الهجاء.

٨١ - انظر الجدول ص ١١٢ لتبيين سلسلة النسب.

٨٢ - ديوانه ص ٢٦٧، وتتألف من أربعة أبيات.

٨٣ - انظر الجدول المرافق لتبيين سلسلة النسب.

٨٤ - ديوانه ص ٤٦١، وتتألف من ستة أبيات.

٨٥ - ديوانه ص ٤٦٢ وتتألف من تسعة أبيات.

٨٦ - انخنثت: رجعت. اللهمم: جمع لهميم وهو السيد الشريف وكذلك اللهموم.

٨٧ - مخرمة بن المطلب وأبو صيفي بن هشام أخوان لأم، وأمهما هند بنت عمرو بن ثعلبة بن سلول بن مالك بن قيس بن عبد بن عوف بن الخزرج، ولم نعتز لهما على ترجمة وافية، ومن المستغرب أن يهجوها حسان وأمهما خزرجية، وإن لم نعدّ عمله هذا تغليبا للعقيدة على العصبية.

❖ - الديسم: ولد الثعلب من الكلبة، أو ولد الذئب منها، والدب أو ولده (قاموس).

❖❖ - الصقعب: الطويل، ورجل، والمصوّت من الأنياب (قاموس).

٨٨ - ديوانه ص ٤٦٤، وتتألف من ثلاثة أبيات.

٨٩ - جُذَام بن عديّ بن الحارث، جد جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، بنوه بطن من كهلان من القحطانية، موطنهم بجبال حِسْمَى، وحِسْمَى أرض ببادية الشام بها جبال شواحق لا يكاد القتام يفارقها بينها وبين وادي القرى ليلتان (للسائر قديماً)، وبين وادي القرى والمدينة المنورة ست ليال وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم، وفي شرقيهم جبل شَرَوْرَى وهو لبني سُلَيْم.

٩٠ - ديوانه ص ٤٦٣.

٩١ - المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف من قريش: رئيس بني نوفل في الجاهلية وقائدهم في حرب الفَجَار (سنة ٣٣ ق . هـ) وهو الذي أجاز رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف متوجّهاً إلى مكة، ونزل بقرب «حراء» وبعث إلى بعض حلفاء قريش ليجيروه فامتنعوا، مات في السنة الثانية للهجرة وله بضع وتسعون سنة.

٩٢ - انظر الأعلام للزركلي: ٢٥٣/٧ ومراجعته.

٩٣ - ديوانه ص ٤٥٣.

أشعار السنة الثانية بعد الهجرة

وفي صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة خلون من شهر رمضان المبارك من السنة الهجرية الثانية^(١) كانت معركة «بدر الكبرى»^(٢)، وفيها التقى ثلاثمئة وبضعة عشر مسلماً^(٣) ما يقرب من ألف مشرك^(٤) في موقعة فاصلة بقرب ماء مشهور بين مكة المكرمة والمدينة المنورة يدعى «بدر»، وكان رسول الله ﷺ حين بلغه قدوم عير قريش من الشام^(٥) برئاسة «أبي سفيان بن حرب»^(٦) وفيها أموال عظيمة^(٧) قد ندب الناس ممن كان ظهره حاضراً للخروج إليها، وخرج مسرعاً ولم يكن يريد حرباً، وإنما كان يريد استرجاع ما سلبه المشركون من أموال المسلمين المهاجرين ولما علم أبو سفيان بخروجه، ولم يكن معه غير ثلاثين رجلاً من قريش (أو أربعين) أرسل إلى مكة رجلاً يستصرخ أهلها ليمنعوا عيرهم من محمد ﷺ، فنهضوا مسرعين ولم يتخلف من أشرافهم إلا «أبو لهب»^(٨) الذي أرسل عنه رجلاً، وحشدوا من حولهم مَن قبائل العرب، وأقبلوا بحدّهم وحديدهم، وجمعهم الله سبحانه على غير ميّعاد^(٩) بالمسلمين.

ولما علم رسول الله ﷺ بخروج قريش واستعدادها، ولم يكن قد تهيأ للقتال رأى أن يستشير أصحابه بعد أن تغيّر الأمر من تصدّد لقافلة واغتنام غنائم إلى مواجهة دامية، وقتال لأناس قد أعدوا للحرب عدتها، فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو^(١٠) فقال:

يا رسول الله، امض لما أَرادك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»^(١١)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرَكِ الغِماد^(١٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعاه^(١٣).

ثم قال ﷺ: اشيروا عليّ أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، لأنهم عدد الناس ولأنهم حين بايعوه في العقبة بايعوه على أن يمنعوه في ديارهم، فقال سعد بن معاذ: (١٤) والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسرّ بنا على بركة الله (١٥).

فسرّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم» (١٦).

وسار ﷺ بمن معه، ونزلوا قريباً من «بدر» في العدوّة الدنيا القريبة من المدينة المنورة بانتظار وصول العير، ولكن أبا سفيان قائدّها حوّل طريقه عن بدرٍ باتجاه الساحل وأسرع فنجّت العير، وأرسل إلى قريش: «إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا»، ولكن أبا جهل أبى، وقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدرًا» (١٧)، فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونُسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا» (١٨) وسارت قريش بغطرسها وكبرياتها حتى نزلوا بالعدوّة القصوى من الوادي، يقول تعالى: «إذ أنتم بالعدوّة الدنيا وهم بالعدوّة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» (١٩).

هكذا كان الترتيب: المسلمون في العدوّة الدنيا القُربى من المدينة (والعدوّة: جانب الوادي)، والمشركون في العدوّة القصوى البُعدى من المدينة والعير في مكانٍ أسفل من المسلمين مما يلي البحر، بعد تحويل الطريق، هذا الترتيب الإلهي، ثم من دون أن يتواعد المسلمون والمشركون للقتال، ولو تواعدوا لاختلفوا، ولكن الله سبحانه جمعهم بغير ميعاد ليقضي الله أمراً كان مفعولاً في علمه وهو نصر الإسلام ومحقّ الكفر، مع أن المسلمين كانوا في أعماقهم يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم، إنهم يريدون أن يغنموا الغنائم

ويسلموا^(٢٠)، وثمة ترتيب إلهي آخر ليتم الله نصره، ويخضد شوكة الشرك، إذ يقول تعالى: «إذ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكَ قَلِيلًا، ولو أَرَاكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَع الْأُمُورُ»^(٢١).

لله الحكمة البالغة: لقد جمعهم سبحانه ورتبهم على غير ميعاد، وأرى رسوله والمؤمنين قبل الالتحام عدد المشركين قليلاً، وقلل عدد المؤمنين في أعين المشركين لكيلا ينكص فريق عن القتال، وليتم الله النصر للمؤمنين، ويهلك مَنْ هلك عن بينة، ويحيى من حيٍّ عن بينة.

وترتيب آخر يتجلى في قوله تعالى: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أَنِّي ممدكم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ...»^(٢٢). إنه المدد الإلهي الذي لا يقهر، وقد لمسهُ المسلمون والمشركون معاً^(٢٣).

وترتيب إلهي رابع له أهمية بالغة، إذ هدَّاءُ الله سبحانه بقدرته أنفس المسلمين، وغشَّاهم النعاس أمنةً منه، ونزل عليهم من السماء ماءً ليطهرهم به، وليربط على قلوبهم، ويثبت به الأقدام، وأوحى إلى الملائكة أن يثبتوا المؤمنين ويبطشوا بالكافرين، وهذا يتجلى في هذا البيان الإلهي الرائع، يقول تعالى: «إِذْ يَغْشَىٰ كُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةٌ مِنْهُ وَنُزُلٌ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ»^(٢٤).

ولتتكمّل شروط تنزّل النصر جاء الترتيب الإلهي الذي توجه فيه خطاب رب العزة للمؤمنين أن يقاتلوا ويثبتوا، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاُدْبَارَ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ إِلَّا مَنْ حَرَفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُحَارَبَةٍ إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ...»^(٢٥).

وقبل بدء المعركة رأى رسول الله ﷺ أن يبادر قريشاً إلى الماء فسار حتى إذا جاء أدنى ماءٍ من بدرٍ نزل به^(٢٦)، ولكن الحُبَاب بن المنذر^(٢٧) اقترح على رسول الله ﷺ أن ينزل في أدنى ماءٍ من القوم، ويبني عليه حوضاً يملأ ماءً، ويغور ما عداه من القُلب، فوافق ﷺ، وبذا سيطر المسلمون على المياه ومنعوها أعداءهم.

وضُرب لرسول الله ﷺ عريش، ثم «استقبل القبلة فجعل يدعو يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، ولم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر فوضع رداءه عليه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: كفاك يا نبي الله - بأبي أنت وأمي - مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تبارك وتعالى: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألفٍ من الملائكة مردفين»^(٢٨)، وحاول نفرٌ من عقلاء قريش أن يثنوا قريشاً عن القتال وسلّ السيوف، ولعل أبا سفيان كان أول من بدأ - كما ذكرنا قبل قليل، وعندما اكفهر الجو وشعر الناس باقتراب شبح الحرب مشى حكيم بن حزام^(٢٩) في الناس وأتى عتبة بن ربيعة^(٣٠)، وطلب إليه أن يكف الناس عن القتال، فوقف خطيباً وألقى كلمة موجزة نفرّ الناس فيها من القتال، وكرّهم عواقبه، ولكن أبا جهل أبى وحرّض الناس على القتال واستثار حميتهم فاستشاطت النفوس واستعدّت للمناجزة، وبدأت المعركة بالمبارزة ثم تراحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، وتأجج ضرام الحرب.. ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء، واستقبل بها قريشاً، ثم قال: شأهت الوجوه، ثم نفحهم بها، وقال لأصحابه: شدوا فكانت الهزيمة، وانجلت المعركة، وصدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسّر من أسّر من أشرافهم، وأمر رسول الله ﷺ، بقتلى المشركين أن يُطرحوا في القليب، وسمعه أصحابه «وهو يقول من جوف الليل: يا أهل القليب! يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة^(٣١)، يا أمية بن خلف^(٣٢)، يا أبا جهل بن هشام - فعدّد من كان معهم في القليب - هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً؟ قال المسلمون: يا رسول الله أتنادي قوماً قد جيفوا؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني»^(٣٣).

لقد كانت معركة بدرٍ أول حادثٍ جللٍ يمتحن به الله سبحانه إيمان الفئة المؤمنة التي عاهدت رسول الله ﷺ، ويد الله فوق أيديهم أن ينصروه، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وصدقهم الله وعده، وكانت بدرٍ ينبوعاً ثاراً تفجر بكثيرٍ من القصائد والمقطوعات تدفقت على لسان حسان وغيره من الشعراء، ولا جرم فهي حد فاصل بين عزةٍ وذلةٍ، ونقلةٍ جبارةٍ من خورٍ وترددٍ إلى اندفاعٍ وطموحٍ وتطلعٍ إلى مزيدٍ من الانتصارات، وقد حفلت موقعة بدرٍ بمعانٍ ثرةٍ وصورٍ وفيرةٍ أغنت شعر حسان، وأحسنَت تلوينه، ومنحته روافد دقاًقة لا تنضب، وفسحت أمامه مجال الفخر العريض بأبطال المسلمين عامة، وأبطال قومه الأنصار خاصة، وعمّقت لديه الاعتزاز بنصر الله، وحسن بلاء المسلمين.... وبدا طالعنا لحسان قصائد ومقطوعات كثيرة:

أ - القصائد والمقطوعات التي قالها حسان في وصف المعركة وأحداثها:

١ - البائية، ومطلعها^(٣٤):

عرفتُ ديارَ زينبَ بالكثيرِ

كخط الوحي في الورق القشيبِ

وقد بدأها بوصف الديار، ثم انتقل إلى الحديث عن موقعة بدر، فعزا النصر فيها لله سبحانه «ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلة»^(٣٥)، وأهاب بنفسه أن تدع تذكر الديار، وتصرف ما يهيج الشجن وتفتخر بنصر الله:

وخبّرُ بالذي لا عيبَ فيه

بصدقٍ غيرِ إخبارِ الكذوبِ

بما صنعَ المليكُ غداةَ بدرٍ

لنا في المشركين من النصيبِ

ويصف ضخامة جيش المشركين فيشبهه بجبل حراء:

غداةَ كأنَّ جمْعَهُمْ حِراءُ

بدتْ أركانُه جُنُجَ الغيوبِ^(٣٦)

ويصف جيش المسلمين ومن فيه من أبطال نصروا رسول الله ﷺ، وأبلوا في المعركة
بلاءً حسناً، ويفتخر بقومه الذين التقت على الله قلوبهم بعد الشحناء وإهراق الدماء:

فَوَاقَيْنَاهُمْ مَنَا بِجَمْعٍ
كَأَسَدِ الْغَابِ مُرْدَانٍ وَشَيْبِ
أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدْ أَزْرَوْهُ
عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي لَفْحِ الْحُرُوبِ
بِأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مَرَهَفَاتٍ
وَكُلُّ مَجْرِبٍ خَاطِي الْكَعُوبِ^(٣٧)
بَنُو الْأَوْسِ الْغَطَارِفُ أَزْرَتْهَا
بَنُو النَّجَارِ فِي الدِّينِ الصَّلِيبِ^(٣٨)

ويذكر بعض رؤوس الكفر الذين لقوا مصارعهم، وألقوا في القليب:
فَغَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيْعًا
وَعُتْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا بِالْجَبُوبِ^(٣٩)
وَشَيْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا فِي رَجَالِ
ذَوِي حَسْبٍ إِذَا نَسَبُوا نَسِيبِ

ثم ينظم الكلمة التي وجهها رسول الله ﷺ لأصحاب القليب:
يَنَادِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا
قَذَفْنَاهُمْ كِبَاكِبَ فِي الْقَلِيبِ^(٤٠)
أَلَمْ تَجِدُوا حَدِيثِي كَانَ حَقًّا
وَأَمْرُ اللَّهِ يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ^(٤١)
فَمَا نَطَقُوا وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا
صَدَقْتُ وَكَنْتُ ذَا رَأْيٍ مُصِيبِ

٢ - العينية: ومطلعها: ^(٤٢)

أَلَا يَا لَقَوْمٍ هَلْ لَمَّا حُمَّ دَافِعُ
وَهَلْ مَا مَضَى مِنْ صَالِحِ الْعَيْشِ رَاجِعِ^(٤٣)

ويذكر أسماء بعض الشهداء:

صَبَابَةٌ وَجِدْ ذُكْرَتْنِي أَحَبَّةً
وَقَتْلَى مَضَوْا فِيهِمْ نُفَيْعٌ وَرَافِعٌ^(٤٤)
وَسَعْدٌ فَأُضْحُوا فِي الْجَنَانِ وَأَوْحِشَتْ
مَنَازِلَهُمُ وَالْأَرْضُ مِنْهُمْ بِلَاقِعٍ^(٤٥)

وذكر بطولية هؤلاء الأصحاب، ووفاءهم بالعهد لرسول الله ﷺ في بدر:

وَقَوْا يَوْمَ بَدْرٍ لِلرَّسُولِ وَفَوْقَهُمْ
ظِلَالُ الْمَنَآيَا وَالسِّيُوفُ اللُّوَامُ
دَعَا فَأَجَابُوهُ بِحَقٍّ.. وَكَلَّهِمْ
مَطْيَعٌ لَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ سَامِعٌ

«من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً»^(٤٦):

فَمَا بَدَلُوا حَتَّى تَوَافُوا جَمَاعَةً
وَلَا يَقْطَعُ الْأَجَالَ إِلَّا الْمَصَارِعُ

ويظهر في القصيدة من المعاني الإيمانية رجاء شفاعة رسول الله ﷺ لهم يوم المحشر، والتسليم بأن الملك لله وحده، والاعتقاد بنفوذ إرادته وقضائه جل جلاله:

لَأَنَّهُمْ يَرْجُونَ مِنْهُ شَفَاعَةً
إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا النَّبِيُّ شَافِعٌ
وَنَعْلَمُ أَنَّ الْمَلِكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ
وَأَنْ قَضَاءَ اللَّهِ لَا بَدَّ وَاقِعٌ^(٤٧)

وله عدد من المقطوعات عطف فيها على أفخاذ قريش فقرعهم وعيرهم بالهزيمة.

٣ - مقطوعته الحائية التي هجا فيها بني أسد^(٤٨) وقرعهم، ومطلعها^(٤٩):
خَابَتْ بَنُو أَسَدٍ وَأَبَ عَزِيزُهُمْ
يَوْمَ الْقَلِيبِ بِسَوَاءٍ وَفُضُّوْحُ^(٥٠)

وفيها ذكر من قتل منهم في بدرٍ، ومن هرب «وقد عرَّ مارنُ أنفه بقيوح»^(٥١)

٤ - مقطوعته اللامية التي هجا فيها بني جمح^(٥٢)، ومن أصيب منهم ببدرٍ مستفيداً من التسمية، ومطلعها^(٥٣):

جمحتُ بنو جُمَحٍ لشقوةٍ جدَّهم
إن الذليل موكلٌ بذليل

وفيها ذكر أنهم لسوء طالعهم انحرفوا عن السبيل القويم، وجحدوا كتاب الله سبحانه، وكذبوا بمحمد ﷺ، والله سبحانه قد تكفل بنصر دينه، وإظهاره ونصر رسله، ولو كره الكافرون وكأنه يشير إلى قوله تعالى: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»^(٥٤) ثم صب لعنة الله سبحانه على قاداتهم الذين أضلَّوهم.

ب - ويدخل الفخر لدى حسان عنصراً مميزاً من خلال وصف معركة بدرٍ وأحداثها:

١ - له قصيدة يظهر فيها هذا الامتزاج رائعاً موفقاً، ومطلعها^(٥٥):

لقد علمت قريشُ يوم بدرٍ
غداة الأسر والقتل الشديد

وفيها يفتخر بأنهم حماة الرُّوع حين تشجر العوالي، وأنهم قتلوا ابني ربيعة عتبة وشيبة، وفرَّ حكيم بن حزام يوم جالت بنو النجار تخطر كالأسود، وولت جموع فھرٍ، ولاقى الجميع خزيًا وذلاً، ولم يلوا على الحسب التليد حسب قريش ومجدها.

٢ - وله مقطوعة تسير على هذا المنوال نفسه أو ما يقاربه، مطلعها^(٥٦):

ألا ليت شعري هل أتى أهل مكة
إبارتُنا الكفار في ساعة العُسْرِ^(٥٧)

وفيها افتخر بأنهم قتلوا سراة القوم، قتلوا أبا جهل وعتبة وشيبة، وكثيراً من ذوي الحسب في قومهم، وتركوهم للذئاب والسباع. وسيصلون فيما بعد نار جهنم حامية القعر. مما يشير إلى دخول المعاني الإسلامية على نحو واضح.

٣ - وله مقطوعة فائية يتجلى فيها كذلك الفخر بالقوة والاستعداد وحسن البلاء في المعركة مع التوكل الوثيق على الله سبحانه وبوجود الفارق في العدد بين الفريقين، ومطلعها^(٥٨):

فما نخشى بحول الله قوماً
وإن كثروا وأجمعت الرُحوفُ

ويبرز فيها نصر الله سبحانه للمؤمنين مع المقابلة الفنية الموفقة بين الجمع المعادي المتألب والرب الرؤوف:

إذا ما ألبوا جمعاً علينا
كفاناً حدهم ربُّ رؤوف

كما يبرز التوكل على الله مع الإعداد الجيد للمعركة والعمل الجدي:

ولكنّا توكلنا، وقلنا
ماترنا ومعقلنا السيوف

٤ - وله كذلك قصيدة رائية يتجلى فيها الفخر بقومه الذين آووا النبي ﷺ وصدقوه، بينما كان أهل الأرض - ما عدا قلائل - كفاراً، وفتحوا له قلوبهم وربوعهم، وتقاسموا الأموال مع المهاجرين، وعندما كان يوم بدر ساروا إلى المعركة، بينما سار المشركون لهلاكهم، وقد غرهم إبليس، ثم تركهم في قلب المعمة، وكانت النتيجة أن تركوا سراتهم قتلى مجندين... ومطلعها^(٥٩):

قومي الذين هم أووا نبيهم
وصدقوه وأهل الأرض كفار

ج - وبهذه المناسبة نجده يمدح رسول الله ﷺ وأصحابه الأبطال في قصيدة، مطلعها^(٦٠):

مستشعري حلق الماذي يقدمهم
جلذ النحيضة ماضٍ غير رعديد^(٦١)
أعني الرسول فإن الله فضله
على البرية بالتقوى وبالجود

ويذكر ثقة المسلمين بالله سبحانه:

مستعصمين بحبل غير مُنْجِذٍ
مستحكمٍ من حبال الله ممدود

ويبين أنهم يطيعون رسول الله والحق الذي جاء به، ويتبعونه حتى الموت أو النصر المؤزر:
فينا الرسولُ وفينا الحقُ نَتَّبَعُهُ
حتى المماتِ ونصر غير محدودٍ

د . ونجد له من النقائض ميمية التي رد فيها على ابن الزبيرى^(٦٢) الذي قال قصيدة
بيكي فيها قتلى بدرٍ من المشركين، مطلعها:
ماذا على بدرٍ وماذا حوله
من فتية بيض الوجوه كرام^(٦٣)

فأجابه حسان بمقطوعة، مطلعها:^(٦٤)
إبكِ بكتٍ عيناك ثم تبادرت
بدمٍ يعلُّ غروبَهَا سَجَامُ^(٦٥)

وأنكر عليه أن يبكي هؤلاء العصاة، وحثه على ذكر المكارم ولا سيما مكارم النبي ﷺ
صاحب الهمة العالية والخلاق السمحة والصدق والجود والوفاء بالعهود .

- وله مقطوعة عينية رد فيها على كعب بن الأشرف^(٦٦) الطائي اليهودي الذي هاله
انتصار المسلمين في بدر، وقتلُ سادة قريش، فذهب إلى مكة، وجعل يحرض على رسول
الله ﷺ وبيكي أصحاب القليب، وينشد الأشعار، وقال قصيدة، مطلعها^(٦٧):

طحنت رحي بدرٍ لمهلك أهله
ولمثل بدرٍ تستهلُّ وتدمعُ
قُتِلَتْ سَرَاةُ النَّاسِ حَوْلَ حِيَاظِهِمْ
لا تبعِدوا إن الملوكة تصرعُ

فرد عليه حسان بمقطوعة مطلعها:^(٦٨)

أَبْكَاهُ كَعْبٌ ثَمَّ عَلٌّ بِعَبْرَةٍ
مِنْهُ وَعَاشَ مَجْدَعًا لَا يَسْمَعُ

وذكر أن من قُتِل من المشركين قد لقي جزاء عناده واستكباره، بينما أفلت منهم من كان قلبه خواءً^(٦٩).

- وله مقطوعة رد فيها على أبي سفيان بن حرب: فقد ذُكر^(٧٠) أن سعد بن النعمان بن أَكَّالٍ وهو أخو بني عمرو بن عوف^(٧١) خرج إلى مكة معتمرًا، وكان عهد قريش ألا يعرضوا لحاجٍ أو معتمرٍ إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابه عمرو بن أبي سفيان الذي أسره المسلمون في بدر، ورفض أبوه أن يدفع ديته قائلاً: أيجتمع عليّ دمي ومالي؟! قتلوا حنظلة (ابنه الذي قتل في بدر) وأفدي عمرًا، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم، ولما أمكنته الفرصة حبس سعدًا بابه، ثم قال:

أَرْهَطُ ابْنَ أَكَّالٍ أَجِيبُوا دَعَاءَهُ
تَعَاقَدْتُمْ لَا تُسَلِّمُوا السَّيِّدَ الْكُهْلَ
فَإِنْ بَنِي عَمْرٍو لَأَنَامُ أَذْلَةً
لَسْتُ لَمْ يَفْكَوْا عَنْ أَسِيرِهِمُ الْكَبْلَ

فأجابه حسان:

وَلَوْ كَانَ سَعْدٌ يَوْمَ مَكَّةَ مَطْلَقًا
لَأَكْثَرَ فَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُوَسِّرَ الْقِتْلَ
بِعَضْبٍ حَسَامٍ أَوْ بَصْفَرَاءَ نَبْعَةٍ
تَحْنُ إِذَا مَا أُنْبِضَتْ تَحْفِزُ النَّبْلِ^(٧٢)

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان، فيفكّوا به صاحبهم، ففعل رسول الله ﷺ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلّى سبيل سعد.

هـ - وقد استعر الهجاء بعد بدر، ووجد حسان في معركة بدرٍ وأحداثها مستوحى

جديداً ثَرَّاراً يَلَوْنُ شعره، ويمنحه الكثير من الحيوية والتدفق:

١ - فقد استثمر هرب الحارث بن هشام^(٧٣)، فقال ميميته الرائعة، ومطلعها^(٧٤):

تَبَلَّتْ فَوَاذِكُ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةً

تَسْقِي الضَّجِيعَ بَبَارِدٍ بِسَامٍ^(٧٥)

وبعد أن تغزل بالحببية الحسنة، وأقسم ألا ينساها، انتقل إلى الحديث عن العاذلة التي أخذت تلومه على كرمه وجوده، وتدعوه إلى الإمساك، لكيلا يوصله جوده إلى الفقر الذي يقصّر الآجال، فخاطبها قائلاً:

إِنْ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثْتَنِي

فَنَجَوْتُ مِنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ

تَرَكَ الْأَحَبَّةَ أَنْ يِقَاتِلَ دُونَهُمْ

وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ^(٧٦)

وبذا أحسن الانتقال من محاوراة العاذلة إلى موضوعه الأصيل، وهو تعيير الحارث بن هشام بالهرب من المعركة، وترك أخيه أبي جهل صريعاً، فكان الحبك الفني في منتهى الروعة والجمال وحدة الغمز، ثم مضى في وصف أداة الهزيمة، فهي فرس كثيرة الجري سريعة العدو تتفنن في جريها، وتثب وتنب الذئاب، وتخلّف نُجَبَ الجياد في عجاجتها، ولا عجب فيجب أن تكون كذلك لتهرب به من الموت:

جَرَّوَاءَ تَمَزَّعَ فِي الْغَبَارِ كَأَنَّهَا

سِرْحَانٌ غَابَ فِي ظِلَالِ غَمَامٍ^(٧٧)

تَذَرُ الْعَنَاجِيحَ الْجِيَادَ بِقَفْرَةٍ

مَرَّ الدَّمُوكُ بِمُحْصَدٍ وَرَجَامٍ^(٧٨)

مَلَأَتْ بِهِ الْفَرْجَيْنِ فَاَرْمَدَتْ بِهِ

وَنَوَى أَحَبَّتُهُ بِشَرِّ مُقَامٍ^(٧٩)

ويحرص حسان على إيراد هذه المفارقة العجيبة، وبطلها أحد كبار قادة المشركين: إنه

يهرب من المعركة التي حث الناس على اقتحامها تحمله تلك الفرس الأصيلة السريعة، بينما إخوته وعشيرته في قلب المعمة تطحنهم حرب ضروس، فتتركهم ما بين قتيل وأسير:

لولا الإله وجريها لتركنه
جَزَرَ السباع ودُسْنُهُ بِحَوَامِي^(٨٠)
وبنو أبيه ورهطه في مَعْرَكِ
نصبر الإله به ذوي الإسلام
طَحَنَتْهُمْ وَاللَّهُ يَنْقُذُ أَمْرَهُ
حَرْبٌ يُشَبُّ سَعِيرُهَا بِضِرَامِ
من كل مأسور يُشَدُّ صَفَادُهُ
صَقَرَ إِذَا لاقَى الْكُتَيْبَةَ حَامِي^(٨١)
وَمُجَدِّلٌ لَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةٍ
حتى تَزُولَ شَوَامِخُ الْأَعْلَامِ^(٨٢)

وهذا النفس العالي يستمر ليقابل بين بطولة المسلمين وفعالية أسلحتهم من جهة، وهرب المهجو الذي قصّر به حسبٌ غير كريم من جهة أخرى.

هذا المدخل الرائع في الهجاء جديد وطريف وشديد التأثير، وفيه من الإبداع ما يلفت نظر القارئ والسامع، ويستحوذ على إعجابهما، مع حسن الانتقال من فكرة إلى أخرى، ابتداءً من الانتقال من محاوراة العاذلة إلى هرب الحارث، ومروراً بهرب هذا القائد على فرس سريعة للنجاة تاركاً أحبته وأقرباءه مُجَنَّدِينَ، وانتهاءً بالمقابلة بين بطولة المسلمين وهرب المهجو.

ويظهر أن هذا الهجاء كان إذ ذاك موجعاً، بل شديد الإيلام حتى اضطر الحارث إلى الاعتذار من هربه، فقال^(٨٣):

الله يعلم ما تركت قتالهم
حتى علّوا فرسي بأشقر مُزِيدٍ^(٨٤)
وشممت ريح الموت من تلقائهم
في مأزقٍ والخيل لم تتبددٍ

وَعَلِمْتُ أَنِّي إِن أَقَاتِلُ وَاحِدًا
أُقْتَلُ وَلَا يَضُرُّ عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحَبَّةَ فِيهِمْ
طَمَعًا لَهُمْ بِعُقَابِ يَوْمِ مُرْصِدٍ^(٨٥)

٢ - وقد هجاه حسان كذلك بقصيدة أخرى عيره فيها بهربه غير المشرف من المعركة
ممتطيًا فرسًا نجبية قوية سريعة العدو متفenneً في ركضها، تاركًا ابن أمه يلقي أخبث قتلة
وأحقرها، ومطلعها: ^(٨٦)

يَا حَارِ قَدْ عَوَّلْتَ غَيْرَ مُعَوِّلٍ
عِنْدَ الْهِيَاجِ وَسَاعَةَ الْأَحْسَابِ^(٨٧)

ويختم قصيدته غامزًا من حسبه مشيرًا إلى أنه لو كان ابن كريمة لأحسن البلاء
والقتال ولكنه ابن بنت عقاب:

لَوْ كُنْتُ ضِئْءَ كَرِيمَةٍ أَبْلَيْتُهَا
حُسْنَى وَلَكِنْ ضِئْءُ بِنْتِ عُقَابِ^(٨٨)

٣ - وهجاه حسان كذلك بمقطوعة ذكر فيها هربه وخوره، وأنه لو تلبث قليلاً في
الميدان لأذاقه فرسان المسلمين حتفه، ومطلعها: ^(٨٩)

أَلَا أَبْلَغُ أَبَا مَخْزُومٍ عَنِّي
وَبَعْضُ الْقَوْلِ لَيْسَ بِذِي حَوِيلٍ^(٩٠)

٤ - ويمثل هذه السبّة، سبّة الهرب من المعركة عير حكيم بن حزام^(٩١)، ولكنه كان أقل
إيلامًا من هجاء الحارث إذ اكتفى بالإشارة إلى هربه من المعركة وإلقاء السلاح عندما رأى
بدرًا يسيل جانباه بكتائب من الأوس والخزرج فيها أبطال ماجدون، مدججون بالسلاح،
أقوياء، شديدي البأس، بينما أسر ابن عمّه «حُوَيْرث»^(٩٢)، ومطلعها^(٩٣):

نَجَّى حَكِيمًا يَوْمَ بَدْرٍ رَكْضُهُ
كَنَجَاءِ مُهْرٍ مِنْ بَنَاتِ الْأَعْوَجِ^(٩٤)

ويبدو أن حسان لم يكن شديد الإيلام له، لأنه مشى قبل وقوع المعركة بين الناس

محاولاً تهدئة الخواطر، ولأنه من عقلاء قريش، ثم لأنه ابن عم «خديجة بنت خويلد» أم المؤمنين رضي الله عنها، ولأنه كان صديقاً للنبي ﷺ قبل البعثة^(٩٥).

٥ - وعطف على أبي جهل ذي الرأي الفائل والعنجهية المفرطة الذي أكل الحسد فؤاده، وأعمى بصيرته، والذي تحمل كبر معركة بدر، فأورد قومه موارد البوار والذلة، فقال فيه مقطوعة مطلعها^(٩٦):

لقد لعن الرحمن جمعاً يقودهم
دعي بني شجع لحرب محمد^(٩٧)

وصاغ له من الصفات ما يليق به، ويدل عليه، ويرسم معالم شخصيته، فهو:
مَشُومٌ لعين كان قدماً مَبْغُضاً
يُبَيِّنُ فيه اللؤم من كان يهتدي^(٩٨)

وذكر تضليل أبي جهل قومه، ونصر الله سبحانه وتعالى رسوله:
فدَلَّاهُمْ في الغي حتى تهافتوا
وكان مُضِلًّا أمره غير مُرْشِدٍ
فأنزل ربِّي للنبي جنوده
وأيده بالنصر في كل مَشْهَدٍ
ويطلُّ التوجه الإسلامي في الخاتمة، ليجرز ثواب الله سبحانه عباده الموحدين:
وإن ثوابَ الله كل مَوْحِدٍ
جنان من الفردوس فيها يُتَلَدُ^(٩٩)

٦ - وهجا صيفي بن أبي رفاعة المخزومي^(١٠٠) الذي نكث بعهده، وعمم هجاءه على قبيلته بني عابد^(١٠١)، في مقطوعة مطلعها^(١٠٢):
سألت قريشاً كلُّها فشرارها
بنو عابدٍ شاه الوجوه لعابد^(١٠٣)

وشبه حوارهم في ناديتهم يتجاوب التيوس، ووصل إلى (صيفي)، فوصفه بخفر الدمة

والرَّوْغان:

وما كان صيفي ليوفي ذمّةً
فَقفا ثعلب أعيا ببعض الموارد^(١٠٤)

٧ - والحارث بن عامر^(١٠٥) الذي ينتمي إلى دوحة كريمة قد لطّخ أرومته باشتراكه في سرقة غزال الكعبة الذهبي ولما قتل في بدرٍ مشرّكاً انبرى له حسان يسلقه بلسان حديد في مقطوعته البائثة ولا نعلم من دلّ حسان على هذه العورة وهو يثربي والأمر قد وقع في مكة، ومضى عليه زمن غير قصير؟ على أية حال اهتدى حسان إلى هذه العورة أو هدي إليها فأحسن استثمارها وقال مقطوعة مطلعها^(١٠٦):

يا حارٍ قد كنت لولا ما رميت به
لله درك في عزٍّ وفي حسبٍ

ثم يذكر إلحاقه الخزي بقومه، الخزي الذي لا مثيل له بسرقة الغزال من البيت الحرام:

جلّلت قومك مخزاةً ومُنْقَصَةً
ما إن يُجلّله حيٌّ من العربِ
يا سالب البيت ذي الأركان حليته
أدّ الغزال فلن يخفى لمُسْتَلِبِ
سائل بني الحارث المزري لعشره
أين الغزال عليه الدرُّ من ذهبٍ
بئس البنون وبئس الشيخ شيخُهُم
تبّاً لذلك من شيخٍ ومن عقبٍ

٨ - فرغ رسول الله ﷺ من بدر، وما يتعلق بها في عقب شهر رمضان من السنة الهجرية الثانية أو في شوال، ولما قدم المدينة لم يُقِمَّ بها إلا سبع ليالٍ ثم غزا بنفسه يريد بني سُلَيم^(١٠٧)، فبلغ ماءً من مياههم يقال له الكُدْر^(١٠٨)، فأقام عليه ثلاث ليالٍ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً^(١٠٩)، ويبدو أن حسان قال في هذه المناسبة مقطوعته الرائية،

ومطلعها^(١١٠):

لقد غضبتُ جهلاً سُلَيْمٌ سفاهةً

وطاشت بأحلامٍ كثيرٍ عثورها^(١١١)

وفيها تحدث عن لؤم مساعيتهم، وكذب حديثهم، وقلة نفعهم، وصغر عقولهم، وبخلهم.

٩ - وجَّ العاص بن هشام بن المغيرة^(١١٢) المخزومي الهجاء على نفسه وقومه بعد أن أخرجهم أبو لهب إلى بدر بدلاً منه^(١١٣)، فقتل، فقال حسان مقطوعة، مطلعها^(١١٤):

بني القَيْنِ هلا إذ فخرتُم بربيعكم

فخرتم بكبيرٍ عند باب ابنِ جُندُع^(١١٥)

وفيها عيرَ الرجل وقومه بأنهم أبناء قين، لؤماء، أذلاء..^(١١٦).

هذه أهم الأشعار التي قالها شاعر الدعوة في بدرٍ، وما بعدها بقليل. ومما يلفت النظر في أمرها أنها استطاعت إلى حدٍ غير يسير أن تسجل جلال يوم بدرٍ، وتبرز روعته، وتمتاز منه المادة الثرة، فتقذف ببعضها في وجوه الخصوم كالسهام المراسية المصوبة عن شزنٍ، وتسحب ببعضها الآخر أذيال الفخر والاعتداد بنصر الله سبحانه وتعالى النبي والمسلمين، ومدّه إياهم بالملائكة الكرام، وتعتر بصبر المسلمين في مثار النقع وحسن بلائهم ومضاء سلاحهم، وخبرتهم في الجلال والقتال.. وقد برزت من خلالها معانٍ إسلامية جمة، لعل أبرزها ما يأتي:

١ - الاعتداد بما صنع الله سبحانه وتعالى بالمشركين:

بما صنع المليكُ غداة بدرٍ

لنا في المشركين من النصيب^(١١٧)

٢ - الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في قهر الأعداء^(١١٨):

فما نخشى بحول الله قوماً

وإن كثروا وأجمعت الزحوفُ

٣ - تأييد الله سبحانه رسوله الكريم بالملائكة:

فأنزل ربِّي للنبِيِّ جنوده
وأَيَّده بالنصر في كلِّ مشهدٍ^(١١٩)

٤ - الإشارة إلى صدق الرسول ﷺ في دعوته:
ألم تجدوا حديثي كان حقًّا
وأمر الله يأخذ بالقلوب؟^(١٢٠)

٥ - الاعتصام بحبل الله سبحانه وهو حبل وثيق محكم:
مستعصمين بحبل غير منجذم
مستحكم من حبال الله ممدود^(١٢١)

٦ - اطراء المسلمين الذين وفوا بالعهد، واستجابوا للدعوة، ونالوا الشهادة:
وفوا يوم بدرٍ للرسول وفوقهم
ظلال المنايا والسيوف اللوامعُ
دعا فأجابوه بحق وكلهم
مطيع له في كل أمر وسامع
فما بدّلوا حتى توافوا جماعةً
ولا يقطع الأجال إلا المصارع^(١٢٢)

٧ - رجاء الشفاعة وتسليم الأمر لله الذي لا يرد قضاؤه:
لأنهم يرجون منه شفاعةً
إذا لم يكن إلا النبيين شافع

٨ - الثبات على اتباع الحق الذي جاء به النبي ﷺ حتى الموت أو النصر:
فينا الرسول وفينا الحق نتبعه
حتى الممات ونصر غير محدود^(١٢٣)

٩ - ثواب الله سبحانه المؤمنين جنان من الفردوس:

وإن ثواب الله كل موحِدٍ
جنان من الفردوس فيها يتلذذ^(١٢٥)

١٠ - التعريض بالذين جحدوا وكذبوا:
جحدوا الكتاب وكذبوا بمحمد
والله يظهري دين كل رسول^(١٢٦)

١١ - الإشارة إلى العقاب الرباني الذي أُعدَّ للكفرة، فهم وإن قتلوا (في بدر)، وتركوا
للعاويات تنوبهم فسيصلون ناراً حامية القعر، نار جهنم:
تركناهم للعاويات تنوبهم
ويصلون ناراً بعدُ حامية القعر^(١٢٧)

١٢ - ذكر خديعة الشيطان للمشركين حتى أوردتهم موارد الهلاك:
دلاهمُ بغرور ثم أسلمهم
إن الخبيث لمن والاه غرَّار
وقال: إني لكم جار فأوردتهم
شرَّ الموارد فيه الخزي والعار^(١٢٨)

ولعله في هذا القول قد استفاد من قوله تعالى: «وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم،
وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيهِ
وقال: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله والله شديد العقاب»^(١٢٩).

١٣ - توجيه لعنة الله سبحانه إلى أبي جهل، ذاك الذي غرَّ بقومه:
لقد لعن الرحمن جمعاً يقودهم
دعيُّ بني شجع لحرب محمد^(١٣٠)

١٤ - وأبو جهل غدر بقومه، فدلاهم في الغي، فتهافتوا، وكان أمره مضلاً غير

مرشد:

فدلاهم في الغي حتى تهافتوا
وكان مضلاً أمره غير مرشد^(١٣١)

وبذا شبهه بإبليس عليه لعنة الله .

وهناك قيم كثيرة مما عرفها الشعر الجاهلي من مثل عدم المحافظة على الحسب
التلديد، كقوله:

وكان القوم قد ولوا جميعاً
ولم يلووا على الحسب التلديد^(١٣٢)

ومن مثل وصف القتلى مخضبين بالدماء، والهاربين مجلّين بالعار^(١٣٣):

منهم أبو العاصي تجدلّ مقعصاً
عن ظهر صادقة النجاء سبوح^(١٣٤)
والمرء زمعة قد تركن ونحره
يدمى بعاندٍ مُعْبَطٍ مسفوح^(١٣٥)
ونجا ابن قيس في بقية قومه
قد عرّ مارن أنفه بقيوح^(١٣٦)

ومن مثل وصف أسلحة الأنصار ومضائها، وعدتهم، وبطولاتهم.. وهذا كثير^(١٣٧).
هذا ويلاحظ أن القصائد التي تطول قليلاً تبدأ بالغزل، ووصف الديار، كقصيدته البائية
في وصف معركة بدر^(١٣٨)، وقصيدته الميمية التي قالها مفتخراً ببدرٍ ومعيّراً الحارث بن
هشام بفراره من المعركة^(١٣٩)، وقد تحدثنا عنهما قبل قليل.

وغير خافٍ أن الشعر الإسلامي، وهو يخطو خطواته الأولى على لسان حسان^(١٤٠)
قد استطاع إلى حدٍ غير قليل أن يأتي بالكثير من الرائع المعجب، ولكنه في الميدان الفني لم
يستطع أن يتربع على قمم الإبداع الفني الرفيعة التي تربع عليها أمثال امرئ القيس^(١٤١)،
وزهير بن أبي سلمى^(١٤٢)، والنابعة الذبياني^(١٤٣) في ميادينهم الخاصة لأمرين اثنين: الأول:
هؤلاء الثلاثة وأضرابهم كانوا ينسجون فنياً على غرار من سبقهم ويسيرون في دروب لاحبةٍ

انطلاقاً من مرتكزات فكرية وذهنية واضحة، وعوامل فنية مهيأة، وتقاليد شعرية متداولة، قال امرؤ القيس - وهو الذي زعم بعضهم أنه أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى - مصرحاً بجريه على غرار ابن حِذَام^(١٤٤):

عُوجاً على الطلل المُحِيل لعلنا

نبكي الديار كما بكى ابنُ حِذَام^(١٤٥)

وقال عنترة بن شداد^(١٤٦) معلناً تعلق الشعراء بالرسوم والآثار وبذا يستفيد اللاحق من السابق:

هل غادر الشعراء من مَثَرَدَم

أم هل عرفت الدار بعد تَوَهُم^(١٤٧)

الثاني: أن هؤلاء الشعراء وأضرابهم لديهم الوقت المتسع للتقريح والتعذيب والتجويد، وكان بعضهم يستغرق لديه نظم القصيدة سنة كاملة يحرص خلالها على التحسين والتجويد ولذا سميت قصائدهم «الحواليات»^(١٤٨)، وسمي بعضهم «عبيد الشعر»^(١٤٩)، أما حسان^(١٥٠) فينسج على غير مثال، ويخوض تجربة جديدة ما زالت بحاجة إلى ترسيخ وتدعيم لكي تزدهر وتنمو فتتفتح أزاهير الإبداع حينذاك من خلال الممارسة والإنتاج، ولذا فمن الممكن أن ينهض بهذا العبء عبء التجويد والتحليق من يعيشون في رحاب الدعوة ويستفيدون من تجارب سابقيهم أي ينهض بعبء التجويد الجيل الثاني ومن يتلوه إذا عددنا حسان رائداً من الجيل الأول، إذ لا يخفى - كما ألمحنا قبل قليل - أن الشعر من الأمور التي لا يمكن أن تولد فجأة كاملة محلقة مجودة من دون نمو وتطور وتراكم خبرات وممارسات، فللشعر تقاليد ومرتكزات تتنامى بفعل عوامل متعددة، وأن اللاحق من الشعراء يستفيد من السابق أو يتلمذ عليه ويحفظ ما يقوله، أو يروي له^(١٥١)، فتترسخ في مخزونات الفكرية والفنية رواسب ومعان وصور وظلال خاصة متباينة حيناً ومتضافرة حيناً آخر، ويرفد بعضها بعضاً، فينطلق الشاعر المبتدئ مقلداً أولاً أستاذه في الغالب أو أكثر من أستاذ واحد أحياناً، حتى إذا استوى في دروب الفن مقوله وتدريب قريحته أمكن أن تتفتح

لديه أزهير الإبداع والتجويد بمقدار ما حسب استعداداته وقدراته وطاقاته وامتياحاته من حصيلته المكتزة المعطاء، هذا بالإضافة إلى أنه ليس لدى حسّان ومن على شاكلته الوقت الكافي للتنقيح والتهذيب، وكثير من شعرهم يقال ارتجالاً أو في مناسبات تقتضي الرد السريع.. على أنه يظلّ مجوّداً ومبدعاً إلى حدّ كبير في مواطن غير قليلة، بل إن هذه الخطوات الأولى في ميادين جديدة هي الإبداع بعينه.

على أننا لن نحاول هنا أن نقحم إنتاج أبي الحسام في معرض الموازنة مع أولئك الشعراء فلا ضرورة لذلك، ولا مع البيان الإلهي المعجز الذي وصف معركة بدر وما حولها من حوادث وقيم ومواقف، وتجلّى ذلك في سورتي «الأنفال» و«آل عمران»؛ إذ ليس من الإنصاف، بل إنه من الشطط الجامح والظلم المحجف أن يوازن البيان السماوي المعجز - الذي تحدى العرب جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً^(١٥٢)، فأعجزهم - بالشعر الذي يقوله حسان في ساعة من ساعات الغضب أو الانشراح أو السرور الغامر موشحاً بالسرعة في الأداء لاقتناص الإعجاب أو لإظهار التأثير بالموقف أو الإعجاب به، وعلى غير مرتكزات فنية سابقة وتقاليد موروثية.. وهبه وجد الفرصة المتسعة والمرتكزات الفنية والتقاليد الموروثة مع توافر الحالة النفسية المثيرة أو الحافزة، فإنه لن يقوى على التحليق إلا إلى مدى، أما ما بعد هذا المدى فتتهوي من دونه طاقات بني البشر وقدراتهم حسراً مهیضة الجناح أمام قمم البيان الإلهي والإعجاز السماوي.. ولكنها إشارة لا بد منها إغناء للبحث، وتمنياً أن يكون البيان الإلهي منهلاً لكل أديب يطمح أن يبلغ بنتاجه مستوى الإجادة والسمو. وقد أشرنا إلى بعضها فيما سلف، وها نحن أولاء نشير الآن إلى أهم ما يمكن أن يذكر في مثل هذا المجال:

لما انقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن الكريم سورة الأنفال بأسرها، فكان مما نزل ما يأتي:

١ - ذكر مسير المسلمين مع رسول الله ﷺ حين عرفوا أن قريشاً سارت إليهم، وهم إنما

خرجوا يريدون العير رغبة في الغنائم، واسترداد ما سلبته قريش منهم: «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون»^(١٥٣).

٢ - ذكر وعد الله سبحانه رسوله إحدى الطائفتين: العير أو النفير، وتصوير رغبة المسلمين في اغتنام العير دون الحرب، بينما يريد الله سبحانه أن يحق الحق ويمحق دابر الكافرين: «وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين...»^(١٥٤).

٣ - ذكر استغاثة المسلمين بربهم الذي لا ملاذ لهم غيره، واستجابته عز وجل لهم مع تحليل نفسي وبيان مصدر النصر الحقيقي «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم»^(١٥٥).

٤ - ذكر إدخال الأمن على قلوب المسلمين وإنزال ما يطهرهم به ويثبتهم: «إذ يغشاكم النعاس أمانة منه، وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام»^(١٥٦).

٥ - ثم ذكر تعالى إحياءه إلى الملائكة بتهببت المؤمنين، وقتل الكفرة مع بيان السبب الموجب: «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب..»^(١٥٧).

٦ - وذكر التدبير الرباني القاهر: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميع عليم...»^(١٥٨).

٧ - وذكر جلّ جلاله استفتاح الكفرة حين قال أبو جهل: اللهم أينما كان أقطع للرحم، وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة (أي أهلكه)، والاستفتاح الإنصاف في الدعاء: «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم ولن تغني عنكم فتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين....»^(١٥٩).

٨ - وصوّر تعالى موقع كل من الفرقاء الثلاثة الذين التقوا على غير ميعاد: المسلمين، والنفير والغير: «إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة وإن الله لسميع عليم»^(١٦٠).

٩ - وذكر سبحانه لطفه في قضائه وتدييره المحكم لتتشب المعركة ويخزي المشركون ويتزّل النصر: «إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور، وإذ يريكموهم إذا التقيتهم في أعينهم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور»^(١٦١).

١٠ - ثم وعظهم جلّ جلاله وعلمهم ما ينبغي أن يفعلوه في حربهم من ثبات وصبر وطاعة لله ورسوله وتوحد وإخلاص فيه: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين.. ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط»^(١٦٢).

١١ - وذكر تقدست أسماؤه هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس، وهم أبو جهل ومن على شاكلته مبيناً كيف خدعهم الشيطان وغرهم ثم نكص على عقبيه وتركهم نهشاً للمباتير: «وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني

أرى مالا ترون إنني أخاف الله والله شديد العقاب»^(١٦٣)، إلى غير ذلك من جليل
المعاني والآيات التي تكفي لتلهم الشاعر الموهوب روائع الشعر. وقد اكتفينا
بإيرادها، لأن التعليق عليها وتحليلها يحتاجان إلى مجال أوسع مما بين أيدينا.

الهوامش

١ - الطبري: ٢٦٦/٢، سيرة ابن هشام: ٤٥٦/٢، زاد المعاد: ٨٧/٢.

٢ - بدر: أصله الامتلاء، وهو ماء مشهور بين مكة والمدينة المنورة، أسفل وادي الصفراء، بينه وبين ساحل البحر ليلة (للسائر قديماً)، وبه سميت الموقعة المباركة التي أظهر الله بها الإسلام، وفرق بين الحق والباطل. ووادي الصفراء من ناحية المدينة، وهو وادٍ مخصب كثير النخل والزرع والمياه، وهذه المياه تجري إلى «ينبع» الواقعة على البحر الأحمر، ويقع هذا الوادي في طريق الحاج، وقد سلكه الرسول ﷺ غير مرة، والصفراء قرية فيه تقع بين جبلين.

وقد سميت باسم «بدر الكبرى» لتمييز عن غزوة «بدر الأولى» التي كانت بعد قدومه ﷺ من غزوة «ذي العشيرة» بحوالي عشرة أيام أي في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره ﷺ عندما أغار «كرز بن جابر الفهري» على سرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له «سفوان» فلم يدركه، ولذلك تسمى أيضاً غزوة سفوان، ثم رجع إلى المدينة فأقام بقية جمادى الآخرة ورجباً وشعبان.. ولتمييز كذلك عن غزوة «بدر الآخرة» أو الثانية، أو غزوة «بدر الموعد»، وسيرد الحديث عنها.

٣ - الطبري: ٢٧٢/٢ و٢٧٥، وزاد المعاد: ٨٥/٢، أما في سيرة ابن هشام (٥٠٠/٢) فقد ورد العدد ثلاثمائة وأربعة عشر: منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس، ومئة وسبعون من الخزرج، وقد ذكر صاحب السيرة بالتفصيل أسماءهم وعشائهم، وذكر أن معهم ثلاثة من الخيل وسمى أصحابها، بينما ذكر صاحب زاد المعاد أن معهم فرسين فقط وسبعين بعيراً فكان يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد.

٤ - الطبري: ٢٧٢/٢ و٢٧٥، والسيرة: ٤٤٩/٢.

٥ - في زاد المعاد: ٨٢/٢ و٨٤ أن هذه العير هي التي حاول رسول الله ﷺ اعتراضها عندما خرجت من مكة متوجهة إلى بلاد الشام وفيها أموال كثيرة لقريش، فقد خرج ﷺ في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره (أي في السنة الهجرية الثانية) في خمسين ومئة من المهاجرين (ويقال في مئتين)، وحمل لواء عمه حمزة بن عبدالمطلب، ولم يكره أحداً على الخروج، وكان لديهم ثلاثون بعيراً يعتقبونها، ليعترضوا تلك القافلة، وقد كان جاءه الخبر بفصولها من مكة فبلغ «ذا العشيرة» (وقيل: العشيرة بالمد: ياقوت ١٢٦/٤)

(*) جدّه أمية بن عبدشمس كنيته أبوسفیان، وإليه ينسب الأمويون أو بنوأمية.

وهو مكان بناحية ينبع بينه وبين المدينة تسعة برد، فوجد العير قد فاتته بأيام.

٦ - أبو سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف(*) (٥٧ ق هـ - ٣١ هـ/ ٥٦٧ - ٦٥٢م) صحابي من سادات قريش في الجاهلية، وهو والد معاوية مؤسس الدولة الأموية، كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره، وقاد قريشاً وكنانة يوم أحد ويوم الخندق لقتال رسول الله ﷺ، وأسلم يوم فتح مكة (سنة ٨ هـ)، وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن، وشهد حنيناً والطائف، وفقئت إحدى عينيه يوم الطائف، ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك وكان من الشجعان الأبطال.

٧ - وهي إحدى الطائفتين اللتين وعد الله سبحانه رسوله بها في قوله تعالى: «وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم». أي: الغنيمة دون الحرب، (سورة الأنفال): (٧/٨).

٨ - أبو لهب: عم النبي ﷺ سبق التعريف به ص ١٧١ من هذا المؤلف.

٩ - كما قال تعالى: «ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» (الأنفال ٤٢/٨).

١٠ - المقداد بن عمرو (ابن الأسود) الكندي البهراني الحضرمي (٣٧ ق. هـ - ٣٣ هـ/ ٥٨٧ - ٦٥٣م): أبو عمرو (أو أبو معبد) صحابي من الأبطال، وهو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام، وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله، وفي الحديث: «إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي، والمقداد، وأبو ذر، وسلمان». كان في الجاهلية من سكان حضرموت واسم أبيه: عمرو بن ثعلبة البهراني الكندي، وقد وقع بين المقداد وأحد أقربائه خصام فضرب المقداد رجله بالسيف، وهرب إلى مكة، فتنبأه الأسود بن عبد يغوث الزهري، فصار يقال له: المقداد بن الأسود، ولما نزلت آية «ادعهم لأبائهم» (سورة الأحزاب: ٥/٣٣) عاد يتسمى: المقداد بن عمرو، شهد بدرًا وغيرها، وسكن المدينة، وتوفي على مقربة منها، فحمل إليها ودفن فيها.

١١ - القرآن الكريم: سورة المائدة: ٢٤/٥.

١٢ - بَرَكُ الغِمَادِ وقد ورد بكسر الباء وضم الغين مكان يضرب فيه المثل للبعد وقد اختلف فيه فقيل إنه وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البحر، وقيل بلد باليمن، وقيل في أقاصي أرض هَجَر، وقيل هو أقصى حَجَرٍ باليمن، وقيل غير ذلك.. انظر ياقوت: ٢٩٩/١.

- ١٣ - سيرة ابن هشام: ٤٤٧/٢.
- ١٤ - سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي الأنصاري (٣٢ ق هـ - ٥ هـ / ٥٩٠ - ٦٢٧م) صحابي من الأبطال، من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم يوم بدر، وشهد أحدًا، وكان ممن ثبت فيها، كان من أطول الناس وأعظمهم جسمًا، وقد رمي بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جرحه ودفن بالبقيع، وحزن عليه النبي ﷺ كثيرًا، وفي الحديث: «اهترَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ».
- ١٥ - سيرة ابن هشام: ٤٤٧/٢ و ٤٤٨.
- ١٦ - المرجع السابق: ٤٤٨/٢.
- ١٧ - كان بدر موسمًا من مواسم العرب يقام لهم به سوق في كل عام.
- ١٨ - الطبري: ٢٧٦/٢ وسيرة ابن هشام: ٤٥١/٢.
- ١٩ - القرآن الكريم - سورة الأنفال: ٤٢/٨.
- ٢٠ - أو لنقل على وجه الدقة: يريدون أن يسترجعوا أموالهم التي سلبتها منهم قريش من دون أذى أو قتال.
- ٢١ - القرآن الكريم - سورة الأنفال: ٤٣/٨.
- ٢٢ - القرآن الكريم - سورة الأنفال: ٩/٨.
- ٢٣ - انظر سيرة ابن هشام: ٤٦٢/٢ لتجد حديثًا صريحًا عن شهود الملائكة وقعة بدر.
- ٢٤ - القرآن الكريم - سورة الأنفال: ١١/٨ و ١٢.
- ٢٥ - القرآن الكريم - سورة الأنفال: ١٥/٨ و ١٦.
- ٢٦ - لأن بدرًا فيه عدة قُلب في العدوِّ الدنيا.
- ٢٧ - الحُبَاب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي: (٠٠٠ - نحو ٢٠هـ / ٠٠٠ - نحو ٦٤٢م) صحابي من الشجعان الشعراء يقال له «ذو الرأي» وهو صاحب المشورة يوم بدر وقد أخذ النبي ﷺ برأيه، ونزل جبريل فقال: الرأي ما قال حُبَاب، وكانت له في الجاهلية آراء مشهورة مات في خلافة عمر بن الخطاب، وقد زاد على الخمسين (انظر الأعلام للزركلي: ١٦٣/٢).

- ٢٨ - الطبري: ٢/٢٨٠ والآية الكريمة في سورة الأنفال (٩/٨) كما مرّ بنا قبل قليل.
- ٢٩ - حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، أبو خالد: (٥٥٤هـ - ٥٠٠ - ٦٧٤م): صحابي قرشي، وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، مولده بمكة قبل الفيل بثلاث عشرة سنة، وشهد حرب الفجار، وكان صديقاً للنبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، وعُمّر طويلاً قيل ١٢٠ سنة، نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام، كان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام عالماً بالنسب، أسلم يوم الفتح وتوفي بالمدينة المنورة.
- ٣٠ - عُبَيْة بن ربيعة بن عبد شمس (٥٠٠ - ٥٢هـ / ٥٠٠ - ٦٢٤م) (والد هند أم معاوية) كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية، كان موصوفاً بالحلم والرأي، وكان خطيباً نافذ القول، وأول ما عرف عنه توسطه للصلح في حرب الفجار بين هوازن وكنانة، قتل في بدر على الشرك.
- ٣١ - شَيْبَةَ بن ربيعة بن عبد شمس (٥٠٠ - ٥٢هـ / ٥٠٠ - ٦٢٤م) (عمّ هند أم معاوية) من زعماء قريش في الجاهلية أدرك الإسلام، ولكنه قُتل في بدر على الوثنية، كان من الرجال السبعة عشر من قريش الذين اقتسموا عقبات مكة في بدء ظهور الإسلام وجعلوا دأبهم في أيام موسم الحج أن يصدوا الناس عن النبي ﷺ.
- ٣٢ - أمية بن خلف بن وهب من بني لؤي (٥٠٠ - ٥٢هـ / ٥٠٠ - ٦٢٤م) (مولى بلال): أحد جبابرة قريش في الجاهلية ومن ساداتهم أدرك الإسلام ولم يسلم وهو الذي عذب بلالاً الحبشي (مؤذن الرسول ﷺ) في بداية ظهور الإسلام، أسره عبد الرحمن بن عوف في معركة بدر، فرآه بلال فصاح بالمسلمين يحرضهم على قتله، فقتلوه.
- ٣٣ - الطبري: ٢/٢٨٥ وسيرة ابن هشام: ٤٦٦/٢.
- ٣٤ - ديوانه ص ٧٠ وسيرة ابن هشام: ٤٦٧/٢ وتتألف من ستة عشر بيتاً.
- ٣٥ - القرآن الكريم - سورة آل عمران: ١٢٣/٢.
- ٣٦ - حراء: جبل بمكة معروف، وفيه غار كان يتعبد فيه رسول الله ﷺ، ومن المعروف أن الجيش الجرار يشبه بالجبل.
- ٣٧ - صوارم مرهفات: سيوف قواطع، وكلّ مجرّب.. يقصد به هنا الرمح المتمرس بالحروب. خاظمي الكعوب: كُعُوبُهُ غليظة صلبة أراد الرمح الممتلئ الأنابيب غليظها.
- ٣٨ - الغطارف: ج غطريف وهو السيد، بنو النجار قوم حسان من الخزرج.

٣٩ - الجَبُوب: الأرض الغليظة.

٤٠ - كِبَاكِب: ج كبكة: الجماعة من الناس، والقليب: قليب بدر الذي قذف فيه من قُتل من المشركين.

٤١ - في السيرة: ٤٦٧/٢ ورد «كلامي» بدلاً من «حديثي».

٤٢ - ديوانه ص ٣٠٩ والقصيدة تتألف من أحد عشر بيتاً.

٤٣ - في السيرة: ٧٤٣/٣ ورد: ألا يالقومي.

٤٤ - نُفَيْع بن المَعْلَى بن لَوْذَانَ الخزرجي الأنصاري، أسلم قبل قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، فمَرَّ به رجل من «مُرَيَّة» حليف للأوس، فقتله في وادٍ بالمدينة يدعى «بُطْحَان» من أجل ما كان بين الأوس والخزرج، فكان أول قتل في الإسلام من الأنصار (انظر أسد الغابة: ٢٥٥/٥) وقد أجمله حسان مع القتلى عامة، رافع بن المعلى بن لوذان الخزرجي الأنصاري أخوه، شهد بدرًا واستشهد يومئذٍ، قتله عكرمة بن أبي جهل (انظر أسد الغابة: ١٩٩/٢).

٤٥ - سعد بن خَيْثَمَةَ بن الحارث الأوسي الأنصاري يكنى أبا خيثمة وهو عَقَبِيٌّ بدريٌّ نقيب، كان نقيباً لبني عمرو بن عوف، وقد استشهد يوم بدر قتله (طعيمة بن عدي) وقيل (عمرو بن عبد ود)، وذكر أنه لما أراد المسلمون الخروج إلى بدر قال له أبوه (خيثمة): لا بد لأحدنا أن يقيم مع النساء، فأثرتني بالخروج وأقم أنت، فأبى سعد وقال: لو كان غير الجنة لأثرتك به، إني أرجو الشهادة في يومي هذا، ثم استهما على الخروج، فخرج سهم سعد، فخرج مع الرسول ﷺ إلى بدر، فاستشهد رحمه الله (أسد الغابة: ٢٤٦/٢).

٤٦ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٢٣/٢٣.

٤٧ - ذكر صاحب السيرة أن حسان قال هذه القصيدة يبكي سعد بن معاذٍ سيد الأوس ورجالاً من الأصحاب الشهداء، ولعل الذي حمله على هذا الحكم ورود اسم سعد من دون ذكر أبيه في البيت الرابع، وإذا سلمنا بهذا تكون الأبيات مما قيل بعد استشهاد سعد بن معاذ، أي بعد غزوة بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة... بينما ذكر صاحب الديوان (ص ٣٠٩) أنه قالها في بدر دون أن يناقش أو يعلل أو يشير إلى السيرة.. ويبدو لي أن ما ذهب إليه شارح الديوان هو الصحيح وأن سعداً الوارد هنا هو سعد بن خيثمة الذي استشهد ببدر كما ذكرنا، وأن رافعاً هو رافع بن المعلى وقد استشهد ببدر أيضاً أما نفيع بن المعلى فقد قتل قبل بدر، وهو يدخل في جملة الأحبة القتلى الذين ذكرهم حسان،

وبذا تبقى القصيدة على الأرجح مما قيل بعد بدر بقليل وبمناسبتها.

٤٨ - بنو أسد: أسد بن العزى بن قصي جد قديم مجهول الولادة والوفاة، بنوه حي كبير من قريش، منهم حكيم بن حزام الصحابي، وخديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وورقة بن نوفل.

٤٩ - ديوانه ص ١٣٣، وتتألف من أربعة أبيات، بينما جاءت في سيرة ابن هشام (٥٤٤/٢) ستة أبيات مع خلاف طفيف في رواية بعض الأبيات.

٥٠ - في سيرة ابن هشام: ٥٤٤/٢ وردت كلمة «غَزِيَّهُمْ» والغَزِيَّ اسم جمع، فقد ورد في القاموس (٣٦٩/٤): غَاَزَ والجمع غُزَى وَغُزَيٌّ، والغَزِيَّ كغَفْنِيَّ اسم جمع، وهي في هذا المقام خير من كلمة (عزيزهم) التي أوردها الديوان، وهذه ربما قصد بها حكيم بن حزام الذي سنطلع على هجاء حسان إياه وتغييره بالفرار من المعركة يوم بدر.

٥١ - عجز البيت الرابع من المقطوعة عُرَّ: لوث ولطخ (من الإصابة بالعر وهو الجرب) المارن الأنف أو طرفه، القيوح: ج القيح وهو ما يظهر على الجرح المتلوث وهو المدة البيضاء التي لا يخالطها دم، والقصد من هذا الشطر: قد لحقه العار والخزي.

٥٢ - جَمَحَ بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤي (يقال جمع لقب له واسمه تَيْم) جد جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، بنوه بطن من قريش، وهم كثيرون، اشتهر منهم قبل الإسلام وبعده جماعات، والنسبة إليه «جُمَحِيٌّ».

٥٣ - سيرة ابن هشام: ٥٤٥/٢ ولم يوردها ديوانه، وتتألف من أربعة أبيات.

٥٤ - القرآن الكريم - سورة الصف: ٩/٦١.

٥٥ - ديوانه ص ١٩٦، وتتألف من سبعة أبيات.

٥٦ - ديوانه ص ٢٤٣، وتتألف من ستة أبيات.

٥٧ - الإبرة: الإهلاك.

٥٨ - سيرة ابن هشام: ٥٤٥/٢، ولم يوردها ديوانه، وتتألف من ستة أبيات.

٥٩ - سيرة ابن هشام: ٤٨٨/٢، ولم يوردها ديوانه وتتألف من عشرة أبيات.

٦٠ - ديوانه ص ١٣٦، وتتألف من تسعة أبيات.

٦١ - مستشعري حلق الماضي: استشعر الثوب إذا لبسه على جسمه مباشرة دون حاجز، والشعار

ما ولي الجسم من الثياب، والدثار ما كان فوق ذلك، والمأذية من الدروع: البيضاء، وقيل السهلة اللينة، والمأذي: الحديد كله الدرع والمغفر والسلاح أجمع إن كان من حديد (المعنى: يلبسون الدروع على أجسامهم مباشرة) يقدمهم: يتقدمهم، الجلد: القوي، النحيزة: الطبيعة. الرعديد: الجبان.

٦٢ - عبدالله بن الزبير: سبق التعريف به ص ١٠٠ من هذا المؤلف.

٦٣ - هكذا حكم شارح الديوان ص ٤٤١، ولكن صاحب السيرة (٥٤١/٢) تردد فبعد أن ذكر أن ابن الزبير قال يبكي قتلى بدر، أورد العبارة الآتية: قال ابن هشام: وتروى للأعشى بن زرارة بن النباش.. حليف بني نوفل بن عبد مناف وقيل: حليف بني عبدالدار.

٦٤ - ديوانه ص ٤٤١ والسيرة: ٥٤١/٢، وتتألف من خمسة أبيات.

٦٥ - بكت عيناك: دعاء عليه، يعلّ من العَلّ وهو الشرب مرة بعد مرة والمراد التكرار، الغروب: هنا مجاري الدموع، سجام: سائل: متدفق.

٦٦ - كعب بن الأشرف الطائي من بني نبهان (٣٠٠ - ٣٠٣هـ / ٩٠٠ - ٩٢٤م): شاعر جاهلي كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية وكان سيداً في أخواله، وكان يقيم في حصن له قريب من المدينة، ما زالت بقاياه إلى اليوم، يبيع فيه التمر والطعام. أدرك الإسلام ولم يسلم، بل أكثر من هجاء النبي ﷺ وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم، وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم، وقد خرج إلى مكة بعد معركة بدر، فندب قتلى قريش فيها ورثاهم وحض على الأخذ بثأرهم وعاد إلى المدينة، وقد أمر النبي ﷺ بقتله بعد هذه المواقف المعادية فانطلق إليه خمسة من الأنصار فقتلوه في ظاهر حصنه وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.

٦٧ - سيرة ابن هشام ٥٦٥/٢، وتتألف من أحد عشر بيتاً.

٦٨ - المرجع السابق، وتتألف من خمسة أبيات.

٦٩ - ولكن ابن هشام (السيرة: ٢٦٦/٢) عقّب على هذه الأبيات بقوله: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان، والحق أن مافي الأبيات من فكر وأساليب لا يعزز ما ذهب إليه ابن هشام.

٧٠ - سيرة ابن هشام: ٤٧٧/٢.

(*) النقيع لغة: القاع أو الموضع الذي يستنقع فيه الماء، وهو هنا: موضعٌ بقرب المدينة المنورة على عشرين فرسخاً منها، حماء رسول الله ﷺ لخليله.. وقيل هو من أودية الحجاز يدفع سيله إلى المدينة (ياقوت: ٣٠١/٥).

٧١ - هو سعد بن النعمان بن زيد بن أكال الأنصاري الأوسي من بني عمرو بن عوف وكان شيخاً مسلماً في غنم له بالنقيع(*) ومن هناك خرج معتمراً، ومعه مربية له (تصغير امرأة) ولم يكن يخشى ما صنع به لأن قريشاً لا يعرضون لمن جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير (انظر أسد الغابة: ٣٧٧/١).

٧٢ - لم يرد هذان البيتان في الديوان وإنما وردا في سياق الخبر في السيرة (٤٧٧/٢).

٧٣ - هو أخو أبي جهل وقد سبق التعريف به ص ١٩٧ من هذا المؤلف.

٧٤ - ديوانه ص ٤١٨ وتتألف من ثمانية وعشرين بيتاً.

٧٥ - تملت فؤادك: أسقمته. الخريدة: الحسنة الناعمة أو الفتاة البكر أو الحيئة الساكنة.

٧٦ - الطمرة: الفرس الكثير الجري، أو الجواد الأصيل السريع الجري.

٧٧ - جرواء: تفتن في جريها، تمزع: تشب، السرحان: الذئب.

٧٨ - العناجيج: ج عنجوج وهو النجيب والرائع من الخيل، وتستخدم كذلك للإبل، القفزة: الصحراء. الدموك: البكرة يستقي بها على البئر. مُحَصَد: حبل شديد الفتل. الرجام: حجر يربط في الدلو ليكون أسرع لها عند إرسالها في البئر.

٧٩ - الفرجان هنا: ما بين يديها ورجليها، يقول: إنها ملأتها حضراً وجرياً. أرمدت به: أسرعت به.

٨٠ - جزر السباع: اللحم الذي تأكله، يقال: تركهم جزراً للسباع والطير أي قطعاً، دُسَنَه: وطنته الحوامي: ميامن الحافر ومياسره، قالوا: سنبك الحافر مقدمه، وحامياه جانباه عن يمين وشمال، وباطنه نسوءه، ومؤخره أليته.

٨١ - الصفاد: الغل والقيد، والصقر من الرجال: السيد.

٨٢ - المجدل: الصريع على الأرض. الأعلام: الجبال العالية.

٨٣ - انظر ديوان حسان ص ٤٢٢ وسيرة ابن هشام: ٥٤٣/٢.

٨٤ - الأشقر المزبد: الدم الذي يُزبد إذا بدر من الطعنة.

٨٥ - يوم مُرَصِد: يُرصد فيه الشر.

٨٦ - ديوانه ص ١٠١ وتتألف من سبعة أبيات.

٨٧ - قوله يا حار منادى مرخم على لغة من ينتظر، والأصل يا حارث، عَوَّلَتْ غير معول: لجأت إلى أمر غير مجدٍ (وهو الفرار)، الهياج: الحرب. ساعة الأحساب: ساعة المفارقة بالأحساب.

٨٨ - الضنء: الأصل والمعدن وضنء كل شيء نسله. بنت عقاب: إن أم الحارث وأبي جهل هي: أسماء بنت مخربة بن جندل (من نهشل بن دارم)، وعقاب عبد كان لبني تغلب، وكان له بنات فوق بعضهن عند الفرافصة بن الأحوص الكلبي فكن إماءً له، وكانت واحدة منهن ولدت لرجل من بني تغلب ابنة فتزوجها مخربة بن جندل. (وانظر ص ١٨٤ من هذا المؤلف).

٨٩ - ديوانه ص ٣٧٣ وتتألف من ثلاثة أبيات.

٩٠ - أبو مخزوم: هو الحارث بن هشام، ليس بذئ حويل: ليس فيه حيلة ولا مخادعة يقول له: إني صادق وجاد فيما أتوعدك.

٩١ - سبق التعريف به ص ٢٣٢ من هذا المؤلف.

٩٢ - هو: حويرث بن عباد بن عثمان بن أسد، وهو ابن عم حكيم بن حزام، وقد أسر يوم بدر، (السيرة: ٥٣٣/٢).

٩٣ - ديوانه ص ١٢٥، وتتألف القصيدة من ثمانية أبيات.

٩٤ - ركضه: جريه وعدوه، النجاء: السرعة، قوله: من بنات الأعوج: الأعوج اسم فرس كريم تنسب إليه الخيل الكرام، فيقال: هذا الحصان من بنات الأعوج أو أعوجي، ويقال: كان أعوج لكندة، فأخذته بنو سليم في بعض أيامهم، فصار إلى بني هلال، وليس في العرب فحل أشهر منه ولا أكثر نسلاً.

٩٥ - انظر ص ٢٠٨ من هذا المؤلف، وص ٢٣٢ لتعرف ترجمة حياته.

٩٦ - ديوانه ص ٢٠٦، وتتألف من خمسة أبيات.

٩٧ - بنو شجع: قبيلة من بني عذرة (أو من كنانة)، وفي القاموس (٤٣/٣) بنو شَجَّع بطن من كلب، وبالكسر بطن من كنانة وقد درج حسان على أن يلحق بهم أبا جهل وأخاه الحارث ابن هشام، وعلى أن يلحق بهم صفات خسيصة منها سرقة العياب.

(*) يحتمل أن يكون قد وقع في البيت خطأ رواية، ومن الممكن أن يكون الأصل: إذ ما يتلَّد، أو إمَّا يتلَّد، أو مهما يتلَّد، هذا مع أن الإقواء معروف قديماً، وقد ورد لدى أكثر من شاعر.

٩٨ - مشوم: مشؤوم سهل فيها الهمز، يقال رجل مشؤوم على قومه: جرّ عليهم الشؤم وهو نقيض اليمن اللعين: المطرود والمشتوم والذي يلغنه كل أحد.

٩٩ - في البيت إقواء فروي القصيدة الدال المكسورة وهنا ضُمَّتْ (*).

١٠٠ - صيفي بن أبي رفاعه بن عابد (في السيرة: ٤٨٤/٢: عائذ وهو غلط) ابن عبدالله بن عمر بن مخزوم وقد أسر في موقعة بدر، وترك في أيدي أسريه، ولما لم يأت أحد في فدائه أخذوا عليه عهداً ليعثن إليهم بفدائه فخلوا سبيله فلم يف لهم بشيء.

١٠١ - عابد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم من قريش: جد جاهلي مجهول الولادة والوفاة، نسب إليه جماعة، منهم عبدالله بن المسيب العابدي من الصحابة هو وأبوه، وفرق السمعاني بين «عابد» هذا و«عائذ» وكلاهما من بني مخزوم، فقال: من كان من ولد عمر بن مخزوم، فهو «عابد» بالباء الموحدة والدال المهملة، ومن كان من ولد عمران بن مخزوم، فهو بالدال المعجمة، (انظر الأعلام للزركلي: ٢٤٢/٣).

١٠٢ - ديوانه ص ٢٠٨ وتتألف من ثلاثة أبيات.

١٠٣ - شاهت الوجوه تشوه شَوْهاً: قبحت.. وقد تكرر هجاؤه بني عابد عدة مرات: (انظر ديوانه ص ١٩٨ و ٢٠١ و ٢٠٨).

١٠٤ - قفا ثعلب: يقول مثله مثل ثعلب ولى بعد أن أخفق في بعض محاولاته.

١٠٥ - الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف: (٢٠٠ - ٢ هـ / ٦٢٤ - ٦٠٠ م): وكان يجالس الرسول ﷺ قبل أن يخرج فأعجبه حديثه فقالت قريش قد صبا، وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ يوم بدر إن لقيتموه فاتركوه لأيتام بني نوفل وقد قتله خبيب، وكان الحارث ممن سرقوا غزال الكعبة، وهو غزال من ذهب وعيناه من ياقوت وقد استخرجه عبدالمطلب من بئر زمزم لما أعاد حضرها ووجد فيها سيوفاً قديمة والغزال فجعله للكعبة. وفي يوم ما اجتمع نفر من شباب قريش وفتاكها وفيهم أبو لهب والحارث هذا في منزل كانوا يجتمعون فيه للشرب والسماع، وقد نفذ شرابهم وليس لديهم نفقة فذهب أبو لهب والحارث ورجل آخر يدعى أبو مسافع إلى الكعبة وسرقوا الغزال وجاؤوا به إلى مكان لهوهم فكسروه وأخذ أبو لهب الرأس والعنق والقرنين ودفع القرنين إلى صاحب البيت ليلبسهما القينتين المغنيتين، ثم ذهب القوم بباقي الذهب فاشتروا كل خمر كان بالأبطح

وجلسوا للشرب والسماع. وعلمت قريش بالخبر وكاد يقع شرٌّ بين بطونها ثم اصطالحوا إما على قطع أيدي السارقين أو تغريم كل منهم مئة ناقة أو إعادة الغزال كما هو، ولكن هرب عدد من المشتركين في الحادث ومنهم الحارث، ثم أرسلوا إلى قريش حين سارت إلى بدر أن خلوا بيننا وبين محمد (ﷺ)، فإن قتلنا فهو الذي تريدون وإن بقينا فهو عوض مما منعنا فشهدوا بدرًا، وقتل الحارث بن عامر وأبو مسافع.

١٠٦ - ديوانه ص ١٠٨ وتتألف المقطوعة من خمسة أبيات.

١٠٧ - بنو سُلَيْم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان من مضر، من عدنان: قبيلة عظيمة كانت منازلها ما بين مكة والمدينة إلى عالية نجد بالقرب من خيبر وعلى حدود نجد والحجاز وقد عنيت بتربية الخيل وأعانت الرسول ﷺ في فتح مكة كما سيأتي، ولها بطون كثيرة ومنها بنو عصية وبنو بهز وبنو بهثة وبنو زعب وبنو رعل وبنو مطرود وبنو ذكوان وبنو الشريد (رهمط الخنساء). وهنالك: بنو سليم بن قطرة بن غنم وهم بطن من شَنُوءة من القحطانية.

١٠٨ - الكُدْر: ماء لبني سليم - كما قال ياقوت: ٤٤١/٤ - كان رسول الله ﷺ خرج إليه بجمع من سليم فلما أتاه وجد الحيّ خلوفًا، فاستاق النعم، ولم يلق كيدًا.

١٠٩ - سيرة ابن هشام: ٥٥٨/٢.

١١٠ - ديوانه ص ٢٨٨، وتتألف من أربعة أبيات.

١١١ - الأحلام: ج حلم الأناة والعقل. والعثار: الزلل والكبوة.

١١٢ - العاص (أو العاصي) بن هشام بن المغيرة المخزومي أخو أبي جهل وكان ينادمه في الجاهلية العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ويقال لهما «أحمقا قريش» وقد قتلا كلاهما يوم بدر على الشرك، الأول (المخزومي) قتله عمر بن الخطاب والثاني قتله علي بن أبي طالب. ويقال إن أبا لهب بن عبدالمطلب قامر العاص بن هشام فقممه أبو لهب حتى قممه نفسه، فجعله قيئًا، ولما أرادت قريش قتال رسول الله ﷺ قالوا لبني هاشم: اخرجوا معنا فخرجت بنو هاشم مكرهين وأخرج أبو لهب بدلًا من «العاص بن هشام» فقتل في بدر.

(*) انظر التعليق ص ٢٢٨.

١١٣ - انظر من ٢٠٥ من هذا المؤلف لتجد خبر إرسال «أبي لهب» رجلاً عنه إلى بدر للقتال.

١١٤ - ديوانه ص ٣٢٥، وتتألف من ثلاثة أبيات.

١١٥ - القين: الحداد. الكير: كير الحداد. ابن جندع: غير معروف.

١١٦ - ذهب شارح الديوان ص ٣٢٥ إلى أن حسان قال الأبيات بعد مقتل العاص بن هشام في بدر، ولكن هذه الأبيات تبدو قريبة جداً من روح القصائد والمقطوعات الست التي أوردناها في هجاء الوليد ابن المغيرة، وبنو المغيرة قبل معركة بدر ص ١٨٨ من هذا المؤلف، ولأنها خلت في الوقت نفسه من ذكر القتال، وربما كان لهذه المقطوعة تتممة تربطها بمعركة بدر ولكنها لم تصل إلينا.. على أية حال أنا الآن أميل إلى وضعها مع شقيقاتها الست التي سبقت الإشارة إليها.

١١٧ - ديوانه ص ٧١ وانظر ص ٢٠٩ من هذا المؤلف.

١١٨ - سيرة ابن هشام: ٥٤٥/٢ وانظر ص ٢١١ من هذا المؤلف.

١١٩ - ديوانه ص ٢٠٦، وانظر ص ٢١٩ من هذا المؤلف.

١٢٠ - ديوانه ص ٧٣، وانظر ص ٢١٠ من هذا المؤلف.

١٢١ - ديوانه ص ١٣٦، وانظر ص ٢١١ من هذا المؤلف.

١٢٢ - ديوانه ص ٣١٠، وانظر ص ٢١١ من هذا المؤلف.

١٢٣ - ديوانه ص ٣١٠، وانظر ص ٢١١ من هذا المؤلف.

١٢٤ - ديوانه ص ١٣٧، وانظر ص ٢١٣ من هذا المؤلف.

١٢٥ - ديوانه ص ٢٠٦، وانظر ص ٢١٩ من هذا المؤلف، ويتلد: يخلد يقيم. والبيت فيه إقواء(*).

١٢٦ - سيرة ابن هشام: ٥٤٦/٢، وانظر ص ٢١١ من هذا المؤلف.

١٢٧ - ديوانه ص ٢٤٣، وانظر ص ٢١٢ من هذا المؤلف.

١٢٨ - سيرة ابن هشام: ٤٨٨/٢ وانظر ص ٢١٣ من هذا المؤلف.

١٢٩ - سورة الأنفال (القرآن الكريم): ٤٨/٨، وانظر سيرة ابن هشام: ٤٨٧/٢، لتجد الحديث مفصلاً عن هذا الموضوع.

١٣٠ - ديوانه ص ٢٠٦، وانظر ص ٢١٩ من هذا المؤلف.

١٣١ - ديوانه ص ٢٠٦، وانظر ص ٢١٩ من هذا المؤلف.

١٣٢ - ديوانه ص ١٩٧، وانظر ص ٢١٢ من هذا المؤلف.

١٣٣ - ديوانه ص ١٣٣، وانظر ص ٢١١ من هذا المؤلف.

١٣٤ - أبو العاصي: يرجح أن يكون العاصي (أو العاص) بن هشام وهو أبو البختري، وقد سبقت ترجمته ص ١٩٩ من هذا المؤلف، وليس أبا العاص بن قيس بن عدي بن سهم كما رأى شارح الديوان ص ١٣٣ لأن هذا من بني سهم والحديث يتناول بني أسد وقد جرى حسنًا أحيانًا على أن يكنى الرجل باسمه. تجدل: وقع على الأرض صريعاً. المقعص: من يقتل قتلاً معجلاً. صادقة النجاء: فرس سريعة. سبوح: سريعة.

١٣٥ - زَمَعَة: هو زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد من بني أسد بن عبد العزى من أعيان قريش. العاند: الطعنة التي يسيل دمها بعيداً أو الدم الذي يسيل في جانب. المعبط: يراد به الدم العبيط أي الطري.

١٣٦ - ابن قيس: يرجح أن يكون معاوية بن زهير بن قيس حليف بني مخزوم وكان مشركاً، وقد مر هو وقومه بهبيرة بن أبي وهب المخزومي وهم منهزمون يوم بدر، وقد أعيا هبيرة، فألقى عنه درعه وحمله ومضى به، وقال قصيدة في ذلك (انظر السيرة: ٥٥٢/٢). وقد شرح البيت في الهامش رقم ٥١ ص ٢٣٤ من هذا المؤلف.

١٣٧ - انظر مثلاً قصيدته البائية: (ديوانه ص ٧٠ وص ٢١٢ من هذا المؤلف)، وقصيدته العينية (ديوانه ٣٠٩ وص ٢١٠ من هذا المؤلف) وقصيدته الدالية (ديوان ص ١٩٦ وص ٢١٢ من هذا المؤلف).

١٣٨ - ديوانه ص ٧٠، وانظر ص ٢٠٩ من هذا المؤلف.

١٣٩ - ديوانه ص ٤١٨، وانظر ص ٢١٥ من هذا المؤلف.

١٤٠ - يشاركه في ذلك أخواه كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وبعض المسلمين الذين ينظمون بعض القصائد في بعض المناسبات كعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبدالمطلب كما ذكروا.

١٤١ - امرؤ القيس: (نحو ١٣٠ ق هـ - ٨٠ ق هـ/ نحو ٤٩٧ - ٥٤٥ م). امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي: أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يمني الأصل، مولده بنجد، وقد اشتهر بلقبه واسمه مختلف فيه، ف قيل حُنْدُج وقيل عدي.. كان أبوه ملك أسد وغطفان وأمه أخت المهلهل الشاعر فلقنه خاله الشعر، فقال له صغيراً وجعل يشبب ويلهو فطرده أبوه، فأخذ يعاشر الصعاليك حتى قتل أبوه، فنهض للأخذ بثأره، واستعان بالروم لذلك، وفي خلال عودته مات بأنقرة بعد أن ظهرت قروح في جسمه، له ديوان شعر مطبوع.

١٤٢ - زهير بن أبي سلمى، ربعة بن رياح المزني من مضر (١٣٠ - ٠٠٠ ق هـ/ ٦٠٩ - ٠٠٠ م) حكيم الشعراء في الجاهلية، وبعض أئمة الأدب يفضلونه على جميع شعراء العرب، ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة وكان يقيم في نجد، قيل: كان ينظم القصيدة في شهر، وينقحها ويهذبها في سنة، فكانت قصائده تسمى «الحواليات». له ديوان شعر مطبوع أشهر ما فيه معلقته، وقال ابن الأعرابي: كان لزهير في الشعر مالم يكن لغيره: وكان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة وأخته الخنساء شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين.

١٤٣ - النابغة الذبياني: سبق التعريف به ص ٦٣ من هذا المؤلف.

١٤٤ - ابن حذام: زعموا أنه كان شاعراً قبل عهد امرئ القيس، وأن له في بكاء الديار شعراً، وهو مجهول الولادة والوفاة.

١٤٥ - ديوان امرئ القيس - السندوبي ص ١٣٦.

١٤٦ - عنتر بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي (٠٠٠ - نحو ٢٢ ق هـ/ ٠٠٠ - نحو ٦٠٠ م) أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى، من أهل نجد، أمه حبشية اسمها زبيبة سرى إليه السواد منها. كان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً، وكان يوصف بالحلم على شدة بطشه وفي شعره رقة وعذوبة، أحب ابنة عمه (عبلة) وذكرها كثيراً في شعره التقى في شبابه امرأ القيس الشاعر، وشهد حرب

داحس والغبراء وعمر طويلاً وله ديوان شعر مطبوع.

١٤٧ - عنترة بن شداد: حياته - شعره ص ١٤٧ - تأليف فارس صويتي.

١٤٨ - الحوليات: قصائد ينظمها الشاعر، ويستمر في تنقيحها وتهذيبها مدة سنة - كما أشرنا قبل قليل عندما ترجمنا لزهير بن أبي سلمى.

١٤٩ - عبید الشعر سموا كذلك لشدة عنايتهم بشعرهم وحرصهم على تنقيحه وتهذيبه وتجويده، وأبرزهم زهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني وأوس بن حجر.. ومدرستهم تعرف أيضاً باسم المدرسة الأوسية.

١٥٠ - وكذلك من شاركه ممن أشرنا إليهم قبل قليل.

١٥١ - من هؤلاء زهير الذي تتلمذ على خال أبيه «بشامة بن عمرو بن الغدير بن هلال المري»، وحفظ له، وأخذ عنه الشعر والرصانة والدعوة إلى الإصلاح، كما تتلمذ زهير لزوج أمه «أوس بن حجر» زعيم المدرسة الأوسية التي تنسب إليه واتخذ طريقته في الشعر.

١٥٢ - قال تعالى متحدّياً العرب سادة الفصاحة أن يأتوا بعشر سور من مثل سور القرآن الكريم بعد أن ادّعوا أنه مفترى، ولهم أن يستعينوا بمن شاؤوا من دون الله: (سورة هود: ١١/ ١٣) «أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين». ثم دعاهم بعد أن عجزوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله مستعينين بمن أرادوا من دون الله: (سورة البقرة: ٢/ ٢٣): «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين». وكان متوقعاً أن يعجزوا، وأتّى لهم، فجاء قوله تعالى: (سورة الإسراء: ١٧/ ٨٨) «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» صدق الله العظيم.

١٥٣ - سورة الأنفال: ٥/ ٨.

١٥٤ - سورة الأنفال: ٧/ ٨.

١٥٥ - سورة الأنفال: ٩/ ٨ و ١٠.

١٥٦ - سورة الأنفال: ١١/ ٨.

أشعار الحقبة بين بدر وأحد

ونغادر ما كان بُعيد بدرٍ ونمضي قليلاً في مدارج الزمن لنقف عند بعض الأحداث والمواقف في بقية السنة الثانية وثلاثي السنة الثالثة (الأول والثاني) للهجرة:

١ - قبل الوصول إلى موقعة «أحد»^(١) نجد رسول الله ﷺ يستدعي حسان بن ثابت ويقول له: «يا حسان إنه قد حدث بين المطيبين»^(٢) وأحلافهم^(٣) شرٌّ^(٤)، فقل في مقتل أبي أزيهر^(٥) شعراً تحرض به المطيبين على الأحلاف»^(٦)، فينبعث حسان يحرض بشعره في دم أبي أزيهر، ويعير أبا سفيان خفرته ويجبّنه، فقال مقطوعة مطلعها^(٧):

غدا أهل حِضْنِي ذِي الْمَجَازِ بِسُحْرَةٍ
وجارُ ابن حربٍ بِالْمُحَصَّبِ ما يَغْدُو^(٨)

وكان من أثر هذا الشعر أن جمع يزيد بن أبي سفيان^(٩) بني عبد مناف والمطيبين وحثم على القتال وكذلك الأحلاف تجمعوا، وتواقف الجمعان للحرب، وكادت أن تقع الواقعة بين بطون قريش لولا أن تلافاهما أبو سفيان بحكمته ودهائه^(١٠)، ويُروى أن أبا سفيان لما بلغه شعر حسان قال: «أريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض في رجل من دوس»^(١١)؟ فبئس والله ما ظنَّ^(١٢).

وقال حسان بهذه المناسبة مقطوعة أخرى يحرض فيها قبيلة دوس قبيلة المقتول (أبي أزيهر) لتأخذ بثأره وتعلنها حرباً شعواء يشيب لها الوليد وتعمرها السمر والبيض والجياد الأصيلة القوية، ومطلعها^(١٣):

يا دوسُ إن أبا أزيهرَ أصبحت
أصداؤه رهنَ المضيحِ فاقدحي^(١٤)

وزيادة في النكاية جعل أبا أزيهر يعدل أكثر من مئة رجل، ولذا فقليل أو غير وافٍ
بدمه أن يقتلوا به مئة من رجال الأبطح:

إِنْ تَقْتُلُوا مِئَةً بِهِ فَدَنِيَّةٌ

بِأَبِي أَزِيهَرٍ مِنْ رِجَالِ الْأَبْطَحِ^(١٥)

٢ - وفي هذه الحقبة يمكن أن يوضع هجاؤه أبي بن خلف الجمحي^(١٦)، وكان قد
جاء إلى النبي ﷺ بعظم بال فقال: تزعم أن ربك يحيي الموتى فمن يحيي هذا؟ وفته
وقد سوغ وضع هجائه هذا في هذه الحقبة أن أبي بن خلف قتل في معركة أحد وليس
ثمة إشارة لذلك، ولأن حسان عيّر بقتل أخيه أمية، فقال مقطوعة، مطلعها^(١٧):

لَقَدْ وَرِثَ الضَّلَالَةَ عَنْ أَبِيهِ

أَبِي يَوْمَ فَارَقَهُ الرَّسُولُ

ثم ذكر حادثة جلب العظم:

أَجِئْتُ مُحَمَّدًا عَظْمًا رَمِيمًا

لَتَكْذِبَهُ وَأَنْتَ بِهِ جَهْلُولُ

وعيّر بمقتل أخيه أمية وجزعه من الموت، وبمقتل ابني ربيعة عتبة وشيبة لأنهما
أطاعا أبا جهل فتكللاً لأمهما، بينما هرب الحارث وقد تفرق جمعه:

وَقَدْ نَالَتْ بَنُو النَّجَّارِ مِنْكُمْ

أُمِيَّةٌ إِذْ يُغَوِّثُ يَا عَقِيلُ

وَتَبَّ ابْنَا رَبِيعَةَ إِذْ أَطَاعَا

أَبَا جَهْلٍ، لَأَمَّهْمَا الْهَبُولُ^(١٨)

وَأَفْلَتَ حَارِثٌ لَمَّا شَغَلْنَا

بِأَسْرِ الْقَوْمِ أَسْرَتَهُ فَلِيلُ^(١٩)

الهوامش

١ - أُحَد: بضمَّ أوله وثانيه معاً: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أُحُد، وهو جبل أحمر ليس بذئ شناخيب (ج شُنُخوب وشُنُخوبَة: رأس الجبل): يقع شمالي المدينة المنورة على بعد ميل تقريباً، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «أحد جبل يحبنا ونحبه، وهو على باب من أبواب الجنة...» ياقوت: ١٠٩/١.

٢ - سبق التعريف بهم ص ١٦٩ من هذا المؤلف.

٣ - سبق التعريف بهم ص ١٦٩ من هذا المؤلف.

٤ - سبب الشرِّ مقتل أبي أزيهر.

٥ - هو أبو أزيهر بن أنيس بن الخيسق بن مالك بن سعد الدوسي من الأزد. كان شريفاً في قومه، وكان حليفاً لأبي سفيان بن حرب، وكان يقعد هو وأبو سفيان في أيامهما في قبة لهما فيصلحان بين من حضر ذلك المكان، وكان أبو أزيهر قد زوج أبا سفيان ابنته عاتكة فولدت له محمداً وعنبسة، وزوج عتبة بن ربيعة ابنته زينب فولدت له ربيعة ونعمان، وزوج الوليد بن المغيرة بن عبد الله المخزومي ابنة أخرى له، ثم أمسكها عنه بعدما بلغه سوء معاملته للنساء ولم يُعِدْ إليه مهره حتى مات الوليد في السنة الأولى للهجرة، ولما نزل الناس سوق ذي المجاز وهو أحد أسواق العرب نزل أبو أزيهر على صهره أبي سفيان، فأتاه بنو الوليد فقتلوه، ولي قتله هشام بن الوليد بمهر أبيه الوليد الذي احتجزه لوصية أبيه الوليد إياه، فانبعث حسان يحرض بشعره في دم أبي أزيهر ويعير أبا سفيان خفرته ويجبّنه.. ولما بلغ قوله يزيد بن أبي سفيان جمع بني عبد مناف والمطيبين ودعاهم لأخذ الثأر من الأحلاف بينما كان أبو سفيان بذئ المجاز ثم تجمع الأحلاف وكادت تقع الحرب بينهم، وعندما وصل الخبر أبا سفيان عاد إلى مكة فوجد الجمع من متواقفين للقتال واللواء مع ابنه يزيد، فنزع اللواء من ابنه ودعا الناس إلى الانصراف فترقبوا.. ولم يكن في أبي أزيهر ثأر يعلم وحجز الإسلام بين الناس.

٦ - ديوانه ص ١٣٠.

٧ - ديوانه ص ٢١٨ وتتألف من خمسة أبيات.

٨ - ذو المجاز: موضع سوق بعرفة كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام: وحِصْنَاهُ: جانباه السُّحْرَة: السحر آخر الليل قبيل الصبح وقيل: من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر، جار ابن حرب: أبو أزيهر. المحصَّب: موضع رمي الجمار بمنى، وقيل هو الشعب الذي مخرجه إلى الأبطح ما بين مكة ومنى، وسمي بالمحصب لما فيه من الحصى.

٩ - يزيد بن أبي سفيان (صخر بن حرب) الأمويّ، أبو خالد (٠٠٠ - ١٨هـ / ٠٠٠ - ٦٣٩م): أخو معاوية مؤسس الدولة الأموية، أمير، صحابي من رجالات بني أمية شجاعة وحزماً أسلم يوم فتح مكة، واستعمله النبي ﷺ على صدقات بني فراس وكانوا أخواله، ثم استعمله أبو بكر على جيش وسيره إلى الشام، وخرج معه يشيعه راجلاً. ولما استخلف عمر ولأه فلسطين ثم ولي دمشق، وخارجها وافتتح قيسارية، له وقائع كثيرة وأثر محمود في فتوح البلاد الشامية، توفي في دمشق بالطاعون وهو على الولاية. كان أفضل بني سفيان وكان يقال له: يزيد الخير، وكانت أمه أم الحكم زينب بنت نوفل بن خلف من بني كنانة.

١٠ - ارجع إلى التفصيل في الهامش رقم ٥.

١١ - دوس بن عُدْثَان بن عبدالله بن زهران من «أزد شنوءة» من قحطان: جدّ جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، من بنيه جذيمة الوضاح ملك الحيرة، وأبو هريرة الصحابي المشهور، نزل أبناء هذه القبيلة بعمان والحجاز وخراسان.

١٢ - ديوانه ص ١٣١.

١٣ - ديوانه ص ١٣٠، وتتألف من ستة أبيات.

١٤ - الأصداء: ج الصدى وكانت العرب تقول إذا قتل قتيل ولم يؤخذ بثأره خرج من رأسه طائر كالبوم (وهو الهامة والذكر الصدى) فيصيح على قبره: اسقوني اسقوني فإن قُتِلَ قاتله كَفَّ عن الصياح. المضِيح: قيل اسم جبل في بلاد هوازن، وآخر في نجد، وقيل اسم ماء.

١٥ - يقول: لا يكفي أن تقتلوا مئةً من رجال مكة بأبي أزيهر، بل يعدّ ذلك أمراً خسيساً.

١٦ - أبيّ بن خلف الجمحي (٠٠٠ - ٣هـ / ٠٠٠ - ٦٢٥م) أحد أبطال قريش ومن ساداتهم وهو أخو أمية بن خلف (سيد بلال)، أدرك الإسلام، ولم يسلم وكان يلقي رسول الله ﷺ بمكة، فيقول: يا محمد إن عندي «العَوْدَ» فرساً أعلفه كل يوم فرقاً (الفرق: مكيال يسع ثلاثة أصع) من ذرةٍ أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله، ولما

أسند رسول الله ﷺ في الشعب في معركة أُحُد أدركه أبيّ وهو يقول: أي محمد، لا نجوت إن نجاء، فقال القوم: يا رسول الله أيعطى عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه، فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدحرج منها عن فرسه مراراً. ولما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إن بك من بأس، قال: إنه قد قال لي بمكة: أنا أقتلك فوالله لو بصق عليّ لقتلني، ومات عدو الله في سرف، وهم قافلون به إلى مكة.

١٧ - ديوانه ص ٢٩٦ والسيرة: ٦٠٢/٣ وقد وردت في الديوان أربعة أبيات بينما جاءت في السيرة خمسة، وجاءت في السيرة بعد قتله، وكأنها متعلقة به، وألحقت بمقطوعة أخرى سنعرض لها عند الحديث عن أحد.

١٨ - يغوث: يصيح وا غوثاه. الهبول: الثكل.

١٩ - هذا البيت ورد في السيرة - كما ذكرنا - ولم يرد في الديوان.

أشعار السنة الثالثة (أحد وما بعدها)

وفي يوم السَّبْت لسبع ليالٍ خَلَوْنَ من شوال من سنة ثلاثٍ من الهجرة^(١) كانت معركة أُحُد، واستطاع المشركون - كما قالوا - أن يثأروا لقتلاهم في بدر، ولكن حسان لا يرى ذلك، وإنما يعتقد أن المسلمين في أحد قاتلوا عن نبيهم وعن دينهم ما وسعهم الجهد ووفوا بعهدهم، وله بهذه المناسبة وما بعدها بقليل عدد من القصائد والمقطوعات:

أ - أشعار المعركة

١ - منها ميميةٌ بدأها بالغزل، ومطلعها^(٢):

منع النوم بالعشاء الهمومُ
وخيالٌ إذا تَغُور النجومُ

وبعد المقدمة الغزلية افتخر بخاله، وأبيه، ونفسه، وقيمته عند الملوك ونسبه^(٣)، ثم عرض بابن الزبيري^(٤) الذي كان يهاجيه فجعل فعله خاملاً مذموماً.. ثم التفت إلى المشركين الذين قاتلوا في أحد، واتخذ من قصة لوائهم^(٥) منفذاً يصل منه إلى الفخر بشجاعة المسلمين الذين قتلوا عدداً من حملة اللواء، وهم:

تسعةٌ تحمل اللواءَ وطارت
في رعاٍ من القنا مَخْزوم^(٦)
لم يولُّوا حتى أبيدوا جميعاً
في مقامٍ، وكلُّهم مذموم^(٧)

وأما قريش فقد طاش صوابها:

وقريشٌ تلوذ مناً لواءاً
لم يقيموا وخفَّ منها الحلوم^(٨)

٢ - وقصة اللواء هذه أوحى إلى حسان بالكثير من المعاني، فهو في مقطوعة
بائية يقول^(٨):

ولولا لواء الحارثية أصبحوا
يُباعون في السوق ببيع الجلائب^(٩)
وهذا البيت من مقطوعة أولها^(١٠):
إذا عضل سيقنا إلينا كأنهم
جداية شرك معلّات الحواجب^(١١)

٣ - وفي مقطوعة أخرى غيرهم بأن اللواء حملة عبد أسود لهم، يقال له «صواب»
بعد أن جبنوا عن حملة خوف القتل:

فخرتُم باللواء وشرُّ فخر
لواء حين ردُّ إلى صواب
جعلتم فخركم فيه لعبدا
من الأم من يطأ عقر التراب^(١٢)

ب - الرثاء:

على أن المسلمين قد أصيبوا في هذه المعركة بأسد الله وأسد رسوله «حمزة بن
عبدالمطلب»^(١٤) عم النبي ﷺ، فجزعوا لمقتله وللمثلة به ولا سيما رسول الله ﷺ فقد
قال: «لولا أن تحزن صفيّة»^(١٥)، ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع
وحواصل الطير ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمتلن بثلاثين
رجلاً منهم^(١٦)»، ولما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما
فعل قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من
العرب^(١٧)، ولما وقف ﷺ على حمزة قال: «لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط
أغيظ إلي من هذا»^(١٨) ثم قال ﷺ: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبدالمطلب
مكتوب في أهل السماوات السبع: حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله^(١٩)،
وأنزل جل جلاله في قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه: «وإن عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما

عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تَكُ في ضيقٍ مما يمكرون»^(٢٠) فعفا رسول الله ﷺ، وصبر، ونهى عن المثلة.

ثم أمر رسول الله ﷺ بحمزة فسجى ببردة، ثم صلى عليه، فكبر سبع تكبيرات، ثم كان يؤتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة فيصلي عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدُفِنَ.

هذا الموقف المهيب أجرى على لسان حسان أكثر من قصيدة:

١ - له قصيدة لامية بدأها بوصف الديار العافية، ومطلعها^(٢١):

أَتَعْرِفَ الدَّارَ عَفَا رَسْمَهَا

بَعْدَكَ صَوْبُ الْمُسْتَبَلِ الْهَاطِلِ^(٢٢)

ثم نهى نفسه عن التألم لمحو الآثار، ودعاها إلى أن تبكي على حمزة:

دَعِ عَنْكَ دَارًا عَفَا رَسْمُهَا

وَابْكِي عَلَى حَمْزَةِ ذِي النَّائِلِ

وولج من هذا المدخل إلى تعداد مناقب الشهيد: فهو كريم إذا أمحلت الدنيا، وبطل مقدام إذا استعرت الحرب، ورفيع المنزلة من هاشم، ولا يدفع حقاً بباطل، ودعا على وحشي بشلل اليد، وذكر أن الأرض أظلمت لفقده وأن نور القمر اسود.. ثم قال:

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ فِي جَنَّةٍ

عَالِيَةٍ مُكْرَمَةٍ الدَّاحِلِ

كُنَّا نَرَى حَمْزَةَ حَرَزًا لَنَا

مِنْ كُلِّ أَمْرِ نَابِنَا نَازِلِ

وَكُنَّا فِي الْإِسْلَامِ ذَا تُدْرَأٍ

لَمْ يَكْ بِالْوَانِي وَلَا الْخَانِلِ^(٢٣)

والتفت إلى هند بنت عتبة زوج أبي سفيان التي أغرت وحشياً بقتل حمزة، واشتفت بمقتله، وبقرت بطنه، ولاكت شيئاً من كبده، ثم لفظته لشدة مرارته، فقرعها، ودعاها إلى أن تبكي على أبيها، ومن قتلهم حمزة من أقربائها في بدر:

لا تفرحي يا هند واستجلبي
دمعًا وأذري عُبْرَةَ الثَّاكل^(٢٤)
وابكي على عتْبةٍ إذ قَطُّهُ
بالسيف تحت الرهج الجائل^(٢٥)
إذ خَرَّ في مشيخةٍ منكم
من كل عاتٍ قلبه جاهل^(٢٦)
أرداهمُ حمزة في أسْرةٍ
يمشون تحت الحَلَقِ الفاضل^(٢٧)

٢ - وله قصيدة رائية قالها في رثاء حمزة حين قَدِمَتْ ابنته أمامه^(٢٨) المدينة
تسأل عن قبر أبيها ومصرعه، ومطلعها^(٢٩):

تسائل عن قمرٍ هِجَانٍ سَمَيْدَعٍ
لدى البأس مغوار الصباح جَسور^(٣٠)

وبعد أن يذكر شيئاً من مزايا الشهيد يقول:
فقلت لها إن الشهادة راحة
ورضوان ربٍ يا أُمَامَ غفور
فإنَّ أباكِ الخيرَ حمزةً فاعلمي
وزيرُ رسولِ الله خير وزير
دعاه إله الخلق ذو العرش دعوةً
إلى جنةٍ يرضى بها وسرور

وطفق يذكر أساه وحزنه المستمرين على أسد الله، وتمنى لو أن المنية اختطفته
قبل استشهاده:

فوالله ما أنساكَ ما هبَّتِ الصُّبَا
ولأبْكَيْنَ في محْضري ومَسيري
على أسدِ الله الذي كان مِدْرَهَا
يذود عن الإسلام كل كفور^(٣١)

ألا ليت شُلُوي يوم ذاك وأعظمي
إلى أضبع يَنْتَبُنْني ونسور^(٣٢)

٢ - وله قصيدة أخرى في الرثاء حائية مقيّدة مؤسسة على الكامل المجزوء
المرفّل، قالها يبكي حمزة ومن أصيب من أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد، مطلعها^(٣٣):
يَامي قَومي فَاَنَدُبُنْ
بِسُحَيْرَةٍ شَجَوَ النِّوَانُحْ

وبعد أن وصف النادبات المعولات الباقيات اللواتي جرحن قلوبهن بسبب:
إِذْ أَقْصَدَ الحِدْثَانُ مَنْ
كَنَّا نَرْجِي إِذْ نَشَايَح
أَصْحَابَ أَحَدٍ غَالِهِمْ
دَهْرُ الْمَلِّ لَهُ جَوَارِح
مَنْ كَانَ فَارِسْنَا وَحَا
مِينَا إِذَا بُعِثَ الْمَسَالِح
يَا حَمْرُ، لا والله لا
أُنْسَاكَ مَا صَرَ الْقَائِح

وبعد أن وصف حمزة، وبطولته، ومزاياه الرفيعة، انتقل إلى ذكر الشهداء الآخرين:
لَهْفِي لِشَبَّانِ رَزْدُ
نَاهُمْ كَأَنَّهُمُ الْمَصَابِح
شَمُّ بَطَارِقَةٍ غَطَا
رَفَّةٌ خَضَارْمَةٌ مَسَامِح^(٣٤)

ج - النّقائض:

١ - وبعيد يوم أحد بلغت مسامح حسان قصيدة قالها أبو سفيان بن حرب،
مطلعها^(٣٥):

ولو شئتُ نَجَّتْني كُمَيْتُ طِمِرَّةُ

ولم أحمل النعماء لابن شعوب^(٣٦)

وكان ابن شعوب هذا قد خلص أبا سفيان من القتل حين استعلاه حنظلة بن أبي عامر الغسيل^(٣٧)، وقد فخر في قصيدته هذه بصبره في ذلك اليوم وبقتل بعض أبطال المسلمين، ومنهم حمزة، فأجابه حسان بمقطوعة، مطلعها^(٣٨):

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
ولست لزور قلته بمُصيب^(٣٩)

ودكره بمن قتله المسلمون يوم بدرٍ من عليّة قريش، ومنهم أبو جهل عمرو بن هشام، وعتبة وابنه، وشيبة والعاص... الخ.

٢ - ويستدير شاعر الدعوة بعدها أو قبلها بقليل ليردّ على ابن الزبعرى^(٤٠) قصيدته ومطلعها^(٤١):

يا غراب البين أسمعْت فقل
إنما تنطق شيئاً قد فعل

وفيها يقول:

أبلغا حسان عني آية
فقريض الشعر يشفي ذا الغل
كم قتلنا من كريم سيّد
ماجد الجدين مقدام بطل
ليت أشياخي ببدر شهدوا
جرع الخـزرج من وقع الأسل

فيجيبه حسان بقصيدة رائعة يحيل فيها الهزيمة إلى فخر، ويعدل في حكمه؛ إذ يجعل الحرب دولاً، ويفخر عليه فيها بيوم بدر، ومطلعها^(٤٢):

ذهبْتُ بابن الزبعرى وقعة
كان منا الفضلُ فيها لو عدل

ومنها :

ولقد نلتم وناولنا منكم
وكذاك الحرب أحياناً دُول
إذ شددنا شدة صادقة
فأجأناكم إلى سفح الجبل^(٤٣)
إذ تُولُّون على أعقابكم
هرباً في الشعب أشباه الرُّسل^(٤٤)
نضع الخطي في أكتافكم
حيث نهوي عللاً بعد نَهْل^(٤٥)
فسدحنا في مقام واحد
منكم سبعين غير المنتحل^(٤٦)
وأسرنا منكم أعدادهم
فانصرفتم مثل إفلات الحجل

ويشعره بتفوق المسلمين دائماً، لأنهم مؤيدون بجبريل، ولأنهم أتقياء يطيعون
الله ورسُّله :

برجال لستُم أمثالهم
أيّدوا جبريل نصراً فنزل^(٤٧)
وعَلَوْنَا يوم بدر بالتُّقى
طاعةً الله وتصدق الرُّسل^(٤٨)

٣ - وبلغت مسامع أبي الوليد كذلك قصيدة أخرى لابن الزبير في يوم أحد،
يفتخر بقومه فيها ويعرض بقتلى المسلمين ومطلعها^(٤٩) :

ألا ذرفت من مقلتيك دموع
وقد بان من حبل الشباب قطوع

وبعد المقدمة التي تذكر رحيل الأحبة انتقل إلى ذكر سيرهم لقتال المسلمين، وقد
أعدوا للقتال عدته من دروع وسيوف، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى والجرحى :

فغادرْنَ قَتْلَى الْأَوْسِ عَاصِبَةً بِهِمْ
ضِبَاعٌ وَطَيْرٌ يَعْتَفِينَ وَقَوْعٌ
وَجَمْعُ بَنِي النَّجَارِ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ
بِأَبْدَانِهِمْ مِنْ وَقْعِهِمْ نَجِيعٌ
كَمَا غَادَرْتُ فِي الْكَرِّ حَمْزَةً ثَاوِيًا
وَفِي صَدْرِهِ مَاضِي الشَّيْبَةِ وَقِيعٌ

فرد عليه ونقض عينيته بمثلتها، وفند مزاعمه بقصيدة، مطلعها^(٥٠):

أَشَاقِكَ مِنْ أُمِّ الْوَلِيدِ رِبُوعٌ
بِلَاقِعِ مَا مِنْ أَهْلِهِنَّ جَمِيعٌ

وبعد المقدمة الطللية انتقل إلى دحض الأكاذيب، فذكر أن يوم أحد لا يعد يومًا
للمشركين على المسلمين، لأن المسلمين صبروا وقاتلوا ووفوا بما عاهدوا بينما كفرت قريش:

فَقَدْ صَابَرْتُ فِيهِ بَنُو الْأَوْسِ كُلَّهُمْ
وَكَانَ لَهُمْ ذِكْرٌ هُنَاكَ رَفِيعٌ^(٥١)
وَحَامَى بَنُو النَّجَارِ فِيهِ، وَصَابَرُوا
وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي اللَّقَاءِ جَزِيعٌ^(٥٢)
أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ لَا يَخْذُلُونَهُ
لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَشَفِيعٌ
وَقَوُوا إِذْ كَفَرْتُمْ يَا سَخِينِ بَرَبِكُمْ
وَلَا يَسْتَوِي عَبْدٌ وَقَى وَمُضْضِعٌ^(٥٣)

وتعرض لوصف بعض أسلحة المسلمين، وحسن بلائهم، وقتلهم أصحاب اللواء،
وصرع أبي بن خلف بكف رسول الله ﷺ، ثم انتقل لبيان الفرق بين شهداء المسلمين
وقتل المشركين:

فَإِنْ تَذَكَّرُوا قَتْلَى وَحَمْزَةً فِيهِمْ
قَتِيلٌ ثَوَى لَدَى اللَّهِ وَهُوَ مَطِيعٌ

فإنَّ جنانَ الخلدِ منزله بها
وأمر الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم
حميمٌ معاً في جوفها وضريع^(٥٤)

٤ - وهبيرة بن أبي وهب المخزومي^(٥٥) ذهب يفتخر بنفسه، وقومه، وبما كان في
يوم أحد بقصيدة مطلعها^(٥٦):

ما بال همٍّ عميدٍ بات يطرقُني
بالودِّ من هُندٍ إذ تعدو عواديها

ومنها قوله:

وقد حملتُ سلاحي فوق مُشترفٍ
ساطٍ سبوحٍ إذا تجري يباريها
سُقُنَا كنانةً من أطراف ذي يمنٍ
عُرِضَ البلاد على ما كان يزجيها
قالت كنانة أنى تذهبون بنا
قلنا: النخيل. فأموها ومَن فيها

فأجابه حسان ناقضاً قصيدته، مسفهاً رأيه، مزيئاً بعمله وعمل قومه في
مقطوعة مطلعها^(٥٧):

سُقُنْتُم كنانة جهلاً من عداوتكم
إلى الرسول فجئد الله مخزيها

وفيهما يذكر تغرير قريش بكنانة حتى تلقى القتل، وتصلى جهنم بعد:
أوردتموها حياض الموت ضاحيةً
فالنار موعدها والقتل لاقِيها

وقرع الكفرة الذين لم يعتبروا بأهل القليب في بدر وبمن أسروا في تلك المعركة:

هلا اعتبرتكم بخيل الله إذ لقيتُ
أهل القليب ومن أردينه فيها
كم من أسير فكأناه بلا ثمنٍ
وجز ناصية كنا مواليتها

د - الهجاء:

١ - في هذا الوقت نضع رأيته التي هجا فيها هند بنت عتبة^(٥٨) زوج أبي سفيان، فقد قال له عمر بن الخطاب في معرض حديثه عن المعركة: «يا ابن الفريعة لو سمعت ما تقول هند، ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة!»، فقال حسّان أسمعني بعض قولها أكفكموها، فأنشده عمر بعض ما قالت^(٥٩)، ويروى أنه أنشده قولها^(٦٠):

نحن جزي ناكم بيوم بدرٍ
والحرب بعد الحرب ذات سُعرٍ
ما كان من عتبة لي من صبرٍ
ولا أخي وعمّه وبكـري^(٦١)
شفيت نفسي وقضيتُ نذري
شفيتُ وحشي غليل صدري
فشكـر وحشي على عمري
حتى تُرم أعظمي في قبـري

فقال قصيدة يهجوها وينقض قولها، ومطلعها^(٦٢):

أشـرت لكـاع وكان عادتـها
لوُم إذا أشـرت مع الكـفر^(٦٣)

ومنها قوله:

أخرجت مرقصة إلى أحدٍ
في القوم مـعنقة على بكـر^(٦٤)

ويذكرها بمن قتل لها في بدر، ويقرّعها برجوعها صاغرةً بلا إدراك ثأر، ولا نيل شيء:
أَقْبَلْتُ زَائِرَةً مَبَادِرَةً
بِأَبِيكَ وَابْنِكَ يَوْمَ ذِي بَدْرٍ
وَبِعَمِّكَ الْمَسْلُوبِ بَرْزَتَهُ
وَأَخِيكَ مَنْعُفَرِينَ فِي الْجَفَرِ
فَرَجَعْتَ صَاغِرَةً بِلَا تَرَةِ
مِمَّا ظَلَفَرْتَ بِهِ وَلَا وَثَرٍ^(٦٥)

٢ - وعتبة بن أبي وقاص^(٦٦) الذي رمى السيد الأمين ﷺ فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى، بينما شجّه ابن شهاب الزهري^(٦٧) في جبهته، وجرح ابن قمئة^(٦٨) وجنّته فجعل الدم يسيل على وجهه الشريف وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فنزل قوله عز وجل: «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون»^(٦٩)... عتبة هذا قمين بأن يلذعه حسان بقوارض الكلام، وإن كان قد لقي جزاء ما اقترفت يداه عاجلاً، فقد «جاء حاطب ابن أبي بلتعة»^(٧٠) فقال، يا رسول الله من فعل هذا بك؟ فأشار إلى عتبة، فتبعه حاطب، فقتله، وجاء بفرسه إلى رسول الله ﷺ^(٧١).

وقد قال حسان يهجو عتبة بن أبي وقاص مقطوعة، مطلعها: ^(٧٢)
إِذَا اللَّهُ حَيًّا مَعَشَرًا بِفَعَالِهِمْ
وَنَصْرُهُمُ الرَّحْمَنُ رَبُّ الْمَشَارِقِ
فَأَخْزَاكَ رَبِّي يَا عُتَيْبَ بْنَ مَالِكٍ
وَلَقَّاكَ قَبْلَ الْمَوْتِ إِحْدَى الصَّوَاعِقِ^(٧٣)

ومنها قوله:

بَسَطْتَ يَمِينًا لِلنَّبِيِّ بِرُمِيهِ
فَأَدْمَيْتَ فَاهَ قَطَّعْتَ بِالْبَوَارِقِ^(٧٤)
فَهَلَّا خَشِيتَ اللَّهَ وَالْمَنْزَلَ الَّذِي
تَصِيرُ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْدَى الصَّفَائِقِ^(٧٥)

ويختم المقطوعة بما يصدق كلام أخيه سعد فيه، ووصفه أيّاه:

لقد كان خزيًا في الحياة لقومه

وفي البعث بعد الموت إحدى العوالق^(٧٦)

٣ - وأبيّ بن خلف الجمحيّ الذي جاء لرسول الله ﷺ بعظمٍ بالٍ وقال: تزعم أن ربك يحيي الموتى فمن يحيي هذا؟ وفته، والذي أدرك رسول الله ﷺ في الشعب في موقعة أحد وأراد أن يقتله، فطعنه رسول الله ﷺ بحربة في عنقه، فخدشه، ثم لقي بعد ذلك بقليل حتفه^(٧٧)، توجه نحوه حسان يفضح غروره وضلاله ويذكر مصيره في جهنم في مقطوعة رائية مطلعها^(٧٨):

ألا من مُبلغ عني أبيّاً

لقد ألقيت في سَحْق السعير

ومنها قوله ذاكراً طعنة رسول الله ﷺ إياه وشيئاً من مزايا هذا الرسول العظيم:

فقد لأقنك طعنة ذي حِفاظ

كريم البيت ليس بذئ فجور

له فضل على الأحياء طراً

إذا نأبت ملّمات الأمور

٤ - ويظهر أنه في هذه الأيام^(٧٩) هجا مسافع بن عياض التيمي^(٨٠) بقصيدة له، مطلعها^(٨١):

لو كنت من هاشمٍ أو من بني أسدٍ

أو عبدٍ شمسٍ أو أصحاب اللوا الصيّد^(٨٢)

أو بني نوفل رَهْط مطّلبٍ

لله درك لم تَهْمُم بتهديدي^(٨٣)

ويتم قوله ذاكراً بطون قريش، قاصداً أن يجعله دون الجميع، ثم يتوجه إلى

عشيرته قائلاً:

يا آلَ تَيْمٍ ألا يُنْهَى سَفِيْهِكُمْ

قبل القَذاف بقول كالجلاميد

ويعلم أنه لولا رسول الله ﷺ، ولولا أبو بكر الصديق صاحبه في الغار، ولولا
الفياض طلحة بن عبيدالله^(٨٤) لقدفهم بقصيدة فاضحة.. ولكنه سيستخدم القول
الرصين، ويصرف الهجاء إلى من يستحقه: إلى الزبعرى وإلى الأخابث من أولاد عبود:

لكنْ سَأَصْرِفُهَا جَهْدِي وَأَعْدِلُهَا
عَنْكُمْ بِقَوْلِ رَصِينٍ غَيْرِ تَهْدِيدٍ
إِلَى الزَّبْعَرَى^(٨٥) فَإِنَّ اللُّؤْمَ حَالِفُهُ
أَوِ الْأَخَابِيثِ مِنْ أَوْلَادِ عِبُودِ^(٨٦)

هـ - وله قصيدةٌ يمتزج فيها الفخر والتحذير مع الهجاء والنقض، وتوجّه بها إلى
ربيعة بن الحارث^(٨٧)، وإلى نوفل بن الحارث^(٨٨) أخيه، مطلعها^(٨٩):

أَبْلَغُ رَبِيعَةَ وَابْنَ أُمِّهِ نَوْفَلًا
أَنْتِي مُصِيبُ الْعَظْمِ إِنْ لَمْ أَصْنَفِ

وفيها شبه الأسد الجائع الغضبان به، وألحق بمهجوّه الخيانة والوشاية والخنا،
وأخذ عليه أن يهجو حمزة البطل الذي توفّي صابراً:
أَهَجَوْتُ حَمْزَةَ أَنْ تُوفِّي صَابِرًا
وَنَفَاكَ أَهْلُكَ كَالرِّئَالِ الرِّزْحِ^(٩٠)

الهوامش

- ١ - أو: لستين وتسعة أشهر وسبعة أيام من مهاجرة النبي ﷺ، هذا ما جاء في زاد المعاد (١٠٨/٢) أما ما جاء في سيرة ابن هشام (٦١٥/٣) فقد كان يوم الأحد يوم السبت للنصف من شوال.
- ٢ - ديوانه ص ٤٣٢ وتتألف من اثنين وعشرين بيتاً.
- ٣ - ارجع إلى ٥٣ من هذا المؤلف لتجد الشواهد: (إن خالي خطيب...).
- ٤ - سبق التعريف ص ١٠٠ من هذا المؤلف.
- ٥ - كان لواء المشركين في أحد مع «بني عبدالدار»، فحافظوا عليه حتى قتلوا رجلاً بعد رجل، وأخيراً حمله عبدٌ لهم يُدعى «صواب»، فقتل وهو في يده، وظل اللواء مطروحاً على الأرض لا يقربه أحد حتى تناولته امرأة منهم تدعى «عمرة بنت علقمة» من بني الحارث ابن عبد مناة بن كنانة خرجت مع زوجها من عبدالدار، ورفعته فاجتمعوا إليها، ومن المعروف أن بني عبدالدار هم حملة اللواء في قريش، وقد استثارهم أبو سفيان قبل بدء المعركة، وحرصهم على القتال بقوله: «يا بني عبدالدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر: فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه!» فهموا به وتواعدوه، وقالوا: «نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع؟» وذلك ما أراد أبو سفيان. (السيرة: ٥٨٧/٢).
- ٦ - أراد التنويه ببني عبدالدار الذين قُتلوا والتشهير ببني مخزوم الذين انهزموا. الرعاع: هنا الضعفاء. من القنا: خوفاً من القنا.
- ٧ - مذموم بدم: يسيل دمه دون انقطاع، من قولهم بئر ذميمة أي غزيرة المياه.
- ٨ - لواداً: أي مستترين والحلوم: العقول.
- ٩ - ديوانه ص ٨٢.
- ١٠ - الحارثية: المرأة التي رفعت اللواء بعد أن بقي مطروحاً لا يقربه أحد خوف القتل، الجلائب: ج جليب وهو ما يجلب من بلد إلى آخر لبيعه من عبيد وإماء وخيل وغنم.

١١ - ديوانه ص ٨١ والمقطوعة تتألف من خمسة أبيات.

١٢ - عَضْلُ والديش ابنا الهون بن خزيمة ويقال لهما القارة (قبيلة)، وسيأتي لهم حديث في مرثية خبيب بن عدي الأنصاري. والعضل أيضاً: صغار الأطباء. جداية: طباء. شرك: اسم موضع.

١٣ - ديوانه ص ١١٨ وتتألف المقطوعة من أربعة أبيات، وهذان هما الأول والثاني منها، الأم: الأم. يطأ: يطأ وقد سهل الهمز في الكلمتين. العفر: التراب. صواب: غلام حبشي لبنى أبي طلحة.

١٤ - حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم أبو عمارة (٥٤ ق هـ - ٣ هـ / ٥٧٠ - ٦٢٥ م) أخو النبي ﷺ من الرضاعة هو وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي أرضعتهم مولاة لأبي لهب تدعى ثوبية. وهو عم النبي ﷺ، وأحد صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، ولد ونشأ بمكة، وكان أعز قريش وأشدها شكيمة، ولما ظهر الإسلام تردد في اعتناقه، ولما علم أن أبا جهل تعرض للنبي ﷺ ونال منه قصده الحمزة وضربه بقوسه فشجه، وأظهر إسلامه فعز به الدين. هاجر مع النبي ﷺ إلى المدينة، وحضر موقعة بدر فأبلى فيها أحسن البلاء، وكذلك في أحد، ولكن العبد الأسود وحشياً قتله بحربة في أحد، وكان سيده جبير بن مطعم قال له: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق.. وشجعتك كذلك هند، فكانت كلما مرّت به أو مرّ بها تقول: «ويها أبا دسمة (كنيته) اشف واستشف»، وقد دفن في المدينة، وانقرض عقبه.

١٥ - صفية بنت عبدالمطلب بن هاشم: عمّة النبي ﷺ وهي شاعرة وباسلة أسلمت قبل الهجرة، وهاجرت إلى المدينة، ولما رأت المسلمين يتراجعون يوم أحد تقدمت وبيدها رمح تضرب في وجوه الناس، وتقول: أنهزمتكم عن رسول الله! وقد أشار النبي ﷺ إلى ابنها الزبير بن العوام أن يبعدها كيلا ترى أخاها حمزة، وكان قد بقر بطنه، فكره رسول الله ﷺ أن تراه، فناداه الزبير أن تتحنّ، فزجرته، وأقبلت حتى رأت أخاها. لها مرثاة رقيقة، وفي شعرها جودة. توفيت في المدينة المنورة سنة ٢٠هـ / ٦٤١ م.

١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ - سيرة ابن هشام: ٦١١/٣.

٢٠ - القرآن الكريم - سورة النحل: ١٢٦/١٦ - ١٢٧.

٢١ - ديوانه ص ٣٨٥، وتتألف من تسعة عشر بيتاً.

- ٢٢ - عفا رَسْمُها: محا أثرها. المسبل: المطر السائل. الهاطل الكثير السيلان.
- ٢٣ - ذا تدرأ: ذا قوة تَدْرَأُ الأعداء.
- ٢٤ - من المعروف أن هند هذه قُتِلَ في بدر أبوها وأخوها وعمَّها وابنها. العبرة: الدمعة. الثاكل: الفاقد.
- ٢٥ - الرهج: الغبار. الجائل: المتحرك ذهاباً وإياباً.
- ٢٦ - خرّ: سقط، في مشيخة: يريد من قتل ببدر من علية قريش. العاتي: الشديد المتمرد.
- ٢٧ - الأسرة: عشيرة الرجل ورهطة الأذنون لأنه يقوى بهم. الحلق: الدروع والمراد هنا السلاح عامة. الفاضل: الذي يفضل وينجّر على الأرض.
- ٢٨ - أمامة بنت حمزة بن عبدالمطلب، وأمها سلمى بنت عميس، وقد قضى رسول الله ﷺ أن تكون عند جعفر بن أبي طالب لأن خالتها أسماء بنت عميس عنده، ثم زوجها رسول الله ﷺ من سلمة بن أم سلمة، وقال حين زوجها منه: هل جزيت سلمة؟ لأن سلمة هو الذي زوج أمّه أم سلمة من رسول الله ﷺ.
- ٢٩ - ديوانه ص ٢٤٢ وتتألف من عشرة أبيات.
- ٣٠ - القَرَم: السيّد المعظم وهو في الأصل البعير المكرم الذي لا يُحْمَل عليه ولا يذلل ولكن يكون للنّسل. ورجل هجان: كريم الحسب نقيّه. السמידع: قيل الشّجاع وقيل الكريم السيّد الموطأ الأكناف الجميل الجسم. البأس: الشدة في الحرب. مغوار: مقاتل كثير الغارات على أعدائه. مغوار الصباح: مغوار في الصّباح.
- ٣١ - المِدْرَةُ: هنا المدافع الذائد عن القوم، تقول: دَرَهْتُ عَنْ القوم أي دفعت عنهم، مثل: درأت والهاء مبدل من الهمز نحو: هراق الماء وأراقه.
- ٣٢ - الشَّلَو: العضو من أعضاء الجسم ج أشلاء. أضْبُع: ج ضبع: نوع معروف من السباع. يَنْتَبِئُنِي: تتناوبني، أي تتناوبني هذه الضباع والنسور في الأكل مرة بعد أخرى. هذه القصيدة التي أوردها صاحب الديوان لحسان تتألف - كما سلف - من تسعة أبيات، وأبياتها الستة الأخيرة تتشابه مع قصيدة أخرى أوردها صاحب السيرة (٦٦٥/٣) لصفية بنت عبدالمطلب تبكي أخاها حمزة.
- ٣٣ - سيرة ابن هشام: ٦٥٥/٣ وتتألف القصيدة من ثلاثة وأربعين بيتاً ولم يوردها الديوان.

٣٤ - بعد أن ذكر ابن اسحق في السيرة (٦٥٥/٣) أن حسان قال هذه القصيدة يبكي حمزة ومن أصيب من الأصحاب يوم أحد عقّب ابن هشام مذهب السيرة عليها بقوله: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان. (السيرة: ٦٥٧ / ٣).

٣٥ - ديوان حسان ص ١٢٠ وتتألف من عشرة أبيات.

٣٦ - كميّ: فرس لونه بين السواد والحمرة. الطّمّر: الفرس الجواد وقيل المستفز للعدوّ والوثب.. أبو بكر بن شعوب: هو شدّاد بن الأسود الليثي، وقد قال يذكر يده عند أبي سفيان ودفاعه عنه:

ولولا دفاعي يابن حرب ومشهدي
لألُفيت يوم النُعْف غير مجيب
ولولا مكرّي المهر بالنعف قرقرتُ
ضباع عليه أو ضراء كليب

وهو شاعر وفارس وقد رثى قتلى بدر من المشركين. (السيرة: ٥٤٩/٢ و ٥٩٧/٣).

٣٧ - حنظلة بن أبي عامر الغسيل الأوسيّ الأنصاري (٠٠٠ - ٣ هـ / ٠٠٠ - ٦٢٥ م) من سادات المسلمين وفضلائهم: وهو المعروف بـ«غسيل الملائكة»، فقد خرج إلى أحد لما سمع الهائعة وهو جنبٌ، فقال رسول الله ﷺ بعد قتله: إنَّ صاحبكم لتغسله الملائكة، ولما سألوا أهله أخبرتهم أنه خرج وهو جنبٌ حين سمع الهائعة، فقال ﷺ: لذلك غسلته الملائكة. وزوجه هي: جميلة بنت أبي بن سلول (أخت عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين)، ولما قتل عنها يوم أُحد تزوجها ثابت بن قيس. وقد التقى يوم أُحد حنظلة وأبو سفيان، فاستعلى عليه حنظلة وكاد يقتله، فأتاه ابن شعوب الليثي فقتله وخلّص أبا سفيان. كان أبوه «أبو عامر» يعرف في الجاهلية «بالراهب»، وقد حسد هو وعبد الله بن أبي بن سلول رسول الله ﷺ على ما من به الله عليه، فأما ابن أبي فاضمر النفاق، وأما أبو عامر فخرج إلى مكة، وقدم مع قريش يوم أُحد محارباً، وحاول أن يخذل بعض المسلمين عن رسول الله ﷺ فنبدوه وحقروه وسماه الرسول ﷺ «الفاسق». ثم عاد إلى مكة وأقام فيها، ولما فتحت مكة هرب إلى هرقل وبلاد الروم، ومات هناك كافراً سنة تسع أو عشر للهجرة.

٣٨ - ديوانه ص ١٢٢، وتتألف من أربعة أبيات.

- ٣٩ - القروم: الفحول الكريمة من الإبل وتستعار لكرام الناس مفردها قروم. الصَّيد: ج الأصيد وهو الذي يرفع رأسه زهوًا وكبرًا.
- ٤٠ - عبدالله بن الزبير السهمي: سبق التعريف به ص ١٠٠ من هذا المؤلف.
- ٤١ - ديوان حسان ص ٣٥٧، والقصيدة تتألف من أحد عشر بيتًا.
- ٤٢ - ديوانه ص ٣٥٨، والقصيدة تتألف من سبعة عشر بيتًا.
- ٤٣ - أجناناكم: جننا بكم أو أَلْجَأْنَاكُمْ، والحديث عن موقعة بدر.
- ٤٤ - الرَّسَلُ: الإبل المرسله التي يكون بعضها في أثر بعض.
- ٤٥ - الخطي: الرَّمح المنسوب إلى بلدة الخط في البحرين. عللاً بعد نهل: مرّة بعد أخرى أي تباغًا.
- ٤٦ - سدحنا: صرعنا. غير المنتحل: يقول لا ننتحل ولا نقول الباطل وإنما نقول الحق.
- ٤٧ - برجال: البيت تابع لما قبله: ملأنا الأكام والجبال والأرض برجال.. أيدوا جبريل: أي أيدهم الله سبحانه بجبريل.
- ٤٨ - طاعة الله: تقديره: أعنى بالتقى طاعة الله وتصديق الرسل.
- ٤٩ - سيرة ابن هشام: ٦٤٩/٢، وتتألف من سبعة عشر بيتًا.
- ٥٠ - ديوانه ص ٣١٤، وتتألف من ثمانية عشر بيتًا.
- ٥١ - ذكر مصابرة الأوس لينقض ما ذهب إليه ابن الزبير إذ جعلهم قتلى للضباع والطيور.
- ٥٢ - وذكر حمامة بني النجار لينقض ما ذهب إليه ابن الزبير إذ جعلهم هارين في التلاع.
- ٥٣ - سخين: أصله يا سخينة. والسخينة طعام يتخذ من دقيق وتمر أو ماء، ويطبخ ثم يؤكل، وهو أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة، وقد كانت قريش تكثر من أكلها، فعُيرت بها، حتى سموا «سخينة».
- ٥٤ - الحميم: الماء الحار. الضريع: نبت له شوك كبار وهو الشبرق أو غير ذلك وهو طعام أهل

النار (انظر المحيط: مادة ضرع) قال تعالى: «ليس لهم طعامٌ إلا من ضريح، لا يُسَمِّن ولا يغني من جوع» (سورة الغاشية: ٦/٨٨).

٥٥ - هُبَيْرَةُ بن أبي وهب المخزومي: شاعر وفارس من بني مخزوم من قريش، كان شديد العداوة للإسلام والمسلمين، وله شعر جيد في كثير من المواقف. وقد انهزم يوم بدر، فمَرَّ به معاوية بن زهير بن قيس حليف بني مخزوم، وهم منهزمون، وقد أعيا هبيرة، فألقى عنه درعه، وحمله ومضى به. وكان هبيرة ممن عبروا الخندق بخيولهم أيام غزوة الأحزاب، ومعه عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب بن مرداس الشاعر.. وقد فرَّ هبيرة في ذلك اليوم يوم الخندق بعد أن قتل عليّ كرم الله وجهه عمرو بن عبد ود، كما هرب عكرمة بن أبي جهل، وألقى رمحه، فعيَّره حسان بفراره. وقد قال هبيرة قصيدة يعتذر فيها من فراره، ويبيكي عمرًا، ويذكر قتل عليّ إياه، ومطلعها:

لعمري ما ولَّيتُ ظهري محمدًا
وأصحابه جُبْنًا ولا خيفة القتلِ
ولكنني قلَّبتُ أمري فلم أجد
لسيفي غناءً إن ضربتُ ولا نبلي
وله كذلك مقطوعة يبيكي فيها عمرو بن عبد ود، ويذكر قتل عليّ إياه، ومطلعها:
لقد علمتُ عليًّا لوِّي بن غالبٍ
لفارسها عمرو إذا نابَ نائبُ

وقد هرب إلى نجران لما فتحت مكة، وأقام بها حتى مات. وزوجه هي أم هانئ بنت أبي طالب، واسمها هند، وقد أسلمت عند الفتح، وأجارت اثنين من أحمائها من بني مخزوم، ومنعت عليّ بن أبي طالب من قتلها، وأخذت لهما الأمان من رسول الله ﷺ، وقد قال هبيرة حين بلغه إسلامها:

أشأقتك هند أم أتاكَ سؤالها
كذاك النوى أسبابُها وانفتالها
وقد أرقتُ في رأس حصنٍ ممنعٍ
بنجران يسري بعد ليل خيالها

(عن السيرة: ٧٤١ و٨٧٦ و٥٥٢، وص ٢٤١ من هذا المؤلف).

٥٦ - سيرة ابن هشام: ٦٤١/٣، وتتألف من ثلاثة وعشرين بيتًا.

- ٥٧ - ديوانه ص ٤٨٥، وتتألف من خمسة أبيات.
- ٥٨ - سبق التعريف بها ص ١٩٩ من هذا المؤلف.
- ٥٩ - ديوانه ص ٢٨٥ (هامش). والأغاني: ١٩٨/١٥.
- ٦٠ - ديوانه ص ٢٨٥ (هامش).
- ٦١ - قُتل في بدر أبوها عتبة بن ربيعة، وعمّها شيبة بن ربيعة، وأخوها الوليد بن عتبة، وأبْنُها حنظلة بن أبي سفيان بن حرب.
- ٦٢ - ديوانه ص ٢٨٥، وتتألف من اثني عشر بيتاً.
- ٦٣ - الأشر: البطر، وقيل أشد البطر. اللكاع: اللكية: أي اللئيمة الدنيئة.
- ٦٤ - مرقصة: أي مرقصة بكرها، ورقص البعير: أسرع في سيره. مُعَنَّة: مسرعة كذلك.
- ٦٥ - صاغرة: ذليلة. بلا ترة ولا وتر: لم تنالي منا ولم تنأري لنفسك. وفي القصيدة أبيات أعرضنا عن الاستشهاد بها لما فيها من إقذاع.
- ٦٦ - عتبة بن أبي وقاص (مالك بن وهيب) من بني زهرة وهو أخو سعد بن أبي وقاص، وقد قال سعد فيه: والله ما حرصت على قتل رجل قط كحرصني على قتل عتبة بن أبي وقاص، وإن كان ما علمت لسيء الخلق مبعوضاً في قومه، ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ: اشتد غضب الله على من دُمى وجه رسوله، قتل في أحد سنة ٣ هـ / ٦٢٥ م. وذكر صاحب أسد الغابة بسنده (٢٧٨/٢) أنه ما بلغ أحد الحلم من ولد عتبة بن أبي وقاص إلا بَخِرَ أو هُتِمَ لكسره وباعية رسول الله ﷺ (بخرفمه: أنتن ريجه. هتم: انكسرت ثيابه).
- ٦٧ - عبدالله بن شهاب الزهري: هما أخوان: عبدالله الأكبر وعبدالله الأصغر ابنا شهاب بن عبدالله. الأكبر كان اسمه عبد الجان، فسماه رسول الله ﷺ عبدالله وهو من المهاجرين إلى الحبشة، ومات بمكة قبل الهجرة إلى المدينة، وأخوه عبدالله بن شهاب الأصغر شهد أحداً مع المشركين، ثم أسلم بعد ومات بمكة. وقد انقرض ولد شهاب بن عبدالله.
- ٦٨ - عبدالله بن قمئة وهو الذي تقدم نحو رسول الله ﷺ يوم أحد قائلاً: دلّوني على محمد

فلا نجوت إن نجا فاعترضته أم عمارة(*) ومصعب بن عمير(**) وأناس ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ، فضرب أم عمارة على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف له غور إلى زمن طويل، وقد ضربته عدة ضربات فلم تؤثر فيه لأنه كان عليه درعان، ثم قتل مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، ورجع إلى قريش يقول: قتلت محمداً ثم انكشف بعدها الصواب.

٦٩ - القرآن الكريم - سورة آل عمران: ١٢٨/٣.

٧٠ - حاطب بن أبي بلتعة (عمرو بن عمير) اللخمي (٣٥ ق.هـ - ٣٠ هـ / ٥٨٦ - ٦٥٠م) كان حليفاً لبني أسد بن عبد العزى ثم للزبير بن العوام بن خويلد بن أسد. صحابي، شهد الوقائع كلها مع رسول الله ﷺ وكان من أشد الرماة في الصحابة وكانت له تجارة واسعة وهو الذي أرسل كتاباً إلى قريش مع ظعينة يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على فتح مكة فأعلم الله رسوله بذلك فأرسل علياً والزبير فلحقا بها، وأخذوا الكتاب منها وقد اعتذر إلى رسول الله ﷺ فعفا عنه، وقال لعمر الذي أراد قتله: «إنه قد شهد بدرًا، فما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم!». وبعثه النبي ﷺ بكتاب إلى المقوقس صاحب الاسكندرية. مات في المدينة، وكان في الجاهلية أحد فرسان قريش وشعرائها.

٧١ - ديوانه ص ٢٤٧/ هامش رقم ٣.

٧٢ - ديوانه ص ٣٤٧، وتتألف من خمسة أبيات.

٧٣ - عُتَيْب: تصغير عتبة تحقيراً. ابن مالك: اسم أبي وقاص: مالك بن وهيب بن عبد مناف ابن زهرة.

٧٤ - البوارق: السيوف. قطعت، أي قطعت يداها، يدعو عليه بقطع اليدين.

٧٥ - الصفائق: صوارف الخطوب وحوادثها مفردة صفيقة.

(*) أم عمارة الأنصارية: نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف من بني النجار شهدت بيعة العقبة وأحداً وخيبر وبيعة الرضوان وحنيناً ويوم اليمامة وفيه قاتلت وجرحت اثني عشر جرحاً.. اشتهرت بالشجاعة وتعد من أبطال المعارك وسمعت من رسول الله ﷺ أحاديث. كانت تخرج إلى القتال فتسقي الجرحى وتقاتل وأبلى يوم أحد بلاءً حسناً قال ﷺ «ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا رأيته تقاتل دوني، توفيت نحو ١٣هـ/ ٦٣٤م».

(**) سبق التعريف به ص ١٢٨ من هذا المؤلف.

٧٦ - العوالق: ما علق من الشر.. انظر ما قاله فيه أخوه سعد بن أبي وقاص في ترجمته هامش رقم (٦٦)، ص ٢٦٩.

٧٧ - أرجع إلى ص ٢٤٦ و ٢٦١ من هذا المؤلف لتجد حديثاً مفصلاً عن حادثة العظم البالي وعن قتل رسول الله إياه، وترجمة له.

٧٨ - سيرة ابن هشام: ٦٠٢/٢، وتتألف من خمسة أبيات ولم ترد في شرح ديوانه.

٧٩ - ورد في معجم الأعلام ٢١٢/٧ ما يشير إلى أنه هجا حسان في الجاهلية وأن حسان رد عليه فكأن في ذلك إيحاءً بأن الأبيات قيلت قبل الإسلام، وذلك غير صحيح ففي الأبيات ما يُشعر أنها قيلت بعد هجرة النبي ﷺ، وفيها إشارة لصاحبه في الغار..

٨٠ - مسافع بن عياض بن صخر من بني تيم بن مرة رهط أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو ابن خال أبي بكر كان شاعراً واشتهر قبل الإسلام بشعره، وتعرض لحسان بن ثابت فردّ عليه، ولا يعرف متى أسلم ولا متى توفّي وله صحبة. (انظر: أسد الغابة: ٥/ ١٥٢) والاعلام للزركلي: ٢١٣/٧.

٨١ - انظر ديوانه ص ١٨٩، وتتألف من أحد عشر بيتاً وأورد صاحب أسد الغابة منها ثمانية أبيات فقط، وجعل مطلعها مختلفاً عما ورد في الديوان وهو:

**يا آل تيم ألا تنهون جاهلكم
قبل القذاف بصم كالجلاميد**

٨٢ - هاشم: هو هاشم بن عبد مناف بن قصي.. بنو أسد: هم بنو أسد بن عبد العزى بن قصي. وعبد شمس: عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. أصحاب اللوا: هم بنو عبد الدار بن قصي وقد خفف الهمزة (اللواء).

٨٣ - بنو نوفل: هم بنو نوفل بن عبد مناف بن قصي. مطلب: هو مطلب بن عبد مناف بن قصي. قوله: لله درك: تهكم به.

٨٤ - طلحة بن عبيدالله بن عثمان التيمي القرشي أبو محمد (٢٨ ق هـ - ٣٦ هـ/ ٥٩٦ - ٦٥٦ م) صحابي شجاع من الأجواد حتى كان يلقب طلحة الجود، وطلحة الخير وطلحة الفياض، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام. كان من دهاة قريش وعلمائهم. كان يُقال له ولأبي بكر «القرينان» لأن نوفل بن الحارث - وكان من أشد قريش - رآه هو وأبو بكر خارجين من

عند رسول الله فأمسكهما وشدهما في حبل. شهد أحداً وثبت مع رسول الله ﷺ فأصيب بأربعة وعشرين جرحاً وشهد الخندق وسائر المشاهد وكانت له تجارة وافرة مع العراق. قتل يوم الجمل، وكان مع عائشة ودفن في البصرة.

٨٥ - هو عبدالله بن الزبيرى وقد سبق التعريف به ص ١٠٠ من هذا المؤلف.

٨٦ - عبود يراد به عابد بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم وقد سبق الحديث عن هجائه إياهم ص ١٨٧ وبعدها من هذا المؤلف، وعبود كان عبداً أسود حطاباً فغبر في محتطبه أسبوعاً لم ينم، ثم انصرف وبقي أسبوعاً نائماً وبه ضرب المثل فقليل: نام نومة عبود. الأخابيث: هي الأخابيث زيدت فيها الياء، والأخابيث ج الأخبث، والخبيث: الخب الرديء. هذا ونحن - في الحق - لا نستطيع أن نجزم جزماً قاطعاً بهذا الموقع الزماني الذي حددناه لهذه القصيدة ففي القلب منه بعض ريب، ولكننا نرجحه ترجيحاً قريباً من اليقين لأمرين اثنين: الأول: أن حسان ذكر أنه كرم رسول الله ﷺ وأبا بكر وطلحة فلم يقس في كلامه، وهذا يعني أن القصيدة قيلت بعد الهجرة لأن أبا بكر كان صاحب الرسول ﷺ في الغار وهذا ينفي ما ألمح إليه صاحب الأعلام من جعلها جاهلية. الثاني: أن القصيدة في أنفاسها أقرب إلى التهاجي الذي كان بعد موقعة أُحُد، ولعل كلمة أصحاب اللوا مما يحمل بعض الترجيح وإن كان معروفاً من قبل أن اللواء لبني عبدالدار لكنه اشتهر بعد ثباتهم في أحد.

٨٧ - ربيعة: هو ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم توفي سنة ٢٣هـ/٦٥٥م في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٨٨ - نوفل: هو نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم أخو ربيعة، أسر يوم بدر، وفداه العباس، ثم أسلم، وشهد مع الرسول ﷺ فتح مكة وحنيناً والطائف، وتوفي سنة ١٥هـ/٦٣٧م في خلافة عمر بن الخطاب.

٨٩ - ديوانه ص ١٢٨، وتتألف من تسعة أبيات.

٩٠ - الرئال: ج رأل وهو ولد النعام.

أشعار السنة الرابعة: يوم الرجيع

ذكرنا قبل قليل أن موقعة أُحُد كانت يوم السَّبْت في سابع شوال سنة ثلاث للهجرة^(١) وفي يوم الأحد أذن مؤذن رسول الله ﷺ بطلب العدو لأنه خشي أن تعود قريش للقتال، ونادى مناديه ألا يخرج إلا من حضر موقعة الأمس، ثم خرج بأصحابه حتى بلغ «حمراء الأسد»^(٢)، فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة.

أما قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب فقد أجمعوا على العودة للقتال لاستئصال المسلمين في زعمهم، بعد أن خيل إليهم أنهم قتلوا خيرتهم في أُحُد، وعندما بلغوا «الروحاء»^(٣) التقاهم «معبد بن أبي معبد الخزاعي»^(٤)، فخوفهم من ملاقات المسلمين، وذكر لهم أنهم قد استعدوا للقتال وتحرقوا له، وقد انضم إليهم من تخلف عنهم في أُحُد، ثم أنشدهم ما قاله فيهم من الشعر، فخافوا ورجعوا إلى مكة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأقام فيها بقية شهر شوال من السنة الهجرية الثالثة وذا القعدة وذا الحجة.

ولما أهل هلال المحرم من السنة الهجرية الرابعة بلغه ﷺ أن طلحة (أو طليحة) وسَلَمَة ابني خويلد^(٥) أخذوا يدعوان بني أسد بن خزيمة^(٦) إلى حرب رسول الله ﷺ، فبعث إليهما أبا سلمة^(٧) في مئة وخمسين من المهاجرين والأنصار، فأصابوا إبلاً وشاء، ولم يلقوا كيداً، وعادوا إلى المدينة وفي خامس المحرم من هذه السنة بلغه ﷺ أن «خالد ابن سفيان الهذلي»^(٨) قد جمع له الجموع، فبعث إليه عبدالله بن أنيس^(٩)، فقتله^(١٠).

ولما كان صفر من هذه السنة^(*) كان «يوم الرجيع»^(١١)، فقد جاء قوم من عَضَل والقارّة^(١٢) إلى رسول الله ﷺ فقالوا له: «يا رسول الله، إن فينا إسلاماً وخيراً، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئونا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام،

(*) على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرًا ستة^(١٣) من أصحابه، وهم: مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الغنوي^(١٤)، وخالد بن البُكَيْرِ الليثي^(١٥) وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح^(١٦)، وخُبَيْبُ بْنُ عَدِيِّ الْأَوْسِيِّ الْأَنْصَارِيِّ^(١٧)، وزيد بن الدُّثْنَةِ الخزرجي^(١٨)، وعبدالله بن طارق^(١٩)، وأمّر عليهم مَرْثَدًا، فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرَّجِيعِ، وهو ماء لهذيل كما سلف، غدروا بهم، واستصرخوا هذيلًا عليهم^(٢٠)، فأما الثلاثة الأوائل فقاتلوا حتى قتلوا، وأما عبدالله بن طارق فاستسلم أولاً، ثم ثارت حميته، فانزع القران من يديه، وقتلهم، فقتلوه بالحجارة، وأما خبيب وزيد فباعوهما لقريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة، فابتاع أحدهم خُبَيْبًا لعقبة بن الحارث بن عامر^(٢١) ليقتله بأبيه الذي قتل في بدر^(٢٢)، ثم خرجوا بخبيب إلى التنعيم^(٢٣) ليصلبوه، فطلب منهم أن يدعوه ليصلي ركعتين، فوافقوا، وبعدما انتهى من صلاته أوثقوه ثم رفعوه على خشبة، فقال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يُصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بدءًا، ولا تغادر منهم أحدًا ثم قتلوه وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية^(٢٤) ليقتله بأبيه أمية^(٢٥) بن خلف الذي قتل في بدر، فبعث به صفوان مع مولى له يدعى «نسطاس» إلى التنعيم، فقتله هناك خارج الحرم بعد أن اجتمع عليه رهط من قريش^(٢٦).

وأما عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الذي أبى أن يقبل عهدًا من مشرك وقاتل حتى استشهد فقد أرادت هذيل قطع رأسه وأخذه إلى مكة، ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شُهَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ^(٢٧)، وكانت قد نذرت حين أصاب عاصم ابنها يوم أُحُدٍ لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه، فمنعته الدَّبرُ^(٢٨)، وحالت دون قطع رأسه، فقالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه الدَّبرُ فتأخذه، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصمًا وذهب به فلم ينالوه، فمنعه الله سبحانه بعد وفاته من مسّ المشركين كما امتنع منه في حياته، وكان قد نذر ألا يمسه مشرك وألا يمسه مشركًا في حياته^(٢٩).

ويظهر أن هذه الحادثة حادثة الرجيع قد أثرت كثيرًا في حسان وجرحته جروحًا عميقة لما بدا فيها من بطولة واستبسال من جهة، ولما فيها من غدرٍ ونذالة وخسة من جهة أخرى، فرثى الشهداء أربع مرات وهجا هذيلًا مرّ الهجاء:

أ - الرثاء:

مما رثاهم به مقطوعته البائية، ومطلعها^(٣٠):

صلى الإله على الذين تتابعوا

يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا

وفيها تظهر روح المؤمن الصابر المحتسب، ولكنها تبدو باردة العاطفة، إذ أنه راح يعدد أسماء الشهداء وأعمالهم، وكأنه يؤرخ الحادثة على مبعده من جوها المشحون بمختلف الأحاسيس من دون أن نجد التفجع أو البكاء أو حرارة الأسى.. بيد أن الحرارة واللهفة المتفجعة والدموع المنسكبة والتهديد بأخذ الثأر ظهرت في رثائه خبيب ابن عدي الذي صلبته قریش ظلماً وعدواناً، وجرمته مالم يجترمه، ويظهر أنه كان لحادثة الصلب هذه وقع كبير جداً عليه، فرثاه بثلاث: بمقطوعتين وقصيدة: الأولى: بائية، مطلعها^(٣١):

يا عين جودي بدمع منك منسكب

وابكي خبيباً مع الغادين لم يؤب

وفيها ذكر توسّط منصب خبيب في الأنصار، وأنه من خيارهم وأكرمهم نسباً وحسباً، وأبدى تأثيره الشديد لعملية الصلب:

قد هاج عيني على علّات عبّرتها

إذ قيل نصّ على جذع من الخشب^(٣٢)

وتوعّد قاتلي خبيب بحرب ضروسٍ مخلوبها الصاب واللقم:

فيها أسود بني النجار يقدمهم

شهب الأسنة في مَعْصُوبٍ لَجِبٍ^(٣٣)

الثانية: سينية، مطلعها^(٣٤):

لو كان في الدار قوم ذو محافظة

حامي الحقيقة ماضٍ خاله أنس^(٣٥)

ثم يتوجه إلى خبيب، فيدعوه إلى الصبر، ويبين له شرف الشهادة في سبيل الله:
صَبْرًا خَبِيبَ فَإِنْ الْقَتْلَ مَكْرَمَةً
إِلَى جَنَانٍ نَعِيمٍ يَرْجِعُ النَّفْسُ

الثالثة: قصيدة قافية، مطلعها^(٣٦):

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَرْقَا مَدَامَعَهَا
سَحًا عَلَى الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ الْفَلَقِ^(٣٧)

وبعد أن ذكر أن بكاءه كان على خبيب الذي قتل في سبيل الله، وأنه لم يكن
ضعيفاً ولا طائشاً ولا جباناً توجه إلى الشهيد يبشّره بالجنة مع الأنبياء والصالحين:
فَأَذْهَبَ خَبِيبٌ جِزَاكَ اللَّهُ طَيِّبَةً
وَجَنَّةَ الْخُلْدِ عِنْدَ الْحُورِ فِي الرُّفُقِ^(٣٨)

ثم توجه نحو القتلة فهددهم بحساب عسير حين يسألون:
فَيْمَ قَتَلْتُمْ شَهِيدَ اللَّهِ فِي رَجُلٍ
طَاغَ قَدْ أَوْعَثَ فِي الْبِلْدَانِ وَالطُّرُقِ^(٣٩)

ثم التفت إلى الرجل الذي اشترى خُبیباً ليقتل بدم الحارث بن عامر فذكّره
بلصوصيته وأنه والحارث وآخرين قد سرقوا غزال الكعبة^(٤٠) وعنفه وبكّته، ثم هجاه -
كما سيأتي.

ب - الهجاء:

وأما هجاؤه هذيل الغادرين فقد كان شديد الإيذاء مرّ الوقع حادّ الوخز، وقد
سلط عليهم لساناً بتاراً، وهجاهم في سبعة آثار شعريّة:

١ - فمن هجائه إياهم المقطوعة البائية، ومطلعها^(٤١):

فَلَا وَاللَّهِ مَا تَدْرِي هَذَا
أَمْحَضُ مَاءٍ زَمْزَمٍ أَمْ مَشْوَوبُ

وندد بأعمالهم التي لا تنجيهم لأنهم جُبلوا على اللؤم والغدر:
وما لهم إن اعتمروا وحجُّوا
من الحجَّرين والمسعى نصيب^(٤٢)
ولكنَّ الرجيعَ لهم محلُّ
به اللؤم المبين والعبوب
هم غرُّوا بذمتهم خُبيبًا
فبئس العهد عهدهم الكذوب

٢ - ومنه المقطوعة النونية، وفيها وجَّه غرب لسانه نحو بني لحيان من هذيل،
وهم الذين تولوا كبر اللؤم والغدر، ومطلعها^(٤٣):

إن سرَّكَ الغدر صرْفًا لا مزاج له
فأتِ الرجيعَ وسلَّ عن دارٍ لحيانٍ
ووصفهم بأنَّهم لا خلاقَ لهم ولا ذمة، وليس فيهم ذو شرفٍ أو نبوغٍ أو فصاحة:
قومٌ تواصوا بأكل الجار كلُّهم
فخيرهم رجالاً والتيس مِثْلانٍ
لو ينطق التيس ذو الخصيين وسطهم
لكان ذا شرفٍ فيهم وذا شانٍ

٣ - ومنه المقطوعة اليائية التي وشم فيها هذيلًا باللؤم، وشبههم بالقنافذ التي
تخزى نهاراً لخسَّتْها، وتسري ليلاً، ومطلعها^(٤٤):

لو خُلِقَ اللؤم إنسانًا يكلِّمُهم
لكان خَيْرَ هذيل حين تأتيها

٤ - ومن هجائه هذيلًا مع خَصِّ لحيان قصيدته الهمزية، ومطلعها^(٤٥):

لحَى الله لحياناً فليست دماؤهم
لنا من قتيلى غدرٍ بوفاءٍ^(٤٦)

وبعد أن ذكر أن دماء لحيان كلها لا تقي بدماء القتيلين الكريمين اللذين عُدر بهما
أشار إلى عاصم الذي حَمَتَه الدَّبَرُ وإلى لؤم تلك القبيلة وخسَّتْها وهددها بغارة شعواء:

قَبِيلَةُ بِاللُّؤْمِ وَالْغَدْرِ تَعْتَزِي

فَلَمْ تُمَسِّ يَخْفَى لؤْمُهَا بِخَفَاءٍ^(٤٧)

فَلَوْ قُتِلُوا لَمْ تَوْفِ مِنْهُ دِمَاؤُهُمْ

بَلَى إِنَّ قَتْلَ الْقَاتِلِيهِ شَفَائِي^(٤٨)

فَالِإِلَّا أُمْتُ أَذْعَرُ هَذَا بِغَارَةٍ

كَغَادِي الْجَهَامِ الْمَغْتَدِي بِإِفَاءٍ^(٤٩)

٥ - ومن هجائه هذيلًا، ولحيان منها، قصيدته الميمية التي عيّرهم فيها بالجبن
والضعة، وهددهم بالانتقام، وذكر حماية الدبر رأس عاصم، ومطلعها^(٥٠):

لِعَمْرِي لَقَدْ شَانَتْ هُذَيْلَ بْنَ مَدْرِكٍ

أَحَادِيثُ كَانَتْ فِي خَبِيبٍ وَعَاصِمٍ

٦ - ومن هجائه إياهم تنديده باتنين منهم^(٥١)، كانا جعلًا لخبيب ذمتهما، ولم يفيا،
وباعاه، فقال فيهم مقطوعته الميمية، ومطلعها^(٥٢):

أَبْلَغُ بَنِي عَمْرٍو بَأْنُ أَخَاهُمْ

شَرَاهُ أَمْرٌ قَدْ كَانَ لِلشَّرِّ لَازِمًا^(٥٣)

٧ - ومن هجائه إياهم المقطوعة البائية التي ندّد فيها بعقليتهم الفطيرة التي لم
تحسن إدراك مرامي الدين، فقد ذكر أن هذيلًا حين أرادت الإسلام سألت رسول الله ﷺ
أن يحلّ لهم الزنا، ومطلعها^(٥٤):

سَأَلْتُ هُذَيْلُ رَسُولَ اللَّهِ فَاحْشَةُ

ضَلُّتُ هُذَيْلَ بِمَا سَأَلْتُ وَلَمْ تُصِبِ^(٥٥)

٨ - وقد شنّ قاسي هجائه على من ابتاعوا خبيبًا من هذيل ليقدم طعمةً لثأر لم
يكن له فيه يد إلا أنه كان مسلمًا وكان اسمه يشبه اسم قاتل الحارث وهو خبيب بن

إساف الخزرجي^(٥٦)، ولذا هجا أبا إهاب بن عزيز^(٥٧) حليف بني نوفل بن عبد مناف
الذي يقال إنه (هو أو ابنه) ابتاع خبيباً لقصاص ظالم فقال^(٥٨) :
إن أباك الرذُل كان لصِغْرِهِ
وكان أبوك التيس شاةً عزوزا^(٥٩)
وكان ذليلاً من طريد ملعنٍ
فسمَّوه بعد الذليل عزيزا^(٦٠)
بنو نوفل أهل السماحة والندى
فأوَّك من فقر وكفُّوا العجوزا^(٦١)

وهذا الهجاء بمقطوعاته وقصائده موجع شديد الإيلام حاد الوقع فقد جرد
هذيلاً من أهم المزايا التي يفتخر بها الفتى العربي، جردهم من المروءة والوفاء والرجولة
والأريحية والكرم والشهامة وعابهم بالغدر واللؤم والخسة والدناءة وإخلاف العهود
والمواثيق.. وفضل عليهم التيوس وشبههم بالقنافذ، ويظهر أن هذه الآثار متقاربة في
أزمان ظهورها، وإن صعب تقدير زمن ولادة كل منها تقديرًا دقيقًا، فهي تعيش في جوِّ
الحادثة المفجعة وتنتفس أثيرها، وكذلك أبيات الرثاء بمجملها إذ تتوجه نحو إبراز مزايا
الشهداء وبطولاتهم، ومواقعهم في عشائهم، وما ادَّخر الله سبحانه لهم من جزيل
الثواب، وتكاد العواطف والأحاسيس فيها بوجه عام تجهش بالبكاء حيناً، أو بالاحتساب
حيناً، أو بالتهديد تارة بالحساب بين يدي الله سبحانه أو بالتهديد بالانتقام السريع تارة
أخرى.. وهكذا تحمل أبيات الرثاء عواطف تكاد تكون متقاربة في الشدة، بينما تحمل
أبيات الهجاء أنفاساً متقاربة في شدة الغضب والنقمة والتنديد.

الهوامش

١ - كما جاء في زاد المعاد (١٠٨/٢)، أو يوم السبت للنصف من شوال كما جاء في سيرة ابن هشام (٦١٥/٣).

٢ - حمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة المنورة (ياقوت: ٣٠١/٢).

٣ - الروحاء: موضع بين الحرمين الشريفين على بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة المنورة (محيط: ٢٢٥/١).

٤ - مَعْبَد بن أبي معبد الخزاعي من قبيلة خزاعة التي كانت عَيْبَةَ نصح (موضع نصح) لرسول الله ﷺ مسلمهم ومشركهم: وقد مرَّ معبد برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد وكان آنذاك مشركاً، فقال: يا محمد أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك.. ثم سار حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا بالرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا: «أصبنا حدَّ أصحابهم وقادتهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم لنكرنَّ على بقيتهم فلنفرغن منهم» فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثلهم يتحرقون عليكم تحرقاً، قد أجمع معه من كان تخلف عنه، وندموا على ما صنعوا، فلهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويلك: ما تقول؟ فقال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل. قال: فوالله لقد أجمعنا على الكثرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، فوالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتاً من شعر، فقال أبو سفيان: ماذا قلت؟ قال معبد: قلت:

كادت تُهْدُّ من الأصوات راحلتي

إذ سالت الأرض بالجرّد الأبابيل

تَرْدِي بِأُسْدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلَة

عند اللقاء ولا خُرْقٍ معازيل (*)

فثنى ذلك أبو سفيان ومن معه (**).

(*) أورد صاحب السيرة (٦١٧/٣) ستة أبيات. الجرّد: الخيل العتاق، الأبابيل: الجماعات، تردّي: تسرع، التنايلة: القصار، الخرق: ج أخرج وهو الذي لا يحسن التصرف في الأمور، المعازيل: الذين لا سلاح معهم.

(**) انظر أسد الغابة: ٤١٧/٥ وسيرة ابن هشام: ٦١٦/٣.

٥ - طليحة بن خويلد الأسديّ من أسد بن خزيمه: (٠٠٠ - ٢١هـ / ٠٠٠ - ٦٤٣م): متنبئ، شجاع، من الفصحاء، يقال له «طليحة الكذاب»، كان من أشجع العرب ويعدّ بألف فارس قدم على النبي ﷺ في وفد بني أسد سنة ٩هـ وأسلموا، ولما رجعوا ارتد طليحة وادّعى النبوة، فوجّه النبي ﷺ ضرار بن الأزور، فضربه ضرار بسيف ليقتله فنبأ السيف فشاع بين الناس أن السلاح لا يؤثر فيه وبعد موت النبي ﷺ كثر أتباعه، فسير إليه أبو بكر خالد بن الوليد فانهزم طليحة إلى نجد فالشام، ثم أسلم، ووفد على عمر وباعه، وخرج إلى العراق فحسن بلاؤه في الفتوح واستشهد بنهاوند. أما أخوه «سلمة» فليس له ترجمة واضحة فيما بين أيدينا من مصادر.

٦ - أسد بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر جدّ جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة ينسب إليه بعض الأسديين، وكانت بلادهم في نجد ثم تفرقوا وتكاثروا في شمال شبه الجزيرة العربية وراء جبال شمر، ونزل خلال الفتوح جماعات منهم بين البصرة والكوفة وفي الكوفة نفسها في حي خاص بهم، وقطن آخرون منهم بلدة «سطيف» غربي القيروان في إفريقية وكانت منهم فرق في جيوش عليّ والحسين والمختار والمهلب... وقد هجاهم حسان على ما يعتقد بهذه المناسبة قائلاً:

وما كُثِرَتْ بنو أسدٍ فتُخْشَى
لكثرتها ولا طاب القليلُ
قُبَيْلَةٌ تَذْبَذَبُ في معدٍ
أنوفهم أذلُّ من السبيلِ
تَمَنَّى أن تكون إلى قریشِ
شبيهة البغل شَبَّةً بالصهيلِ

(ديوانه ص ٤٠٠).

٧ - سبقت ترجمته.

٨ - خالد بن سفيان الهذلي: لم نعثر على ترجمة له.

٩ - الراجح أنه عبدالله بن أنيس الجهني ثم الأنصاري حليف بني سلمة من الأنصار وكان مهاجرياً أنصاريّاً عقبيّاً شهد بدرًا وأحداً وما بعدهما، وهو الذي سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، وقال: إني شاسع الدار فمرني بليلة أنزل لها، قال: «انزل ليلة ثلاث وعشرين»، وهو أحد الذين كانوا يكسرون أصنام بني سلمة، توفي سنة ٧٤هـ / ٦٩٣م (انظر أسد الغابة: ١٨٠/٣).

١٠ - انظر زاد المعاد لابن قيم الجوزية: ١٠٨/٢.

١١ - الرجيع: ماء لهذيل بين مكة وعُسفان على أميال من الهدأة أو الهدّة: وقيل: قرب الهدأة بين مكة والطائف. والهدأة: موضع بين عسفان ومكة، وقيل بين مكة والطائف. وعسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، أو هي من مكة على مرحلتين على طريق المدينة المنورة، أو على ٣٦ ميلاً من مكة. والجحفة: على طريق المدينة - مكة، على أربع مراحل من مكة، وبينها وبين المدينة ستة مراحل والمرحلة مقدار ما يقطعه المسافر آنذاك في اليوم الواحد، والميل يساوي (١,٦٠٩٣ كم). (انظر: ياقوت الحموي).

١٢ - عَضَلُ بن الهون بن خزيمة بن مدركة من كنانة من مضر: جد جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، اختلط بنوه ببني أخ له اسمه «الديش» وسموا «القارة» لاجتماعهم والتفافهم.

١٣ - جاء في أسد الغابة ما يخالف ما ذكرناه، إذ أورد أن الرسول ﷺ بعث عشرة رهط وأمر عليهم «عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح» (أسد الغابة: ١٢٠/٢)، وهذا يخالف ما ورد في سيرة ابن هشام (٦٦٧/٣)، وفي زاد المعاد (١٠٩/٢)، وفي الطبري (٢٩/٣ و ٣٠).

١٤ - مَرْتَدُ بن كَنَاز بن الحصين بن يربوع الغنوي (٤٠٠ - ٤٠٠ هـ / ٦٢٥ - ٦٢٥ م): حليف حمزة ابن عبدالمطلب، صحابي وابن صحابي، من أمراء السرايا، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أوس بن الصامت، شهد بدرًا وأحدًا وكان يحمل الأسرى، واستشهد يوم «الرجيع».

١٥ - خالد بن البُكَيْر بن عبد ياليل... بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة الليثي الكناني (٠٠٠ هـ / ٦٢٦ م): وهو وأهله حلفاء بني عدي رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه، شهد هو وإخوته بدرًا، وكان قد بعثه النبي ﷺ في سرية مع عبد الله بن جحش إلى عير قريش قبل بدر فقتلوا «عمرو بن الحضرمي»، وفيهم نزلت الآية الكريمة «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» (البقرة: ٢١٧/٢)، استشهد يوم الرجيع وعمره أربع وثلاثون سنة.

١٦ - عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح قيس بن عصمة الأوسي الأنصاري أبو سليمان (٠٠٠ هـ / ٦٢٦ م): صحابي، من السابقين الأولين من الأنصار، شهد بدرًا وأحدًا مع رسول الله ﷺ، واستشهد يوم الرجيع، وينسب إليه رجز في بعض حروبه.

١٧ - خُبَيْب بن عدي بن مالك بن عامر بن مَجْدَعَة بن جَحْجَبَى بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف الأوسي الأنصاري (٥٠٠ - ٤هـ / ٦٢٦ - ٥٠٠م): صحابي شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ (*) وهو أحد أصحاب الرجيع الستة، وقد نزل على عهود المشركين من بني لحيان من هذيل، فاستسلم، فأسروه هو وعبدالله بن طارق وزيد بن الدثنة، وربطوهم بأوتار القسي.. ثم باعوا خبيباً بعد أن نزلوا مكة لمن قدمه لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه «الحارث بن عامر» الذي يقال إن خبيباً قتله في موقعة بدر، ولبت أسيراً حتى أجمعوا على قتله، فأخرجوه إلى «التنعيم»، وصلبوه.

١٨ - زيد بن الدثنة بن معاوية أخو بني بياضة بن عمرو بن زُرَيْق الخزرجي الأنصاري (٥٠٠ - ٤هـ / ٦٢٦ - ٥٠٠م) من فقهاء الصحابة وشهد بدرًا وأُحُدًا، وهو ممن عُذِرَ بهم يوم الرجيع حين نزل على عهود المشركين وهو أحد اثنين لم يقتلا في المعركة (والثاني خبيب)، وقد باعوه في مكة لصفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف فأرسله مع مولى له اسمه «نسطاس» إلى التنعيم لقتله، وحين قُدِّمَ للقتل اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنني جالس في أهلي.. ثم قتله نسطاس.

١٩ - عبدالله بن طارق بن عمرو بن مالك البلوي، حليف لبني ظفر من الأنصار (٥٠٠ - ٤هـ / ٦٢٦م) شهد بدرًا وأُحُدًا وهو أحد الستة الذين بعثهم الرسول ﷺ مع وفد عضل والقرارة، فغدروا بهم، وقد نزل عبدالله أولاً على مواثيق المشركين، ولما شعر بخيانتهم انتزع قيده من يديه، وأخذ سيفه، فقاتل أسريه، فتأخروا عنه، ثم رموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبّره بالظهران (المكان الذي قتل فيه).

٢٠ - استصرخوا عليهم بني لحيان من هذيل فنفروا إليهم بقريب من مئة رام.. والأمر يرجع إلى أكثر من سبب: إما لكي يقدوا بهم أسيرهم في مكة، أو لينالوا ثمنًا عالياً من قريش، أو ليتركوا لهم جميلاً عند قريش، أو ليثأروا من مقتل خالد بن سفيان الهذلي كما أسلفنا قبل قليل.

(*) لم يرد له في السيرة اسم مع من حضروا بدرًا من بني جَحْجَبَى (انظر السيرة: ٥١١/٢) وذكر صاحب السيرة (٥٢٦/٢) أن قاتل الحارث بن عامر في بدر هو خبيب بن إساف أخو بني الحارث من الخزرج، أما كتاب أسد الغابة فقد ذكر (١٢٠/٢) أن القاتل هو خبيب بن عدي وكذا ديوانه. وانظر ص ٢٨٤ - هامش رقم ٢٢،

هذيل: (٠٠٠٠ - ٠٠٠٠) هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر جد جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، بنوه قبيلة كبيرة كان أكثر سكان وادي نخلة المجاور لمكة منهم، ولهم منازل بين مكة والمدينة ومنهم في جبال السراة (وهي أعالي جبال الحجاز التي تحجز بين تهامة ونجد ويقال إنها سلسلة تبدأ من اليمن وتصل إلى بلاد الشام) وكانوا أهل عدو وعدو ومنعة واشتهر منهم كثيرون في الجاهلية والإسلام، وظهر فيهم نيف وسبعون شاعراً مشاهير وقد نشر في مصر ديوان الهذليين لواحد وثلاثين شاعراً منهم، ولحيان بطن من هذيل وقد سبق التعريف بهم ص ٢٠٢.

٢١ - الحارث بن عامر بن نوفل سبق التعريف به أما ابنه عقبة فقد ورد في السيرة (٦٧١/٣) أنه قال: ما أنا والله قتلت خبيباً لأنني كنت أصغر من ذلك، ولكن أبا ميسرة أبا بني عبدالدار أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة، ثم طعنه بها حتى قتله والذي اشتراه له هو خاله أبو إهاب.

٢٢ - في الأمر خلاف كبير: فكتاب السيرة (٥١١/٢) لم يورد اسم خبيب بن عديٍّ مع من حضروا بدرًا من بني جحججى، وذكر (٥٢٦/٢) أن قاتل الحارث بن عامر هو خبيب بن إساف أخو بني الحارث من الخزرج، أما كتاب أسد الغابة (١٢٠/٢) فقد ذكر أن القاتل هو خبيب بن عديٍّ.. فلعل المشركين أرادوا أن يقتل أحد المسلمين (دون تعيين) بقتيلهم شأن النظرة القبلية. أو لعلهم أرادوا الإساءة إلى رسول الله ﷺ بقتل أحد أصحابه أيا كان.

٢٣ - التنعيم: موضع على ثلاثة أميال من مكة المكرمة على طريق المدينة المنورة خارج نطاق الحرم.

٢٤ - صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي القرشي المكي، أبو وهب (٠٠٠ - ٤١هـ/ ٠٠٠ - ٦٦١م): صحابي فصيح جواد كان من أشرف قريش في الجاهلية والإسلام أسلم بعد الفتح، وشهد اليرموك، ومات بمكة.

٢٥ - أمية بن خلف الجمحي سبق التعريف به.

٢٦ - انظر سيرة ابن هشام: ٦٦٧/٣، وزاد المعاد: ١٠٩/٢، والطبري: ٢٩/٣ و ٣٠.

٢٧ - سلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية، هي زوج طلحة بن أبي طلحة من بني عبدالدار (سبق التعريف به) أخرجها زوجها يوم أحد وهي أم بني طلحة: مسافع والجلال وكلاب وقد قتلوا جميعاً هم وأبوه. وقد قتل عاصم يومئذ ابنها مسافع بن طلحة وأخاه

الجلّاس بن طلحة، كلاهما يشعره سهماً فيأتي أمّه سلافة فيضع رأسه في حجرها، فتقول: مَنْ أصابك؟ فيقول: سمعتُ رجلاً حينَ رماني وهو يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح. فنذرتُ إنْ أمكنها اللهُ من رأسِ عاصم أن تشرب فيه الخمر، وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمسّ مشركاً أبداً ولا يمسّه مشرك، فحمّاه الله.

٢٨ - الدَّبَرُ: جماعة النحل والزنابير.

٢٩ - انظر المراجع السابقة الواردة في هامش (٢٦).

٣٠ - ديوانه ص ٨٤، والسير: ٦٧٧/٣، وتتألف من خمسة أبيات.

٣١ - ديوانه ص ١٠٩، والسير: ٦٧٤/٣، وتتألف من ستة أبيات.

٣٢ - العِلَات: المشقّات. نُصَّ: رُفِعَ من النص في السير وهو أرفعه، يقول: لما بلغنا أنّه صلب ورفع على جذع من الخشب هاجت دموعي على استعصائها لفضاعة هذا الفعل.

٣٣ - بنو النّجار: قبيلة حسان. المعصوب: هنا الحبيش الكثير. اللّجب: كثير الأصوات.

٣٤ - ديوانه ص ٢٨٩، والسير: ٦٧٤/٣، وتتألف من أربعة أبيات، ولكن البيت الرابع يختلف في السيرة عنه في الديوان.

٣٥ - قوم ذو محافظة: يريد المطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف، وقد أنزله منزلة الجماعة. المحافظة والحفاظ: الغضب لحرمة تُنتهك أو جارٍ يُظلم أو عهد يُنكث... حامي الحقيقة: من يحمي ما يجب عليه حمايته. أنس بن عباس خال المطعم بن عدي^(*) وجواب الشرط يأتي في الأبيات التي تلي، وفي مجملها يقول: لو كان المطعم بن عديّ موجوداً لما حصل لخبيب ما حصل.. ومن المعروف أن المطعم بن عديّ هو الذي أجاز رسول الله ﷺ عندما رجع من ثقيف، وهو مع بعض الواعين من قريش قاموا

(*) هو أنس بن عباس السلمي وهو الذي قُتل في يوم بئر معونة «نافع بن ورقاء الخزاعي» وقال:

تركتُ ابنَ ورقاءَ الخزاعيّ ثاويّاً

بمعتركِ تعفي عليه الأعاصير

ذكرتُ أبا الريّان لما رأيتهُ

وأيقنتُ أني عند ذلك ثائر

وأبو الريان: طعيمة بن عدي بن نوفل أخو مطعم هو الذي أغرى وحشياً لقتل حمزة بدمه. (السيرة ص ٦٨١).

- بتمزيق الصحيفة التي كُتبت على بني هاشم، وهو الذي أجاز سعد بن عبادَة سيد الخرج بعد بيعة العقبة.. وقد توفي في السنة الثانية للهجرة (انظر ترجمته ص ٢٠٤) (شارح الديوان ص ٢٨٩ سماه: عدي بن مطعم أحد بني نوفل.. وهذا وهَم).
- ٣٦ - ديوانه ص ٣٤٦، والسيرَة: ٦٧٣/٣ وهي في الديوان ثمانية أبيات وفي السيرَة خمسة فقط.
- ٣٧ - لا ترقا: لا ترقأ وسهلت الهمزة وترقأ الدمعة: تجف. السح: الصب. الفلق: المتفلق أي المشقوق، يقول: إن دموعه مثل قطع اللؤلؤ.
- ٣٨ - في الرُقق: ج رفيق، أي مع رفاقك من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.
- ٣٩ - يقصد بالرجل الطاغِي المفسد «الحارث بن عامر» وقد سبق التعريف به ص ٢٣٨ من هذا المؤلف.
- ٤٠ - سبق الحديث عن سرقة الغزال ص ٢٣٨ من هذا المؤلف.
- ٤١ - ديوانه ص ١١٢ والسيرَة: ٦٧٧/٣ وهي في الديوان أربعة أبيات وفي السيرَة خمسة.
- ٤٢ - من الحجرين: أراد الحجر الأسود والحجر (بكسر الحاء) الذي فيه مقام إبراهيم عليه السلام. المسعى: حيث يسعى بين الصفا والمروة.
- ٤٣ - ديوانه ص ٤٧٦ والسيرَة: ٦٧٥/٣، وتتألف من ثلاثة أبيات.
- ٤٤ - ديوانه ص ٤٨٥، وتتألف من أربعة أبيات.
- ٤٥ - السيرَة: ٦٧٦/٣، وتتألف من أحد عشر بيتًا.
- ٤٦ - القتيلان هما: خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة وهما اللذان أعطتهما هذيل العهود والمواثيق ثم غدرت بهما.
- ٤٧ - تعتري: تنتسب صدقًا أو كذبًا، تنتمي.
- ٤٨ - الحديث عن قتل عاصم.. ثم ألحق الحديث عن بيع خبيب، ويبدو أن هذه القصيدة قيلت قبل قتل قريش خبيبًا لأن الإشارة وقفت عند بيعه، بينما تناول الحديث قتل عاصم.

٤٩ - الجهام: السحاب لأماء فيه، أو قد هراق ماءه، الأفى كعصا: القطع من الغيوم الواحدة: أفاة، أو الأفى من السحاب: الذي يفرغ ماءه ويذهب.

٥٠ - السيرة: ٦٧٥/٦ (ولم ترد في الديوان)، وتتألف من ثلاثة عشر بيتاً.

٥١ - ذكر الشاعر اسميهما وهما: زهير بن الأغر، وجامع، وهما من هذيل وليس بين أيدينا ترجمة لهما.

٥٢ - ديوانه ص ٤٥٧ والسيرة: ٦٧٥/٣ وتتألف من أربعة أبيات.

٥٣ - يقصد بقوله «بني عمرو» بني عمرو بن عوف من الأوس رهط خبيب بن عدي: وأخوهم هو: خبيب بن عدي بن مالك بن عامر بن مجدعة بن جحجبي بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف.. من الأوس.. وقد مرت ترجمته من ٢٨٣ من هذا المؤلف.

٥٤ - ديوانه ص ١٢٣ وقد أورد بيتاً واحداً هو المطلع والسيرة: ٦٧٥/٣ وقد أضافت إلى المطلع ثلاثة أبيات أخرى.

٥٥ - سألت: سألت وقد سهل الهمز.

٥٦ - انظر ص ٢٨٣ وإلى الهامش رقم ٢٢ ص ٢٨٤.

٥٧ - أبو إهاب بن عزيز بن قيس بن سويد بن ربيعة بن زيد بن عبدالله بن دارم التميمي الدارمي، وهو ممن اشترك في سرقة غزال الكعبة (ارجع إلى ديوان حسان ص ٥٥ وص ١٠٣ وص ٣٤٧)، وقد حضر موقعة بدر مع المشركين، ولكنه أفلت بينما قتل اثنان من سراق الغزال هما الحارث بن عامر وأبو مسافع الأشعري.

٥٨ - ديوانه ص ٥٥.

٥٩ - الشاة العزوز: الضيقة الأحاليل.

٦٠ - استفاد من أنه حليف من خارج القبيلة، واستفاد من الاسم.

٦١ - بنو نوفل: حلفاؤه آووه، وكفوا العجوز ابنتهم التي تزوجها سويد والد قيس.

أشعار السنة الرابعة - بئر معونة: القراء

وفي هذه السنة أعني سنة أربع من الهجرة، وفي شهر صفر على رأس أربعة أشهر من موقعة أحد كان من أمر السريّة التي وجهها الرسول ﷺ فقُتِلَ بئر معونة^(١) فقد قدم أبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة^(٢) على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد. قال أبو براء: أنا لهم جارٌ، فابعثهم، فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو^(٣) في أربعين^(٤) رجلاً من أصحابه من خيرة المسلمين وفضلائهم وقرائهم، منهم الحارث بن الصّمة^(٥)، وحرام بن ملحان^(٦)، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي^(٧)، ونافع بن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي^(٨)، وعامر بن فُهَيْرَة^(٩) مولى أبي بكر الصديق، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، ثم بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل^(١٠)، فلما أتاه لم ينظر في كتابه، وكلف أحد قومه أن يقتله فقُتِلَ، ثم استصرخ بني عامر على أصحاب رسول الله ﷺ، فأبوا أن يجيبوه لكيلا يخفروا أبا براء الذي عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم، فأجابوه، وقتلوههم إلا واحداً أنقذ من بني القتلى فشفي، وآخر أطلقه عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت نذراً على أمه.

والحادثة شديدة التأثير بلا شك هزت مشاعر المسلمين، وأججت أشجانهم، وسعرت في أعماقهم براكين الحقد والغیظ مدافعة بمشاعر الأسى والحزن والألم، فأحرّ بشاعر الدعوة الإسلامية أن ينطلق برائع الشعر، ويكي القتل المغدورين بلألئ الدمع الرطيب، فنظم مقطوعته الرائية ومطلعها^(١١):

على قَتْلَى معونة فاستهلي
بدمع العين سحاً غير نُرْ
على خيل الرسول غداة لاقُوا
مناياهم ولاقتهم بقدر

وقد ذكر غدر الغادرين، ثم خصَّ برثائه المنذر بن عمرو، وعرج سريعاً على رفاقه:
فيا لهفي لمنذر إذ تولَّى
وأعْنَقَ في منيته بصبر
فكائنٌ قد أصيب غداة ذاكم
مِنْ أبيضَ ماجدٍ من سرِّ عمرو^(١٢)

وفي مقطوعة أخرى توجه إلى الذين يهتمهم ألا يُساء إلى سمعة أبي براء الذي
تعهد بإجارة هؤلاء، فأرسل على متن القوافي ألوكَةً إلى ربيعة بن أبي براء يحرضه على
غسل العار عن أبيه، فقال^(١٣):

ألا مَنْ مُبْلَغُ عني ربيعاً
فما أحدثتَ في الحَدَثانِ بعدي^(١٤)
أبوك أبو الفِعال أبو براء
وخالك ماجدٌ حَكَمَ بن سعد
بني أم البنين ألم يرْعَكُم
وأنتم من ذوائب أهل نجد^(١٥)
تهكُّمُ عامرٍ بأبي براءٍ
ليُخْفِرَه وما خطأ كَعَمْد^(١٦)

فلما بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشعر أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل
تغسل عن أبي هذه العُدْرَة ضربة أضربها عامر بن الطفيل أو طعنة؟ فقال: نعم، والله
أعلم، فرجع ربيعة، فحمل على عامر بن الطفيل، فطعنه بالرمح فأشواه^(١٧)، ووقع عن
فرسه، فوثب عليه قومه فأخذوه، وقالوا لعامر: امثل^(١٨)، فقال: هذا عمل أبي براء، إن
أمت قدمي لعمي، وإن أعشَّ فسأرى رأيي فيما أُتِيَ إلي^(١٩).

وقد رثى حسان بعض هؤلاء الشهداء رثاءً مؤثراً حافلاً بالمعاني الإسلامية والقيم الخلقية الرفيعة، فمما قاله في رثاء نافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وهو ممن استشهدوا يوم بئر معونة البيتان الآتيان^(٢٠):

رحم الله نافع بن بُدَيْلٍ
رحمة المشتهد ثواب الجهاد
صابرٌ صادق الحديث إذا ما
أكثر القوم قال قول السداد^(٢١)

إن المعاني الإسلامية والإنسانية لتتجلى في أجمل حللها وأبهاها: المشتهد ثواب الجهاد، صابر، صادق الحديث، إذا ما أكثر القوم قال قول السداد، وانظر إلى قوله: المشتهد ثواب الجهاد، وما تحمله كلمة المشتهد من زخم نفسي لا يضارع، وكان من الممكن أن تستخدم في مكانها كلمة «المبتغي» مثلاً، ولكن هيهات أن تسدَّ مسدّها، أو أن تفري فريها.

هذا ومن المعروف أن رسول الله ﷺ قَنَتَ شهراً يدعو على الذين قتلوا القرءاء أصحاب بئر معونة بعد الركوع، ثم تركه لما جاؤوا تائبين مسلمين^(٢٢).

الهوامش

١ - الطبري: ٤٣/٣ والسيرة: ٦٧٧/٣ وزاد المعاد: ١٠٩/٢، ويثر معونة: بئر شرقي المدينة المنورة بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم وكلا المكانين قريب منها إلا أنها إلى حرّة بني سليم أقرب.

٢ - عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب العامريّ، أبو براء ملاعب الأسنة (٠٠٠ - نحو ١٠هـ/ ٠٠٠ - نحو ٦٣١م) فارس قيس وأحد أبطال العرب في الجاهلية، وهو خال «عامر بن الطفيل»، الذي ستأتي ترجمته، سمّي «ملاعب الأسنة» بقول الشاعر أوس بن حجر:
ولاعبَ أطرافَ الأسنة عامرُ
فراح له حظ الكتيبة أجمع

أدرك الإسلام، وقدم على رسول الله ﷺ بتبوك، ولم يثبت إسلامه.

٣ - المنذر بن عمرو بن خنيس (المعنى ليموت) سبقت ترجمته.

٤ - وقيل في سبعين (انظر زاد المعاد: ١٠٩/٢) أما الرقم السابق فهو ما جاء في السيرة: ٦٧٨/٣.

٥ - الحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك من بني النجار من الخزرج وكان رسول الله ﷺ آخى بينه وبين صهيب بن سنان، وكان فيمن سار مع رسول الله ﷺ إلى بدر فكُسِرَ بالروحاء (مكان على بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة) فردّه ﷺ، وضرب له بسهمه وأجره، وشهد معه أحدًا فثبت وباع رسول الله ﷺ على الموت، ثم شهد بئر معونة فاستشهد سنة ٤هـ، ويروى أنه قال: سألني رسول الله ﷺ يوم أحد وهو في الشعب: فقال: هل رأيت عبد الرحمن بن عوف؟ فقلت: نعم، رأيته إلى جنب الجبيل وعليه عسكر من المشركين، فهويت إليه لأمنعه، فرأيتك، فعدلت إليك، فقال رسول الله ﷺ: إن الملائكة تمنعه، قال الحارث: فرجعت إلى عبد الرحمن فوجدت بين يديه سبعة صرعى، فقلت: ظفرت يمينك، أكل هؤلاء قتلت؟ فقال: أما هذا فلأرطاة بن شرحبيل، وهذان فأنا قتلتهما، وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره، قلت: صدق الله ورسوله (انظر أسد الغابة: ٢٩٩/١).

٦ - حرّام بن ملحان (اسمه مالك) بن خالد بن زيد من بني النجار من الخزرج خال أنس بن مالك، شهد بدرًا وأُحُدًا وقتل يوم بئر معونة سنة ٤هـ. ويروى أنه لما طعن من خلفه قال: فزت ورب الكعبة.

٧ - عروة بن أسماء بن الصَّلْت بن حبيب السُّلَمي (من بني سليم) حليف لبني عمرو بن عوف (من الأنصار) وقد ذكر أن المشركين يوم بئر معونة عرضوا عليه أن يؤمّنوه لأنه كان ذا صداقة لعامر بن الطفيل فأبى وقال: لا أقبل منهم أماناً ولا أرغب بنفسي عن مصارع أصحابي، ثم تقدم فقاتل حتى قتل (سنة ٤ هـ).

٨ - نافع بن بديل بن ورقاء بن عمرو الخزاعي كان هو وأبوه وإخوته من فضلاء الصحابة وجلتهم، وقد استشهد يوم بئر معونة سنة ٤ هـ، وجاء في سيرة ابن هشام (٦٨١/٣) أن عبدالله بن رواحة بكاه بقوله:

رَحِمَ اللهُ نَافِعَ بْنَ بُدَيْلٍ
رَحْمَةً الْمَبْتَغَى (*) ثَوَابَ الْجِهَادِ
صَابِرٌ صَادِقُ الْلِقَاءِ إِذَا مَا
أَكْثَرَ الْقَوْمَ قَالَ قَوْلَ السَّدَادِ

وسيرد معنا بعد قليل أن هذين لحسان في رثاء نافع بن بديل.

٩ - عامر بن فهيرة: سبق التعريف به ص ١٩٥ من هذا المؤلف.

١٠ - عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري من بني عامر بن صعصعة (٧٠ ق هـ - ١١١ هـ / ٥٥٤ - ٦٣٢ م) فارس قومه وأحد قُتَاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية، ولد ونشأ بنجد وأدرك الإسلام شيخاً، فوفد على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة بعد فتح مكة يريد الغدر به، فلم يجرؤ، فدعاه ﷺ إلى الإسلام فاشتراط أن يجعل له نصف ثمار المدينة، وأن يجعله وليّ الأمر بعده، فردّه، فعاد حنقاً، وسمعه أحدهم يقول: لأملأنها خيلاً جرداً ورجالاً مرداً ولأربطن بكل نخلة فرساً.. وقد دعا عليه الرسول ﷺ فمات قبل أن يبلغ قومه، وقيل: ظهرت له غدة كغدة البعير، ووضع في بيت امرأة من بني سلول فجعل يقفز ويقول: أغدة كغدة البعير وموت في بيت امرأة سلولية! كان أعور عقيماً وهو ابن عم لبيد الشاعر وأخباره كثيرة وله ديوان شعر مطبوع.

١١ - ديوانه ص ٢٤٤ والسيرة: ٦٨١/٣ وتتألف من خمسة أبيات.

١٢ - من سرّ عمرو: على شاكلته.

(*) ورد في مكان آخر: المشتبه.

١٣ - ديوانه ص ١٦٣.

١٤ - الحدثان: هنا الحوادث، والحدثان: نوب الدهر وما يحدث منه.

١٥ - يشير إلى قول لبيد:

نحن بنو أم البنين الأربعة

سيوف حَزَّوجفان مترعه

(من مقطوعة قالها بين يدي النعمان بن المنذر في هجاء رجل اسمه الربيع بن زياد وقد اعترض على وفد جاء إلى النعمان وفيهم لبيد.. الأغاني ٣٦٤/١٥). وقد جعلهم لبيد أربعة وهم خمسة، وهم: طفيل فارس قرزل، وعامر ملاعب الأسنة، وسلمى نزال المضيق، ومعاوية معود الحكماء، وربيعا ربيع المقترين، فكانوا نجباء كما ترى.

١٦ - عامر: هو عامر بن الطفيل سيد بني عامر، وأبو براء: ملاعب الأسنة أبو ربيعة. يُخَفَّر من أخضر أي نقض عهده.

١٧ - أشواه: أصاب شواه ولم يصب مقتله، والشوى: اليدان والرجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس وكل ما ليس مقتلاً.

١٨ - امتثل: اقتص.

١٩ - السيرة: ٦٨٠/٣ وديوانه ١٦٣. ويروى أن عامر بن الطفيل أخرج ربيعة وبعض قومه خارج الحي فحفروا له حفرة فقال: اشهدوا أنني جعلت ذنبيه في هذه الحفرة ثم ردّ ترابها فيها، وأطلقه (ديوانه ١٦٣).

٢٠ - ديوانه ص ٢١٨ وقد جعل صاحب السيرة هذين البيتين لعبدالله بن رواحة (السيرة: ٦٨١/٣).

٢١ - في الديوان ص ٢١٨: صابراً صادق الحديث....

٢٢ - انظر زاد المعاد: ١١٠/٢.

أشعار السنة الرابعة إجلاء بني النضير، بدر الموعد

ذكرنا قبل قليل أن القرءاء قتلوا جميعاً يوم بئر معونة ما عدا اثنين:

الأول: كعب بن زيد أخو بني دينار بن النجار^(١)، وقد تركوه وبه رمق، فارتث^(٢) من بين القتلى فعاش حتى استشهد يوم الخندق.

الثاني: عمرو بن أمية الضمري^(٣)، وكان على سرح القوم، ومعه رجل من الأنصار، فرأيا الطير تحوم على العسكر، فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقاتلهم الأنصاري حتى قُتل، وأخذ عمرو أسيراً، ولما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، وجز ناصيته، فقفل عمرو راجعاً إلى المدينة، وفي الطريق نزل في ظل ليستريح، فأقبل رجلان من بني عامر، ونزلا معه في الظل، وكان معهما عقد من رسول الله ﷺ وهو لا يعلم به، فأمهلها حتى ناما، فقتلها وهو يظن أنه قد أصاب ثأراً من بني عامر بما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولما قدم على رسول الله ﷺ وأخبره، قال له ﷺ: لقد قتلت قتيلين لأدينتهما.

وخرج إلى بني النضير^(٤) يستعينهم في دية ذينك القتيلين، فرحبوا ظاهراً، وأبطنوا الغدر، وتآمروا فيما بينهم على أن يصعد أحدهم على سطح البيت الذي قعد رسول الله ﷺ إلى جنب جداره، ومعه عدد من أصحابه، فيلقي عليه صخرة، ليتخلصوا منه، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما بيتوا، فقام من مجلسه، ورجع إلى المدينة المنورة، وأخبر أصحابه بما بيتت يهود من غدر، وأمر بالتهيؤ لحربهم، وسار إليهم

في ربيع الأول سنة ٤ هـ، فامتنعوا منه بالحصون، وحاصروهم ست ليال، وأمر بقطع النخيل وتحريقه، وأرسل اليهم رهط من المنافقين من الخزرج، ومنهم عبدالله^(٥) ابن أبي أنهم معهم، ودعوههم إلى الصمود، ولكن الله سبحانه قذف في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحَلَقَة، ففعل، فخرجوا إلى «خيبر»، ومنهم مَنْ سار إلى الشام، وممن سار إلى خيبر من أشرافهم سلام بن أبي الحَقِيق^(٦) وكنانة بن الربيع بن أبي الحَقِيق^(٧) وحيي ابن أخطب^(٨)، فلما نزلوها دان لهم أهلها.

وفي بني النضير نزلت سورة الحشر تقص ما أصابهم الله سبحانه من نقمته، فقال تعالى: «هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار»^(٩).

وفي هذه السورة ورد ذكر المنافقين كعبدالله بن أبي ممن وقفوا إلى جانب بني النضير: «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليؤننَّ الأدبار ثم لا ينصرون لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُرٍ بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون...»^(١٠).

وقد أورد صاحب السيرة عدداً من القصائد التي قيلت بهذه المناسبة لشعراء مختلفين^(١١)، ولكن ليس فيها شيء لحسان كما أن ديوانه لم يورد شيئاً من الشعر في هذا المجال^(١٢).

بدر الموعد:

لما انصرف أبو سفيان بن حرب ومن معه بعد معركة أُحُدٍ نادى مخاطباً المسلمين: إن

موعدكم بدر للعام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجلٍ من أصحابه: قل: نعم هو بيننا وبينكم موعد. وخرج رسول الله ﷺ في شعبان سنة أربع للهجرة^(١٣) لميعاد أبي سفيان إلى بدر في ألف وخمسمئة من المسلمين وحمل لواءه علي بن أبي طالب، ولما انتهى إلى بدر أقام ثماني ليالٍ ينتظر قدوم المشركين للمنازلة، وخرج أبو سفيان من مكة بألفين من المشركين، فلما انتهوا إلى مَرِّ الظهران^(١٤) بدا له الرجوع فقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جدد وإنني راجع فارجعوا، فانصرفوا راجعين وأخلفوا الموعد، فسميت هذه بدر الموعد أو بدر الثانية^(١٥).

لقد وفى رسول الله ﷺ، ومن طبعه وطبع المؤمنين الوفاء، وأخلف المشركون ومن آياتهم الإخلاف ومثل هذه الحادثة قميئة بأن تحفز بنات الشعر على أن تجود بنفحاتها ممتاحة من منهل الوقائع ما يستحوذ على الإعجاب، ومن هذا المنداح تدفقت قصيدة حسان الكافية، ومطلعها^(١٦):

أَقَمْنَا عَلَى الرَّسِّ النَزِيعَ لِيَالِيَا

بِأَرْعَنَ جَرَّارٍ عَرِيضِ الْمَبَارِكِ^(١٧)

وبعد أن يصف جيش المسلمين، وخيله، ومطيئه، واستعداده للنزال، يهزأ بقريش التي تركت طريق تجارتها المعهودة إلى طريق غيرها خوفاً من سطوة المسلمين فيقول:

دَعَا قَلَجَاتِ الشَّامِ قَدْ حَالَ دُونَهَا

جِلَادٌ كَأَفْوَاهِ الْمَخَاضِ الْأَوَارِكِ^(١٨)

بِأَيْدِي رِجَالٍ هَاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ

وَأَنْصَارُهُ حَقًّا وَأَيْدِي الْمَلَائِكِ^(١٩)

إِذَا سَلَكْتَ لِلْغُورِ مِنْ رَمْلٍ عَالِجٍ

فَقُولَا لَهَا: لَيْسَ الطَّرِيقُ هُنَاكَ^(٢٠)

ثم يهدد من يجير عير قريش لتعبر إلى الشام ودليل تلك العير^(٢١)، ويتوجه إلى

أبي سفيان قاتلاً:

فأبلغ أبا سفيان عني رسالةً

فإنك من شرِّ الرجال الصعالك^(٢٢)

إنها قصيدة عالية النفس، راسخة الثقة من غير كبرياء ولا عنجهية، شديدة الأسر
متينة السرد من غير توعر، واضحة القصد من غير جمجمة ولا تمويه.

الهوامش

- ١ - كعب بن زيد بن قيس.. بن بني دينار بن النجار الخزرجي الأنصاري، شهد بدرًا، ونجا يوم بئر معونة واستشهد يوم الخندق، قتله ضرار بن الخطاب، وقيل أصابه سهم غرَّب (لا يعرف راميهِ) سنة ٥ هـ / ٥٢٧ م.
- ٢ - ارتُثَّ على المجهول: حمل من المعركة رثيًّا أي جريحًا وبه رمق.
- ٣ - عمرو بن أميَّة بن خويلد الضمري الكناني: صحابي شجاع كان من أنجاد العرب ورجالها، وكان رسول الله ﷺ يبعثه في أموره: فقد بعثه وحده عينًا إلى قريش عند صلب خبيب ابن عديٍّ، فحمل خبيبًا من الخشب التي صلب عليها ودفنه وبعثه النبي ﷺ إلى النجاشي وكيلًا فعقد له على أم حبيبة بنت أبي سفيان، وقد أسلم قديمًا، وهو من مهاجرة الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، وأول مَشاَهدِه بئر معونة، وقد أسرتُه بنو عامر، ثم أطلقه عامر بن الطفيل لما علم أنه من كنانة قائلًا: إنه كان على أمي نسمة، فاذهب فأنت حر عنها، وجز ناصيته، عاش أيام الخلفاء الراشدين، وشهد وقائع كثيرة علت بها شهرته في البسالة، ومات بالمدينة في خلافة معاوية سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م.
- ٤ - بنو النضير: حيٌّ من يهود سكنوا يثرب ويقال انهم في الأصل حي من يهود خيبر.
- ٥ - عبدالله بن أبي بن سلول: رأس المنافقين، سبق التعريف به.
- ٦ - سلام بن أبي الحقيق أبو رافع: أحد أشراف بني النضير. قتله رجال من بني سلمة من الخزرج سنة ٥ هـ لأنه كان شديد العداوة للمسلمين.
- ٧ - كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أحد أشراف بني النضير، وقد جلا إلى خيبر وقتل عند فتح خيبر سنة ٧ هـ / ٦٢٩ م.
- ٨ - حيي بن أخطب: أحد أشراف بني النضير: يهودي جاهلي من الأشداء العتاة كان ينعت بسيد الحاضر والبادي، أدرك الإسلام وأذى المسلمين، وقد جلا مع يهود بني النضير عندما أجلاهم رسول الله ﷺ من يثرب، فذهبوا إلى خيبر، وذهب بعضهم إلى بلاد الشام، وقد لجأ إلى حصن بني قريظة - عندما رجعت قريش وغطفان خائبين بعد غزوة الخندق - وفاءً لرئيسهم كعب بن أسد بما كان عاهده عليه - عندما حرضه على الانضمام إلى الأحزاب ونقض العهد مع الرسول ﷺ - أن يدخل معه في حصنه حتى يصيبه ما يصيب

كعباً، فنقض كعب عهده مع الرسول ﷺ. ولما نزل بنوقريظة على حكم رسول الله ﷺ وحُكِّم سعد بن معاذ فيهم حكم فيهم سعد بأن تُقتل الرجال وتقسم الأموال وتُسبى الذراري ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة وهي سوقها اليوم فخذق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، وفيهم عدو الله حيي بن أخطب ورئيسهم كعب بن أسد، سنة ٥ هـ / ٦٢٧ م.

٩ - القرآن الكريم - سورة الحشر: ٥٩ / ٢.

١٠ - القرآن الكريم - سورة الحشر: ٥٩ / ١١ - ١٤.

١١ - انظر سيرة ابن هشام: ٦٨٦ / ٣ وما بعدها.

١٢ - من المحتمل كثيراً أن حسان له في هذا المقام كلام، ولعل التحقيقات القادمة تستطيع العثور عليه، ويحتمل أيضاً أن تلاحق الأحداث لم يدع له مجالاً.

١٣ - وقيل في ذي القعدة.

١٤ - الظهران هنا واد قرب مكة (على مرحلة منها) وعنده قرية يقال لها «مر» تضاف إلى الوادي فيقال: «مر الظهران» وفيها عيون كثيرة ونخيل لأسلم وهذيل وغازية.. وهناك قرية في البحرين يقال لها الظهران، وجبل لبنى أسد بهذا الاسم، وليس المقصودين (انظر معجم البلدان: ٦٣/٤).

١٥ - وقد سماهم أهل مكة جيش السوق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السوق.. (انظر سيرة ابن هشام: ٦٩٦/٣ وزاد المعاد: ١١٢/٢ والطبري: ٤١/٣)، والسويق: الخمر، والناعم من دقيق الحنطة والشعير يداف بقصب السكر أو العسل.

١٦ - ديوانه ص ٢٤٩، والسيرة: ٦٩٨/٣ وهي في الديوان أحد عشر بيتاً وفي السيرة تسعة أبيات، وقد اختلف ترتيب الأبيات في هذين المصدرين.

١٧ - الرس: البئر. النزيع (ويروى النزوع): قريبة القعر أو القرية الماء، تنزع دلاؤها بالأيدي نزعاً لقربها. أرعن جرار: جيش ضخيم يجر عتاد الحرب. عريض المبارك: واسع الانتشار دلالة على كثرته.

١٨ - الفلجّات: الأودية والأنهار الصغار. الجلاذ: المجالدة في الحرب. المخاض: الإبل الحوامل. الأوارك التي ترعى الأوراك، وهو الشجر المعروف. وأصل هذه الأبيات سرية زيد بن

حارثة إلى القردة (ماء من مياه نجد)، وحديثها أن قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكونه إلى الشام بعد موقعة بدر، فسلكوا طريق العراق، وخرج منهم عدد من التجار كأبي سفيان ومعه فضة كثيرة، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل يدلهم على الطريق، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فلقبهم على ذلك الماء (*) وأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله ﷺ فقال حسان هذه الأبيات.

١٩ - يشير إلى رجال سرية زيد بن حارثة.

٢٠ - الغور، المنخفض من الأرض، عالج: اسم مكان فيه رمل كثير وفي رواية: إذا هبطت حوران.

٢١ - كان يجير عير قريش: قيس بن امرئ القيس العجلي. وكان دليلهم فرات بن حيّان.

٢٢ - الصعالك: جمع صعلوك (حذفت منه الياء لإقامة الوزن)، وهو الفقير الذي لا مال له.

(*) قردة: مرتجل، ماء أسفل مياه التلبوت بنجد. وذو القردة بنجد، ولعله غير الذي قبله. وذو قرد: ماء على ليلتين من المدينة المنورة، بينها وبين خيبر، وهو الذي انتهى إليه رسول الله ﷺ لما خرج في طلب عيينه بن حصن حين أغار على لقاحه ﷺ. (ياقوت: ٤/٣٢١ و٣٢٢)، وانظر كذلك ص ٣٤١ من هذا المؤلف.

أشعار السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل:

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة منصرفاً من بدرٍ بعد أن وفى بالوعد وأخلف المشركون، فأقام فيها حوالي خمسة أشهر، ثم خرج في شهر ربيع الأول سنة خمسٍ للهجرة في ألفٍ من المسلمين إلى «دومة الجندل»^(١) عندما بلغه أن بها جمعاً من المشركين يريدون الدنو من المدينة المنورة، فإذا القوم مغربون (أحوالهم حسنة)، فهجم على ما شيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب وبلغ الخبر أهل دومة الجندل، فتفرقوا، ونزل ﷺ بساحتهم، فلم يجد أحداً، فرجع ﷺ إلى المدينة لم يلق كيداً. ولم ينقل إلينا لحسان شعر في هذه الغزوة.

غزوة الخندق:

وتمرّ الأيام بعد هذا سراعاً من دون أن نقع لحسان على شعر حتى نصل إلى شهر «شوال»^(٢) من السنة الخامسة للهجرة، وفيه يقع حدث ضخم في تاريخ الدعوة الإسلامية: إنه غزو الأحزاب المدينة المنورة أو «غزوة الخندق»، وأظن أنه لا حاجة بنا إلى تفصيل الحادثة، فهي أشهر من ذلك، ولذا سنقتصر على الإشارة الموجزة إلى عواملها ومراحلها، وعلى تعرّف موقف حسان منها وماذا أوحى إليه؟.

حين رأت يهود أن المشركين انتصروا على رسول الله ﷺ في أحد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين في بدر الموعد وتأجيله الموعد عاماً آخر خيل إليهم أن ثمة أملاً في القضاء على الدعوة الإسلامية، فخرج بعض رؤسائهم كسلاًم بن أبي الحقيق^(٣) وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق^(٤) إلى قريش يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ، ويعدونهم بالتضافر معهم، فاستجابت قريش لهم، ثم خرجوا إلى غطفان^(٥)، فدعواهم

كذلك، فاستجابوا لهم، ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم لحرب الرسول ﷺ، فاستجاب لهم من استجاب.

وخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب بأربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم^(٦) بمر الظهران، وخرجت بنو أسد^(٧) وفزارة^(٨) وأشجع^(٩) وبنو مرة^(١٠)، وخرجت غطفان بقيادة عيينة بن حصن^(١١) فكان مجموع من وافى الخندق من الأحزاب عشرة آلاف، وإن تعجب فعجب أن يختلف هؤلاء على شربة ماء، أو نبتة عشب، أو كلمة تقال في مجمع، أو لفظة تنقل في شعر أو نثر، فتشتعل الحروب، وتسفح الدماء.. بينما يتفقون على حرب رسول الله ﷺ.

ولما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم استشار أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي^(١٢) بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بحفره، فبادر المسلمون ودأبوا، وعمل فيه الرسول ﷺ بنفسه وحفر الخندق أمام جبل «سَلْع»^(١٣)، وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين فتحصنوا بالجبل من خلفهم وبالخندق أمامهم.

وليتيم يهود حبك خيوط المؤامرة ذهب حبي بن أخطب^(١٤) إلى بني قريظة، وهم في حصنهم يحرضهم على حرب رسول الله ﷺ وعلى نقض عهدهم معه، فأبى سيدهم كعب بن أسد^(١٥)، ورفض أن يدخله الحصن أولاً، ولكنه ألح في كلامه، وبين له قوة الغزاة وضخامة عددهم، وصور له أنها فرصة يهود الثمينة للقضاء على محمد ﷺ حتى أقنعه بنقض العهد مع رسول الله ﷺ، وتعهده له إن لم يظفر المشركون بمحمد ﷺ أن يجيء، ويدخل معهم في الحصن، فيصيبه ما يصيب بني قريظة، ووفى له بما تعهد فعلاً.

وبلغ الرسول ﷺ نقض بني قريظة العهد وغدرهم، فاشتد ذلك على المسلمين، وازداد الخوف وعظم البلاء، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظنٍّ وامتحنوا امتحاناً قاسياً، يقول تعالى: «إذ جاؤوكم من فوقكم ومن

أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنُّون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزُزلوا زلزلاً شديداً»^(١٦).

وَنَجَمَ النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: كان محمدٌ ﷺ يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، يقول تعالى: «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً...»^(١٧)، وزاد الطين بلة أن همَّ بعضهم بالفشل وترك مواقعهم، واستأذن بعضهم النبي ﷺ بالرجوع إلى المدينة بحجة أن بيوتهم عورة، يقول تعالى: «وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً...»^(١٨).

أما المؤمنون فقد ذكر القرآن الكريم صدقهم وتصديقهم بما وعدهم الله من البلاء يختبرهم به في قوله تعالى: «ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً...»^(١٩).

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً (أو قريباً من شهر)، وليس بينهم حرب إلا الترامي بالنبل.. إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود^(٢٠)، وعكرمة بن أبي جهل^(٢١)، وهبيرة بن أبي وهب^(٢٢)، وضرار بن الخطاب بن مرداس^(٢٣) تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم، فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وطلع، وخرج علي بن أبي طالب عليه السلام في نفرٍ من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الشجرة التي أقحموا خيلهم منها، وبارز علي كرم الله وجهه عمرو بن عبد ود فقتله، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق هاربة، وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه وهو منهزم عن عمرو بن عبد ود، وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة: «حم لا يُنصرون»، ولما طالт الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يصالح رئيسي غطفان^(٢٤) على ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بقومهما، ولما استشار السعديين: سعد بن معاذ سيد الأوس^(٢٥) وسعد بن عباد سيد الخزرج^(٢٦) قالوا: إن كان

الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعةً، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، وقال سعد ابن معاذ: لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف. فاستحسن ﷺ رأيهما وقال: إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

في هذا الظرف العصيب المكفهر والدنيا على المسلمين أضيق من سم الخياط، وإن لم يفقد الصادقون ثقتهم بالله العليّ القدير جاء رجل من غطفان يدعى «نُعَيْم بن مسعود بن عامر»^(٢٧) إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إني قد أسلمت فمرني بما شئت. فقال ﷺ: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة، فذهب من فوره إلى بني قريظة وكان عشيراً لهم في الجاهلية ولم يعلموا بإسلامه فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، قال: إن قريشاً وغطفان من خارج المدينة، وقد جاؤوا لحرب محمد، وظاهرتموهم عليه، فإن رأوا نهزةً أصابوها، وإلا لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبينه فينتقم منكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن من أشrafهم، وبذا يجبرون على الاستمرار معكم في القتال. قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عني، قالوا: نفعل. قال: بلغني أن يهود قد ندموا على نقضهم العهد مع محمد، وأنهم أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً من أشrafهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم، فوافق. فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم.. ثم أتى غطفان فقال لهم ما قال لقريش.

ولما كانت ليلة السبت من شوال أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان رسلاً إلى بني قريظة أن ينهضوا معهم لمناجزة محمد متذرعين بحجة طول زمن الحصار وقرب نفاد المؤونة لديهم، فقالوا لهم: إن اليوم يوم سبت لا نقاتل فيه خوفاً من العقاب، ومع هذا

فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإننا نخشى إن ضُرسَكم الحرب أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: صدقكم نعيم وتخاذل الفريقان، وبعث الله عز وجل على المشركين الريح في ليلٍ شاتية شديدة البرد فجعلت تقوض خيامهم وتكفأ قدورهم، وقذف الله الرعب في قلوبهم، فرحلت قريش ليلاً، ولحقت غطفان بديارها^(٢٨)، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود بديارها عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً»^(٢٩)، وقال تعالى: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً...»^(٣٠).

مثل هذه الحادثة الخطيرة التي كادت لولا لطف الله وعنايته أن تسحق الدعوة الإسلامية وتقضي على رجالها لا يمكن أن تمر من دون أن تترك أثراً في الشعر، ومن أخرى من شاعر الدعوة الإسلامية بالاهتزاز لهذا الحادث الجلل! فلقد ألم شاعر الدعوة بالألم أن يتوجه مثل ذاك العدد الضخم من مشركة العرب للقضاء على الدعوة الإسلامية في منبتها الجديد الذي بدأت فيه تستنشق عبير الحرية وتستروح نسائم الحياة لتشق طريقها نحو القلوب الميتة فتحييها والأبصار الزائغة فتشفيها، وتقذ الناس من عبادة الحجر والشجر إلى عبادة بارئ النسم جل جلاله، فقال قصيدته البائية، ومطلعها^(٣١):

هل رَسْمُ دَارِسَةَ الْمَقَامِ يَبَابِ

مَتَكَلَّمِ لِمَحَاوِرِ بَجَوَابِ

وبعد وقفة قصيرة على الديار وحسانها يدعو نفسه إلى تجاوز هذا الأمر لوجود ما هو أهم منه:

فَدَعِ الدِّيارَ وَنَحَرَ كلَّ خَريدةٍ
بِيضاءِ أنسَةِ الحَديثِ كَعابِ
وَاشْكُ الهمومَ إلى الإلهِ وما تَرى
مِنَ مَعرِشٍ مَتأَلِّبينَ غِضابِ
أُمُّوا بِغَزوهِمُ الرِسلَ وأَلبُوا
أهلَ القُرى وبِوادي الأَعرابِ
جِيشٌ عَينُهُ وابنُ حَربٍ فيهِمُ
مُتَخَمِّطونَ بِحِلْبَةِ الأَحزابِ^(٣٢)

ويمضي حسان في قصيدته فيبين أطماع المشركين وآمالهم وغرورهم، ويذكر
خيبة تلك الآمال بتدبير محكم سديد من رب العباد:

حَتى إذا وَردوا المَدينَةَ وارْتَجَوا
قَتَلَ النَبِيِّ ومَغْنَمِ الأَسلابِ
وَعَدُوا عَلينا قادِرينَ بِأَيدِهِمُ
رُدُّوا بِغَياطِهِمُ على الأَعقابِ
بَهَبوبِ مَعْصِفَةٍ تَفرِقُ جَمعَهُمُ
وَجَنودِ رَبِّكَ سَيدِ الأَربابِ

ثم يتحدث عن موقف المسلمين وقنوطهم، وتفريج الله سبحانه عنهم، ويعرج على
موقف المنافقين، فيقول:

وَكفى الإلهُ المَؤمِنينَ قَتالَهُمُ
وأثابَهُمُ في الأَجَرِ خَيرَ ثَوابِ
مِنَ بَعدِ ما قَنَطُوا ففَرَّجَ عَنْهُمُ
تَنزِيلَ نَصِ مَليكَنا الوَهابِ
وأقرَّ عَينَ مُحَمَّدٍ وَصِحابِهِ
وأَذَلَ كلَّ مَكذِبٍ مَرتابِ

مستشعر للكفر دون ثيابه

والكفر ليس بطاهر الأثواب

إنه يحسن الاستفادة - وإن على قلة - من المعاني الإسلامية والقرآنية كما يلاحظ، وسنفصل هذا فيما يأتي.

ولحسن في هذه المناسبة كذلك مقطوعة يتحدث فيها عن الثأر ممن قتلوا أحد أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق، وفيها يذكر كيف ولَّى المهاجمون مبدئين وقد قتل قائدهم وكانت مشومة طلعت وكيف قتل عمرو بن عبد ود، ويذكرهم ببدر التي اندحروا فيها، ويهددهم بغزاة وشيكة، ومطلعها^(٣٣):

لقد جُدعتُ أذان كعبٍ وعامر

بقتل ابن كعب ثم حُرَّتْ أنوفها^(٣٤)

وقد ذكرنا قبل قليل أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بارز البطل المشهور عمرو بن عبد ود العامري حينما اقتحم بفرسه الخندق، ومعه مجموعة من الفرسان المشركين، فقتله، فاهتز حسان لهذا النصر المبين، ولا عجب فقد انهد ركن وثيق من أركان الشرك، فقال مقطوعة مطلعها^(٣٥):

أمسى الفتى عمرو بن ودٍ ثاويًا

بجنوب سلعٍ ثأره لم يُنظر^(٣٦)

ومنها قوله يخاطبه:

ولقد وجدت سيوفنا مشهورة

ولقد وجدت جيادنا لم تُقصر^(٣٧)

ودكره بيوم بدر - إن نفع التذكير - يوم جرحته سيوف المسلمين وأثبتته الجراحات:

ولقد لقيت غداة بدر عصبه

ضربوك ضربًا غير ضرب الحُسَر^(٣٨)

وختمها بقوله:

أَصْبَحْتَ لَا تُدْعَى لِيَوْمٍ عَظِيمَةٍ
يَا عَمْرُو أَوْ لَجْسِيمٍ أَمْرٍ مَنكَرٍ^(٣٩)

واتخذ حسان من مقتل عمرو بن عبد ودّ منداح فخرٍ عريض، ولا غرابة فقتل مثله مرتقى صعب ومأثرة بطولية لا تكاد تعدلها مأثرة، ومن يقتل صناديد الرجال يهن عليه قتل زعانفها، وقد ذكره هذا النصر المبين بيوم بدرٍ الأغر يوم العزائم الصادقات، وها هو ذا يقول^(٤٠):

بَقِيَّتُكُمْ عَمْرُو أَبْحَنَاهُ بِالْقَنَّا
بِيِثْرِبِ نَحْمِي وَالْحِمَاةَ قَلِيلُ
وَنَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ بِكُلِّ مَهْنَدٍ
وَنَحْنُ وَلَاةُ الْحَرْبِ حِينَ نَصُولِ
وَنَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ بِبَدْرٍ فَأَصْبَحْتَ
مَعَاشِرَكُمْ فِي الْهَالِكِينَ تَجُولِ

وبعد أن قتل عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه عمرو بن عبد ود انهزمت الخيل التي كانت معه والتي اقتحمت الخندق.. وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذ، وهو منهزم عن عمرو، ووجد حسان في هذا الفرار مثلبة ترفد فنه بمادة ثرية، فقال^(٤١):

فَفَرُّوْا لِقَى لَنَا رَمَحِهِ
لَعَلَّكَ عِزٌّ لَمْ تَفْعَلِ
وَوَلَّيْتَ تَعْدُو كَعْدُو.. الظَلِي
مَ مَا إِنْ تَجُورُ عَنِ الْمَعْدِلِ
وَلَمْ تَلْقَ ظَهْرَكَ مَسْتَأْنَسًا
كَأَنْ قَفَاكَ قَفَا فُرْعُلٍ^(٤٢)

هذا ويلاحظ أن البائية كانت أطول نفساً من بقية ما ورد عن الشاعر هنا، وإنها لتحمل الكثير من المعاني الإسلامية الواضحة مع محاكاة بعض الأساليب القرآنية،

وأهمها كما يظهر من الشواهد التي سبق إيرادها:

١ - اللجوء بالشكوى إلى الله سبحانه من معشر متألبين غضاب، ولا جرمَ قائله ملاذ المسلمين.

٢ - المهاجمون مشركون قصدوا إيذاء الرسول ﷺ، وألبوا أهل القرى والبوادي.

٣ - حين خيل لأولئك الأحزاب أنهم قادرون على تنفيذ مآربهم ردهم الله بغیظهم، وهو هنا يستخدم أسلوباً يحاكي الأسلوب القرآني في قوله جلت قدرته: «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس»^(٤٣).

٤ - ردهم الله سبحانه على أعقابهم بإرسال عواصف شديدة تبدهم، وجنود ريانين وهم الملائكة.

٥ - كفى الله المؤمنين القتال، وأثابهم خير ثواب.

٦ - أقر الله سبحانه وتعالى عين النبي ﷺ وأصحابه، وأذل المنافقين المرتابين الذين يبطنون الكفر.

٧ - الكفر ذميم، وليس طاهر الأثواب..

وحسان هنا على عادته - وعلى سنن شعرائنا الأقدمين - لا يتعمق النفسيات كثيراً، ولا ينفذ إلى الجزئيات بدقة وتفصيل، ولعلَّ أهمَّ ما يميزُّ الأشعار التي قيلت بمناسبة غزوة الخندق الإيجاز أو اللوحة الخاطفة وهذا ما يتسم به حسان في معظم شعره بل وما يتصف به الشعر العربي القديم، ولا سيَّما الجاهلي منه بوجه عام، وإنه لتطالعنا في سورة الأحزاب التي خلدت غزوة الخندق وحياً دقائقُ نفتقدها في شعر حسان، إنه لم يقف الوقفة التي يتطلبها الظرف الدقيق المخرج آنذاك ليس في جبهة المشركين فحسب، ولكن في الجبهة الداخلية للمسلمين أيضاً، فالقرآن الكريم حدثنا عن المنافقين، وكانوا يشكلون قسماً غير قليل عدداً ومكانة، وفي وسعهم أن يفتحوا ثغرة

غير قليلة في الجبهة الإسلامية، وقد راحوا يرجفون في الناس أن ما وعده الله ورسوله ليس إلا غروراً، واعتذر قسم منهم عن العمل في حفر الخندق، وطلبوا الرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة وليست كذلك على الرغم من أنهم قد عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار^(٤٤)، كما أن القرآن الكريم حدثنا بلون من البراعة والدقة عن موقف المسلمين حين زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وعن موقف الصادقين منهم والراسخي الإيمان الذين صدقوا وعد الله ووعد رسوله، وازدادوا إيماناً وثباتاً^(٤٥) وإنني أنصح بالعودة إلى سورة الأحزاب وتلاوتها بروية وتمعن.

على أية حال ما كنا لنكلف حسان بن ثابت أن يبلغ المرتبة الفنية التي بلغها القرآن الكريم، وأتئى له ذلك، وقد أعجز الفصحاء جميعاً والعرب كافة.. ولكنها كلمة لا بد منها لإجلاء بعض الجوانب وتوضيح بعض المرامي، ولفت الأنظار نحو البيان الإلهي.

غزوة بني قريظة:

ولما أصبح رسول الله ﷺ بعد تلك الليلة المكفهرّة ليلة الخندق التي سخر الله سبحانه وتعالى فيها الريح العاصفة على المشركين فأطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم وقلعت خيامهم فعجلوا بالرحيل، ووقف على عجيب صنع الله سبحانه «انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة هو والمسلمون ووضعوا السلاح، فلما كان الظهر أتى جبريل (عليه السلام) رسول الله ﷺ»^(٤٦)، وحثه على قتال بني قريظة الذين غدروا بعهدهم في أخرج الساعات وظاهروا قريشاً والأحزاب على رسول الله ﷺ، فبعث الرسول ﷺ منادياً يؤذن في الناس «أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»^(٤٧)، وقدم ﷺ عليّ بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار حتى بلغ حصونهم وكانوا قد تحصنوا فيها، وحاصره رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب^(٤٨)، ونزلوا أخيراً على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس، وكانوا حلفاء بني قريظة في الجاهلية يريدون أن يصنع بهم ما صنع ببني قينقاع حلفاء الخزرج في الجاهلية، إذ نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فوهبهم لعبد الله بن أبي^(٤٩)، فلما كلمت الأوس رسول الله ﷺ في ذلك، قال: ألا ترضون

يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى قال رسول الله ﷺ: فذلك إلى سعد بن معاذ، فجيء بسعد، وكان جريحاً أصابه سهم يوم الخندق^(٥٠)، والتف حوله بعض قومه يقولون له: «أحسن في مواليك..» فلما أكثروا عليه، قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم^(٥١)، وكان حكمه فيهم «أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى ذراريهم وأن تقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله..»^(٥٢).

هذا الموقف الحاسم الذي اتخذته المسلمون من عدوٍ لئيم لا يؤمن بجانبه، غادرٍ لا عهد له ولا ذمة، مخاتل يترى بالمسلمين الدوائر حتى إذا حانت فرصة اهتبلها وانقض عليهم، قد اهترَّ له شاعر الدعوة إذ رأى فيه جزاءً عادلاً لما اقترفه هذا العدو الماكر الخؤون، ولم يجد له نصيراً، ولا جرم فالغدار الخائن حريٌّ به أن تدمى يده بما زرع من أشواك.. وهكذا وجدنا لحسان أكثر من أثر في هذه المناسبة:

له قصيدة رائية مطلعها^(٥٣):

لَقَدْ لَقِيتُ قَرِيظَةَ مَا سَاَهَا

وَمَا وَجَدْتُ لَذَلِكَ مِنْ نَصِيرٍ^(٥٤)

وفيها تحدث عما أصابهم من بلاءٍ كان قد أصاب مثله بني النضير، ووصف غزو الرسول إياهم وخيله وفرسانه وذكر ما آلوا إليه بسبب غدرهم وبعدهم عن الحق:

فَهُمْ صَرَعَى تَحُومَ الطَّيْرِ فِيهِمْ

كَذَاكَ يُدَانُ ذُو الْقَنْدِ الْفَخُورِ^(٥٥)

وأرسل من ثمَّ نصيحة لقريش لكيلا تلقى مثل هذا المصير:

فَأُرْدُفُ مِثْلَهَا نَصْحًا قَرِيشًا

مِنَ الرَّحْمَنِ إِنْ قَبِلْتُ نَذِيرِي^(٥٦)

وله مقطوعة لامية، مطلعها^(٥٧):

لَقَدْ لَقِيتُ قَرِيظَةَ مَا عَظَاَهَا

وَحَلَّ بِحِرْصِنَهَا نُلُّ ذَلِيلٍ^(٥٨)

وفيها ذكر إنذارٍ سعدٍ إياهم من قبل، ونقضهم العهد:

وسعد كان أنذرهم نصيحاً

بأن إلهَهُم رَبُّ جَلِيلٌ

فما برحوا بنقض العهد حتى

غزاهم في ديارهم الرسولُ

وله مقطوعة رائية، مطلعها^(٥٩):

تَفَاقَدَ مَعْشَرُ نَصْرُوا قَرِيْشًا

وليس لهم ببلدتهم نصير^(٦٠)

وفيها ذكر أنهم أوتوا التوراه فضيعوها، وكفروا بالقرآن، مع أن التوراة جاءت

بتصديق الرسول ﷺ، وأن سادة قريش (بني لؤي) قد هان عليهم ما حصل بالبويرة

(موضع بني قريظة) من تكيل، ولم يهتموا به ولم يفرغوا له:

هُمُ أَوْتُوا الْكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ

فهم عمي من التوراة بور^(٦١)

كفرتم بالقرآن وقد أُتيتم

بتصديق الذي قال النذير^(٦٢)

وهان على سرة بني لؤي

حريق بالبويرة مستطير^(٦٣)

وله قصيدة في يوم بني قريظة يبكي سعد بن معاذ، ويذكر حكمه فيهم،

ومطلعها^(٦٤):

لَقَدْ سَجَمْتُ مِنْ دَمْعِ عَيْنِي عَبْرَةً

وَحَقَّ لِعَيْنِي أَنْ تَفِيضَ عَلَى سَعْدٍ

وفيها يقول:

فَأَنْتَ الَّذِي يَا سَعْدُ أُبَتِّ بِمَشْهَدٍ

كريم وأثواب المكارم والحمد
بحكمك في حيي قريظة بالذي
قضى الله فيهم ما قضيت على عمد
فوافق حكم الله حكمك فيهم
ولم تعف إذ ذُكرت ما كان من عهد

وذكر صاحب السيرة^(٦٥) أن حسان قال قصيدة عينية يبكي فيها سعد بن معاذ
ورجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ من الشهداء بهذه المناسبة، ومطلعها:
أيا لقومي هل لما حم دافع
وهل ما مضى من صالح العيش راجع
بينما رأى محقق الديوان^(٦٦) أنها قيلت في يوم بدر، وقد ناقشت هذا الموضوع
فيما سبق^(٦٧).

قتل ابن أبي الحقيق:

ذكرنا فيما سبق أن الأوس قتلت بعد موقعة بدر «كعب بن الأشرف» لشدة عداوته
للمسلمين وتشبيهه بنسائهم^(٦٨)، وقد أرادت الخزرج أن تباري الأوس في خدمة الرسول ﷺ
والإسلام لأن هذين الحيين كانا يتنافسان ويتباريان في خدمة النبي ﷺ والإسلام
والمسلمين فتذاكروا بعد أن انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة: من رجل في العداوة
لرسول الله ﷺ كابن الأشرف فذكروا «سلام بن أبي الحقيق^(٦٩)» وهو بخير^(٧٠)، وكان
ممن حزب الأحزاب^(٧١) على رسول الله ﷺ فاستأذنوا رسول الله ﷺ بقتله، فأذن لهم،
فخرج إليه منهم خمسة نفر، فقتلوه وهو في داره ليلاً.

وقد انتشى حسان لهذا العمل الفدائي الجليل، وتذكر قتل ابن الأشرف في عملية
فدائية بطولية سابقة كهذه، فقال مقطوعة فائية مطلعها^(٧٢):
لله در عصابة لاقيتهم
يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف

ووصف هذه المجموعة الفدائية بقوله:

يَسْرُونَ بِالْبَيْضِ الرِّقَاقِ إِلَيْكُمْ
مَرَحًا كَأَسَدٍ فِي عَرِينٍ مُعْرِفٍ^(٧٣)
حَتَّى أَتَوْكُمْ فِي مَحَلِّ بِلَادِكُمْ
فَسَقَوْكُمْ حَتْفًا بِبَيْضٍ قَرْقَفٍ^(٧٤)
مُسْتَبْصِرِينَ لِنَصْرِ دِينِ نَبِيِّهِمْ
مُسْتَصْغِرِينَ لِكُلِّ أَمْرٍ مَجْحَفٍ^(٧٥)

هجاء أبي سفيان بن الحارث:

بعدما انصرفت جموع الأحزاب عن الخندق خائبةً مقهورة تجرُّ أذيال الفشل والوبال والخسران، وقد أخزى الله رجالهم، وأذل كبرياءهم، وخضد عنجهيتهم، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، ولم يحصدوا برّاً، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، إذ أرسل عليهم عواصف هوجاً وجنوداً من الملائكة، وكفى الله المؤمنين القتال، قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»^(٧٦)، وقد صدق الأمين فلم تغزهم قريش بعد ذلك، وكان رسول الله ﷺ هو الذي يغزوها حتى فتح الله عليه مكة المكرمة^(٧٦)، ويبدو أنه ﷺ أدرك بثاقب بصيرته أو بهدي ربه أن أولئك الخائبين المدحورين الذين شتت الله جموعهم وفتت حصاتهم سيحاولون أن يعوضوا عن خسارتهم هذه بتسليط ألسنتهم السليطة على المسلمين سباً وشتماً^(٧٧)، ولذا قال ﷺ - كما ورد في الأغاني^(٧٨): «من يحمي أعراض المسلمين؟ فقال كعب^(٧٩): أنا يا رسول الله، وقال: عبدالله بن رواحة^(٨٠): أنا يا رسول الله، وقال حسان ابن ثابت: أنا يا رسول الله، فقال: نعم، اهجهم أنت وإنه سيعينك عليهم روح القدس»، وذكر الأغاني في مكان آخر^(٨١) أنه ﷺ أراد أن يعرف من حسان كيف يرد على أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وهو ابن عم رسول الله ﷺ من دون أن ينال من الرسول ﷺ نفسه؟ فقال: يا حسان، وكيف وهو مني وأنا منه؟ قال: والله لأسلّنه منك كما يُسلُّ الشعر من العجين، قال: يا حسان فأت أبا بكرٍ فإنه أعلم بأنساب القوم منك^(٨٢)، فأتى أبا بكر فأعلمه، وبيّن له أنساب القوم، فقال قصيدته الدالية في هجاء أبي سفيان بن الحارث^(٨٣)، ومطلعها^(٨٤):

لَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ أَنَّ ابْنَ هَاشِمٍ

هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد^(٨٥)

ويتم حديثه مفصلاً في الأنساب:

وإن سَنَنامَ المجد من آل هاشم

بنو بنت مخزوم ووالدك العبد^(٨٦)

ومنّ ولدتْ أفناء زُهْرَة منهم

كرامٌ ولم يقرب عجائزك المجد^(٨٧)

ولست كعبّاس ولا كابن أمه

ولكنّ هجينٌ ليس يورى له زند^(٨٨)

وأنت زَنيمٌ نَيط في آل هاشم

كما نَيط خُلفُ الراكب القَدَحُ الفرد^(٨٩)

ومالك فيهم مَحْتَدٌ يعرفونه

فدونك فالصقّ مثلما لصقَ الفرد^(٩٠)

وإن امرأً كانت سَمِيَّةً أمه

وسمراء مغلوبٌ إذا بلغ الجهد^(٩١)

ويبدو أنه اتبعها بثلاث مقطوعات، الأولى: مطلعها^(٩٢):

فلست من المعشر الأكرميد

نَ لا عبدِ شمسٍ ولا نَوفلٍ

الثانية مطلعها^(٩٣):

لعمرك إن إلّك من قريشٍ

كإلّ السَّقْب من رَأل النعام

الثالثة، مطلعها^(٩٤):

أيا راكباً إمّا عرضتَ فبلّغنْ

على النأي مني عبد شمسٍ وهاشما

إذ إن هذه المقطوعات الثلاث متشابهة في روحها العامة، وفي المعاني التي

استخدمتها، وهي تقوم على نفي نسب المهجو عن بني هاشم الكرام، وجعله منوطاً هجيناً ..

ويُروى أنه لما أنشدت قريش شعر حسان، قالت: إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبي قحافة، وقال بعضهم: لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا^(٩٥)، والحق أن هذا المنفذ الذي بلغه الشاعر - من خلال توجيهات أبي بكر - دقيق جداً، فحق لقريش أن تعجب.

ولعله من الممكن أن توضع هنا المحاورة الموجزة بين أبي سفيان بن الحارث وحسان، فلأبي سفيان بيت شعري يقول فيه^(٩٦):

أَلَا مَنْ مُبْلَغُ حَسَّانَ عَنِّي
خَلَفْتُ أَبِي وَلَمْ تَخْلَفْ أَبَاكَ

فقال حسان مجيباً:

لَأَنْ أَبِي خَلَفْتُهُ شَدِيدُ
وَأَنْ أَبَاكَ مِثْلَكَ مَا عَدَاكَ

مع خزاعي بن عبد نهم:

وفي هذه السنة سنة خمس للهجرة^(٩٧) وقد خزاعي بن عبد نهم^(٩٨) على رسول الله ﷺ، فبايعه على قومه «مُزَيِّنَةً»^(٩٩) ثم خرج إلى قومه، فلم يجدهم كما ظن، فأقام فيهم.. فدعا رسول الله ﷺ حسان بن ثابت، فقال: «اذكر خزاعياً ولا تهجه»، فقال حسان^(١٠٠):

أَلَا أَبْلَغُ خَزَاعِيًّا رَسُولًا
بِأَنَّ الذَّمَّ يَغْسِلُهُ الْوَفَاءُ
وَأَنْكَ خَيْرُ عَثْمَانَ بْنِ عَمْرٍو
وَأَسْنَاهَا إِذَا دُكِرَ السَّنَاءُ^(١٠١)
وَبَايَعْتَ الرَّسُولَ وَكَانَ خَيْرًا
إِلَى خَيْرٍ وَذَاكَ هُوَ الشَّرَاءُ^(١٠٢)
فَمَا يَعْجِزُ وَمَا إِنَّ لَا تُطْفِئُهُ

من الأشياء لا تعجز عداء^(١٠٣)

فقام خزاعي في قومه، فقال: يا قوم قد خصكم شاعر الرجل، فأنشدكم الله..
قالوا: فإننا لا ننبو عليك، وأسلموا، ووفدوا على النبي ﷺ^(١٠٤).

مع الحارث بن عوف:

وهكذا كان رسول الله ﷺ يوجه مقدرة حسان الفنية توجيهاً حكيماً، يعرّض بها أحياناً بما يريد أو يلوح من دون تصريح، أو يطلقها أحياناً أخرى صريحةً سافرة ولكل مقام مقال وقد تغني الإشارة حيناً غناء الخطبة، وقد يندب الشعر ليترجم عما في أعماق النفس حين يضيق المقام:

فقد قدّم الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري^(١٠٥) على رسول الله ﷺ، فأسلم وقال له: ابعت معي من يدعو إلى دينك، وأنا جارٌ له، فأرسل ﷺ رجلاً من الأنصار، فغدرت بالحارث عشيرته، فقتلوا الأنصاري، فقدم الحارث على رسول الله ﷺ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يؤنب أحداً في وجهه، فقال: «ادعوا لي حسنًا»، فدعي له، فلمّا رأى حسان، الحارث أنشد^(١٠٦):

يا حار من يغدر بذمة جاره

منكم فإن محمداً لم يغدر^(١٠٧)

إن تغدروا فالغدر منكم شيمة

والغدر ينبت في أصول السخبر^(١٠٨)

وأمانة المُرّي حيث لقيته

مثل الزجاجة صدعها لم يجبر^(١٠٩)

فقال الحارث: اكففه عني يا محمد وأؤدي إليك دية الخُفارة^(١١٠)، فأدى إلى النبي ﷺ سبعين عُشْراً^(١١١)، وكذلك دية الخفارة، وقال: يا محمد أنا عائد بك من شرّه، فلو مزج البحر بشعره مزجه، ثم أعطى رسول الله ﷺ الدية إلى ورثة القتل^(١١٢).

الهوامش

١ - دُومَة الجنَـدل: واحة وبلدة في الجَوْف (أو جوف السرحان) في المملكة العربية السعودية، وجوف السَّرْحان ناحية في جزيرة العرب شمالي نجد على حدود بلاد الشام. وتعد دومة الجنـدل قاعدة جوف السرحان، وهي قريبة من جبلي طيء وقد نزلها بنو كنانة من كلب وكانت سوقاً تجارية من أهم أسواق العرب في الجاهلية، وتقع على الطريق ما بين المدينة المنورة ودمشق، بينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة، وهي من دمشق على خمس ليالٍ، وتتمركز في نقطة متوسطة تقريباً ما بين الشام والخليج العربي والمدينة، على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريباً، وهي في غائطٍ من الأرض طوله خمسة فراسخ، وعليها سور يُتحصن به، وفي داخل السور حصن منيع يقال له «مارد»، وهو حصن الملك أَكْيَدِر، وكان أكيدر عامل هرقل وكان يتعرض لقوافل التجارة وقد شاع أنه ومن معه يريدون الدنو من المدينة فخرج إليهم الرسول ﷺ في ألف من المسلمين سنة ٥هـ، ولما بلغ دومة الجنـدل وجد القوم قد تفرقوا فأخذ من نعمهم وشائهم ورجع ولم يلق كيداً، ولكن شرهم لم ينقطع عن تجار المدينة فبعث الرسول ﷺ سرية بقيادة عبدالرحمن بن عوف فلما بلغ دومة الجنـدل دعا أهلها إلى الاسلام فأسلم رئيس بني كلب وأناس معه وهو من ذوي السلطة؛ إذ كان يتداول السلطة على البلد مع أكيدر، ولكن أكيدراً صاحب دومة وعاملها لهرقل بقي على تعرضه للسابلة وتجار المدينة فأرسل إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد سنة ٩ هـ، فأسره، وقتل أخاه، وقدم به إلى النبي ﷺ، فحقت النبي ﷺ دمه، وصالحه على الجزية، وقيل إنه أسلم، فكتب له النبي ﷺ عهداً ولكنه ارتد بعد وفاة النبي ﷺ، فسار إليه خالد في خلافة الصديق وظفر به وأمر بقتله.

٢ - الطبري: ٤٣/٣. السيرة: ٦٩٩/٣. زاد المعاد: ١١٧/٢.

٣ و٤ - سبق التعريف بهما ص ٢٩٨ من هذا المؤلف.

٥ - غطفان بن سعد بن قيس عيلان من مضر، من العدنانية، جد جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، بنوه بطون كثيرة ترجع أنسابها إلى ابنه «أعصر» و«ريث»، فمن نسل الأول باهلة وغني، ومن نسل الثاني: أشجع وبغيض وعبس وذبيان، وكانت منازل غطفان فيما يلي

وادي القرى وجبلي طيء، وصنمهم في الجاهلية «العُزَّى» وهي شجرة عندها وثن، وقد قطعها خالد بن الوليد وكسر الوثن، وقد تفرقت غطفان في عهد الفتوحات الإسلامية في الأقطار.

٦ - بنو سليم سبق التعريف بهم ص ١٧٥ من هذا المؤلف.

٧ - بنو أسد: هنالك أكثر من قبيلة تحمل هذه التسمية وتتنسب إلى مثل هذا الجد:

أ - أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر: جد جاهلي ينسب إليه بعض الأسديين كانت بلادهم في نجد، ثم تفرقوا، وتكاثروا في شمال شبه الجزيرة وراء جبل شمر، ونزل جماعات منهم في البصرة والكوفة.

ب - أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان من العدنانية: جد جاهلي تفرع نسله عن بنيه «جُدَيْلَة» و«عَنْزَه» و«عَمِيرَه» ونشأ عن هؤلاء قبائل كثيرة وأكثر ما يقال لمن ينسب إلى أسد بن ربيعة «الرَبَيعي» بفتح الراء والباء.

ج - أسد بن عبد العزَّى بن قصي: جد جاهلي بنوه حي كبير من قريش ومنهم خديجة بنت خويلد وحكيم بن حزام، وورقة بن نوفل، وقد سبق التعريف به ص ٢٣٤ من هذا المؤلف.

د - أسد بن وبره بن تغلب من قضاة: جد جاهلي يرتفع نسبه إلى حمير من قحطان وممن ينسب إليه «بنو القَيْن» و«بنو حكم» و«بنو فارج». والمقصود هنا: بنو أسد بن خزيمة.

٨ و ١٠ - فزارة وبنو مرة: سبق التعريف بهما ص ١٧٤ من هذا المؤلف.

٩ - أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان: جد جاهلي غير معروف الولادة والوفاة النسبة إليه «أشجعي»، وكانت منازل غطفان قبل الإسلام بنجد، ونزل بنو أشجع حول يثرب (المدينة المنورة) ولم يبق أحدٌ منهم في نجد، ورحل إلى المغرب في الفتوحات الإسلامية جماعات منهم.

١١ - عُيَيْنَة بن حصن بن حذيفة بن بدر.. بن فزارة.. بن غطفان: كان في الجاهلية من الجرارين، يقود عشرة آلاف، أسلم بعد الفتح، وقيل قبله، وشهد حنيناً أو الطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم ومن الأعراب الجفاة. وكان ممن ارتد، وتبع طليحة الأسدي، وقاتل معه، فأخذ أسيراً وحمل إلى أبي بكر، فكان صبيان المدينة يقولون: يا عدو الله أكفرت بعد إيمانك؟! فيقول: ما آمنت بالله طرفة عين، ثم أسلم وأطلقه أبو بكر، وقد تزوج عثمان ابنته.

١٢ - سلمان الفارسي: صحابي من مقدميهم، كان يسمّى نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان ونشأ في قرية جيان، ورحل إلى بلاد الشام فالموصل فنصيبين فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب، فلقيه ركب من بني كلب، فاستعبده، ثم باعوه لرجل من بني قريظة، فجاء به إلى المدينة، ولما ظهر الإسلام قصد النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلم، واشترى نفسه من صاحبه. وكان قوي الجسم صحيح الرأي عالماً بالشرائع واسع الثقافة، جعل أميراً على المدائن، فأقام فيها حتى توفي سنة ٣٦ هـ/٦٥٦م بعدما عمّر طويلاً، وكان إذا خرج عطاؤه من الإمارة تصدق به، وكان ينسج الخوص، ويأكل خبز الشعير من كسب يده، وفيه قال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت» بعدما اختلف عليه المهاجرون والأنصار.

١٣ - سلع: جبل في سوق المدينة أو بقربها، وطلع مكان قريب من المدينة، وطلع تطلق على البتراء، وهناك أماكن أخرى بهذا الاسم والمقصود هنا الجبل.

١٤ سبق التعريف به ص ٢٩٨.

١٥ - كعب بن أسد القرظي: وصفته السيرة (٧٠٥/٣) بأنه صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، ولذا رفض - حفاظاً على العهد مع النبي ﷺ - أن يدخل حيي بن أخطب الحصن أولاً، ولكنه تراجع عن موقفه، ونقض العهد، وظهر من خلال حوارهم مع حيي أنه لا يخلو من فصاحة ولسن ولكن الجشع اليهودي غلب عليه. كما تبين أنه يتمتع بكثير من الحصافة والعدل حين عرض على يهود بعد خذل الأحزاب إحدى ثلاث: الأولى: متابعة محمد ﷺ وتصديقه لأنه تبين صدقه أنه نبي مرسل، وأنه هو الذي ذكرته التوراة (السيرة ٧١٧/٣) وقد وصفه أحد اليهود بأنه كان وجهه مرآة صينية يترأى فيها عذارى الحيي (السيرة ٧٢٣/٣). وقد جاء في الأعلام للزركلي: (٢٢٥/٥) اسم كعب بن أسد بن سعيد القرظي وهو شاعر جاهلي له مع قيس بن الخطيم مناقضات في يوم بعث ولعله هو. هذا وقد قُتل كعب بن أسد وحيي بن أخطب مع من قُتل من بني قريظة سنة ٥ هـ. وبني قريظة من قبائل يهود الذين سكنوا يثرب، وقد نكثوا عهدهم مع النبي ﷺ، وتحالفوا مع قريش في غزوة الأحزاب، فحاصروهم ﷺ في معقلهم بعد رحيل الأحزاب، وأعمل فيهم السيف وصادر أملاكهم.

١٦ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٣٣/١١٠: الذين جاؤوا من فوقهم بنو قريظة، والذين جاؤوا من أسفل منهم قريش وخطفان.

١٧ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ١٢/٣٣.

١٨ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ١٣/٣٣.

١٩ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٢٣/٢٢ و ٢٣.

٢٠ - عمرو بن عبد ود العامري من بني لؤي من قريش (٥٠٠ - ٥٥ هـ / ٥٠٠٠ - ٦٢٧ م) فارس قريش وشجاعها في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، قاتل في بدر فأثبتته الجراحة، وعاش إلى أن حضر موقعة الخندق، فقتله علي بن أبي طالب مبارزة. ولم يشتهر عمرو اشتهار غيره من فرسان الجاهلية كعنترة وعامر بن الطفيل لأن هؤلاء كانوا أصحاب غارات ونهب وأهل بادية أما عمرو فمن قريش وهؤلاء سكان مدينة وأهل مدر لا يرون الغارات.

٢١ - عكرمة بن أبي جهل (عمرو بن هشام) المخزومي القرشي: من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة، وحسن إسلامه فشهد الوقائع، وولي الأعمال لأبي بكر، واستشهد في اليرموك (أو يوم مرج الصفر) سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م) وعمره (٦٢) سنة. وفي الحديث «لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى» قال المبرد: فنهي عن سب أبي جهل من أجل عكرمة.

٢٢ - سبق التعريف به، ص ٢٦٨.

٢٣ - سبق التعريف به ص ١٠٠.

٢٤ - هما: عيينة بن حصن والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري (وقد عرف الأول وسيرد التعريف بالثاني بعد قليل).

٢٥ - سعد بن معاذ: سبق التعريف به ص ٢٣١.

٢٦ - سعد بن عباد: سبق التعريف به ص ١٣٠.

٢٧ - نُعَيْم بن مسعود بن عامر الأشجعي الغطفاني أبوسلمة: أسلم في وقعة الخندق وهو الذي أوقع الخلف بين قريظة وطفان وقريش يوم الخندق، وخذّل بعضهم عن بعض، وأرسل الله عليهم الريح والبرد والجنود (وهم الملائكة)، فصرف كيد الكفار عن النبي ﷺ والمسلمين. توفي رحمه الله في زمن خلافة عثمان، وقيل بل قتل يوم الجمل.

٢٨ - للتوسع انظر سيرة ابن هشام: ٦٩٩/٣ وما بعدها وزاد المعاد: ١١٧/٢ وما بعدها. وقد ورد في السيرة: ٧٣٣/٣ أن رسول الله ﷺ قال لما انصرف أهل الخندق عن الخندق: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم». فلم تغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو الذي يغزوها حتى فتح الله عليه مكة المكرمة.

٢٩ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٩/٣٣،

٣٠ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٢٥/٣٣.

٣١ - ديوانه ص ٦٧ وتتألف من أربعة عشر بيتاً.

٣٢ - عيينة: هو عيينة بن حصن وقد مرّت ترجمته قبل قليل. وابن حرب هو أبوسفیان بن حرب، وقد سبق التعريف به ص ٢٣٠، متخمطون: شديدو الغضب. الحلبة هنا: الاجتماع والتألب.

٣٣ - ديوانه ص ٣٢٠، وتتألف من ستة أبيات. أمّا البيت الذي هدّد فيه بغزو المشركين، وكأنّه ينطلق من قوله ﷺ الذي ذكرناه قبل قليل فهو:

وأخرى وشيكاً ليس فيها تحوّل

يصمّ المنادي جرشها وحفيفها

ديوانه: ٣٣١.

٣٤ - كعب وعامر حيان من قريش. ابن كعب يرجّح أنه كعب بن زيد الأنصاري من بني النجار، وقد أصابه يوم الخندق سهم غرّب (أي طائش لا يعرف من أين جاء) فقتله. ولم يرد من الذين استشهدوا يوم الخندق رجل يعرف بابن كعب وكانوا ستّة (انظر السيرة: ٧٣١/٣) وكعب هذا مرّت ترجمته ص ٢٩٨ وهو أحد الاثنين اللذين نجوا يوم بئر معونة (انظر ص ٢٩٤ من هذا المؤلف). وقوله: جدّعت أذان كعب وعامر وحزّت أنوفها: كناية عن الإذلال.

٣٥ - ديوانه ص ٣٤٥، وتتألف من أربعة أبيات.

٣٦ - ثاوياً: هالكا مطرحاً. سلع: جبل بقرب المدينة. لم يُنظر: لم يلتفت إليه.

٣٧ - مشهورة: مسلولة، تقول: شهر سيفه أي سلّه. لم تُقصر: لم تكف.

٣٨ - الحُسْر: ج حاسر وهو الضعيف أو الكليل أو التعب أو المصاب بالإعياء.

٣٩ - أمر منكراً: أمر صعب شديد.

٤٠ - انظر سيرة: ابن هشام: ٧٤٢/٣ ولم ترد في ديوانه ولا في التذييل، وهذه المقطوعة تقتصر على الأبيات الثلاثة التي أوردناها، وقد عقب عليها صاحب السيرة بقوله: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان...

- ٤١ - انظر السيرة: ٧٠٩/٣ ولم ترد الأبيات في ديوانه ولا في التذييل وهذه الأبيات الثلاثة - كما قال ابن هشام - «في أبيات له» ولكن لم يبين عددها ولا مرجعها.
- ٤٢ - الفرُّع: صغير الضباع.
- ٤٣ - القرآن الكريم - سورة يونس: ٢٤/١٠.
- ٤٤ - ارجع إلى الآيات الكريمة التي أوردناها ص ٣٠٣.
- ٤٥ - ارجع إلى الآيات الكريمة التي أوردناها ص ٣٠٣.
- ٤٦ - الطبري: ٥٢/٣ والسيرة ٧١٥/٣.
- ٤٧ - الطبري: ٥٢/٣ والسيرة ٧١٥/٣.
- ٤٨ - السيرة: ٧١٧/٣، وقيل حاصرهم شهراً (انظر الطبري: ٥٢/٣ وما بعدها).
- ٤٩ - السيرة: ٥٦٠/٢.
- ٥٠ - السيرة: ٧٢٠/٣.
- ٥١ - الطبري: ٥٢/٣ وما بعدها. السيرة: ٧٢٠/٣ واللفظ للطبري.
- ٥٢ - الطبري: ٥٢/٣ وما بعدها. وفي السيرة: ٧٢١/٣ أنه ﷺ قال لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». وكان فتح بني قريظة في ذي القعدة وصدر ذي الحجة من سنة خمس للهجرة.
- ٥٣ - ديوانه ص ٢٧٩، والسيرة: ٧٤٤/٣، وتتألف من سبعة أبيات.
- ٥٤ - ماسآها: أراد ماساءها والعرب تفعل ذلك في بعض الأفعال مثل: جذب وجبذ.
- ٥٥ - يُدَان: يُجَازَى. الفند: الخروج عن الحق. الفخور: مجرور بمجاورته للفند (أو لوصفه على ضعف).
- ٥٦ - النذير: هنا مصدر بمعنى الإنذار، قال تعالى: «فستعلمون كيف نذير» أي إنذاري (سورة الملك: ١٧/٦٧).
- ٥٧ - ديوانه ص ٣٨٨، والسيرة، ٧٤٤/٣، وهي في الديوان خمسة أبيات وفي السيرة أربعة.
- ٥٨ - ما عطاها: ماساءها وقد ورد في السيرة: ماسآها.

٥٩ - ديوانه ص ٢٤٩، والسيره: ٧٤٥/٣ وتتألف من أربعة أبيات، وقد جاء في الديوان أنه قال هذه المقطوعة ردًا على شاعر اسمه جبل بن جوال الثعلبي وفي الهامش ذكر العكس أي أن جبل بن جوال هو الذي ردّ عليه كما جاء في السيرة.

٦٠ - تفاقد معشر: فقد بعضهم بعضًا، يدعو عليهم بالهلاك.

٦١ - الكتاب: التّوراة. بور: هلكى من البوار يعنى ضلّالاً.

٦٢ - القران: القرآن الكريم. وقد أتيتم: يقول جاء في التوراة التبشير بمحمد ﷺ وبما جاء به.

٦٣ - سرّاة بني لؤي: خيارهم. وبنو لؤي يقصد بهم قريش. البويرة: موضع بني قريظة. وقد جاء في السيرة: ٧٤٥/٣ أنه قد ردّ على حسّان شاعران اثنان هما: أبوسفیان بن الحارث ابن عبدالمطلب وجبل بن جوال الثعلبي. بينما رأى الديوان في المتن أن حسّان قد ردّ على جبّل بن جوال، وجاء في الهامش أن جبّل بن جوال هو الذي ردّ عليه موافقاً ما جاء في السيرة.

٦٤ - السيرة: ٧٤٣/٣، وتتألف من تسعة أبيات.

٦٥ - السيرة: ٧٤٣/٣.

٦٦ - ديوانه: ص ٣٠٩.

٦٧ - ارجع إلى ص ٢١٠ من هذا المؤلّف.

٦٨ - انظر ص ٢٣٥ من هذا المؤلّف.

٦٩ - سبق التعريف به ص ٢٩٨ من هذا المؤلّف.

٧٠ - خيبر: ناحية على ثمانية بُرد من المدينة لمن يريد الشّام، أو هي على نحو ميل من المدينة باتجاه الشمال الغربي وهذا الاسم يطلق على الولاية، وهي تشتمل على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، وربما سُمّيت «خيابر» وقد فتحها النبي ﷺ كلها سنة سبع، قيل غزاها ﷺ حين مضى ستّ سنين وثلاثة أشهر وأحد وعشرون يوماً للهجرة، وقد نازلهم رسول الله ﷺ قريباً من شهر، ثم صالحوه على حقن دماءهم وترك الذرية على أن يخلّوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبرّة: وقد وافق الرسول ﷺ أن يتركهم يعملون في الأرض على النصف لأنهم ذكروا له أن المسلمين لا يحسنون العمل في الأرض، ولكنه اشترط عليهم إمكان أن يجلبهم المسلمون من الأرض متى شاؤوا. ثم أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لما ظهر فيهم الزنا وتعبثوا بالمسلمين - إلى

الشام، لأنه سمع أن النبي ﷺ قال: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» وكان آخر ما عهد به ﷺ أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان» (السيرة ١٠٧٩/٤).

٧١ - انظر ص ٣٠١ من هذا المؤلف.

٧٢ - ديوانه ص ٣٢٨، والسيرة: ٣٤٨/٣ وتتألف من أربعة أبيات.

٧٣ - يَسْرُونَ من السرى وهو السير ليلاً. البيض الرقاق: السيوف. مَرَحًا: نشاطًا. عرين مُعْرِف: عرين في أجمة فيها ماء وشجر كثيف والغريف: الأجمة من البردي والحلفاء والقصب، أو الشجر الكثير المتلف.

٧٤ - القرقف: الخمر، والماء البارد. وقرقف من البرد: أُرْعِد، وقرقف الرجل في الضحك "اشتد والقصد هنا: السيوف البيض الشديدة المرعدة المتهالكة.

٧٥ - مجحف: ذاهب بالنفوس والأموال.

٧٦ - السيرة: ٧٣٣/٣.

٧٧ - لعلمهم أخذوا بالمثل العربي المشهور: «أَوْسَعَتْهُمْ سَبًّا وَأَوْدَوْا بِالْإِبْلِ»، وهو مثل يضرب لمن يسب عدوه، وقد أخذ عدوه منه ماله أو نعمه. (المنجد ص ١٠١٢).

٧٨ - الأغاني: ١٤٥/٤ ويلاحظ أن هذا الخبر بمجموعه قد اضطرب كتاب الأغاني في روايته فأورده بأكثر من صيغة وجزأه إلى أكثر من جزء.

٧٩ - هو كعب بن مالك، وقد سبق التعريف به، ص ١١٤.

٨٠ - عبدالله بن رواحة، وقد سبق التعريف به، ص ١١٥.

٨١ - الأغاني: ١٣٩/٤.

٨٢ - المرجع السابق.

٨٣ - سبق التعريف به ص ١٥١ من هذا المؤلف.

٨٤ - ديوانه ص ٢١٥، وتتألف من سبعة أبيات.

٨٥ - الغصن ذو الأفنان: يقصد الرسول ﷺ. الواحد الوغد: يقصد أبا سفيان. الوغد: الرذّل والدنيء..

٨٦ - بنت مخزوم هي: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهي أم أبي طالب وعبدالله والزبير بن عبدالمطلب ولها خمس بنات هن: أم حكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرّة. والدك العبد: لأن أمه كانت أمةً كما سيرد.

٨٧ - أفناء الناس: خليطهم، وزهرة حيّ من قريش أحوال رسول الله ﷺ، وابنتهم هي هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.. وأبناؤها هم: حمزة والمقوم وحجل (يلقب بالغيداق) وصفية أبناء عبدالمطلب.

٨٨ - ولست كعباس ولا كابن أمّ: يريد العباس وضراً ابني عبدالمطلب وأمهما نائلة بنت جناب ابن كليب من النمر بن قاسط بن ربيعة. الهجين: العربي ابن الأمة. لا يُورى له زند: كناية عن لؤمه وشحه.

٨٩ - الزنيم: المستلحق في قوم ليس منهم، أو الدعيّ المُلزق. القدح الفرد: الراكب يعلّق قدحه في آخر رحله عند الفراغ من ترحاله ويجعله خلفه.

٩٠ - القرد والقُراد: الواحدة قُرْدَة وقُرادة ج قِرْدان أيضاً، وهي دويبة تلصق في أعجاز الإبل.

٩١ - سمية هي أم أبي سفيان بن الحارث وهي أم ولد، وسمراء أم أبيه الحارث بن عبدالمطلب وهي أم ولد وللتوضيح: عبدالمطلب:

- زوجه الأولى: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم: أولاده منها: أبوطالب وعبدالله أبو محمد ﷺ، والزبير + (أم حكيم - عاتكة - أمية - أروى - برّة).

- زوجه الثانية: هالة بنت وهيب بن عبدمناف بن زهرة: أولاده منها: حمزة والمقوم وحجل (يلقب بالغيداق).

- زوجه الثالثة: نائلة بنت جناب (من النمر بن قاسط بن ربيعة بن نزار): ولداه منها: العباس وضرار.

- زوجه الرابعة: سمراء بنت جندب (من بني عامر بن صعصعة (أمة) وابنها الحارث تزوج سمية (أمة) وابنها أبوسفيان.

- زوجه الخامسة: بُنَى بنت هاجر الخزاعية: ابنها أبولهب: (أنظر: الاستيعاب: ١٢٨/١، والعقد الفريد: ٣١٦/٣) وسيرة ابن هشام: ٧١/١.

٩٢ - ديوانه: ص ٤٠٣ وتتألف من خمسة أبيات.

٩٣ - ديوانه ص ٤٦٥ وتتألف من أربعة أبيات.

٩٤ - ديوانه: ص ٤٦٦، وتتألف من ستة أبيات.

٩٥ - الأغاني: ١٣٩/٤ و ١٤٠.

٩٦ - ديوانه ص ٣٥٤.

٩٧ - كما يرى الأستاذ خلف الله في مجلة الثقافة ولم أعثر على المصدر الذي اعتمد عليه.

٩٨ - هو خزاعي بن عبد نُهم بن عفيف المزني كان يحجب صنماً لُمزينة اسمه «نُهم»، فكسر الصنم، ولحق بالنبي ﷺ فأسلم، وهو يقول:

نَهَبْتُ إِلَى نُهْمٍ لَأَذْبَحَ عَنْدَهُ
عَتِيرَةَ نُسْكَ كَالَّذِي كُنْتُ أَفْعُلُ
فَقُلْتُ لِنَفْسِي حِينَ رَاجَعْتُ حَرْمَهَا
أَهَذَا إِلَهَ أَبِكُمْ لَيْسَ يَعْزِلُ
أَبَيْتُ فِدَيْنِي الْيَوْمَ دِينَ مُحَمَّدٍ
إِلَهَ السَّمَاءِ الْمَاجِدُ الْمُتَفَضَّلُ

وباع النبي ﷺ على نفسه وبأيعه على مزينة، ولكنها استعصت أولاً، ثم أسلمت، ودفع رسول الله ﷺ إليه لواءهم يوم الفتح.

٩٩ - مُزَيِّنَةُ بنت كلب بن وَبَرَةَ: أم جاهلية تنسب إليها ذرية ابنائها عثمان وأوس ابني عمرو بن أَدَّ بن طابخة من مضر من نسلها زهير بن أبي سلمى المزني وكثيرون. كانت منازلهم في جبال رضوى وما حولها، ومن منازلهم جبل قُدُس وجبال نَهَب بقرب المدينة المنورة.

١٠٠ - هذه الأبيات لم ترد في ديوانه - طبعة دار الأندلس.

١٠١ - عثمان بن عمرو بن أَدَّ بن طابخة من مضر: جد جاهلي بنوه بطن من مزينة كما ذكرنا قبل قليل.

١٠٢ الشَّراء: بيع النفوس لله سبحانه، وقد سمِّي الخوارج «الشَّراء» لأنهم باعوا نفوسهم لله.

١٠٣ - عِدَاء: بطن «خزاعي» الذي هو منهم (أو عشيرته).

١٠٤ - مجلة الثقافة: العدد ٢٣٦ ص ١٤.

أشعار السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل:

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة منصرفاً من بدرٍ بعد أن وفى بالوعد وأخلف المشركون، فأقام فيها حوالي خمسة أشهر، ثم خرج في شهر ربيع الأول سنة خمسٍ للهجرة في ألفٍ من المسلمين إلى «دومة الجندل»^(١) عندما بلغه أن بها جمعاً من المشركين يريدون الدنو من المدينة المنورة، فإذا القوم مغربون (أحوالهم حسنة)، فهجم على ما شيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب وبلغ الخبر أهل دومة الجندل، فتفرقوا، ونزل ﷺ بساحتهم، فلم يجد أحداً، فرجع ﷺ إلى المدينة لم يلق كيداً. ولم ينقل إلينا لحسان شعر في هذه الغزوة.

غزوة الخندق:

وتمرّ الأيام بعد هذا سراعاً من دون أن نقع لحسان على شعر حتى نصل إلى شهر «شوال»^(٢) من السنة الخامسة للهجرة، وفيه يقع حدث ضخم في تاريخ الدعوة الإسلامية: إنه غزو الأحزاب المدينة المنورة أو «غزوة الخندق»، وأظن أنه لا حاجة بنا إلى تفصيل الحادثة، فهي أشهر من ذلك، ولذا سنقتصر على الإشارة الموجزة إلى عواملها ومراحلها، وعلى تعرّف موقف حسان منها وماذا أوحى إليه؟.

حين رأت يهود أن المشركين انتصروا على رسول الله ﷺ في أحد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين في بدر الموعد وتأجيله الموعد عاماً آخر خيل إليهم أن ثمة أملاً في القضاء على الدعوة الإسلامية، فخرج بعض رؤسائهم كسلاًم بن أبي الحقيق^(٣) وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق^(٤) إلى قريش يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ، ويعدونهم بالتضافر معهم، فاستجابت قريش لهم، ثم خرجوا إلى غطفان^(٥)، فدعواهم

كذلك، فاستجابوا لهم، ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم لحرب الرسول ﷺ، فاستجاب لهم من استجاب.

وخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب بأربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم^(٦) بمر الظهران، وخرجت بنو أسد^(٧) وفزارة^(٨) وأشجع^(٩) وبنو مرة^(١٠)، وخرجت غطفان بقيادة عيينة بن حصن^(١١) فكان مجموع من وافى الخندق من الأحزاب عشرة آلاف، وإن تعجب فعجب أن يختلف هؤلاء على شربة ماء، أو نبتة عشب، أو كلمة تقال في مجمع، أو لفظة تنقل في شعر أو نثر، فتشتعل الحروب، وتسفح الدماء.. بينما يتفقون على حرب رسول الله ﷺ.

ولما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم استشار أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي^(١٢) بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بحفره، فبادر المسلمون ودأبوا، وعمل فيه الرسول ﷺ بنفسه وحفر الخندق أمام جبل «سَلْع»^(١٣)، وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين فتحصنوا بالجبل من خلفهم وبالخندق أمامهم.

وليتيم يهود حبك خيوط المؤامرة ذهب حبي بن أخطب^(١٤) إلى بني قريظة، وهم في حصنهم يحرضهم على حرب رسول الله ﷺ وعلى نقض عهدهم معه، فأبى سيدهم كعب بن أسد^(١٥)، ورفض أن يدخله الحصن أولاً، ولكنه ألح في كلامه، وبين له قوة الغزاة وضخامة عددهم، وصور له أنها فرصة يهود الثمينة للقضاء على محمد ﷺ حتى أقنعه بنقض العهد مع رسول الله ﷺ، وتعهده له إن لم يظفر المشركون بمحمد ﷺ أن يجيء، ويدخل معهم في الحصن، فيصيبه ما يصيب بني قريظة، ووفى له بما تعهد فعلاً.

وبلغ الرسول ﷺ نقض بني قريظة العهد وغدرهم، فاشتد ذلك على المسلمين، وازداد الخوف وعظم البلاء، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظنٍّ وامتحنوا امتحاناً قاسياً، يقول تعالى: «إذ جاؤوكم من فوقكم ومن

أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنّون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً»^(١٦).

ونَجَمَ النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: كان محمدٌ ﷺ يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، يقول تعالى: «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً...»^(١٧)، وزاد الطين بلة أن همَّ بعضهم بالفشل وترك مواقعهم، واستأذن بعضهم النبي ﷺ بالرجوع إلى المدينة بحجة أن بيوتهم عورة، يقول تعالى: «وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً...»^(١٨).

أما المؤمنون فقد ذكر القرآن الكريم صدقهم وتصديقهم بما وعدهم الله من البلاء يختبرهم به في قوله تعالى: «ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً...»^(١٩).

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً (أو قريباً من شهر)، وليس بينهم حرب إلا الترامي بالنبل.. إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود^(٢٠)، وعكرمة بن أبي جهل^(٢١)، وهبيرة بن أبي وهب^(٢٢)، وضرار بن الخطاب بن مرداس^(٢٣) تيمّموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم، فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب عليه السلام في نفرٍ من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الشجرة التي أقحموا خيلهم منها، وبارز علي كرم الله وجهه عمرو بن عبد ود فقتله، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق هاربة، وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه وهو منهزم عن عمرو بن عبد ود، وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة: «حم لا يُنصرون»، ولما طالт الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يصالح رئيسي غطفان^(٢٤) على ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بقومهما، ولما استشار السعديين: سعد بن معاذ سيد الأوس^(٢٥) وسعد بن عباد سيد الخزرج^(٢٦) قالوا: إن كان

الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعةً، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، وقال سعد ابن معاذ: لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف. فاستحسن ﷺ رأيهما وقال: إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

في هذا الظرف العصيب المكفهر والدنيا على المسلمين أضيق من سم الخياط، وإن لم يفقد الصادقون ثقتهم بالله العليّ القدير جاء رجل من غطفان يدعى «نُعَيْم بن مسعود بن عامر»^(٢٧) إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إني قد أسلمت فمرني بما شئت. فقال ﷺ إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة، فذهب من فوره إلى بني قريظة وكان عشيراً لهم في الجاهلية ولم يعلموا بإسلامه فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، قال: إن قريشاً وغطفان من خارج المدينة، وقد جاؤوا لحرب محمد، وظاهرتموهم عليه، فإن رأوا نهزةً أصابوها، وإلا لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبينه فينتقم منكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن من أشrafهم، وبذا يجبرون على الاستمرار معكم في القتال. قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عني، قالوا: نفعل. قال: بلغني أن يهود قد ندموا على نقضهم العهد مع محمد، وأنهم أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً من أشrafهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم، فوافق. فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم.. ثم أتى غطفان فقال لهم ما قال لقريش.

ولما كانت ليلة السبت من شوال أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان رسلاً إلى بني قريظة أن ينهضوا معهم لمناجزة محمد متذرعين بحجة طول زمن الحصار وقرب نفاد المؤونة لديهم، فقالوا لهم: إن اليوم يوم سبت لا نقاتل فيه خوفاً من العقاب، ومع هذا

فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإننا نخشى إن ضُرسَكم الحرب أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: صدقكم نعيم وتخاذل الفريقان، وبعث الله عز وجل على المشركين الريح في ليلٍ شاتية شديدة البرد فجعلت تقوض خيامهم وتكفأ قدورهم، وقذف الله الرعب في قلوبهم، فرحلت قريش ليلاً، ولحقت غطفان بديارها^(٢٨)، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود بديارها عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً»^(٢٩)، وقال تعالى: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً...»^(٣٠).

مثل هذه الحادثة الخطيرة التي كادت لولا لطف الله وعنايته أن تسحق الدعوة الإسلامية وتقضي على رجالها لا يمكن أن تمر من دون أن تترك أثراً في الشعر، ومن أخرى من شاعر الدعوة الإسلامية بالاهتزاز لهذا الحادث الجلل! فلقد ألم شاعر الدعوة بالألم أن يتوجه مثل ذاك العدد الضخم من مشركة العرب للقضاء على الدعوة الإسلامية في منبتها الجديد الذي بدأت فيه تستنشق عبير الحرية وتستروح نسائم الحياة لتشق طريقها نحو القلوب الميتة فتحييها والأبصار الزائغة فتشفيها، وتقذ الناس من عبادة الحجر والشجر إلى عبادة بارئ النسم جل جلاله، فقال قصيدته البائية، ومطلعها^(٣١):

هل رَسْمُ دَارِسَةَ الْمَقَامِ يَبَابِ

مَتَكَلَّمِ لِمَحَاوِرِ بَجَوَابِ

وبعد وقفة قصيرة على الديار وحسانها يدعو نفسه إلى تجاوز هذا الأمر لوجود ما هو أهم منه:

فَدَعِ الدِّيارَ وَنَحَرَ كلَّ خَريدَةٍ
بِيضاءِ أنسَةِ الحَديثِ كَعابِ
وَاشْكُ الهمومَ إلى الإلهِ وما تَرى
مِنَ مَعرِشٍ مَتأَلِّبينَ غِضابِ
أُمُّوا بِغَزوهِمُ الرِسلَ وأَلبُوا
أهلَ القُرى وبِواديِ الأعرابِ
جِيشٌ عَينَةٌ وابنُ حَربٍ فيهِمُ
مُتَخَمِّطونَ بِحِلْبَةِ الأَحزابِ^(٣٢)

ويمضي حسان في قصيدته فيبين أطماع المشركين وآمالهم وغرورهم، ويذكر
خيبة تلك الآمال بتدبير محكم سديد من رب العباد:

حَتى إذا وَرَدُوا المَدينَةَ وارْتَجَّوا
قَتْلَ النَبِيِّ ومُغَنَمِ الأَسلابِ
وَعَدُوا عَلَينا قادِرِينَ بِأَيدِهِمُ
رُدُّوا بِغَياطِهِمُ على الأَعقابِ
بِهَبوبِ مَعْصِفَةٍ تَفرِّقُ جَمعَهُمُ
وَجَنودَ رَبِّكَ سَيدِ الأَربابِ

ثم يتحدث عن موقف المسلمين وقنوطهم، وتفريج الله سبحانه عنهم، ويعرج على
موقف المنافقين، فيقول:

وَكفى الإلهُ المَؤمِنينَ قَتالَهُمُ
وأثابَهُمُ في الأَجَرِ خَيرَ ثَوابِ
مِنَ بَعدِ ما قَنَطُوا ففَرَّجَ عَنْهُمُ
تَنزِيلَ نَصِ مَليكَنا الوِهابِ
وأقرَّ عَينَ مُحَمَّدٍ وِصِحابِهِ
وأَذَلَّ كلَّ مَكذِبٍ مَرتابِ

مستشعر للكفر دون ثيابه

والكفر ليس بطاهر الأثواب

إنه يحسن الاستفادة - وإن على قلة - من المعاني الإسلامية والقرآنية كما يلاحظ، وسنفصل هذا فيما يأتي.

ولحسن في هذه المناسبة كذلك مقطوعة يتحدث فيها عن الثأر ممن قتلوا أحد أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق، وفيها يذكر كيف ولَّى المهاجمون مبدئين وقد قتل قائدهم وكانت مشومة طلعت وكيف قتل عمرو بن عبد ود، ويذكرهم ببدر التي اندحروا فيها، ويهددهم بغزاة وشيكة، ومطلعها^(٣٣):

لقد جُدعتُ أذان كعبٍ وعامر

بقتل ابن كعب ثم حُرَّتْ أنوفها^(٣٤)

وقد ذكرنا قبل قليل أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بارز البطل المشهور عمرو بن عبد ود العامري حينما اقتحم بفرسه الخندق، ومعه مجموعة من الفرسان المشركين، فقتله، فاهتز حسان لهذا النصر المبين، ولا عجب فقد انهد ركن وثيق من أركان الشرك، فقال مقطوعة مطلعها^(٣٥):

أمسى الفتى عمرو بن ودٍ ثاويًا

بجنوب سلعٍ ثأره لم يُنظر^(٣٦)

ومنها قوله يخاطبه:

ولقد وجدتُ سيوفنا مشهورةً

ولقد وجدتُ جيادنا لم تُقصر^(٣٧)

ودَّكره بيوم بدر - إن نفع التذكير - يوم جرحته سيوف المسلمين وأثبتته الجراحات:

ولقد لقيت غداة بدرٍ عصبهً

ضربوك ضربًا غير ضرب الحُسَر^(٣٨)

وختمها بقوله:

أَصْبَحْتَ لَا تُدْعَى لِيَوْمٍ عَظِيمَةٍ
يَا عَمْرُو أَوْ لَجْسِيمٍ أَمْرٍ مَنكَرٍ^(٣٩)

واتخذ حسان من مقتل عمرو بن عبد ودّ منداح فخرٍ عريض، ولا غرابة فقتل مثله مرتقى صعب ومأثرة بطولية لا تكاد تعدلها مأثرة، ومن يقتل صناديد الرجال يهن عليه قتل زعانفها، وقد ذكره هذا النصر المبين بيوم بدرٍ الأغر يوم العزائم الصادقات، وها هو ذا يقول^(٤٠):

بَقِيَّتُكُمْ عَمْرُو أَبْحَنَاهُ بِالْقَنَّا
بِيِثْرِبِ نَحْمِي وَالْحِمَاةَ قَلِيلُ
وَنَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ بِكُلِّ مَهْنَدٍ
وَنَحْنُ وَلَاةُ الْحَرْبِ حِينَ نَصُولِ
وَنَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ بِبَدْرٍ فَأَصْبَحْتَ
مَعَاشِرَكُمْ فِي الْهَالِكِينَ تَجُولِ

وبعد أن قتل عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه عمرو بن عبد ود انهزمت الخيل التي كانت معه والتي اقتحمت الخندق.. وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذ، وهو منهزم عن عمرو، ووجد حسان في هذا الفرار مثلبة ترفد فنه بمادة ثرية، فقال^(٤١):

فَفَرُّوْا لِقَى لَنَا رَمَحِهِ
لَعَلَّكَ عِزٌّ لَمْ تَفْعَلِ
وَوَلَّيْتَ تَعْدُو كَعْدُو.. الظَلِي
مَ مَا إِنْ تَجُورُ عَنِ الْمَعْدِلِ
وَلَمْ تَلْقَ ظَهْرَكَ مَسْتَأْنَسًا
كَأَنْ قَفَاكَ قَفَا فُرْعُلٍ^(٤٢)

هذا ويلاحظ أن البائية كانت أطول نفساً من بقية ما ورد عن الشاعر هنا، وإنها لتحمل الكثير من المعاني الإسلامية الواضحة مع محاكاة بعض الأساليب القرآنية،

وأهمها كما يظهر من الشواهد التي سبق إيرادها:

١ - اللجوء بالشكوى إلى الله سبحانه من معشر متألبين غضاب، ولا جرمَ قائله ملاذ المسلمين.

٢ - المهاجمون مشركون قصدوا إيذاء الرسول ﷺ، وألبوا أهل القرى والبوادي.

٣ - حين خيل لأولئك الأحزاب أنهم قادرون على تنفيذ ما ربههم ردهم الله بغیظهم، وهو هنا يستخدم أسلوباً يحاكي الأسلوب القرآني في قوله جلت قدرته: «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس»^(٤٣).

٤ - ردهم الله سبحانه على أعقابهم بإرسال عواصف شديدة تبدهم، وجنود ريانين وهم الملائكة.

٥ - كفى الله المؤمنين القتال، وأثابهم خير ثواب.

٦ - أقر الله سبحانه وتعالى عين النبي ﷺ وأصحابه، وأذل المنافقين المرتابين الذين يبطنون الكفر.

٧ - الكفر ذميم، وليس طاهر الأثواب..

وحسان هنا على عادته - وعلى سنن شعرائنا الأقدمين - لا يتعمق النفسيات كثيراً، ولا ينفذ إلى الجزئيات بدقة وتفصيل، ولعلَّ أهمَّ ما يميزُّ الأشعار التي قيلت بمناسبة غزوة الخندق الإيجاز أو اللوحة الخاطفة وهذا ما يتسم به حسان في معظم شعره بل وما يتصف به الشعر العربي القديم، ولا سيَّما الجاهلي منه بوجه عام، وإنه لتطالعنا في سورة الأحزاب التي خلدت غزوة الخندق وحياً دقائقُ نفتقدها في شعر حسان، إنه لم يقف الوقفة التي يتطلبها الظرف الدقيق المخرج آنذاك ليس في جبهة المشركين فحسب، ولكن في الجبهة الداخلية للمسلمين أيضاً، فالقرآن الكريم حدثنا عن المنافقين، وكانوا يشكلون قسماً غير قليل عدداً ومكانة، وفي وسعهم أن يفتحوا ثغرة

غير قليلة في الجبهة الإسلامية، وقد راحوا يرجفون في الناس أن ما وعده الله ورسوله ليس إلا غروراً، واعتذر قسم منهم عن العمل في حفر الخندق، وطلبوا الرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة وليست كذلك على الرغم من أنهم قد عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار^(٤٤)، كما أن القرآن الكريم حدثنا بلون من البراعة والدقة عن موقف المسلمين حين زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وعن موقف الصادقين منهم والراسخي الإيمان الذين صدقوا وعد الله ووعد رسوله، وازدادوا إيماناً وثباتاً^(٤٥) وإنني أنصح بالعودة إلى سورة الأحزاب وتلاوتها بروية وتمعن.

على أية حال ما كنا لنكلف حسان بن ثابت أن يبلغ المرتبة الفنية التي بلغها القرآن الكريم، وأتئى له ذلك، وقد أعجز الفصحاء جميعاً والعرب كافة.. ولكنها كلمة لا بد منها لإجلاء بعض الجوانب وتوضيح بعض المرامي، ولفت الأنظار نحو البيان الإلهي.

غزوة بني قريظة:

ولما أصبح رسول الله ﷺ بعد تلك الليلة المكفهرّة ليلة الخندق التي سخر الله سبحانه وتعالى فيها الريح العاصفة على المشركين فأطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم وقلعت خيامهم فعجلوا بالرحيل، ووقف على عجيب صنع الله سبحانه «انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة هو والمسلمون ووضعوا السلاح، فلما كان الظهر أتى جبريل (عليه السلام) رسول الله ﷺ»^(٤٦)، وحثه على قتال بني قريظة الذين غدروا بعهدهم في أخرج الساعات وظاهروا قريشاً والأحزاب على رسول الله ﷺ، فبعث الرسول ﷺ منادياً يؤذن في الناس «أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»^(٤٧)، وقدم ﷺ عليّ بن أبي طالب برأيه إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار حتى بلغ حصونهم وكانوا قد تحصنوا فيها، وحاصروهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب^(٤٨)، ونزلوا أخيراً على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس، وكانوا حلفاء بني قريظة في الجاهلية يريدون أن يصنع بهم ما صنع ببني قينقاع حلفاء الخزرج في الجاهلية، إذ نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فوهبهم لعبد الله بن أبي^(٤٩)، فلما كلمت الأوس رسول الله ﷺ في ذلك، قال: ألا ترضون

يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى قال رسول الله ﷺ: فذلك إلى سعد بن معاذ، فجيء بسعد، وكان جريحاً أصابه سهم يوم الخندق^(٥٠)، والتف حوله بعض قومه يقولون له: «أحسن في مواليك..» فلما أكثروا عليه، قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم^(٥١)، وكان حكمه فيهم «أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى ذراريهم وأن تقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله..»^(٥٢).

هذا الموقف الحاسم الذي اتخذته المسلمون من عدوٍ لئيم لا يؤمن جانبه، غادرٍ لا عهد له ولا ذمة، مخاتل يترى بالمسلمين الدوائر حتى إذا حانت فرصة اهتبلها وانقض عليهم، قد اهترَّ له شاعر الدعوة إذ رأى فيه جزاءً عادلاً لما اقترفه هذا العدو الماكر الخؤون، ولم يجد له نصيراً، ولا جرم فالغدار الخائن حريٌّ به أن تدمى يده بما زرع من أشواك.. وهكذا وجدنا لحسان أكثر من أثر في هذه المناسبة:

له قصيدة رائية مطلعها^(٥٣):

لَقَدْ لَقِيتُ قَرِيظَةَ مَا سَاَهَا

وَمَا وَجَدْتُ لَذَلِكَ مِنْ نَصِيرٍ^(٥٤)

وفيها تحدث عما أصابهم من بلاءٍ كان قد أصاب مثله بني النضير، ووصف غزو الرسول إياهم وخيله وفرسانه وذكر ما آلوا إليه بسبب غدرهم وبعدهم عن الحق:

فَهُمْ صَرَعَى تَحُومَ الطَّيْرِ فِيهِمْ

كَذَاكَ يُدَانُ ذُو الْقَنْدِ الْفَخُورِ^(٥٥)

وأرسل من ثمَّ نصيحة لقريش لكيلا تلقى مثل هذا المصير:

فَأُرْدُفُ مِثْلَهَا نَصْحًا قَرِيشًا

مِنَ الرَّحْمَنِ إِنْ قَبِلْتُ نَذِيرِي^(٥٦)

وله مقطوعة لامية، مطلعها^(٥٧):

لَقَدْ لَقِيتُ قَرِيظَةَ مَا عَظَاَهَا

وَحَلَّ بِحِرْصِنَهَا نُلُّ ذَلِيلٍ^(٥٨)

وفيها ذكر إنذارٍ سعدٍ إياهم من قبل، ونقضهم العهد:

وسعد كان أنذرهم نصيحاً

بأن إلهَهُم رُبُّ جَلِيلٍ

فما برحوا بنقض العهد حتى

غزاهم في ديارهم الرسولُ

وله مقطوعة رائية، مطلعها^(٥٩):

تَفَاقَدَ مَعْشَرُ نَصْرُوا قَرِيشًا

وليس لهم ببلدتهم نصير^(٦٠)

وفيها ذكر أنهم أوتوا التوراه فضيعوها، وكفروا بالقرآن، مع أن التوراة جاءت

بتصديق الرسول ﷺ، وأن سادة قريش (بني لؤي) قد هان عليهم ما حصل بالبويرة

(موضع بني قريظة) من تكيل، ولم يهتموا به ولم يفزعوا له:

هُمُ أَوْتُوا الْكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ

فهم عمي من التوراة بور^(٦١)

كفرتم بالقرآن وقد أُتيتم

بتصديق الذي قال النذير^(٦٢)

وهان على سرة بني لؤي

حريق بالبويرة مستطير^(٦٣)

وله قصيدة في يوم بني قريظة يبكي سعد بن معاذ، ويذكر حكمه فيهم،

ومطلعها^(٦٤):

لَقَدْ سَجَمْتُ مِنْ دَمْعِ عَيْنِي عَبْرَةً

وَحَقَّ لِعَيْنِي أَنْ تَفِيضَ عَلَى سَعْدٍ

وفيها يقول:

فَأَنْتَ الَّذِي يَا سَعْدُ أُبَتِّ بِمَشْهَدٍ

كريم وأثواب المكارم والحمد
بحكمك في حيي قريظة بالذي
قضى الله فيهم ما قضيت على عمد
فوافق حكم الله حكمك فيهم
ولم تغف إذ ذُكرت ما كان من عهد

وذكر صاحب السيرة^(٦٥) أن حسان قال قصيدة عينية يبكي فيها سعد بن معاذ
ورجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ من الشهداء بهذه المناسبة، ومطلعها:
أيا لقومي هل لما حم دافع
وهل ما مضى من صالح العيش راجع
بينما رأى محقق الديوان^(٦٦) أنها قيلت في يوم بدر، وقد ناقشت هذا الموضوع
فيما سبق^(٦٧).

قتل ابن أبي الحقيق:

ذكرنا فيما سبق أن الأوس قتلت بعد موقعة بدر «كعب بن الأشرف» لشدة عداوته
للمسلمين وتشبيهه بنسائهم^(٦٨)، وقد أرادت الخزرج أن تباري الأوس في خدمة الرسول ﷺ
والإسلام لأن هذين الحيين كانا يتنافسان ويتباريان في خدمة النبي ﷺ والإسلام
والمسلمين فتذاكروا بعد أن انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة: من رجل في العداوة
لرسول الله ﷺ كابن الأشرف فذكروا «سلام بن أبي الحقيق^(٦٩)» وهو بخيبر^(٧٠)، وكان
ممن حزب الأحزاب^(٧١) على رسول الله ﷺ فاستأذنوا رسول الله ﷺ بقتله، فأذن لهم،
فخرج إليه منهم خمسة نفر، فقتلوه وهو في داره ليلاً.

وقد انتشى حسان لهذا العمل الفدائي الجليل، وتذكر قتل ابن الأشرف في عملية
فدائية بطولية سابقة كهذه، فقال مقطوعة فائية مطلعها^(٧٢):
لله در عصابة لاقيتهم
يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف

ووصف هذه المجموعة الفدائية بقوله:

يَسْرُونَ بِالْبَيْضِ الرِّقَاقِ إِلَيْكُمْ
مَرَحًا كَأَسَدٍ فِي عَرِينٍ مُعْرِفٍ^(٧٣)
حَتَّى أَتَوْكُمْ فِي مَحَلِّ بِلَادِكُمْ
فَسَقَوْكُمْ حَتْفًا بِبَيْضٍ قَرْقَفٍ^(٧٤)
مُسْتَبْصِرِينَ لِنَصْرِ دِينِ نَبِيِّهِمْ
مُسْتَصْغِرِينَ لِكُلِّ أَمْرٍ مَجْحَفٍ^(٧٥)

هَجَاءُ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ:

بعدما انصرفت جموع الأحزاب عن الخندق خائبةً مقهورة تجرُّ أذيال الفشل والوبال والخسران، وقد أخزى الله رجالهم، وأذل كبرياءهم، وخضد عنجهيتهم، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، ولم يحصدوا برّاً، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، إذ أرسل عليهم عواصف هوجاً وجنوداً من الملائكة، وكفى الله المؤمنين القتال، قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»^(٧٦)، وقد صدق الأمين فلم تغزهم قريش بعد ذلك، وكان رسول الله ﷺ هو الذي يغزوها حتى فتح الله عليه مكة المكرمة^(٧٦)، ويبدو أنه ﷺ أدرك بثاقب بصيرته أو بهدي ربه أن أولئك الخائبين المدحورين الذين شتت الله جموعهم وفتت حصاتهم سيحاولون أن يعوضوا عن خسارتهم هذه بتسليط ألسنتهم السليطة على المسلمين سباً وشتماً^(٧٧)، ولذا قال ﷺ - كما ورد في الأغاني^(٧٨): «من يحمي أعراض المسلمين؟ فقال كعب^(٧٩): أنا يا رسول الله، وقال: عبدالله بن رواحة^(٨٠): أنا يا رسول الله، وقال حسان ابن ثابت: أنا يا رسول الله، فقال: نعم، اهجهم أنت وإنه سيعينك عليهم روح القدس»، وذكر الأغاني في مكان آخر^(٨١) أنه ﷺ أراد أن يعرف من حسان كيف يرد على أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وهو ابن عم رسول الله ﷺ من دون أن ينال من الرسول ﷺ نفسه؟ فقال: يا حسان، وكيف وهو مني وأنا منه؟ قال: والله لأسلّنه منك كما يُسلُّ الشعر من العجين، قال: يا حسان فأت أبا بكرٍ فإنه أعلم بأنساب القوم منك^(٨٢)، فأتى أبا بكر فأعلمه، وبيّن له أنساب القوم، فقال قصيدته الدالية في هجاء أبي سفيان بن الحارث^(٨٣)، ومطلعها^(٨٤):

لَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ أَنَّ ابْنَ هَاشِمٍ

هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد^(٨٥)

ويتم حديثه مفصلاً في الأنساب:

وإن سَنَنامَ المجد من آل هاشم

بنو بنت مخزوم ووالدك العبد^(٨٦)

ومنّ ولدتْ أفناء زُهْرَة منهم

كرامٌ ولم يقرب عجائزك المجد^(٨٧)

ولست كعبّاس ولا كابن أمه

ولكنّ هجينٌ ليس يورى له زند^(٨٨)

وأنت زَنِيمٌ نَيط في آل هاشم

كما نَيط خَلْفَ الراكب القَدَحُ الفرد^(٨٩)

ومالك فيهم مَحْتَدٌ يعرفونه

فدونك فالصقّ مثلما لصقَ الفرد^(٩٠)

وإن امرأً كانت سَمِيَّةً أمه

وسمراء مغلوبٌ إذا بلغ الجهد^(٩١)

ويبدو أنه اتبعها بثلاث مقطوعات، الأولى: مطلعها^(٩٢):

فلست من المعشر الأكرم

من لا عبد شمس ولا نوفل

الثانية مطلعها^(٩٣):

لعمرك إن إلك من قریش

كإلّ السقّب من رآل النعام

الثالثة، مطلعها^(٩٤):

أيا راكباً إمّا عرضت فبلّغن

على النأي مني عبد شمس وهاشما

إذ إن هذه المقطوعات الثلاث متشابهة في روحها العامة، وفي المعاني التي

استخدمتها، وهي تقوم على نفي نسب المهجو عن بني هاشم الكرام، وجعله منوطاً هجيناً ..

ويُروى أنه لما أنشدت قريش شعر حسان، قالت: إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبي قحافة، وقال بعضهم: لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا^(٩٥)، والحق أن هذا المنفذ الذي بلغه الشاعر - من خلال توجيهات أبي بكر - دقيق جداً، فحق لقريش أن تعجب.

ولعله من الممكن أن توضع هنا المحاورة الموجزة بين أبي سفيان بن الحارث وحسان، فلأبي سفيان بيت شعري يقول فيه^(٩٦):

أَلَا مَنْ مَبْلُغُ حَسَّانَ عَنِّي
خَلَفْتُ أَبِي وَلَمْ تَخْلَفْ أَبَاكَ

فقال حسان مجيباً:

لَأَنْ أَبِي خَلَا فَنُتُّهُ شَدِيدُ
وَأَنْ أَبَاكَ مِثْلَكَ مَا عَدَاكَ

مع خزاعي بن عبد نُهم:

وفي هذه السنة سنة خمس للهجرة^(٩٧) وقد خزا عي بن عبد نُهم^(٩٨) على رسول الله ﷺ، فبايعه على قومه «مُزَيَّنة»^(٩٩) ثم خرج إلى قومه، فلم يجدهم كما ظن، فأقام فيهم.. فدعا رسول الله ﷺ حسان بن ثابت، فقال: «اذكر خزاعياً ولا تهجه»، فقال حسان^(١٠٠):

أَلَا أَبْلُغُ خَزَاعِيًّا رَسُولاً
بِأَنَّ الذَّمَّ يَغْسِلُهُ الْوَفَاءُ
وَأَنْكَ خَيْرُ عَثْمَانَ بْنِ عَمْرٍو
وَأَسْنَاهَا إِذَا دُكِرَ السَّنَاءُ^(١٠١)
وَبَايَعْتَ الرَّسُولَ وَكَانَ خَيْرًا
إِلَى خَيْرٍ وَذَاكَ هُوَ الشَّرَاءُ^(١٠٢)
فَمَا يَعْجِزُ وَمَا إِنَّ لَا تُطْفِئُهُ

من الأشياء لا تعجز عداء^(١٠٣)

فقام خزاعي في قومه، فقال: يا قوم قد خصكم شاعر الرجل، فأنشدكم الله..
قالوا: فإننا لا ننبو عليك، وأسلموا، ووفدوا على النبي ﷺ^(١٠٤).

مع الحارث بن عوف:

وهكذا كان رسول الله ﷺ يوجه مقدرة حسان الفنية توجيهاً حكيماً، يعرّض بها أحياناً بما يريد أو يلوح من دون تصريح، أو يطلقها أحياناً أخرى صريحةً سافرة ولكل مقام مقال وقد تغني الإشارة حيناً غناء الخطبة، وقد يندب الشعر ليترجم عما في أعماق النفس حين يضيق المقام:

فقد قدّم الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري^(١٠٥) على رسول الله ﷺ، فأسلم وقال له: ابعث معي من يدعو إلى دينك، وأنا جارٌ له، فأرسل ﷺ رجلاً من الأنصار، فغدرت بالحارث عشيرته، فقتلوا الأنصاري، فقدم الحارث على رسول الله ﷺ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يؤنب أحداً في وجهه، فقال: «ادعوا لي حسنًا»، فدعي له، فلمّا رأى حسان، الحارث أنشد^(١٠٦):

يا حار من يغدر بذمة جاره

منكم فإن محمداً لم يغدر^(١٠٧)

إن تغدروا فالغدر منكم شيمة

والغدر ينبت في أصول السخبر^(١٠٨)

وأمانة المُرّي حيث لقيته

مثل الزجاجة صدعها لم يجبر^(١٠٩)

فقال الحارث: اكففه عني يا محمد وأؤدي إليك دية الخُفارة^(١١٠)، فأدى إلى النبي ﷺ سبعين عُشْراً^(١١١)، وكذلك دية الخفارة، وقال: يا محمد أنا عائد بك من شرّه، فلو مزج البحر بشعره مزجه، ثم أعطى رسول الله ﷺ الدية إلى ورثة القتل^(١١٢).

الهوامش

١ - دُومَة الجنَـدل: واحة وبلدة في الجَوْف (أو جوف السرحان) في المملكة العربية السعودية، وجوف السَّرْحان ناحية في جزيرة العرب شمالي نجد على حدود بلاد الشام. وتعد دومة الجنـدل قاعدة جوف السرحان، وهي قريبة من جبلي طيء وقد نزلها بنو كنانة من كلب وكانت سوقاً تجارية من أهم أسواق العرب في الجاهلية، وتقع على الطريق ما بين المدينة المنورة ودمشق، بينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة، وهي من دمشق على خمس ليالٍ، وتتمركز في نقطة متوسطة تقريباً ما بين الشام والخليج العربي والمدينة، على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريباً، وهي في غائطٍ من الأرض طوله خمسة فراسخ، وعليها سور يُتحصن به، وفي داخل السور حصن منيع يقال له «مارد»، وهو حصن الملك أَكْيَدِر، وكان أكيدر عامل هرقل وكان يتعرض لقوافل التجارة وقد شاع أنه ومن معه يريدون الدنو من المدينة فخرج إليهم الرسول ﷺ في ألف من المسلمين سنة ٥هـ، ولما بلغ دومة الجنـدل وجد القوم قد تفرقوا فأخذ من نعمهم وشائهم ورجع ولم يلق كيداً، ولكن شرهم لم ينقطع عن تجار المدينة فبعث الرسول ﷺ سرية بقيادة عبدالرحمن بن عوف فلما بلغ دومة الجنـدل دعا أهلها إلى الاسلام فأسلم رئيس بني كلب وأناس معه وهو من ذوي السلطة؛ إذ كان يتداول السلطة على البلد مع أكيدر، ولكن أكيدراً صاحب دومة وعاملها لهرقل بقي على تعرضه للسابلة وتجار المدينة فأرسل إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد سنة ٩ هـ، فأسره، وقتل أخاه، وقدم به إلى النبي ﷺ، فحقت النبي ﷺ دمه، وصالحه على الجزية، وقيل إنه أسلم، فكتب له النبي ﷺ عهداً ولكنه ارتد بعد وفاة النبي ﷺ، فسار إليه خالد في خلافة الصديق وظفر به وأمر بقتله.

٢ - الطبري: ٤٣/٣. السيرة: ٦٩٩/٣. زاد المعاد: ١١٧/٢.

٣ و٤ - سبق التعريف بهما ص ٢٩٨ من هذا المؤلف.

٥ - غطفان بن سعد بن قيس عيلان من مضر، من العدنانية، جد جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، بنوه بطون كثيرة ترجع أنسابها إلى ابنه «أعصر» و«رَيْث»، فمن نسل الأول باهلة وغني، ومن نسل الثاني: أشجع وبغيض وعيس وذبيان، وكانت منازل غطفان فيما يلي

وادي القرى وجبلي طيء، وصنمهم في الجاهلية «العُزَّى» وهي شجرة عندها وثن، وقد قطعها خالد بن الوليد وكسر الوثن، وقد تفرقت غطفان في عهد الفتوحات الإسلامية في الأقطار.

٦ - بنو سليم سبق التعريف بهم ص ١٧٥ من هذا المؤلف.

٧ - بنو أسد: هنالك أكثر من قبيلة تحمل هذه التسمية وتتنسب إلى مثل هذا الجد:

أ - أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر: جد جاهلي ينسب إليه بعض الأسديين كانت بلادهم في نجد، ثم تفرقوا، وتكاثروا في شمال شبه الجزيرة وراء جبل شمر، ونزل جماعات منهم في البصرة والكوفة.

ب - أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان من العدنانية: جد جاهلي تفرع نسله عن بنيه «جُدَيْلَة» و«عَنْزَه» و«عَمِيرَه» ونشأ عن هؤلاء قبائل كثيرة وأكثر ما يقال لمن ينسب إلى أسد بن ربيعة «الرَبَيعي» بفتح الراء والباء.

ج - أسد بن عبد العزَّى بن قصي: جد جاهلي بنوه حي كبير من قريش ومنهم خديجة بنت خويلد وحكيم بن حزام، وورقة بن نوفل، وقد سبق التعريف به ص ٢٣٤ من هذا المؤلف.

د - أسد بن وبره بن تغلب من قضاة: جد جاهلي يرتفع نسبه إلى حمير من قحطان وممن ينسب إليه «بنو القَيْن» و«بنو حكم» و«بنو فارج». والمقصود هنا: بنو أسد بن خزيمة.

٨ و ١٠ - فزارة وبنو مرة: سبق التعريف بهما ص ١٧٤ من هذا المؤلف.

٩ - أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان: جد جاهلي غير معروف الولادة والوفاة النسبة إليه «أشجعي»، وكانت منازل غطفان قبل الإسلام بنجد، ونزل بنو أشجع حول يثرب (المدينة المنورة) ولم يبق أحدٌ منهم في نجد، ورحل إلى المغرب في الفتوحات الإسلامية جماعات منهم.

١١ - عُيَيْنَة بن حصن بن حذيفة بن بدر.. بن فزارة.. بن غطفان: كان في الجاهلية من الجرارين، يقود عشرة آلاف، أسلم بعد الفتح، وقيل قبله، وشهد حنيناً أو الطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم ومن الأعراب الجفاة. وكان ممن ارتد، وتبع طليحة الأسدي، وقاتل معه، فأخذ أسيراً وحمل إلى أبي بكر، فكان صبيان المدينة يقولون: يا عدو الله أكفرت بعد إيمانك؟! فيقول: ما آمنت بالله طرفة عين، ثم أسلم وأطلقه أبو بكر، وقد تزوج عثمان ابنته.

١٢ - سلمان الفارسي: صحابي من مقدميهم، كان يسمّى نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان ونشأ في قرية جيان، ورحل إلى بلاد الشام فالموصل فنصيبين فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب، فلقيه ركب من بني كلب، فاستعبده، ثم باعوه لرجل من بني قريظة، فجاء به إلى المدينة، ولما ظهر الإسلام قصد النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلم، واشترى نفسه من صاحبه. وكان قوي الجسم صحيح الرأي عالماً بالشرائع واسع الثقافة، جعل أميراً على المدائن، فأقام فيها حتى توفي سنة ٣٦ هـ/٦٥٦م بعدما عمّر طويلاً، وكان إذا خرج عطاؤه من الإمارة تصدق به، وكان ينسج الخوص، ويأكل خبز الشعير من كسب يده، وفيه قال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت» بعدما اختلف عليه المهاجرون والأنصار.

١٣ - سلع: جبل في سوق المدينة أو بقربها، وسلع مكان قريب من المدينة، وسلع تطلق على البتراء، وهنالك أماكن أخرى بهذا الاسم والمقصود هنا الجبل.

١٤ سبق التعريف به ص ٢٩٨.

١٥ - كعب بن أسد القُرَظِيّ: وصفته السيرة (٧٠٥/٣) بأنه صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، ولذا رفض - حفاظاً على العهد مع النبي ﷺ - أن يدخل حيي بن أخطب الحصن أولاً، ولكنه تراجع عن موقفه، ونقض العهد، وظهر من خلال حوارهم مع حيي أنه لا يخلو من فصاحة ولسان ولكن الجشع اليهودي غلب عليه. كما تبين أنه يتمتع بكثير من الحصافة والعدل حين عرض على يهود بعد خذل الأحزاب إحدى ثلاث: الأولى: متابعة محمد ﷺ وتصديقه لأنه تبين صدقه أنه نبي مرسل، وأنه هو الذي ذكرته التوراة (السيرة ٧١٧/٣) وقد وصفه أحد اليهود بأنه كأن وجهه مرآة صينية يترأى فيها عذارى الحيّ (السيرة ٧٢٣/٣). وقد جاء في الأعلام للزركلي: (٢٢٥/٥) اسم كعب بن أسد بن سعيد القرظي وهو شاعر جاهلي له مع قيس بن الخطيم مناقضات في يوم بعث ولعله هو. هذا وقد قُتل كعب بن أسد وحيي بن أخطب مع من قُتل من بني قريظة سنة ٥ هـ. وبني قريظة من قبائل يهود الذين سكنوا يثرب، وقد نكثوا عهدهم مع النبي ﷺ، وتحالفوا مع قريش في غزوة الأحزاب، فحاصروهم ﷺ في معقلهم بعد رحيل الأحزاب، وأعمل فيهم السيف وصادر أملاكهم.

١٦ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٣٣/١١٠: الذين جاؤوا من فوقهم بنو قريظة، والذين جاؤوا من أسفل منهم قريش وخطفان.

١٧ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ١٢/٣٣.

١٨ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ١٣/٣٣.

١٩ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٢٣/٢٢ و ٢٣.

٢٠ - عمرو بن عبد ود العامري من بني لؤي من قريش (٥٠٠ - ٥٥ هـ / ٥٠٠ - ٦٢٧ م) فارس قريش وشجاعها في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، قاتل في بدر فأثبتته الجراحة، وعاش إلى أن حضر موقعة الخندق، فقتله علي بن أبي طالب مبارزة. ولم يشتهر عمرو اشتهار غيره من فرسان الجاهلية كعنترة وعامر بن الطفيل لأن هؤلاء كانوا أصحاب غارات ونهب وأهل بادية أما عمرو فمن قريش وهؤلاء سكان مدينة وأهل مدر لا يرون الغارات.

٢١ - عكرمة بن أبي جهل (عمرو بن هشام) المخزومي القرشي: من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة، وحسن إسلامه فشهد الوقائع، وولي الأعمال لأبي بكر، واستشهد في اليرموك (أو يوم مرج الصفر) سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م) وعمره (٦٢) سنة. وفي الحديث «لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى» قال المبرد: فنهي عن سب أبي جهل من أجل عكرمة.

٢٢ - سبق التعريف به، ص ٢٦٨.

٢٣ - سبق التعريف به ص ١٠٠.

٢٤ - هما: عيينة بن حصن والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري (وقد عرف الأول وسيرد التعريف بالثاني بعد قليل).

٢٥ - سعد بن معاذ: سبق التعريف به ص ٢٣١.

٢٦ - سعد بن عباد: سبق التعريف به ص ١٣٠.

٢٧ - نُعَيْم بن مسعود بن عامر الأشجعي الغطفاني أبوسلمة: أسلم في وقعة الخندق وهو الذي أوقع الخلف بين قريظة وطفان وقريش يوم الخندق، وخذّل بعضهم عن بعض، وأرسل الله عليهم الريح والبرد والجنود (وهم الملائكة)، فصرف كيد الكفار عن النبي ﷺ والمسلمين. توفي رحمه الله في زمن خلافة عثمان، وقيل بل قتل يوم الجمل.

٢٨ - للتوسع انظر سيرة ابن هشام: ٦٩٩/٣ وما بعدها وزاد المعاد: ١١٧/٢ وما بعدها. وقد ورد في السيرة: ٧٣٣/٣ أن رسول الله ﷺ قال لما انصرف أهل الخندق عن الخندق: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم». فلم تغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو الذي يغزوها حتى فتح الله عليه مكة المكرمة.

٢٩ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٩/٣٣،

٣٠ - القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٢٥/٣٣.

٣١ - ديوانه ص ٦٧ وتتألف من أربعة عشر بيتاً.

٣٢ - عيينة: هو عيينة بن حصن وقد مرّت ترجمته قبل قليل. وابن حرب هو أبوسفیان بن حرب، وقد سبق التعريف به ص ٢٣٠، متخمطون: شديدو الغضب. الحلبة هنا: الاجتماع والتألب.

٣٣ - ديوانه ص ٣٢٠، وتتألف من ستة أبيات. أمّا البيت الذي هدّد فيه بغزو المشركين، وكأنّه ينطلق من قوله ﷺ الذي ذكرناه قبل قليل فهو:

وأخرى وشيكاً ليس فيها تحوّل

يضمّ المنادي جرشها وحفيفها

ديوانه: ٣٣١.

٣٤ - كعب وعامر حيان من قريش. ابن كعب يرجّح أنه كعب بن زيد الأنصاري من بني النجار، وقد أصابه يوم الخندق سهم غرّب (أي طائش لا يعرف من أين جاء) فقتله. ولم يرد من الذين استشهدوا يوم الخندق رجل يعرف بابن كعب وكانوا ستّة (انظر السيرة: ٧٣١/٣) وكعب هذا مرّت ترجمته ص ٢٩٨ وهو أحد الاثنين اللذين نجوا يوم بئر معونة (انظر ص ٢٩٤ من هذا المؤلف). وقوله: جدّعت أذان كعب وعامر وحزّت أنوفها: كناية عن الإذلال.

٣٥ - ديوانه ص ٣٤٥، وتتألف من أربعة أبيات.

٣٦ - ثاوياً: هالكا مطرحاً. سلع: جبل بقرب المدينة. لم يُنظر: لم يلتفت إليه.

٣٧ - مشهورة: مسلولة، تقول: شهر سيفه أي سلّه. لم تُقصر: لم تكف.

٣٨ - الحُسْر: ج حاسر وهو الضعيف أو الكليل أو التعب أو المصاب بالإعياء.

٣٩ - أمر منكراً: أمر صعب شديد.

٤٠ - انظر سيرة: ابن هشام: ٧٤٢/٣ ولم ترد في ديوانه ولا في التذييل، وهذه المقطوعة تقتصر على الأبيات الثلاثة التي أوردناها، وقد عقب عليها صاحب السيرة بقوله: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان...

- ٤١ - انظر السيرة: ٧٠٩/٣ ولم ترد الأبيات في ديوانه ولا في التذييل وهذه الأبيات الثلاثة - كما قال ابن هشام - «في أبيات له» ولكن لم يبين عددها ولا مرجعها.
- ٤٢ - الفرُّع: صغير الضباع.
- ٤٣ - القرآن الكريم - سورة يونس: ٢٤/١٠.
- ٤٤ - ارجع إلى الآيات الكريمة التي أوردناها ص ٣٠٣.
- ٤٥ - ارجع إلى الآيات الكريمة التي أوردناها ص ٣٠٣.
- ٤٦ - الطبري: ٥٢/٣ والسيرة ٧١٥/٣.
- ٤٧ - الطبري: ٥٢/٣ والسيرة ٧١٥/٣.
- ٤٨ - السيرة: ٧١٧/٣، وقيل حاصرهم شهراً (انظر الطبري: ٥٢/٣ وما بعدها).
- ٤٩ - السيرة: ٥٦٠/٢.
- ٥٠ - السيرة: ٧٢٠/٣.
- ٥١ - الطبري: ٥٢/٣ وما بعدها. السيرة: ٧٢٠/٣ واللفظ للطبري.
- ٥٢ - الطبري: ٥٢/٣ وما بعدها. وفي السيرة: ٧٢١/٣ أنه ﷺ قال لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». وكان فتح بني قريظة في ذي القعدة وصدر ذي الحجة من سنة خمس للهجرة.
- ٥٣ - ديوانه ص ٢٧٩، والسيرة: ٧٤٤/٣، وتتألف من سبعة أبيات.
- ٥٤ - ماسآها: أراد ماساءها والعرب تفعل ذلك في بعض الأفعال مثل: جذب وجبذ.
- ٥٥ - يُدَان: يُجَازَى. الفند: الخروج عن الحق. الفخور: مجرور بمجاورته للفند (أو لوصفه على ضعف).
- ٥٦ - النذير: هنا مصدر بمعنى الإنذار، قال تعالى: «فستعلمون كيف نذير» أي إنذاري (سورة الملك: ١٧/٦٧).
- ٥٧ - ديوانه ص ٣٨٨، والسيرة، ٧٤٤/٣، وهي في الديوان خمسة أبيات وفي السيرة أربعة.
- ٥٨ - ما عطاها: ماساءها وقد ورد في السيرة: ماسآها.

٥٩ - ديوانه ص ٢٤٩، والسيره: ٧٤٥/٣ وتتألف من أربعة أبيات، وقد جاء في الديوان أنه قال هذه المقطوعة ردًا على شاعر اسمه جبل بن جوال الثعلبي وفي الهامش ذكر العكس أي أن جبل بن جوال هو الذي ردّ عليه كما جاء في السيرة.

٦٠ - تفاقد معشر: فقد بعضهم بعضًا، يدعو عليهم بالهلاك.

٦١ - الكتاب: التوراة. بور: هلكى من البوار يعنى ضلّالاً.

٦٢ - القران: القرآن الكريم. وقد أتيتم: يقول جاء في التوراة التبشير بمحمد ﷺ وبما جاء به.

٦٣ - سرّاء بني لؤي: خيارهم. وبنو لؤي يقصد بهم قريش. البويرة: موضع بني قريظة. وقد جاء في السيرة: ٧٤٥/٣ أنه قد ردّ على حسّان شاعران اثنان هما: أبوسفیان بن الحارث ابن عبدالمطلب وجبل بن جوال الثعلبي. بينما رأى الديوان في المتن أن حسّان قد ردّ على جبّل بن جوال، وجاء في الهامش أن جبّل بن جوال هو الذي ردّ عليه موافقاً ما جاء في السيرة.

٦٤ - السيرة: ٧٤٣/٣، وتتألف من تسعة أبيات.

٦٥ - السيرة: ٧٤٣/٣.

٦٦ - ديوانه: ص ٣٠٩.

٦٧ - ارجع إلى ص ٢١٠ من هذا المؤلف.

٦٨ - انظر ص ٢٣٥ من هذا المؤلف.

٦٩ - سبق التعريف به ص ٢٩٨ من هذا المؤلف.

٧٠ - خيبر: ناحية على ثمانية بُرد من المدينة لمن يريد الشّام، أو هي على نحو ميل من المدينة باتجاه الشمال الغربي وهذا الاسم يطلق على الولاية، وهي تشتمل على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، وربما سُمّيت «خيابر» وقد فتحها النبي ﷺ كلها سنة سبع، قيل غزاها ﷺ حين مضى ست سنين وثلاثة أشهر وأحد وعشرون يوماً للهجرة، وقد نازلهم رسول الله ﷺ قريباً من شهر، ثم صالحوه على حقن دماءهم وترك الذرية على أن يخلّوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبرّة: وقد وافق الرسول ﷺ أن يتركهم يعملون في الأرض على النصف لأنهم ذكروا له أن المسلمين لا يحسنون العمل في الأرض، ولكنه اشترط عليهم إمكان أن يجلبهم المسلمون من الأرض متى شاؤوا. ثم أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لما ظهر فيهم الزنا وتعبثوا بالمسلمين - إلى

الشام، لأنه سمع أن النبي ﷺ قال: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» وكان آخر ما عهد به ﷺ أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان» (السيرة ١٠٧٩/٤).

٧١ - انظر ص ٣٠١ من هذا المؤلف.

٧٢ - ديوانه ص ٣٢٨، والسيرة: ٣٤٨/٣ وتتألف من أربعة أبيات.

٧٣ - يَسْرُونَ من السرى وهو السير ليلاً. البيض الرقاق: السيوف. مَرَحًا: نشاطًا. عرين مُعْرِف: عرين في أجمة فيها ماء وشجر كثيف والغريف: الأجمة من البردي والحلفاء والقصب، أو الشجر الكثير المتلف.

٧٤ - القرقف: الخمر، والماء البارد. وقرقف من البرد: أُرْعِد، وقرقف الرجل في الضحك "اشتد والقصد هنا: السيوف البيض الشديدة المرعدة المتهالكة.

٧٥ - مجحف: ذاهب بالنفوس والأموال.

٧٦ - السيرة: ٧٣٣/٣.

٧٧ - لعلمهم أخذوا بالمثل العربي المشهور: «أَوْسَعَتْهُمْ سَبًّا وَأَوْدَوْا بِالْإِبْلِ»، وهو مثل يضرب لمن يسب عدوه، وقد أخذ عدوه منه ماله أو نعمه. (المنجد ص ١٠١٢).

٧٨ - الأغاني: ١٤٥/٤ ويلاحظ أن هذا الخبر بمجموعه قد اضطرب كتاب الأغاني في روايته فأورده بأكثر من صيغة وجزأه إلى أكثر من جزء.

٧٩ - هو كعب بن مالك، وقد سبق التعريف به، ص ١١٤.

٨٠ - عبدالله بن رواحة، وقد سبق التعريف به، ص ١١٥.

٨١ - الأغاني: ١٣٩/٤.

٨٢ - المرجع السابق.

٨٣ - سبق التعريف به ص ١٥١ من هذا المؤلف.

٨٤ - ديوانه ص ٢١٥، وتتألف من سبعة أبيات.

٨٥ - الغصن ذو الأفنان: يقصد الرسول ﷺ. الواحد الوغد: يقصد أبا سفيان. الوغد: الرذّل والدنيء..

٨٦ - بنت مخزوم هي: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهي أم أبي طالب وعبدالله والزبير بن عبدالمطلب ولها خمس بنات هن: أم حكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرّة. والدك العبد: لأن أمه كانت أمةً كما سيرد.

٨٧ - أفناء الناس: خليطهم، وزهرة حيّ من قريش أحوال رسول الله ﷺ، وابنتهم هي هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.. وأبناؤها هم: حمزة والمقوم وحجل (يلقب بالغيداق) وصفية أبناء عبدالمطلب.

٨٨ - ولست كعباس ولا كابن أمّ: يريد العباس وضراً ابني عبدالمطلب وأمهما نائلة بنت جناب ابن كليب من النمر بن قاسط بن ربيعة. الهجين: العربي ابن الأمة. لا يُورى له زند: كناية عن لؤمه وشحه.

٨٩ - الزنيم: المستلحق في قوم ليس منهم، أو الدعيّ المُلزق. القدح الفرد: الراكب يعلّق قدحه في آخر رحله عند الفراغ من ترحاله ويجعله خلفه.

٩٠ - القرد والقُراد: الواحدة قُرْدَة وقُرادة ج قِرْدان أيضاً، وهي دويبة تلصق في أعجاز الإبل.

٩١ - سمية هي أم أبي سفيان بن الحارث وهي أم ولد، وسمراء أم أبيه الحارث بن عبدالمطلب وهي أم ولد وللتوضيح: عبدالمطلب:

- زوجه الأولى: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم: أولاده منها: أبوطالب وعبدالله أبو محمد ﷺ، والزبير + (أم حكيم - عاتكة - أمية - أروى - برّة).

- زوجه الثانية: هالة بنت وهيب بن عبدمناف بن زهرة: أولاده منها: حمزة والمقوم وحجل (يلقب بالغيداق).

- زوجه الثالثة: نائلة بنت جناب (من النمر بن قاسط بن ربيعة بن نزار): ولداه منها: العباس وضرار.

- زوجه الرابعة: سمراء بنت جندب (من بني عامر بن صعصعة (أمة) وابنها الحارث تزوج سمية (أمة) وابنها أبوسفيان.

- زوجه الخامسة: بُنَى بنت هاجر الخزاعية: ابنها أبولهب: (أنظر: الاستيعاب: ١٢٨/١، والعقد الفريد: ٣١٦/٣) وسيرة ابن هشام: ٧١/١.

٩٢ - ديوانه: ص ٤٠٣ وتتألف من خمسة أبيات.

٩٣ - ديوانه ص ٤٦٥ وتتألف من أربعة أبيات.

٩٤ - ديوانه: ص ٤٦٦، وتتألف من ستة أبيات.

٩٥ - الأغاني: ١٣٩/٤ و ١٤٠.

٩٦ - ديوانه ص ٣٥٤.

٩٧ - كما يرى الأستاذ خلف الله في مجلة الثقافة ولم أعثر على المصدر الذي اعتمد عليه.

٩٨ - هو خزاعي بن عبد نُهم بن عفيف المزني كان يحجب صنماً لُمزينة اسمه «نُهم»، فكسر الصنم، ولحق بالنبي ﷺ فأسلم، وهو يقول:

نَهَبْتُ إِلَى نُهْمٍ لَأَذْبَحَ عَنْدَهُ
عَتِيرَةَ نُسْكَ كَالَّذِي كُنْتُ أَفْعُلُ
فَقُلْتُ لِنَفْسِي حِينَ رَاجَعْتُ حَرْمَهَا
أَهَذَا إِلَهَ أَبِكُمْ لَيْسَ يَعْزِلُ
أَبَيْتُ فِدَيْنِي الْيَوْمَ دِينَ مُحَمَّدٍ
إِلَهَ السَّمَاءِ الْمَاجِدُ الْمُتَفَضَّلُ

وباع النبي ﷺ على نفسه وبإيعه على مزينة، ولكنها استعصت أولاً، ثم أسلمت، ودفع رسول الله ﷺ إليه لواءهم يوم الفتح.

٩٩ - مُزَيِّنَةُ بنت كلب بن وَبَرَةَ: أم جاهلية تنسب إليها ذرية ابنائها عثمان وأوس ابني عمرو بن أَدَّ بن طابخة من مضر من نسلها زهير بن أبي سلمى المزني وكثيرون. كانت منازلهم في جبال رضوى وما حولها، ومن منازلهم جبل قُدُس وجبال نَهَب بقرب المدينة المنورة.

١٠٠ - هذه الأبيات لم ترد في ديوانه - طبعة دار الأندلس.

١٠١ - عثمان بن عمرو بن أَدَّ بن طابخة من مضر: جد جاهلي بنوه بطن من مزينة كما ذكرنا قبل قليل.

١٠٢ الشَّراء: بيع النفوس لله سبحانه، وقد سمِّي الخوارج «الشَّراء» لأنهم باعوا نفوسهم لله.

١٠٣ - عِدَاء: بطن «خزاعي» الذي هو منهم (أو عشيرته).

١٠٤ - مجلة الثقافة: العدد ٢٣٦ ص ١٤.

أشعار السنة السادسة

غزوة بني لحيان: (جمادى الأولى من السنة الهجرية السادسة)

ذكرنا قبل قليل أن الله سبحانه وتعالى منَّ على رسوله الكريم ﷺ بفتح حصن بني قريظة في ذي القعدة وصدر ذي الحجة من السنة الهجرية الخامسة، ثم إنه ﷺ أقام بالمدينة المنورة تنمة ذي الحجة من هذه السنة والمحرم وصفرًا وشهري ربيع من السنة الهجرية السادسة، وخرج في جمادى الأولى من هذه السنة على رأس ستة أشهر من فتح قريظة إلى بني لحيان^(١) في مئتي رجل يطلب بأصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه^(٢)، فجاءت هذه الغزوة وكأنها تصديق لتهديد شاعر الدعوة. وقد أظهر رسول الله ﷺ أنه يريد بلاد الشام لكي يصيب من القوم غرةً وسلك فعلاً الطريق الداهية إلى بلاد الشام، ثم انعطف بعد أن قطع مسافة ما، وتوجه نحو ديار بني لحيان، ولكنه حين بلغها وجد القوم قد حذروا وتمنعوا في شعاف الجبال، فأقام يومين في أرضهم، وأرسل السرايا والبعوث ليتقصاهم، فلم ينل أحداً منهم، فكرر راجعاً إلى المدينة المنورة، وبلغت غيبته عنها أربع عشرة ليلة.

ولم نَقِ لحسان على شعر في هذه الغزوة، وإنما ورد في السيرة ثلاثة أبيات لكعب بن مالك، مطلعها^(٣):

لو أن بني لحيان كانوا تناظروا
لقوا عُصْباً في دارهم ذات مَصْدِقِ

غزوة ذي قرد: (في جمادى الآخرة من السنة السادسة - على خلاف)

بعد عودته ﷺ إلى المدينة من غزوة بني لحيان بليالٍ قلائل أغار عيينة بن حصن^(٤) في خيل من غطفان^(٥) على لقاحٍ لرسول الله ﷺ كانت بالغابة^(٦)، وفيها رجلٌ

من بني غفار^(٨) وزوجه، فقتلوا الرجل، واحتملوا المرأة في اللقاح، وجاء الصريخ، ونودي «يا خيل الله اركبي»، وكان أول من لبى وركب رسول الله ﷺ مقننًا في الحديد، ثم ترامت إليه الخيل وكان أول فارس قدم عليه المقداد بن عمرو^(٩) في الدرع والمغفر، ففقد له رسول الله ﷺ اللواء في رمحه وقال: امض حتى تلحق بالخيول وأنا على أترك^(١٠)، وأدرك سلمة بن الأكوع^(١١) القوم وهو على رجليه وجعل يرميهم بالنبل حتى انتهى بهم إلى ذي قرد^(١٢)، وقد استنقذ منهم جميع اللقاح^(١٣) وثلاثين بردة، ثم استنقذت امرأة الغفاري. وسار رسول الله ﷺ بالناس والخيل حتى نزل بالجبل من ذي قرد، فأقام يومًا وليلة، ثم عاد إلى المدينة. وسميت الغزوة باسم غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد^(١٤).

هذا العدوان السافر أثار حفيظة شاعر الدعوة حسان بن ثابت، فأنبرى يقرع الغزاة ويفتخر ببطولة المسلمين مع قلة عدد فرسان المسلمين الذين طاردوا المعتدين، ويتوعد أولئك الأشرار بشر مستطير بقصيدة دالية، مطلعها: ^(١٥)

هَلْ سَرَّ أَوْلَادَ اللَّقِيْطَةِ أَنْنَا

سَلَّمْ غَدَاةَ فَوَارِسِ الْمَقْدَادِ^(١٦)

وذكر عدد الفرسان الذي طاردوا الغزاة:

كُنَّا ثَمَانِيَةَ وَكَانُوا جَحْفَلَا

لَجِبًا فَشُكُّوا بِالرَّمَا حِ بَدَادِ^(١٧)

وبين كيف كان أهل المدينة يوادعون أولئك الغزاة ويحسنون معاملتهم، ولكن لم يجد ذلك فيهم، ولا يؤدبهم غير السيف:

كُنَّا مِنَ الرُّسْلِ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ

إِذْ تَقْذِفُونَ عَنَّا كُلَّ جَوَادِ^(١٨)

كَلَّا وَرَبِّ الرَّاqَصَاتِ إِلَى مَنَى

وَالْجَائِبِينَ مَخَارِمَ الْأَطْوَادِ^(١٩)

حَتَّى تُبِيلَ الْخَيْلُ فِي عَرَصَاتِكُمْ

وَنُؤُوبَ بِالْمَلَكَاتِ وَالْأَوْلَادِ^(٢٠)

رَهْوَاً بِكُلِّ مُقْلَصٍ وَطِمِرَةٍ
في كل معترك عَطْفَنَ وواد^(٢١)

ويذكر كيف كانوا ناعمين في ديارهم حتى بطروا، وغدروا فأذيقوا النذل والهوان:
كانوا بدارِ ناعمين فَبُدِّلُوا
أيام ذي قرد وجوهَ عباد^(٢٢)

وكأنه في هذا القول يستفيد من قوله تعالى: «وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون»^(٢٣).

ويظهر أنه في هذا الوقت مدح «سعد بن زيد الأنصاري»^(٢٤) الذي عتب عليه نسبته الفوارس للمقداد، ولم ينسبها إليه لأنه كان الرئيس يومئذ^(٢٥)، - كما قال - فاعتذر إليه حسان بأن الروي وافق رسم المقداد^(٢٦)، وقال فيه^(٢٧):

إذا أردت السيد الأشدَّ
من الرجال فعليك سَعْدَا
سَعْدَ بن زيد فاتخذَه جندا
ليس بخواري هَدُّ هدا^(٢٨ و٢٩)

وله مقطوعة رائية يخيب فيها ظنَّ عينة وصنيعه، ويأخذ عليه سوء تقديره وتغريه بقومة^(٣٠):

أظنَّ عيينةً إذ زارها
بأن سوف يهدم فيها قصورا^(٣١)
ومنئيتَ جمْعك ما لم يكن
فقلتَ سنغنم شيئاً كثيراً^(٣٢)
فعرفتَ المدينةَ إذ جئتُها
والفيتَ للأسد فيها زئيرا

فولُّوا سِرَاعًا كَوخْد النعما

م لم يكشفوا عن مَلَطٍ حصيرا^(٣٣)

ويجد الفرصة سانحة ليوازن بين القائد الخائب الفائل الرأي عيّنة، وبين رسول الله ﷺ الأمير المحبوب الصادق المصدق الذي لا ينطق عن الهوى، «إنَّ هو إلا وحي يوحى^(٣٤)»:

أَمِيرُ عَلَيْنَا رَسُولُ الْمَلِكِ

لَكَ أَحَبُّ بِذَلِكَ إِلَيْنَا أَمِيرًا

رَسُولُ نَصَدَّقُ مَا جَاءَهُ

مِنَ الْوَحْيِ كَانَ سَرَجًا مَنِيرًا

غزوة بني المصطلق: (في شعبان من السنة السادسة)

أقام رسول الله ﷺ في المدينة بعد غزوة ذي قَرَدَ بعض جمادى الآخرة ورجباً من السنة الهجرية السادسة، وفي شهر شعبان من هذه السنة (السادسة) خرج ﷺ لغزو بني المصطلق^(٣٥) من خزاعة، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار^(٣٦) بعد أن بلغه ﷺ أنهم يجمعون له، فلقبهم على ماء يُقال له «المُرَيْسِيعُ^(٣٧)» فهزمهم الله، وقتل من قتل منهم، ونفل سبجانه وتعالى رسولُه أبناءَهم ونساءَهم وأموالهم فأفأهم عليه^(٣٨). وبينما كان رسول الله ﷺ على ذلك الماء وردت واردة الناس للاستقاء، فازدحم أجيرٌ لعمر بن الخطَّاب من بني غفار كان يقود فرسه، ويدعى جهجاه بن مسعود^(٣٩) ورجلٌ يدعى سنان بن وبر الجُهَني^(٤٠) حليف بني عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أبي بن سلول وقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدُّنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول: سَمَنْ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم قال لمن حضره من قومه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحوُّلوا إلى غير داركم^(٤١)

وبلغ الخبر رسول الله ﷺ، فشقَّ عليه واقترح عمر أن يبعث الرسول ﷺ إلى ابن أبي من يقتله فلم يوافق وإنما قرر أن يعالج الأمر بحكمه «ويرتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها»^(٤٢). ومشى ابن أبي إلى رسول الله ﷺ معترداً له يحلف بالله ما قال ما نُقِلَ إليه، وتدخل بعض سادة الأنصار حذباً عليه فقالوا لرسول الله ﷺ، لعل الذي نقل إليك الكلام كان واهماً أو غير متأكد.. وطلب ابنه عبدالله من الرسول ﷺ أن يكلفه قتل أبيه، فقال ﷺ بحكمة القائد وتسامح النبي الرحيم: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»^(٤٣).

ويظهر أن حسان في هذا الظرف الذي اكفهرت فيه الأمور وذُرِّ قرن العصبية - وإنَّ على قلة - قد استمع إلى نداء زعيم الخزرج ابن أبي، ومال قليلاً إلى لون من العصبية التي ألمح إليها ابن أبي، وأراد (أي ابن أبي) أن يذكىها في النفوس لتعود الجاهلية جذعة لعلَّ تاجه يكتمل نظمُ خرزه^(٤٤)، فقال مقطوعته الدالية^(٤٥):

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا

وابن الفريعة أمسى بيضة البلد^(٤٦)

وفيها عَرَضَ بصفوان بن المعطل السلمي^(٤٧) وبمن أسلم من مُضَرَ.

وحينما عاد رسول الله ﷺ من غزوته تلك «حتى إذا كان قريباً من المدينة - وكانت عائشة معه في سفره ذلك قال أهل الإفك فيها ما قالوا»^(٤٨).

ونحن هنا لن نتعرض لحديث الإفك بالتفصيل، فيمكن الرجوع إليه في كتب السير والتاريخ والآداب^(٤٩)، ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إليه ومناقشته ببعض الإيجاز. وهو يتلخَّص في أن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها صاحبت رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق وعندما فرغ الرسول ﷺ من غزوته، ورجع قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة المنورة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل ثم أذن بالناس بالرحيل، فارتحلوا، بينما خرجت السيدة عائشة لبعض حاجتها وفي عنقها عقد لها فسقط من عنقها من دون علمها، ولما رجعت إلى الرحل افتقدته، فلم تجده وقد أخذ الناس

بالرحيل، فرجعت إلى مكانها الذي ذهبت إليه فوجدته، وجاء القوم الذين يرحلون لها البعير (في غيابها)، فاحتملوا هودجها وهم يحسبون أنها فيه وشدوه على البعير وانطلقوا، ولما رجعت إلى المعسكر لم تجد أحداً فتلفت بجلبابها وانتظرت أن يرجعوا إليها إذا افتقدوها.. وبينما هي كذلك مر بها صفوان بن المعطل السلمي أمير الساقة، وكان قد تخلف عن الناس لبعض حاجته، فلما رآها متخلفة أركبها على البعير وقاده، وانطلق بها مسرعاً يطلب الناس فلم يبلغهم حتى أصبحوا، ونزلوا، فلما أطمأنوا، طلع عليهم يقود البعير، فقال أهل الإفك ما قالوا^(٥٠):

وجاء في حديث الإفك في صحيح البخاري: «وكان الذي تولى كبر الإفك عبدالله بن أبي.. قال عروة (أحد الرواة): أُخبرت أنه كان يشاع عنده فيقره ويسمعه.. وقال عروة (أيضاً): لم يُسمَّ من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثه، وحمنة بنت جحش.. وقال (أيضاً): وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي

لعرض محمد منكم وقاء»^(٥١ و٥٢)

وأكد هذه الرواية الحافظ ابن حجر، فقال في الفتح:

«وأما أسماؤهم فالمشهور في الروايات الصحيحة عبدالله بن أبي، ومسطح بن أثاثه^(٥٣)، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش^(٥٤ و٥٥)».

ولكن صاحب الاستيعاب وقف موقفاً متردداً بالنسبة لحسان، وكان ميلاً إلى تبرئته من الخوض في حديث الإفك، فذكر أنه قد: «قال قوم إنه كان ممن خاض في الإفك، أو جلد فيه ورووا عن عائشة رحمها الله أنها برأته من ذلك^(٥٦)»،

وأنا أميلُ شخصياً إلى تبرئة حسان من هذه التهمة السيئة التي لا تليق بمن نذر نفسه وفنه لنصرة الدعوة الإسلامية وقائدها ورجالها ونسائها، وجعل آباءه وأجداده وقاءً لعرض رسول الله ﷺ من سهام الشاتمين والهجائين لما سأورده من الأسباب، بيد

أني أجد لوئاً من الصعوبة أو الحرج في ترجيح ما ذهب إليه صاحب الاستيعاب على ما جاء به صحيح البخاري الذي يحتل منزلة رفيعة لدى المسلمين تكاد تبلغ حد القداسة لدقته وتحريه الصواب.. على أنه من المحتمل أن حسان بن ثابت بثرة شاعر شديد الرهافة الحسية استفزته دعوى العصبية التي جأ بها ابن أبي كما أسلفنا، أو بتغريز مخادع وضع أقدامه في مواطن الزلل والزلق قد أشار أو ألمح إلى ما يتعلق بحديث الإفك، أو فُسِّر كلام له في لحظة غفلة أو شرود دونما قصد هادف بأنه يوحى بشيء من ذلك من قريب أو بعيد، أو لعله سكت عما قيل بحضرته ولم يدفع التهمة عن أم المؤمنين، أو ما فيه رائحة التهمة، أو لعله - وهذا ضعيف - ممن أفصح بالفاحشة^(٥٧) والله أعلم.

هذا الأمر - بلا ريب - خطير جداً، إذ إنه يمس قائد الدعوة وشرفه وكرامته ومنزلته ودعوته وهو النبي المرسل، أفلا يمكن أن يقول قائل - وألسنة الناس ذرية - : هذا الذي يوحى إليه بخبر السماوات والأرضين وأخبار الأمم السابقة وأحوال الدنيا ما كان منها وما سيكون إلى قيام الساعة أفلا يعرف ما في بيته؟ ثم إن الأمر يمس المرأة التي كانت أحب أزواج النبي ﷺ إليه وآثرهن عنده، وأبوها خير الأصحاب، وأقرب الأوفياء، وأقوى أركان الدعوة، وثاني اثنين إذ هما في الغار، ماذا يكون لو أنه - لا قدر الله - فجع بابنته، ليس في ساح الجهاد، فذاك شرف عظيم، وإنما في ساحة غير محمودة؟! أنها مأساة مروعة تداعت لها أركان الأمة كلها آنذاك واهتزت لها ساحات المدينة المنورة وربوعها وأنديتها إن لم يتجاوزها الأمر إلى ما سواها من منازل العرب.

ثم إن في الأمر مراحاً رغبياً لا تكاد تتناهى أبعاده لكي تجري في جنباته المتشعبة، وتسرح ألسنه النفاق والشرك والنفوس الواهنة، فتقول ما يحلو لها، وتلفق ما يشفي وحر صدرها الذي أدماه نجاح الدعوة وقائدها، وتلحق بهذا القائد ما يشاء لها الخبث والحق والكيد من التهم والأقاويل لتحط من منزلته لدى أصحابه وأعدائه، ولدى العرب والناس أجمعين، ولتفت من عضده، وتلهيه بنفسه وعرضه عن ملاحقة الكفرة والمنافقين... على أنه ﷺ حين شعر أن الأمر أخذ ينتشر دعا علي بن أبي طالب

وأسماء بن زيد^(٥٨) فاستشارهما، فأما أسماء فأتتني خيراً على أم المؤمنين، وأما علي فرأى أن تُسأل عنها جاريتهما، فلما سألتها الرسول ﷺ قالت خيراً ثم دخل ﷺ على عائشة وعندها أبواها، فنصحها، ودعاها إلى التوبة إن كانت قد اقترفت شيئاً مما قيل، فاستعبرت وبكت، وقالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إنني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أنني بريئة منه - لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني، ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»^(٥٩). ولم يبرح ﷺ مجلسه هذا حتى تنزل عليه الوحي ببراءة السيدة عائشة بقوله تعالى: «إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم، بل هو خير لكم، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم. لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين... ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم. إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم. ولولا إذا سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم»^(٦٠)، فبشرها ﷺ، ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل عليه من القرآن، ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدهم. على ما ذهب إليه السيرة^(٦١):

غير أننا نتبين أن حسان قد أسف شديد الأسف لما ألحق به، ورأى أن الكلمة الطيبة يمكن أن تمحو الإساءة إن وجدت، عملاً بقوله ﷺ و«أتبع السيئة الحسنة تمحها»^(٦٢)، فقال قصيدته اللامية يمدح فيها السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ومطلعها: ^(٦٣):

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ

وتصبح غرثي من لحوم الغوافل^(٦٤)

وفيها وصف السيدة عائشة بأنها حليلة خير الناس، وسليلة بيت الأمجاد، ومهذبة
الطباع ومطهرة من كل سوء:

حليلة خير الناس ديناً ومنصباً
نبي الهدى والمكرّمات الفواضل^(٦٥)
عقيلة حي من لؤي بن غالب
كرام المساعي مجدّها غير زائل^(٦٦)
مهذّبة قد طيّب الله خيمها
وطهرها من كل سوء وباطل^(٦٧)

وبعد أن ذكر طهارتها في زوجها، ونسبها، وطباعها، وتطهير الله سبحانه لها،
فأنّى يأتيها الباطل أنكر ما اتّهم به، ورفضه رفضاً باتاً، ودعا على نفسه بالشلل، إن كان
قد قال ما قال، وأرجعه إلى حسد الحاسدين:

فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم
فلا رقت سوطي إليّ أنا ملي^(٦٨)
وإن الذي قد قيل ليس بلائط
بها الدهر بل قول امرئ بي ماحل^(٦٩)

ثم استغرب كيف يمكن أن يصدر عنه ما اتهم به، وقد جعل نفسه ووده ونصرته
موقوفة لآل النبي ﷺ:

فكيف وودّي ما حييت ونصرتي
لآل نبي الله زين المحافل

ورأى الفرصة سانحة للجمع بين مدح النبي ﷺ ومدح السيدة عائشة رضي الله
عنها، فقال:

له رتب عال على الناس كلهم
تقاصر عنه سورة المتطاول^(٧٠)

رَأَيْتُكَ وَلِيغْفِرُ لَكَ اللَّهُ حَرَّةً

من الْمُحْصَنَاتِ غَيْرَ ذَاتِ غَوَائِلٍ^(٧١)

إنها - والحق يقال - من أجمل ما امتدح به امرؤ، ومن أروع ما اعتذر به. ولا يخفى أن السيدة عائشة رضي الله عنها قد برأته في أكثر من موقف^(٧٢)، ورفضت أن يرمى بسوء بعد ما قاله من جيد الشعر في رسول الله ﷺ وفيها، كما رفض ابن عباس^(٧٣) أن يوصف بأنه لعين للسبب نفسه لأنه - على حد قوله - نصر رسول الله ﷺ بلسانه ويده، أو جاهد بلسانه ونفسه^(٧٤).. على أنه تأكيداً لبراءته، وإعلاناً لسخطه على من تعاطوا حديث الإفك فأغضبوا ربهم وآذوا رسوله، ولم يجنوا غير الخزي والشنار هجا الذين جلدوا بالإفك وسماهم في قوله: ^(٧٥)

لَقَدْ ذَاقَ عَبْدُ اللَّهِ مَا كَانَ أَهْلُهُ

وَحَمْنَةً إِذَا قَالُوا هَجِيرًا وَمِسْطَحٌ^(٧٦)

تَعَاظُوا بِرَجْمِ الْغَيْبِ زَوْجِ نَبِيِّهِمْ

وَسَخَطُةِ ذِي الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فَأُتْرِجُوا^(٧٧)

وَأَذُوا رَسُولَ اللَّهِ فِيهَا فَجُلُّوا

مَخَازِي سَوْءِ عُمَمُوهَا وَقُضُّوا^(٧٨)

وَصُبَّتْ عَلَيْهِمُ مُحْصَدَاتُ كَانِهَا

شَابِبِيبِ قَطْرِ مِنْ ذَرَا الْمُرْنِ تُسْفَحُ^(٧٩)

أمر الحديبية وبيعة الرضوان والصلح:

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة شهر رمضان وشوال من السنة السادسة للهجرة، وخرج في شهر ذي القعدة معتمراً لا يريد حرباً، واستنفر من حول المدينة من الأعراب ليخرجوا معه، فأبطأ عليه كثير منهم، وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن جاءه من الأعراب، وكانوا ما بين ألف وأربعمئة وألف وخمسمئة على خلاف، وساق

معه الهَدْيَ سبعين بدنة، وأحرم بالعمرة لياًمن الناس من حربه، وبعث عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش، فرجع إليه عينه عندما كان قريباً من عُسْفَانَ^(٨٠). وأخبره أن قريشاً عرفت بمسيره وأنها قد استعدت لحربه وصدته عن البيت الحرام، فسلكت بالناس طريقاً غير الطريق المعروفة حتى إذا بلغ ثنية المُرَار^(٨١) مهبط الحديبية^(٨٢) من أسفل مكة المكرمة بركت القصواء ناقة رسول الله ﷺ فقال الناس: خلأت^(٨٣) القصواء. قال رسول الله ﷺ: ما خلأت القصواء وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت حتى نزل بأقصى الحديبية. وجاءه عدد من الناس يريدون معرفة قصده، فأخبرهم أنه إنما قدم للعمرة وتعظيم بيت الله الحرام. وأحب ﷺ أن يرسل إلى قريش من أصحابه من يطمئنهم ويعرفهم قصده فدعا عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: يا رسول الله أنت تعلم عداوتي قريشاً وغلظتي عليها، وإنني أخاف على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب^(٨٤) (عشيرة عمر) أحد يمنعني، فأرسل عثمان بن عفان^(٨٥) فإن عشيرته بها. فأرسله ﷺ، وبلغه بعدها أن عثمان قتل، فدعا المسلمين إلى البيعة على القتال، وهو تحت الشجرة فبايعوه على الموت، فكانت «بيعة الرضوان»، ثم بلغه كذب نبياً مقتل عثمان. وبعثت قريش سهيل بن عمرو^(٨٦) ليصالح رسول الله ﷺ على وضع الحرب عشر سنين، وأن يرجع ﷺ عنهم عامه هذا، حتى إذا كان العام المقبل قدم مكة وخلوا بينه وبينها فأقام بها ثلاثاً ليس معه ومع أصحابه إلا السيوف في القُرب، وأن من جاءه من قريش رده إليها، ومن جاء قريشاً من أصحابه لم يردّوه، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده من العرب دخل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل. وقد كتب علي بن أبي طالب العهد، وأشهد ﷺ على الصلح رجالاً من المسلمين ومن المشركين. ولما فرغ من الصلح قام إلى هديه فنحره، ثم حلق رأسه، وتواثب المسلمون من ثم ينحرون ويحلقون. ثم انصرف قافلاً حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت «سورة الفتح»^(٨٨)، فذكرت القصة فيه ﷺ وفي أصحابه، وذكرت البيعة، ومن

تخلّف من الأعراب حين دعاهم للخروج معه فأبطؤوا، ثم ذكرت كفّ الله سبحانه رسوله عن القتال، وصدقه رسوله الرؤيا التي رآها وهي دخول البيت الحرام، وأن المسلمين سوف يدخلونه، ولكنه جلّ جلاله جعل من دون دخوله فتحاً قريباً، صلح الحديبية فكان فتحاً عظيماً لأن الناس قد آمن بعضهم بعضاً وأخذوا يتحاورون، وما كُلم أحد بالإسلام إلا أسلم، فدخل في تينك السنتين^(٨٩) مثل من كان في الإسلام وأكثر، بينما كانوا قبلها إذا التقوا فلا حوار ولا نقاش. وقد دخلت خزاعة^(٩٠)، في عقد الرسول ﷺ وعهده، بينما دخلت بنو بكر^(٩١) في عقد قريش وعهدهم^(٩٢) ولم يبلغنا لحسان فيها شيء.

الهوامش

- ١ - بنولحيان: بطن من هذيل سبق التعريف بهم ص ٢٠٢ وبهذيل ص ٢٨٤ من هذا المؤلف.
- ٢ - تعرضنا لهذا الموضوع من ٢٧٣ من هذا المؤلف.
- ٣ - انظر ص ٢٧٥ من هذا المؤلف.
- ٤ - سيرة ابن هشام: ٧٥١/٣.
- ٥ - عيينة بن حصن سبق التعريف به ص ٣١٩ من هذا المؤلف.
- ٦ - غطفان سبق التعريف بها ص ٣١٨ من هذا المؤلف.
- ٧ - الغابة هنا: موضع قرب المدينة المنورة على مسافة بريد بطريق الشام وقد صنع منبر رسول الله ﷺ من طرفاء الغابة وفي هذا الموضع أموال لأهل المدينة. وقيل كان العباس ابن عبدالمطلب عم الرسول ﷺ يقف على جبل سلع وينادي غلمانهم وهم بالغابة فيسمعهم وذاك من آخر الليل، وبين سلع والغابة ثمانية أميال واللقاح: ج لقحة بفتح اللام وهي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.
- ٨ - ورد في معجم الأعلام: ١٢١/٥ اسمان اثنان (بشأن بني غفار):
الأول: غفار بن جاسم بن عمليق: جدّ جاهلي قديم كانت منازل بنيهم بنجد، وليس هو المقصود هنا على الأرجح، الثاني: غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة: جدّ جاهلي من نسله الصحابي الجليل أبوذر الغفاري. والراحج أن الرجل من هؤلاء.
- ٩ - سبق التعريف به ص ٢٣٠ من هذا المؤلف.
- ١٠ - جاء في السيرة أن النبي ﷺ قد أمر سعد بن زيد أحد بني كعب بن عبد الأشهل من الأنصار بينما رأى صاحب زاد المعاد (١٢٠/٢) أن اللواء عقد للمقداد كما ذكرنا.
- ١١ - هو سلمة بن عمرو بن الأكوح الأسلمي: صحابي من الذين بايعوا تحت الشجرة، غزا مع النبي ﷺ سبع غزوات، منها الحديبية وخيبر وحنين، وكان شجاعاً بطلاً رامياً عداءً، وهو ممن غزا إفريقية في أيام عثمان . توفي في المدينة سنة ٧٤هـ/٦٩٣م.
- ١٢ - ذو قَرَد: القَرَد الصوف الرديء. وذو قَرَد: ماءً على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر، وقيل بينها وبين المدينة نحو يوم، وذكر أن هذا الماء صار لطلحة بن عبيد الله اشتراه، ثم تصدق به على مارة الطريق.

- ١٣ - قيل إنهم استنقذوا عشر لقاح، وانفلت القوم بعشر، وهو غير صحيح (انظر زاد المعاد: ١٢٠/٢).
- ١٤ - انظر السيرة: ٧٥١/٣ وزاد المعاد: ١١٩/٢ والطبري: ٦٠/٣ - ٦١. وذهب صاحب زاد المعاد (١٢٠/٢) أن هذه الغزوة كانت بعد الحديبية.
- ١٥ - انظر ديوانه ص ١٦٤ وقد وردت القصيدة فيه بعشرة أبيات، وانظر السيرة: ٧٥٥/٣ وقد وردت بثلاثة عشر بيتاً وقد اختلف ترتيب الأبيات كذلك في كل منهما.
- ١٦ - اللقيطة: أم حصن بن حذيفة التقطها حذيفة في جوارٍ قد أضرت بهنَّ السنَّة فضمها إليه، ثم أعجبته فخطبها إلى أبيها فتزوجها. والمقداد هو: المقداد بن عمرو (أو ابن الأسود) وقيل إن سعد بن زيد الأنصاري لما سمع بالقصيدة (وكان هو رئيس السرية على قول بعضهم) عاتب حسان فاعتلَّ له بالقافية وسيرد تفصيل هذا.
- ١٧ - قوله: كنَّا ثمانية: كان الفرسان الذين تراموا إلى رسول الله ﷺ ثمانية وردت أسماءهم في السيرة ٧٥٢/٣ وفي الديوان ص ١٦٤. الجحفل. الجيش الكثير. اللجب الكثير الأصوات. شكوا بالرماح: إشارة إلى مافعله عكاشة بن محصن أحد الفرسان الثمانية إذ أدرك من الغزاة اثنين على بعير واحد هما: أوبار وابنه عمرو بن أوبار فانتظمهما بالرمح فقتلها جميعاً. بدَّاد: فعَّال من التبدد: التفرق.
- ١٨ - الرِّسْل: الذي فيه لينٌ واسترسال وموادة. يلونكم: يصادقونكم من الولاء.
- ١٩ - الراقصات: هنا الإبل، والرقص ضرب من مَشْيها. منى المكان المعروف قرب مكة. الجائئين: من جاب البلاد: قطعها سيراً. المخارم: الطرق في الجبال وأفواه الفجاج والرمال. الأطواد: الجبال المرتفعة.
- ٢٠ - نُبيل الخيل: نجعلها تبول. العرصات: ج عرصة: وسط الدار. المَلَكات: النساء اللواتي أُملِكْنَ.
- ٢١ - الرَّهُو: مشي في سكون. المقلَّص: الناقة التي تسرع براكبها وتستمر في مضيتها. الطَّمرة: الفرس الوثابة السريعة. المعترك: موضع العراك والقتال. ومعنى الأبيات الثلاثة الأخيرة: كلا ورب الراقصات إلى مكة لن نبقى على هذه الموالاة والموادة لكم ولا بد من أن نطأ دياركم، ونُبيل الخيل في عرصاتكم، ونغنم نساءكم وأولادكم في توجهننا إليكم بثبات ممتطين الإبل السريعة الماضية والخيل النشيطة المجربة في ميادين القتال.
- ٢٢ - عِبَاد: عبيد.

- ٢٣ - القرآن الكريم - سورة النحل: ١٦/١٢٢.
- ٢٤ - سعد بن زيد: سبق التعريف به، ص ٢٣٦.
- ٢٥ - سبقت الإشارة إلى الخلاف حول الرئيس قبل قليل.
- ٢٦ - انظر السيرة: ٧٥٦/٣.
- ٢٧ - ديوانه: ص ٢٠٩ وقد أورد الأبيات الأربعة فقط بينما أوردت السيرة: ٧٥٦/٣ ثلاثة أبيات فقط مع خلاف في الرواية.
- ٢٨ - الجند: الأعوان والأنصار. الخوَار: الضعيف الواهن. يهد هدأً: تُقال في الشاء على الرجل بالجلد (المحيط).
- ٢٩ - هذا ومن المحتمل أن يكون حسان قد مدحه بوجه عام، ثم اختُرعت فكرة الرئاسة والعتب.. على أن صاحب السيرة (٧٥٦/٣) قد علّق بعد إيراد المدح قائلاً: «فلم يقبل منه سعد ولم يُغن شيئاً».
- ٣٠ - ديوانه ص ٢٦٨ والسيرة: ٧٥٦/٣، وتتألف من ستة أبيات مع خلاف بسيط بينهما في الرواية.
- ٣١ - قوله زارها: يعني المدينة المنورة.
- ٣٢ - مَنِيَّت جمعك: من التمني وأصل التمني الكذب (أو الموعد الذي يغرّ به).
- ٣٣ - الوَخْد: سعة الخطو في المشي. المَلَط: المستور.
- ٣٤ - القرآن الكريم - سورة النجم: ٤/٥٣.
- ٣٥ - بنو المصطلق: المصطلق (واسمه فيما يقال جذيمة) ابن سعد بن كعب بن عمرو بن ربيعة ابن حارثة من خزاعة من قحطان: جدّ جاهلي مجهول الولادة والوفاة.. غزا النبي ﷺ قومه (بنو المصطلق) سنة ٦ للهجرة / ٦٢٨م وظفر بهم، من نسله جويرية بنت الحارث المصطلقية التي تزوجها رسول الله ﷺ.
- ٣٦ - الحارث بن أبي ضرار - وهو حبيب - بن الحارث بن عائد بن مالك بن جذيمة وهو المصطلق: أبوجويرية زوج النبي ﷺ وكانت في سبايا بني المصطلق، فوقع لثابت بن شماس فكاتبته على نفسها وذهبت إلى رسول الله ﷺ تستعينه على كتابها، فعرض عليها ﷺ أن يقضي عنها كتابها ويتزوجها فوافقت، ولما علم الناس بهذا الزواج قالوا:

أصهار رسول الله ﷺ وأرسلوا ما بأيديهم من السبايا أو الأسرى، وبذا أعتق بتزويجه منها مئة أهل بيت من بني المصطلق. ولما وصل رسول الله ﷺ المدينة قدم أبوها بفدائها، ولكنه خبأ من الفداء بعيرين في شعب من الشعاب فقال للرسول ﷺ: يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، فقال الرسول ﷺ: فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله، والله ما اطلع على ذلك إلا الله. ثم أسلم وأسلم معه ابنان له، ودفع الفداء إلى النبي ﷺ ودُفعت إليه ابنته، فأسلمت، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها فزوجه إياها.

٣٧ - المُرَيْسِع: اسم ماء في ناحية قديد إلى الساحل، وقديد اسم موضع قرب مكة المكرمة.

٣٨ - انظر الطبري: ٦٣/٣ و٦٤ والسيرة: ٧٥٨/٣، وفي السبي كانت جويرية بنت الحارث التي تزوجها ﷺ.

٣٩ - هكذا ورد اسمه في السيرة: ٧٥٨/٣، وفي أسد الغابة ورد: جهجاه بن قيس، وقيل: ابن سعيد بن سعد بن حرام غفار الغفاري، وهو من أهل المدينة، شهد مع النبي ﷺ بيعة الرضوان وغزوة بني المصطلق وكان يومئذ أجيراً لعمر بن الخطاب فازدحم على الماء هو وأحد حلفاء بني عوف بن الخزرج واقتتلا وكادت تقع فتنة كبيرة، وهو الذي تناول العصا من يد عثمان رضي الله عنه وهو يخطب فكسرها. وقد توفي بعد مقتل عثمان بسنة.

٤٠ - سنان بن وبر الجهني (ويقال وبرة)، ويقال: سنان بن تيم الجهني حليف بني عوف بن الخزرج غزا مع رسول الله ﷺ غزوة بني المصطلق، وكان شعارهم يومئذ: يا منصور أمت أمت، ويقال أنه هو الذي سمع ما قاله ابن أبي (لئن رجعنا ..) وقيل الذي سمعه شاب يدعى زيد بن أرقم.

٤١ - الطبري: ٦٤/٣ والسيرة: ٧٥٨/٣.

٤٢ - الطبري: ٦٤/٣ والسيرة: ٧٥٩/٣.

٤٣ - السيرة: ٧٦٠/٣.

٤٤ - السيرة: ٧٥٩/٣.

٤٥ - ديوانه ص ١٦٠ والسيرة: ٧٧١/٣.

٤٦ - الجلابيب: ج الجلباب وهو الإزار كُنِيَ بذلك عن الذلة. والفرعية هي أم حسان. بيضة البلد: يراد بها المدح أحياناً؛ أي واحد البلد الذي يُجتمَع عليه، أو الذي لا مثيل له مجداً وشرفاً، ويراد بها الذم أي هو منفرد لا ناصر له، وهو المقصود هنا والمعنى: الأذلة قد كثروا (يقصد المسلمين المهاجرين ..) وابن الفرعية الذي كان عزيزاً آخر عن مرتبته وسؤدده.

٤٧ - سبق التعريف به ص ٩٨ .

٤٨ - الطبري: ٦٧/٣ والسيرة: ٧٦٤/٣ مثلاً.

٤٩ - ارجع إلى سيرة ابن هشام: ٧٦٤/٣، والطبري: ٦٧/٣، وزاد المعاد: ١١٢/٢، وديوانه ص ١٥٩ و٣٧٧، والأغانى ١٥٥/٤، ومجمع الزوائد: ٢٣٦/٩، والبخاري: ٣٣٤/٧.

٥٠ - انظر سيرة ابن هشام: ٧٦٤/٣ مثلاً.

٥١ - البيت من قصيدته الهمزية التي وردت في ديوانه ص ٥٧ وما بعدها، ومطلعها:

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ

إِلَى عِذْرَاءٍ مَنَزَلَهَا خَلَاءُ

٥٢ - البخاري: ٣٣٤/٧.

٥٣ - مِسْطُوحُ بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف (٢٢ ق.هـ - ٣٤هـ / ٦٠١ - ٦٥٤م) من قریش، صحابي من الشجعان الأشراف، كان اسمه عَوْفًا وَلَقَّبَ بِمِسْطُوحٍ فغلب عليه. أمه بنت خاله أبي بكر الصديق رضي الله، وكان أبوبكر يُمُونُهُ لقربته منه، ولما كان حديث الإفك جلده النبي ﷺ مع من خاضوا فيه وحلف أبوبكر ألا ينفق عليه، فنزلت الآية الكريمة: «وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (سورة النور: ٢٤/٢٢)، فعاد أبوبكر إلى الإنفاق عليه. وهو ممن شهد بدرًا وأُحُدًا والمشاهد كلها.

٥٤ - حَمَنَةُ بنت جحش: تكنى أم حبيبة: كانت زوج مصعب بن عمير، فقتل عنها يوم أحد، فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له محمدا وعمران. وهي أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش وكانت ممن خاض في حديث الإفك. وهي من المهاجرات، وشهدت أُحُدًا فكانت تسقي العطشى، وتحمل الجرحى، وتداويهم.

٥٥ - انظر فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٣٥٢/٨.

٥٦ - الاستيعاب: ١٣٠/١.

٥٧ - انظر سيرة ابن هشام: ٧٦٩/٣.

٥٨ - أسامة بن زيد بن حارثة، أبو محمد من كنانة عوف: (٧ ق.هـ- ٥٤ هـ/ ٦١٥ - ٦٧٤ م) صحابي جليل، ولد بمكة ونشأ على الإسلام، لأنَّ أباه كان من أوَّل الناس إسلاماً. وكان رسول الله ﷺ يحبه كثيراً، وينظر إليه نظره إلى سبطيه الحسن والحسين. وهاجر مع النبي ﷺ إلى المدينة وأمره رسول الله ﷺ قبل أن يبلغ العشرين من عمره على جيش فيه أبوبكر وعمر، فكان مظفراً موقفاً، ولما توفي رسول الله ﷺ رحل أسامة إلى وادي القرى فسكنه ثم انتقل إلى دمشق في أيام معاوية فسكن المزة، ثم عاد إلى المدينة، فأقام فيها إلى أن مات في آخر خلافة معاوية.

٥٩ - القرآن الكريم - سورة يوسف: ١٨/١٢.

٦٠ - القرآن الكريم - سورة النور: ٢٤/١١-١٢-١٤-١٥-١٦.

٦١ - سيرة ابن هشام: ٣/٧٦٧ وما بعدها. ومن الثابت أن ابن أبيّ لم يجلد. وهو الذي تولى كبر حديث الإفك إما لشرفه أو لأنه لم يصرح أما حسان ففي جلده شك أو في اتهامه شك.

٦٢ - من حديث رسول الله ﷺ والحديث بتمامه: «أتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالف الناس بخلق حسن» رياض الصالحين ص ٤١ (وانظر كتاب البر والصلة للترمذي - باب ما جاء في معاشرته الناس المجلد ٦ ص ٢٠٤ - رقم الحديث ١٩٨٨).

٦٣ - ديوانه ص ٣٧٧ والسير: ٣/٣٧٧ (في الديوان تسعة أبيات وفي السيرة سبعة فقط).

٦٤ - الحَصَان: العفيفة. الرزان: ذات الوقار والثبات والعفاف. ما تُزن: ما تتهم. غرثى: جائعة. الغوافل: ج غافلة، يقصد أنها لا ترتع في أعراض الناس.

٦٥ - الحليلة: الزوجة.

٦٦ - العقيلة: الكريمة. المساعي: ج مسعاة، وهو ما يُسعى فيه من طلب المجد والكرم.

٦٧ - مهذبة: صافية مخلصة. الخيم: الطبع.

٦٨ - الأنامل: أطراف الأصابع، وقد يراد بها الأصابع كلها.

٦٩ - لائط: لاصق. الماحل: هنا المشاء بالنميم.

٧٠ - الرَّتَب بفتح الراء الموضع العالي المشرف ويضمُّها جمع رتبة. تقاصر: تتقاصر. السَّوْرَة الوثبة.

٧١ - المحصَّات: ج المحصنة المرأة العفيفة الشريفة. الغوائل: ج غائلة: الغدر، المهلكة، الفساد الشرِّ الداهية.

- ٧٢ - انظر ص ٣٣٤ من هذا المؤلف وانظر الأغاني: ١٦٣/٤، وقد رُوي الخبر في أكثر من وجه، وفي أكثر من مجال وانظر: الاستيعاب: ١٢٠/١.
- ٧٣ - عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب: سبق التعريف به ص ٩٩ من هذا المؤلف.
- ٧٤ - انظر الأغاني: ١٤٦/٤.
- ٧٥ - مجمع الزوائد: ٢٣٦/٩ أما ابن هشام في السيرة فقد عزا الأبيات الأربعة إلى غير حسان فذكر في (٧٧٣/٣) ما يأتي: «وقال قائل من المسلمين في ضرب حسان وصاحبيه» معدلاً قول ابن اسحق الذي ذكر: «وقال قائل من المسلمين في ضرب حسان وأصحابه في فريتهم على عائشة، وورد صدر البيت لديه بهذا الشكل: «لقد ذاق حسان الذي كان أهله» ولم ترد الأبيات في ديوانه ولا في التذييل.
- ٧٦ - عدد أسماء الذين جُلِدوا ومن المعروف أن عبدالله بن أبي لم يجلد إما لشرفه أو لأنه لم يصرح بالإفك، أو لأن أحداً لم يشهد عليه أو لأن المقذوف (السيدة عائشة) لم يطالب بحده - انظر زاد المعاد: ١١٥/٢.
- ٧٧ - أترحوا: أحزنوا صب الله عليهم الحزن.
- ٧٨ - عُمِّمُوهَا: لبسوها كالعمامة.
- ٧٩ - محصّات: هنا السياط المحكمة.
- ٨٠ - عسفان: سبق التعريف به ص ٢٨٢ من هذا المؤلف.
- ٨١ - ثنْيَةُ المُرَار: بضم الميم وتخفيف الراء، وهو حشيشة مرّة إذا أكلتها الإبل قلصت مشافرها.
- ٨٢ - الحديبية: بضمّ الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة وياء اختلّفا فيها، فمنهم من شدّدها ومنهم من خفّفها. وقيل كلٌّ على صواب، أهل المدينة يثقلونها وأهل العراق يخففونها، وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها وقيل: سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع. بينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل.

- ٨٣ - خَلَّاتِ الناقة: ثبتت ولم تبرح مكانها، أو حَرَّتْ، يقال خلَّاتِ الناقة وحرن الفرس.
- ٨٥ - عديّ بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر من قريش من عدنان: جدّ جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، من نسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.
- ٨٦ - سبق التعريف به ص ١٣١.
- ٨٧ - سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشيّ العامري من لؤي: خطيبُ قريش وأحد ساداتها في الجاهلية. أسره المسلمون يوم بدر، وأفتُدي، فأقام على دينه بمكة إلى يوم الفتح فأسلم وسكن مكة ثم المدينة وهو الذي تولى أمر الصلح بالحديبية مات بالطاعون في الشام سنة ١٨ هـ/٦٣٩ م.
- ٨٨ - سورة الفتح رقم ٤٨ من سور القرآن الكريم المدنية.
- ٨٩ - مدة دوام الصلح لأن حلفاء قريش خرقوا العهد كما سيمر بنا.
- ٩٠ - خُزاعة من بني عمرو بن لحيّ من مزيقياء من الأزد من قحطان: جدّ جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة. كانت منازل بني خزاعة بقرب الأبواء ما بين مكة والمدينة وفي تهامة. ورحل بعضهم إلى الشّام وعمان. وهم بطون كثيرة.
- ٩١ - بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة، وبكر هو ابن أخي النّضر (قريش) وهو جدّ جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة وبكر هذا هو غير بكر بن وائل من بني ربيعة. ولقرب بني بكر من قريش نسباً دخلوا في عهدهم وآزرتهم قريش في حربهم لخزاعة كما سيأتي، بينما مالت خزاعة وهم من الأزد إلى الأوس والخزرج لأنّهم أبناء عمومتهم فدخلوا في عهد الرسول ﷺ.
- ٩٢ - انظر سيرة ابن هشام: ٧٧٤/٣ وما بعدها، وزاد المعاد: ١٢٢/٢ وما بعدها.

أشعار السنة السابعة

(فتح خيبر - عمرة القضاء)

ضاقت الدعوة الإسلامية ذرعاً بشوكة عنيدة دونها زبانيات العقارب اتّخذت من حصون «خيبر»^(١) دروعاً سابغة وألواذاً منيعة جعلتها أمتع من بيض العقاب، وانتبذت من الجزيرة العربية ركنًا ينأى قليلاً عن سهام المسلمين المباشرة المنطلقة عن كبد قوس المدينة المنورة، وتتوافر فيه الزروع والثمار والنخيل والأشجار والمياه، واحتمت بتحالفات مع قبائل عربية متعددة وعلائق اقتصادية مختلفة، وراحت تبث سمومها وأضاليلها، وتنفت أحقادها السود وشحناءها بخبثٍ ومكرٍ ودهاءٍ شأن جميع اليهود في كل زمان ومكان. وطفقت تستقبل بالترحاب رؤوس الشرّ، وأساطين الفتنة والكيد من يهود ممّن أخرجوا أو أفلتوا في أثناء تصفية أوضاع بني قينقاع^(٢) وبني النضير^(٣) وبني قريظة^(٤)، حتى غدت بؤرة مستعرة اللظى من أشدّ بؤر الفتن والتحريض والكيد خطراً. ولا يغربن عن الذهن أن يهود لم يفتروا لحظة واحدة - منذ ظهر الدين الجديد - عن الكيد له، وتأليب العرب كافة عليه، وتحريضهم لوأده منتهزين كل فرصة تومض للقضاء على الدعوة ورجالها، وقد جعلوا رسول الله ﷺ يقاتل على أكثر من جبهة في وقت واحد إمعاناً في إحراجه، ووضعوا في طريقة من المتاعب والوعورات والأشواك ما لا يكاد يحصى، وعملوا على تكذيبه وتسفيهه، فكرياً وعقيدة، ورموه بكثير من المؤامرات والدسائس، ولا يُستبعد أنهم كان وراء حادثة الرجيع^(٥)، وبئر معونة^(٦)، ووراء استثارة قريش للقيام بغزوة أحد بعد أن تباكوا على قتلى بدر من المشركين^(٧)، كما أنه قد اتضح بلا جمجمة أنهم - كما ذكرنا - قد حزبوا الأحزاب^(٨). ولكي يبلغ كيدهم ذروة لؤمه وخسّته كانوا يتظاهرون غالباً بالوقوف على الحياد، أو يدخلون في معاهدات مع النبي ﷺ، بينما تغلي متسعة في أعماقهم مراحل غيظهم، وتحوك قلوبهم الماكرة التي

تضطرم بغضاً أحابيل الشر والغدر في دجنة الظلام. ولولا كلمة سبقت من رب العزة جلّ جلاله في قوله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون^(٩) وفي قوله تقدست آلاؤه: «والله يعصمك من الناس»^(١٠) أو لو قيسست الأمور آنذاك بمقاييس بني البشر وبالأعراف العسكرية والاجتماعية والمنطقية من حيث القوة والضعف، والنجاح والخسارة والنصر والهزيمة لما عرفت الدعوة الإسلامية سبيلها إلى القلوب، ولما بقي لرسول الله ﷺ ذكر، ولما بقي لموحد على وجه الأرض أثر ولكن «الله غالب على أمره»^(١١)، ومنجز وعده^(١٢).

وبعد أن استطاع رسول الله ﷺ بتوفيق الله سبحانه وتعالى أن يتخلص من بني قينقاع بعد بدر، ومن بني النضير بعد أحد، ومن بني قريظة بعد الخندق، وهؤلاء أصابتهم سهامه عن كثب جزاء كيدهم وحقدهم وغرورهم وغدرهم قرر أن يتخلص من يهود خيبر بعد رجوعه من الحديبية، إذ إن عدداً من زعماء يهود وقادة خبثهم قد لجؤوا إليهم^(١٣)، واستمروا مسعورين في حوك المؤامرات وتآليب الناس على النبي ﷺ محتمين بموقع خيبر ومزاياها، وبأنهم أهل كتاب يحترمهم العرب، وبحلفائهم من القبائل العربية كغطفان^(١٤)، وأدرك ﷺ أن أرض الججاز لا يمكن أن تصفو للدين الجديد إلا بالتخلص من عقاربها وثعالبها ولن يتم ذلك بغير القضاء على هؤلاء المكره المخادعين والأعداء الألداء^(١٥) ليهد ركناً عتياً من أركان البغي والخداع والمكر، وليحمي ظهره إذا ما اضطر لمنازلة قريش وتطهير بيت الله الحرام من الرجس والأوثان والأصنام في يوم لا مناص من إطلالة فجره.

وفي طريق عودته ﷺ إلى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية أنزلت سورة الفتح، وفيها وعد الله سبحانه وتعالى نبيه مغانم كثيرة، فعجل له فتح خيبر في قوله تعالى: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم^(١٦). «ليكون هذا كذلك خير تعويض عن عودته ﷺ هو وأصحابه من مكة من دون اعتمار، وكان ﷺ قد وعد أصحابه أن يدخلوا مكة المكرمة من خلال الرؤيا التي رآها^(١٧) ﷺ، ورؤياه ﷺ لا تكذب، ولكن لم يحدد السنة التي يدخلون فيها مكة المكرمة، فذهب بعضهم إلى فهم

أن هذه هي السنة الموعودة، ولذا خاب أمل الكثير منهم عند العودة بغير عمرة حتى صرح بعضهم لرسول الله ﷺ بشيء من هذا، فقال له عندما قدم المدينة ألم تقل يا رسول الله إنك تدخل مكة آمناً؟ قال ﷺ: بلى أفقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا لا، قال: فهو كما قال لي جبريل عليه السلام^(١٨).

وبعد أن قدم ﷺ المدينة أقام بها شهر ذي الحجة من السنة السادسة وبعض المحرم من السنة السابعة، ثم خرج إلى خيبر في بقية المحرم، واستعمل على المدينة أحد أصحابه^(١٩)، ودفع الراية - وكانت بيضاء - إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسار بجيشه حتى وصل إلى وادٍ يقال له «الرجيع»^(٢٠) فنزل فيه بين أهل خيبر وغطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ. ولما سمعت غطفان به جمعوا له ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا بعض الوقت سمعوا حساً، فحسبوا أن الرسول ﷺ قد خالفهم إلى أهلهم، فرجعوا إلى ديارهم، وخلوا بين الرسول ﷺ وخيبر.

وتدنى رسول الله ﷺ نحو حصون خيبر، ففتحها حصناً حصناً، واقتحم معاقلها معقلاً معقلاً، وكان شعار المسلمين آنذاك: «يا منصور أمت أمت» حتى انتهوا إلى آخر حصونهم فتحاً وهما: الوطيط والسلالم، فحاصروهم بضع عشرة ليلة حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه ﷺ أن يصالحهم على أن يسيرهم ويحقن دماءهم، فوافق، ثم سألوه بعدها أن يتركهم يعملون في الأرض على نصف الثمار والزروع بدعوى أنهم أعرف من المسلمين بالشجر والزرع فصالحهم على شرط أن يخرجهم المسلمون متى شاؤوا وكذلك صالحه أهل فدك^(٢١)، وكان فتح خيبر في شهر صفر.

ولما أطمأن ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث^(٢٢) امرأة سلام بن مشكم^(٢٣) شاةً مصليةً مسمومة وقد أكثر من وضع السم في الذراع لأنها عرفت أنه ﷺ يحبها، ولما قدمت له ﷺ تناول منها الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها، فلفظها، ونجّاه الله، وأكل منها أحد المسلمين فمات لوقته^(٢٤). ولما فرغ ﷺ من خيبر انصرف منها إلى وادي القرى^(٢٥)، وكان فيه جماعة من يهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب، فقاتل أهلهم وفتح عَنوةً وأقام فيه أربعة أيام، وصالح أهلهم على ما صالح عليه أهل خيبر^(٢٦)، ولما

بلغ الخبرُ أهلَ تيماء^(٢٧)، وما صنعه رسول الله ﷺ مع أهل خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ كذلك، وأقاموا في أموالهم، ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة المنورة^(٢٨).

وقد اهتزَّ شاعر الدعوة للفتح المبين فتح خيبر، وهجا أهل خيبر الذين تقتمصهم الجبن، فلم يدافعوا عن أموالهم، فقال^(٢٩):

بئس ما قاتلتُ خيابراً عمًّا
جمعتُ من مزارع ونخيل^(٣٠)
كرهوا الموت فاستبيع حماهم
وأقاموا فعل اللئيم الذليل
أمن الموت ترهبون فإن الد
موت موت الهزال غير جميل^(٣١)

ويبدو أن أحد فرسان المسلمين واسمه أيمن بن عبيد^(٣٢)، وهو ابن أم أيمن^(٣٣) حاضنة النبي ﷺ قد خانه مهره فتخلف عن شهود فتح خيبر، فانطلقت أمه تلومه وتجنّبه ولعل أناساً آخرين قد سلقوه بألسنتهم، فهبَّ حسان يبرئ ساحة أيمن، ويذكر السبب الحقيقي لتخلفه فقال مقطوعته الرائية^(٣٤):

على حين أن قالت لأيمن أمه
جَبُنْتَ ولم تشهد فوارس خيبر
وأيمن لم يَجُبْنْ ولكنْ مهره
أضرَّ به شربُ المديد المخمَّر^(٣٥)
فلولا الذي قد كان من شأن مهره
لقاتلَ فيهم فارساً غير أعسر^(٣٦)
ولكنه قد صدَّه فِعْلُ مهره
وما كان منه غير أيسر^(٣٧)

إنه تسويغ جميل وموفق لتخلف فارس خزرجي أنصاري أضرَّ بمهره شرب المديد

المخمر، فقصر في لحظة حرجة، ولم يتح لفارسه أن ينفر مع من نفر لفتح خيبر، ليحظى بثواب ربه وطاعة نبيه ﷺ ولعل حسان قد ساء كثيراً أن يتخلف أحد فرسان قبيلته «الخروج» وهم السباقون لنصرة رسول الله ﷺ وربما كان لتنافس الحيين الأوس والخزرج في خدمة رسول الله ﷺ أثر غير قليل في ظهور هذه الأبيات.

وأهم ما يجب أن يُشار إليه هنا أن ما قاله حسان في فتح خيبر أقل بكثير مما يمكن أن يحيط بجلال هذا الفتح وروعته، وإذلال الفئة الباغية الماكرة، وتطويعها، وخضد شوكتها، وما أظهره المسلمون من بطولات، وما كان من قتل بعض فرسان يهود وأبطالهم مبارزة.. ثم ما كان بعد ذلك في حصار وادي القرى، واقتحامه عنوة.

وحسبنا هنا أن نورد بعض ما قاله كعب بن مالك^(٢٨) أحد فرسان المسلمين وشعرائهم^(٢٩):

ونحن وردنا خيبراً وفروضه
بكل فتى عاري الأشاجع مذود
جوادٍ لدى الغايات لا واهن القوى
جريء على الأعداء في كل مشهد
عظيم رماد القدر في كل شئوة
ضروب بنصل المشرفي المهند
يرى القتل مدحاً إن أصاب شهادة
من الله يرجوها وفوزاً بأحمد
يذود ويحمي عن ذمار محمد
ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصره من كل أمر يريبه
يجود بنفس دون نفس محمد

ولن نحاول أن نوازن هنا بين ما قاله الشاعران في هذه المناسبة لضيق المجال،

ولاعتمادنا على حصافة القارئ وجودة تقويمه.

عمرة القضاء:

وبعد عودته ﷺ من وادي القرى أقام ﷺ في المدينة شهري ربيع وجماديين ورجباً وشعبان ورمضان وشوالاً من السنة السابعة، ثم خرج معتمراً عمرة القضاء في ذي القعدة مكان عمرته التي صده عنها المشركون في مثل هذا الشهر من العام الفائت، وخرج معه المسلمون ممن كان صُدَّ في عمرته تلك فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه، ودخل مكة وعبدالله بن رواحة أخذ بخطام ناقته يقول:

خُلُّوا بني الكفار عن سبيله

خَلُّوا فكل الخير في رسوله

وأدى ﷺ العمرة، وأقام بمكة ثلاثاً، ثم طلبت منه قريش أن يخرج فانصرف إلى المدينة في ذي الحجة^(٤٠).

الهوامش

- ١ - خبير: سبق التعريف بها ص ٣٢٤.
- ٢ - بنو قينقاع: إحدى قبائل اليهود الثلاث في يثرب أساءوا التصرف مع المسلمين ونسأهم، فحاصروهم النبي ﷺ، فرموا سلاحهم، ونزحوا إلى وادي القرى، ومنها إلى أذرعاء.
- ٣ - بنو النضير: سبق التعريف بهم، ص ٢٩٨.
- ٤ - بنو قريظة: سبق التعريف بهم، ص ٣٢٠.
- ٥ - سبق الحديث عن يوم الرجيع ص ٢٧٣.
- ٦ - سبق الحديث عن يوم بئر معونة (القراء) ص ٢٨٨.
- ٧ - انظر ص ٢١٤ من هذا المؤلف لتجد حديثاً موجزاً عما فعله كعب بن الأشرف اليهودي الذي ذهب إلى مكة بعد موقعة بدر، وأخذ يبكي أصحاب القلب و يرثيهم رثاء محزنًا ليحرض المشركين على الأخذ بثأرهم.
- ٨ - سبقت الإشارة إلى غزوة الأحزاب (الخدق) ص ٣٠١ من هذا المؤلف، ودور يهود في تأليب المشركين كافة (قريش و غطفان وأسد) على رسول الله ﷺ.
- ٩ - القرآن الكريم - سورة الحجر: ٩/١٥.
- ١٠ - القرآن الكريم - سورة المائدة: ٦٧/٥.
- ١١ - القرآن الكريم - سورة يوسف: ٢١/١٢. قال تعالى: «والله غالبٌ على أمره».
- ١٢ - انظر قوله تعالى: «ألا إنَّ وعد الله حق» (سورة يونس: ٥٥/١٠) وغيرها من الآيات الكثيرة التي تذكر أن وعد الله حق وأن الله لا يُخلف وعده.. وقد وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالنصر، والقرآن بالحفظ، والنبي ﷺ بالحماية والنصر ولن يخلف الله وعده.
- ١٣ - أمثال سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب.. (انظر سيرة ابن هشام ٦٨٣/٢).
- ١٤ - سبق التعريف بقبيلة غطفان.

١٥ - جاء في سيرة ابن هشام (٨١٦/٣) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان» وقد استند عمر رضي الله عنه على هذا الحديث بعد أن توثق منه فأجلى يهود خيبر من أماكنهم بعد أن كثر أذاهم للمسلمين إذ أن الرسول ﷺ قد صالحهم وأبقاهم للعمل في الأرض على أن يخرجهم المسلمون متى شاؤوا.

١٦ - القرآن الكريم - سورة الفتح: ٢٠/٤٨.

١٧ - قال تعالى: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» (سورة الفتح: ٢٧/٤٨) فقد رأى ﷺ أنه سيدخل مكة آمناً لا يخاف وقد جعل سبحانه من دون ذلك فتحاً قريباً إنه صلح الحديبية فكان فتحاً لم يفتح قبله أعظم منه، قال تعالى: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وليتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً..» سورة الفتح ٢١/٤٨.

١٨ - سيرة ابن هشام: ٧٩١/٣.

١٩ - هو نميلة بن عبد الله الليثي: وهو من كلب ليث، وليس من كلب وبيرة وقد اشتهر عنه أنه قتل مقيس بن صبابه يوم الفتح وكان من قومه. وقد أمر ﷺ بقتله لأنه ارتد فقد جاء إلى المدينة يطالب بدم أخيه وكان مسلماً وقد قتله أحد الأنصار في الحرب خطأ أو ظنه كافراً، فأعطي ديته ثم مكث زمناً في المدينة وعدا على قاتل أخيه فقتله ولحق بمكة كافراً.

٢٠ - الرجيع: ذكرنا ص ٢٨٢ من هذا المؤلف أن الرجيع ماءٌ لهذيل بين مكة والطائف.. أما الرجيع هنا فهو واد نزل به الرسول ﷺ ليحول بين خيبر وغطفان لكيلا يمدوا أهل خيبر، وكان يخرج منه لقتال خيبر، وخلف الثقل والنساء والجرحى فيه (في الرجيع)، وهذا غير الأول لأن ذاك قرب الطائف أما خيبر فمن ناحية بلاد الشام على خمسة أميال من المدينة المنورة، فيكون بين الرجيعين أكثر من خمسة عشر يوماً (انظر معجم البلدان لياقوت الحموي: ٢٩/٣).

٢١ - فدك بالتحريك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع للهجرة صلحاً، وفيها عين فوارة ونخل كثير.

٢٢ - زينب بنت الحارث يهودية زوج سلام بن مشكم: كانت تسكن خيبر، وهي التي أهدت الشاة المصلية إلى رسول الله ﷺ، وقد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثر فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يديه ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة، فلم يسغها، فلفظها، ثم قال إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم وأكل معه بشر بن البراء بن معرور فأساغه. ودعا رسول الله ﷺ بالمرأة فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبياً فسيخبر. فتجاوز عنها ﷺ ومات بشر من أكلته تلك، وقيل قتلها ﷺ بعد موت بشر.

٢٣ - سلام بن مشكم: اليهودي الخطير صاحب الدسائس ويقال إنه هو والد شعثاء التي كان يشبب بها حسان في شعره (انظر ص ٣٩١).

٢٤ - هو: بشر بن البراء بن معرور الأنصاري الخزرجي من بني سلمة. شهد العقبة وبدراً وأحداً، ومات بخيبر عند افتتاحها سنة سبع للهجرة من الأكلة التي أكل مع رسول الله ﷺ لوقتته وقيل مرض سنة ثم مات.

٢٥ - وادي القرى: بضم قافه (ج قرية): واد بين بلاد الشام والمدينة المنورة من أعمال المدينة، وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة من أوله إلى آخره، وبها سمي وادي القرى، ويقال إن وادي القرى والحجر والجناب منازل قضاة ثم جهينة وعذرة وبلي، وبها يمر حاج الشام لوقوعها بين الشام والمدينة.. وكانت - كما يقال - منازل ثمود وعاد، وبها أهلكهم الله، وأثارها - كما قال ياقوت - باقية إلى أيامه، وقد نزلها بعد ذلك اليهود واستخرجوا كظائهم وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها، ولما نزلت بهم القبائل العربية عقدوا بينهم حلفاً (انظر معجم البلدان لياقوت الحموي: ٤/٣٣٨ و ٥/٣٤٥) (الكظائم: مفرد الكظامة: قناة للماء في باطن الأرض أو بئر بجانب بئر بينهما مجرى في باطن الأرض).

٢٦ - هذا ما ورد في زاد المعاد: ١٤٦/٢ وفي معجم البلدان: ٥/٣٤٥، بينما جاء في سيرة ابن هشام: ٨٠١/٣ أنه ﷺ لما فرغ من خيبر «انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم انصرف راجعاً إلى المدينة».

٢٧ - تيماء: بالفتح والمد: بليد في أطراف بلاد الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق. ويشرف عليها الأبلق الفرد حصن السموءل بن عاديا اليهودي، فلذلك كان يقال لها: تيماء اليهودي.

- ٢٨ - انظر سيرة ابن هشام: ٧٩١/٣ وما بعدها، وزاد المعاد: ١٣٢/٢ وما بعدها.
- ٢٩ - ديوانه ص ٤٠٣ وسيرة ابن هشام: ٨٠٨/٣ وتتألف المقطوعة من ثلاثة أبيات.
- ٣٠ - خيابر: جمع خيبر والمراد هنا أهل خيبر كما تقول اجتمعت المدينة وأنت تريد أهل المدينة.
- ٣١ - الهزال: هنا الجوع والفقر.
- ٣٢ - هو أيمن بن عبيد بن عمرو بن بلال بن أبي الجرباء خزرجي أنصاري، وهو ابن أم أيمن حاضنة النبي وأخو أسامة بن زيد بن حارثة لأمه. وكان أيمن على مَظْهَرَةِ رسول الله ﷺ ويعاطيه حاجته وله ابن يقال له: الحجاج بن أيمن. استشهد أيمن يوم حنين سنة ٨ هـ/٦٣٠ م.
- ٣٣ - أم أيمن: مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته واسمها بركة، وأصلها من الحبشة، وكانت وصيفة لعبدالله بن عبدالمطلب، ولما ولدت آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ بعد وفاة أبيه حضنته أم أيمن حتى كبر، ثم أعتقها رسول الله ﷺ ثم أنكحها زيد بن حارثة. وقد أسلمت قديماً. وهاجرت إلى الحبشة وإلى المدينة وبايعت رسول الله ﷺ. توفيت بعد وفاة الرسول ﷺ بخمسة أشهر أو ستة (أي: سنة إحدى عشرة للهجرة في شهر شعبان أو رمضان/ ٦٣٣ م).
- ٣٤ - ديوانه ص ٢٥٧ وقد وردت فيه الأبيات الثلاثة الأولى فقط، والسيرة: ٨٠٩/٢ وقد وردت فيها الأبيات الأربعة.
- ٣٥ - المديد: العلف، وقيل: ما يُخلط به من سويق أو سمسَم أو دقيق أو شعير يُجَشُّ ويمزج بماء كثير ولعله يترك حتى يختمر.
- ٣٦ - الأعسر: الذي يعمل بشماله ولا يعمل بيمينه.
- ٣٧ - هذا البيت ورد في السيرة: ٨٠٩/٣ فقط ولم يرد في الديوان. ومعنى العجز: أنه لم يكن يصدر عنه (أي المهر غالباً وربما قصد أيمن) إلا اليسر.
- ٣٨ - كعب بن مالك سبق التعريف به ص ١١٤ من هذا المؤلف.
- ٣٩ - انظر سيرة ابن هشام: ٨٠٩/٣.
- ٤٠ - انظر سيرة ابن هشام: ٨٢٧/٣.
- ****

— |

| —

— |

| —

أشعار السنة الثامنة

« غزوة مؤتة - فتح مكة - غزوة حنين - غزوة ثقيف (الطائف) »

أقام رسول الله ﷺ في المدينة المنورة بقية ذي الحجة من السنة الهجرية السابعة، والمحرم وصفرًا وشهري ربيع من السنة الثامنة، وبعث بعثته إلى مؤتة^(١) في جمادى الأولى، وسبب هذه الحملة أنه ﷺ بعث أحد أصحابه^(٢) بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم، فعرض له أحد أمراء الغساسنة^(٣)، فضرب عنقه فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ، ولم يقتل له رسول غيره، فبعث البعث، واستعمل عليهم زيد بن حارثة^(٤) وقال: إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب^(٥) على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله ابن رواحة^(٦) على الناس.

وتجهز الناس وهم ثلاثة آلاف، وودع المسلمون أمراء رسول الله ﷺ ثم مضوا حتى نزلوا معان^(٧) من أرض الشام، وبلغهم أن «هرقل» قد نزل مآب^(٨) من أرض البلقاء^(٩) في مئة ألف من الروم، وانظم إليه من قبائل لخم^(١٠)، وجذام^(١١) والقين^(١٢) وبهراء^(١٣) وبلي^(١٤) مئة ألف.. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. ولكن عبد الله بن رواحة شجع الناس، وقال: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسينيين، إما ظفرٌ وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس وأنشد ابن رواحة:

فلا وأبي مآب لنأتينها
وإن كانت بها عربٌ ورومٌ

بذِي لَجَبٍ كَأَنَّ الْبَيْضَ فِيهِ
إِذَا بَرَزْتَ قَوَانِسُهَا النُّجُومُ^(١٥)

وحين بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى
البلقاء يقال لها مشارف^(١٦) وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة، والتقى الفريقان
عندها، فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم،
ثم أخذ الراية جعفر بيمينه فقاتل بها، حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له
شقراء، فعقرها، ثم قاتل القوم فقطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله فقطعت،
فاحتضنها بعضديه حتى استشهد رضي الله عنه وهو يقول:

يَا حَبْذَا الْجَنَّةِ وَاقْتِرَابُهَا
طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رَوْمٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا
كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إِذْ لَاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة، وتقدم بها وهو على فرسه، وجعل يستنزل
نفسه قائلاً:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ
لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُخْرَجَنَّ

وقال أيضاً:

يَا نَفْسُ إِلَّا تُفَنِّيَ تَمُوتِي
هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَّيْتُ
وَمَا تَمُنِّيْتُ فَقَدْ أُعْطِيتِ
إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هُدَيْتِ^(١٧).

ثم نزل، وأخذ يقاتل حتى استشهد. ثم اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما
أخذ الراية دافع القوم، ثم انحاز وانحيز عنه، وانصرف بالناس ونجا بالمسلمين.^(١٨)

إنها لمعركة بطولية فذة تصدت فيها العقيدة الشابة للسمهريات الراحفة والصوارم البتارة والجيوش الجرارة ذات الخبرات العالية، فاستبسلت وقدمت اثني عشر شهيداً من خيرة رجالها، وأرادت وهي الحديثة عهداً - أن تلقن ذوي التقاليد العريقة في السياسة والحرب دروساً في أصول التعامل الإنساني وفي ضرورة احترام السفراء والرسل بين الدول، وتجاوزت - ولما تقسُ قناتها بعد - أطر القبائل والعشائر والأحياء والقُرى، بل وتجاوزت نطاق الجزيرة العربية كلها، وتصدت لدولة جبارة هائلة الإمكانات، مترامية الأطراف، وراسخة البنيان، متينة الأركان، لها قيمٌ بطولية، وأعرافٌ عسكرية عريقة، وجيوش كثيفة حققت انتصارات باهرة، ولها حلفاؤها الكثيرون عدداً وعدةً، الأقوياء شكيمة وبأساً من أبناء جلدة حملة العقيدة أنفسهم.. فلا عجب إن استثارت هذه المعركة مشاعر الملهمين، ولا عجب إن خلدها شاعر الدعوة بقصائد تفوح بالشعور الحي النابض، وتنطق بالعاطفة الجياشة الصادقة، فرثى أهل مؤتة بقصائد ثلاثٍ تعدُّ من أجود ما انفرجت عنه شفتاه.

الأولى: قصيدة رائية، مطلعها^(١٩):

تَأْوَبَنِي لَيْلٌ بَيْثَرَبَ أَعْسَرُ
وَهُمْ إِذَا مَا نَوْمَ النَّاسِ مُسْنَهَرُ^(٢٠)

وفيها يذكر بعض أسماء الشهداء:

رَأَيْتُ خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا
شُعُوبَ وَقَدْ خُلِّفْتُ فَيَمْنُ يُؤْخَرُ^(٢١)
فَلَا يَبْعَدَنَّ اللَّهَ قَتْلَى تَتَابَعُوا
بِمَوْتِهِ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحِينَ جَعْفَرُ^(٢٢)
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حِينَ تَتَابَعُوا
جَمِيعاً وَأَسْبَابَ الْمَنِيَةِ تَخْطُرُ^(٢٣)

وهو هنا يشير إلى قول رسول الله ﷺ في جعفر: «إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء»^(٢٤). ونلمس الأثر الإسلامي مع الإشارة إلى البطولة وحسن البلاء في قوله:

غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم
إلى الموت ميمون النقيبة أزهر^(٢٥)
فطاعن حتى مات غير مؤسّد
بمعترك فيه القنا يتكسّر
فصار مع المستشهدين ثوابه
جنان وملثف الحقائق أخضر

الثانية: قصيدة رائية كذلك، مطلعها^(٢٦):

عين جودي بدمعك المنزور
واذكري في الرخاء أهل القبور^(٢٧)

وفيها أشار إلى ما حصل في مؤتة، وذكر من الشهداء زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة.

الثالثة: قصيدة لامية يرثي فيها جعفر بن أبي طالب، ومطلعها^(٢٨):

ولقد بكيت وعزّ مهلك جعفر
حب النبي على البرية كلها

وفيها وصفه بأنه شجاع، كريم المحتد، وقّاف عند الحق، بعيد عن الفحش، لا شبه له في البرية بعد النبي محمد ﷺ:

ولقد جزعتُ وقلت حين نُعيت لي:
من للجلاء لدى العقاب وظلها^(٢٩)
بالبيض حين تُسلّ من أغمادها
يومًا وإنهال الرماح وعالها^(٣٠)
بعد ابن فاطمة المبارك جعفر
خير البرية كلها وأجلها^(٣١)
رُزءًا وأكرمها جميعًا محتدًا
وأعزها متظلّمًا وأنلها^(٣٢)

لِلْحَقِّ حِينَ يَنْوِبُ غَيْرَ تَنْحُلٍ
كَذِبًا وَأَعْمَرَهَا نَدَى وَأَقْلَاهَا^(٣٣)
فُحْشًا وَآكْثَرَهَا إِذَا مَا تُجْتَدَى
فَضْلًا وَأَبْذَلَهَا نَدَى وَأَذْلَاهَا^(٣٤)
عَ الْخَيْرِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ لَا شِبْهَهُ
بَشَرٍ يُعَدُّ مِنَ الْبَرِيَّةِ جُلَّهَا^(٣٥)

نلاحظ هنا غلبة الحزن على قصائد حسان الثلاث واخضلالها بالدموع والأسى والحسرات، وما ذاك إلا لأن حسان لم يكن يرى في غزوة مؤتة نصراً مؤزرًا، بل لعله - وإن لم يصرح - قد شايع الكثير من الناس الذين رأوها نوعاً من التجاوز إن لم يروها لوناً من الفرار، فالمسلمون بوجه عام لا يقرّون مثل هذا التصرف أو لا يثنون عليه على الأقل إن لم يعيبوه، إنهم يريدون النصر أو الشهادة، ولذلك قال حسان إنه خُلف بينما استشهد الخيار:

رَأَيْتُ خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا
شُعُوبٌ وَقَدْ خُلِّفَتْ فَيَمْنٌ يُوْخَرُ^(٣٦)
وَقَالَ شَاعِرٌ آخَرُ مِمَّنْ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ مُؤْتَةَ:
كَفَى حَزْنًا أَنِي رَجَعْتُ وَجَعْفَرُ
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فِي رَمْسٍ أَقْبَرُ
قَضَوْا نَحْبَهُمْ لَمَّا مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ
وَخُلِّفْتُ لِلْبَلَوَى مَعَ الْمُتَغَبَّرِ^(٣٧)

بل إن أهل المدينة لما آب جيش مؤتة جعلوا يحثون التراب في وجوههم، ويقولون: يا فُرَّار! أفرار في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى»^(٣٨) وتحقق ما قاله ﷺ، فلم يمض إلا قليل حتى كَرَّ المسلمون وعلموا الروم وحلفاءهم والفرس وأنصارهم في اليرموك وفي غير اليرموك كيف ينتزع النصر الأغر بعزم الله وقدرته من بين أشدّاق الدجّة الجبّارة والقوى العاتية.

لقد كانت غزوة مؤتة اختباراً لقناة العقيدة الجديدة في مواجهة القوى الجبارة الغاشمة خارج الجزيرة العربية وتهديداً للظلمة والطواغيت والمستكبرين بأن زحف النور الوضاء قد أطل زمانه، ولن تقوى جيوشهم على صده وإن طغت وتجبرت، وعتت وبغت. «والله غالب على أمره».

فتح مكة:

مر بنا أن رسول الله ﷺ عقد مع قريش في صلح الحديبية معاهدة «عدم اعتداء»، وترك الباب مفتوحاً للقبائل تدخله متى شاءت، ومع أي طرف أرادت فدخلت بنو بكر بن عبدمناة من كنانة في عهد قريش وعقدها، ودخلت خزاعة في عهد الرسول ﷺ وعقده. وكان بين القبيلتين نزاع قبلي جاهلي كلما خبت ناره تأجج أواره^(٣٩)، فاغتنمت بنو بكر الفرصة، واستعدت قريشاً على خزاعة فأمدتهم بالسلاح، وخرج نوفل بن معاوية الديلي^(٤٠) في بني الديل وهم من بكر - وكان قائدهم - وليس كل بكر تابعه - حتى بيت خزاعة على ماء لهم يدعى «الوتير»^(٤١)، فأصابوا منهم رجلاً، واقتتلوا، وقاتل مع بكر من قريش من قاتل بالليل متخفياً حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، وقتلوه فيهم، ونكثوا بعهودهم مع رسول الله ﷺ، وهم يعلمون حق العلم أن خزاعة في عهده وعقده. وقد تناول بعض الشعراء هذا الحدث المنكر مشيرين إلى ما حصل بين كنانة وخزاعة في الحرم فقال أحد بني الديل مفتخراً، وهو الأخزر بن لعط الديلي^(٤٢):

ألا هل أتى قُصوى الأحابيش أننا

رددنا بني كعب بأفوق ناصل^(٤٣)

نذبهم ذبح التيوس كأننا

أسود تباري فيهم بالقواصل^(٤٤)

فأجابه بُدِيل بن عبد مناة بن سَلَمَة^(٤٥)، وذكر بلاءهم فيما مضى:

تفأقَدَ قوم يفخرون ولم ندع

لهم سيِّداً يندوهمُ غير ناقل^(٤٦)

أما حسان بن ثابت، فقد هاجم نوفلاً، وقرَّعه وأزرى بقومه في قوله^(٤٧):

لحا الله قومًا لم ندع من سراتهم

لهم أحداً يندوهم غير ناقيب^(٤٨)

وبينما كان النبي ﷺ في مسجده جاءه عمرو بن سالم الخزاعي^(٤٩)، فوقف عليه، وهو جالس بين ظهراني أصحابه، فأنشده (أرجوزة) ذكر فيها ما صنعت بنوبكر وقريش من غدر ومن استباحة للحرم^(٥٠)، ومنها:

لَاهُمُ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا
حِلْفَ آبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَادِ^(٥١)
قَدْ كُنْتُمْ وَلَدًا وَكُنَّا وَالِدًا
ثَمَتِ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدًا^(٥٢)
فَانْصِرْ - هَذَاكَ اللَّهُ - نَصْرًا أَعْتَدَا
وَادُّعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا^(٥٣)
فِي فَيْلِقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مَزِيدًا
إِنْ قَرِيشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا^(٥٤)
وَنَقِضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَجْعَلُوا لِي فِي كَدَاءِ رُصْدَا^(٥٥)
هَمْ بِيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجْدَا
فَقَتَلُونَا رَكْعًا وَسُجْدَا^(٥٦)

فقال ﷺ: «نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ» ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء فقال: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةُ لَتَسْتَهْلُ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ». وقال كذلك لأصحابه: «كَأَنَّكُمْ بِأَبِي سَفِيَّانٍ قَدْ جَاءَكُمْ لِيَشْدَ الْعَقْدَ وَيَزِيدَ فِي الْمَدَةِ». وجاء أبوسفيان فعلاً إلى المدينة، وكلم رسول الله ﷺ فلم يرد عليه شيئاً، وطلب من أبي بكر ومن عمر ومن علي أن يشفعوا له عند الرسول ﷺ، فأبوا، فعاد إلى مكة خائباً.

وتألم حسان لما أصاب خراعة، واغتاض لغدر قريش وبني بكر، وأسف لغياب

* - ديوانه: ص ٣٢٣.

** - كتاب محمد: يحتمل أن يكون العقد الذي بين الرسول ﷺ وقريش ويحتمل أن يكون الرسول ﷺ أرسل كتاباً إلى بني بكر والأول أرجح. والإرماء: مصدر أرمى أي ألقى. أوفض ورفض: ههنا موضعان.

*** - قالوا على خط النبي: تقولوا أثمى: أثمون. البغضة: البغض. القراف: ج قرف أي التهمة.

المسلمين عن هذه المعركة، وهدد المعتدين، فقال أبياتاً، مطلعها^(٥٧):

عَنَانِي - وَلَمْ أَشْهَدْ بِبَطْحَاءِ مَكَّة -

رَجَالُ بَنِي كَعْبٍ تُحَزُّ رِقَابُهَا^(٥٨)

وفيها تمنى أن تنال غضبته سهيل بن عمرو^(٥٩) وصفوان بن أمية^(٦٠) ممن ساعدوا بني بكر، والتفت إلى عكرمة بن أبي جهل^(٦١)، فهدده وأنذره:

فِيَالَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَنَالُنْ نُصْرَتِي

سَهِيلَ بْنَ عَمْرٍو وَخَزْأَهَا وَعِقَابُهَا

وصفوان عَوْدُ حَزُّ مِنْ شَعْرِ أُسْتِهِ

فهذا أوان الحرب شُدَّ عَصَابُهَا^(٦٢)

فَلَا تَأْمَنُنَا يَا بَنَ أُمِّ مُجَالِدٍ

إِذَا احْتُلِبَتْ صَرْفًا وَأَعْصَلَ نَابُهَا^(٦٣)

وكان هذا التحريض وذلك السبب كافيين أحدهما أو كلاهما لحفز همم المسلمين وإثارة عزائمهم لتأديب قريش ومن والاها.

وتوجه حسان نحو بني بكر بشيء من التقريع والتهديد والاثام بالبطش والغرور وسوء التصرف والتقدير وقلة الوعي فقال مقطوعة فائية تتألف من ثلاثة أبيات وهي^(*):

أَظُنُّتَ بَنُو بَكْرٍ كِتَابَ مُحَمَّدٍ

كَارِمَائِهَا مِنْ أَوْفَضِ وَرِصَافٍ^(**)

لَأَنْتُمْ بِحَمْلِ الْمَخْزِيَّاتِ وَجَمْعِهَا

أَحَقُّ مِنْ أَنْ تُسْتَجْمَعُوا لِعَفَافٍ

فَقَالُوا عَلَى خَطِ النَّبِيِّ فَأَصْبَحُوا

أَثَامَى بِنَعْلِي بِغُضَّةٍ وَقِرَافٍ^(***)

وتجهز رسول الله ﷺ، وأمر أصحابه بالجهاز والجد، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها». وخرج لعشر

مضين من شهر رمضان من السنة الهجرية الثامنة في عشرة آلاف من المسلمين، فسبغت سُلَيْمٌ وقيل أَلْفَت^(٦٤)، وألفت مُزَيْنَةً^(٦٥)، وفي معظم القبائل عدد وإسلام، وأَوْعَبَ مع رسول الله ﷺ، المهاجرون والأنصار فلم يتخلف منهم أحد، ومضى حتى بلغ مرَّ الظهران^(٦٥)، وقد قدَّم بني سُلَيْمٍ أمام جيشه، فعتب حسان على رسول الله ﷺ أن قدم هؤلاء أمام الأنصار، وقال قصيدته الرائية ومطلعها^(٦٦):

زادت همومُ فمَاءِ العينِ ينحدرُ
سَحًا إِذَا حَقَّقَتْهُ عِبْرَةٌ بِدْرُ^(٦٧)

ومنها ما جاء في عتاب رسول الله ﷺ:
وَأَتِ الرَّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُؤْتَمِنٍ
لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا مَا عُدَلَ الْبَشَرُ
عَلَامٌ تُدْعَى سَلِيمٌ وَهِيَ نَازِحَةٌ
أَمَامَ قَوْمٍ هُمْ أَوْوَا وَهُمْ نَصَرُوا^(٦٨)

وطفق حسان يعدد مواقف الأنصار، وجهادهم في بدر وأحد وغيرهما، بينما كان الناس جميعاً متألمين عليهم، وقد منحهم سبحانه هذا الاسم لنصرهم دينه:

سَمَّاهُمُ اللَّهُ أَنْصَارًا لِنَصْرِهِمْ
دين الهدى وعوانُ الحربِ تَسْتَعِرُ^(٦٩)
وجاهدوا في سبيل الله واعترفوا
لِلنَّائِبَاتِ فَمَا خَامُوا، وَمَا ضَجَرُوا^(٧٠)
وَالنَّاسُ إِلْبُ عَلَيْنَا ثُمَّ لَيْسَ لَنَا
إِلَّا السَّيُوفُ وَأَطْرَافُ الْقَنَا وَزُرُ^(٧١)
وَكَمْ رَدَدْنَا بِبِدْرِ دُونَ مَا طَلَبُوا
أهل النفاق وفيْنَا أُنْزَلَ الظِّفَرُ^(٧٢)
ونحن جنودك يوم النُّعْفِ مِنْ أُحُدٍ
إِذْ حَزَبْتُ بِطَرًّا أَشْيَاعَهَا مُضِرُ^(٧٣)

إنه عتاب رقيق لا ريب، عتاب أحباب، ولكنه واخز بعض الشيء، وإذا كان حسان قد رأى في تقديم بني سليم - إن صح الخبر - غصاً من شأن قومه، فليس ذلك كذلك، وأحر به أن يرتفع متسامياً عن هذه النظرة العصبية الضيقة، فإذا كان الأنصار - أكرم بهم، وأحسن الله ثوابهم - قد جاهدوا في سبيل الله حق جهاده، وقدموا بسخاء الأرواح والأموال والجهود، وبهم ظمأ لا تُطْفَأُ غلته إلى الاستمرار في رفع راية الإسلام وتقدم كتائب الجهاد، فإن في غيرهم أيضاً شوقاً إلى مثل ذلك إلى ورود مناهل الاستشهاد وقرع أبواب الجنة وأخص الذين يسلمون حديثاً، ويشعرون بأنهم قد قصرُوا فيما سلف، ويريدون أن يعوضوا عما فات، ورسول الله ﷺ يدرك بلا شك هذا الشعور وهذا الاندفاع وهذه الحماسة، فيحرص على إروائها وإرضائها.. والجميع بعد مسلمون، لا يرجون مالاً من وراء اندفاعهم، ولا يبغون جاهاً ولا صيتاً، وقد وحد الإسلام صفوفهم، وطهر قلوبهم، وجعل منهم أمة واحدة، قال تعالى: «إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون»^(٧٤)، وقال تعالى: «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم»^(٧٥).

وتقدمت كتائب الهدى باتجاه مكة المكرمة تحمل النور إلى عيون زائغة وقلوبٍ مسيطرة طالما اعتصمت ببيت الله الحرام، وصدت عن دينه، وأذت أوليائه، ونصرت أعداءه، وخلال هذه المسيرة الطافرة التي يقود خطواتها ويوحد ركاها سيّد المرسلين ﷺ لقيه في بعض الطريق عمه العباس بن عبدالمطلب مهاجراً هو وعياله فقبلهم^(٧٦) ولقيه كذلك ابن عمه أبوسفیان بن الحارث بن عبدالمطلب^(٧٧) ومعه صهر الرسول ﷺ عبدالله بن أبي أمية^(٧٨)، فرفض مقابلتها أولاً، ثم رقّ لهما بعد ذلك، فأذن لهما فأسلما، وأنشده أبوسفیان بن الحارث قصيدة واعتذر إليه مما كان مضى منه فقال:^(٧٩)

لعمرك إني يوم أحمل راية
لنغلب خيل اللات خيل محمد
لكامد لج الحيران أظلم ليلة
فهذا أواني حين أهدي وأهتدي

وأدرك العباسُ عندما نزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران أن على قریش أن تستأمنه

ﷺ قبل أن يدخل مكة عنوة، فخرج في إحدى الليالي على بغلة رسول الله ﷺ لعله يجد من يرسله إلى قريش لتستأمن الرسول ﷺ، فالتقى أبا سفيان بن حرب، ومعه اثنان من^(٨٠) أصحابه، وقد خرجوا يتحسسون الأخبار فعرض عليه ما رآه فوافق، ثم أوردفه خلفه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، وعاد إلى قريش فأوضح لهم جليّة الأمر، ودعاهم إلى الهدوء، وقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل داره فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.

واستمر ﷺ في سيره حتى انتهى إلى ذي طوى^(٨١)، ففرّق جيشه:

- أمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدَى^(٨٢)

- وأمر سعد بن عباد أن يدخل في بعض الناس من كَدَاء^(٨٣)، ولكن عندما بلغه ﷺ أن سعداً قال «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلُّ الحُرمة» خشي أن تكون له في قريش سطوة، فكلف عليّ بن أبي طالب أن يدركه، ويأخذ الراية منه.

- وأمر خالد بن الوليد^(٨٤) أن يدخل من اللَّيْط^(٨٥) أسفل مكة في بعض الناس.

- وأقبل أبو عبيدة بن الجراح^(٨٦) بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول

الله ﷺ.

ودخل ﷺ من أذاخر^(٨٧) حتى نزل بأعلى مكة، وضربت هنالك قُبَّتُهُ وأوصى رسول الله ﷺ أمراءه من المسلمين حين أمرهم بدخول مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، ما عدا ستة نفر أمر بقتلهم إمّا لارتدادهم عن الإسلام، أو لعظم جرائمهم وآثامهم. وحاول بعض القرشيين ومنهم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أن يتصدوا للنور الزاحف بإذن ربه، فانهزموا شر هزيمة. وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان للهجرة،

وبعد أن نزل ﷺ مكة، وأطمأن النَّاس توجه نحو البيت، وطاف به سبعاً، وحطّم الأصنام التي كانت مشدودة حوله بالرصاص، ودخل الكعبة المشرفة، وصلى فيها ثم قام على بابها، فحمد الله وأثنى عليه وألقى بعض تعاليم الإسلام، وتلا شيئاً من القرآن الكريم، ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: «خيراً، أخ كريم وابن

أخ كريم». قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم قام «على الصفا»^(٨٨) يدعو الله، وقد أهدت به الأنصار، فقالوا فيما بينهم: «أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟» فلما فرغ من دعائه قال: «ماذا قلتم؟» قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال النبي ﷺ: «معاذ الله! المحيا محياكم والممات مماتكم»^(٨٩).

وفي هذا اليوم الأغر الحاسم في سير الدعوة الإسلامية تفجرت على لسان شاعر الدعوة قصيدة من أروع ما قاله في حياته الفنية الطويلة، بل لعلها من أروع ما عرفه الشعر العربي، مطلعها^(٩٠)

عَفْتُ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ
إِلَى عِذْرَاءٍ مَنَزَلَهَا خَلَاءُ^(٩١)

واستمر في وقوفه على الديار يذكر تلك الربوع التي تعفُّها الرياح والأمطار، وكانت من قبل حافلة بالأنس والحياة البهيجة:

دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ
تَعَفُّيْهَا الرِّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ^(٩٢)
وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيْسُ
خِلَالِ مَرْوَجِهَا نَعْمٌ وَشَاءُ

وأول ما يلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر بدأها بذكر مواضع جاهلية الذكريات، وهي منازل الغساسنة التي تركت في نفس حسان ذكريات عميقة وبهيجة.

ثم دعا إلى الانصراف عن وصف الطلول الدارسة، وراح يتغزل مشبهاً بطيف محبوبته شعثناء^(٩٣) التي تيمته وشَعَفَتْ فَوَّادَهُ وَأَسْقَمَتْ خَافِقَهُ، وشبه رُضَابَهَا بسبيئة من بيت رأس،^(٩٤) مزاجها عسل وماء، أو بطعم تفاح غُضَّ عَذْبُ الْجَنَى لَذِيذِ الْمَذَاقِ بعد أن أدرك ونضج:

فَدَعَا ذَا وَلَكِنْ مِنْ لَطِيفٍ

يُورِّقْنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ^(٩٥)
لشُعْنَاءِ الَّتِي قَدْ تَيَّمَنَتْهُ
فليس لقلبه منها شفاء
كَأَن سَبِيَّةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ
يَكُونُ مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ
عَلَى أَنْيَابِهَا أَوْ طَعْمُ عَضٍّ
مِنِ التَّفَاحِ هَمَّزُهُ الْجَنَاءُ

ثم انتقل إلى ذكر الأَشْرِيَّاتِ، ففضلَّ الراح (الخمرة) عليها جميعاً، وذكر مزاياها،
إذ إنها مشجبةٌ تعلق عليه الأخطاء والتجاوزات، وإنها تملأ نفوسهم اعتداداً وثقة
وشجاعة وصبراً على الجَلَادِ:

إِذَا مَا الْأَشْرِيَّاتُ ذُكِّرْنَ يَوْمًا
فَهِنَّ لَطِيبُ الرِّاحِ الْفِدَاءُ^(٩٦)
نَوَلَّيْهَا الْمَلَامَةَ إِنْ أَلَمْنَا
إِذَا مَا كَانَ مَعْتُ أَوْ لِحَاءٌ
وَنَشْرِبُهَا فَتَرْكُنَا مَلُوكًا
وَأُسْدًا مَا يَنْهِنُنَا الْلِقَاءُ

هذا كله يشكل القسم الأول من القصيدة، ويتألف من عشرة أبيات، وفيه وقوف
على الأطلال وتشبيب ووصف الشراب.

- القسم الثاني: وهو الغرض الأساسي ، ويتألف من أحد عشر بيتاً .
- القسم الثالث: هجاء أبي سفيان بن الحارث، ويتألف من سبعة أبيات .
- القسم الرابع: التأليب على بني جَذِيمَةَ، وإسقاط حلفي الحارث بن أبي ضرار،
وبني قريظة في ثلاثة أبيات .
- القسم الخامس: الاعتداد بلسانه وفنّه، ويقع في بيت واحد .

وهذه المقدمة التي استغرقت عشرة أبيات من مجموع الأبيات البالغ اثنين وثلاثين

بيتاً؛ ثلاثة منها لوصف الديار، وأربعة للتشبيب، وأربعة لوصف الخمرة.

وهنا لا بدّ من نثر بعض علامات الاستفهام حول هذه المقدمة وتركيبها وماهيتها: ترى ما لشاعر الدعوة الإسلامية ولهذه المنازل يتغنّى بها في يوم له من جلاله غنى عن مثلها؟ وما له ولشعثاء التي قد تيمته وعلى أنيابها سبيئاً من بيت رأس مزاجها عسل وماء، أو طعم غضّ من التفاح، وقد وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالحدود العين اللواتي يفوق جمالهنّ، وتفوق فتنتهن كل جمال وكل فتنة^(٩٧)؟ ثم ما لحسان ولبنّت الكروم التي زعم أنهم يلقون الملامة عليها، إذا ما حصل مرء أو خصام، والتي زعم أنهم يشربونها، فتتركهم ملوكاً وأُسداً ما يُنهنّهم اللقاء، وقد أبدل الله المؤمنين بها راح اليقين وخمر الفراديس التي ليس فيها غول، ولا همّ عنها ينزفون؟^(٩٨).

ترى أكانت تلك المقدمة ممّا قاله في الجاهلية وبنى عليها في الإسلام بقية القصيدة؟ أم أنه قالها في الجاهلية، وأضاف إليها الرواة قصيدة الفتح؟ أم كانت خطرات شاعر ما ضل وما غوى ولكنه ثمل بخمر النصر فقال ما قال؟ أم أن حسان قد أخذ بما يذهب إليه الشعراء في مطالع قصائدهم؟!

يظهر أن هناك قرائن يمكن أن تؤيد أحد الفرضين الأوليين، فهم يروون أن حسان مر يوماً بفتية من الأنصار يشربون الخمرة في الإسلام، فنهاهم، فقالوا: إنا لنهم بتركها، فيثبطننا قولك:

ونشربها فتتركنا ملوكاً

وأُسداً ما ينهنّنا اللقاء

فقال حسان: هذا شيء قلته في الجاهلية، والله ما شربتها منذ أسلمت^(٩٩). ويرى شارح ديوان حسان أن حسان كان قد ابتدأ «هذه القصيدة في الجاهلية، ثم أتمّها في الإسلام»^(١٠٠). فالقسم الإسلامي يبدأ لديه بعد هذه المقدمة أي من البيت الحادي عشر حسب تسلسل الأبيات في الديوان، وهو:

عَدَمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا

تَثِيرُ النِّقْعَ مَوْعِدَهَا كَدَاءً^(١٠١)

هذا كله مع الأخذ بالحسبان أنَّ حَسَّانَ يُحتمل أن يكون قد أخذ بمذاهب الشعراء العرب وصنعهم في مطالع قصائدهم^(١٠٢) وقد فعل ذلك في غير هذه القصيدة.

وفي هذا القسم الذي ذُكر أنه إسلامي بلا مرأى، والذي يعدّ غرض القصيدة الأساسي سما نَفْسُ شاعر الدعوة سموًّا يليق بروعة هذا الفتح الأغرّ، فصوّر هذا اليوم تصويراً ألهمه أو استشف من خلال حجب الغيب بروح المؤمن الصادق وقائعه، فتوقع النصر الأكبر ودخول كتائب الرحمن من ثِيَّة كداء، وهي الثِيَّة التي يُروى أن المسلمين انحدروا منها إلى مكة بقيادة سعد أولاً، ثم عليّ، وانطلق يصوّر خيل المسلمين مسلسلة القياد وافرة النشاط تباري الأعنة، بينما تنبري النسوة القرشيات يلطّمن بخُمرهنّ خدودها ليردّدنّها فلا يزيدُها ذلك إلا نشاطاً، ولا يجدي عملهن شيئاً سوى أن ينفض ما على أعرافها من غبار:

يَبَارِينِ الْأَعْنَةَ مَصْعَدَاتٍ

على أكتافها الأسَلُ الظَّمَاءُ^(١٠٣)

تَظَلُّ جِيَادِنَا مُتَمَطِّراتٍ

تَلَطَّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ^(١٠٤)

ويهدد المشركين إن لم يسمحوا للمسلمين بدخول مكة والاعتمار - بحرب متسعة ينصر الله سبحانه فيها من يشاء والله يدافع عن الذين آمنوا^(١٠٤)

فإِذَا تَعَرَّضُوا عَنَّا اعْتََمَرْنَا

وكان الفتحُ وانكشف الغطاء^(١٠٥)

وإِلَّا فَاصْبِرُوا لِحِجَابِ يَوْمٍ

يَعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مِنْ يَشَاءُ^(١٠٦)

والقصيدة تحفل بالروح الإسلامية، فجبريل رسول الله يُعين المسلمين، وليس له كفاءٌ والله سبحانه أرسل عبداً يدعو إلى عبادة الله ولكن المشركين كذبوه، وأرسل جنداً لحماية الدعوة:

وجبريلُ رسولُ الله فينا

وروح القدس ليس له كفاء^(١٠٧)

وقال الله قد أرسلت عبداً

يقول الحق إن نفع البلاء^(١٠٨)

شهدت به فقوموا صدقوه

فقلتم لا نقوم ولا نشاء

وقال الله قد سيئرت جنداً

هم الأنصار عرضتها اللقاء^(١٠٩)

ثم يلتفت إلى أبي سفيان بن الحارث هاجياً ومننداً بتطاوله في شعره على من هو أكفأ منه وأفضل؛ على النبي ﷺ المبارك البر الذي لا تدانى منزلته ويعلم شاعر الدعوة رضي الله عنه أنه قد ندب نفسه للإجابة عن رسول الله ﷺ وجزاؤه عند الله وحده، وأنه قد جعل أباه وجده وعرضه وقاءً لعرض محمد ﷺ من ألسنتهم وأكاذيبهم:

هجوت محمداً فاجبت عنه

وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفاء

فشرُّ كما لخير كما الفداء^(١١٠)

فمن يهجو رسول الله منكم

ويمدحه وينصره سواء

فإن أبي ووالده وعرضي

لعرض محمد منكم وقاء

ويلتفت من ثم إلى بني جذيمة^(١١١) ويود أن ينالوا العقاب الأليم، ويرى في قتلهم شفاء لوحر الصدور لأنهم نصروا أعداء المسلمين عليهم:

فإما تئقفن بنو لؤي

جذيمة إن قتلهم شفاء^(١١٢)

أولئك معشرُ نصروا علينا

ففي أظفارنا منهم دماء^(١١٣)

ثم يعلن البراءة من حلف الحارث بن أبي ضرار^(١١٤) الذي ألب الناس على المسلمين، والبراءة من بني قريظة الغادرين^(١١٥):

وَحِلْفُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضَرَارٍ
وَحِلْفُ قَرِيظَةَ مَثَلًا بَرَاءً^(١١٦)

وباختصار: لقد عبّر أبو الوليد بهذه القصيدة عن عزّة المسلمين بما يتفق وروح الإسلام، وافتخر بالأنصار جنود الله، وألقم أبا سفيان بن الحارث حجراً جزاء هجائه رسول الله ﷺ، ولفت الأنظار إلى من حنثوا ومن غدروا، ولم ينس ختام مسك أن يعتزّ بشعره وبيانه وقدراته الفنية اعتزازاً لم يطغ على جلال الرسالة وهيبة الفتح الأعظم:

لِسَانِي صَارُمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ
وَبَحْرِي لَا تَكْذُرُهُ الدَّلَاءُ

وَأَتَمَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْفَتْحُ، وصدق وعده، وأعزّ جنده، وكان ذلك لعشر ليالٍ بقين من شهر رمضان المبارك سنة ثمان للهجرة (٦٣٠م) وأسلمت قريش بعد طول امتناع ولكن بعض رجالها هرب خوفاً من الرسول ﷺ، ومنهم صفوان بن أمية^(١١٧)، وعكرمة بن أبي جهل^(١١٨)، وعبدالله بن الزبعرى^(١١٩)، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي^(١٢٠)، وكلهم كان شديد الوطأة على الإسلام والمسلمين: أما صفوان فقد اتجه إلى جده^(١٢١) ليركب منها إلى اليمن فطلب عمير بن وهب^(١٢٢) من الرسول ﷺ أن يؤمنه فأمنه، وأعطاه عمامته علامة على ذلك. وأما عكرمة فاستأمنت له زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت قد أسلمت، فأمنه فلحقت به إلى اليمن، فجاءت به وأما ابن الزبعرى الشاعر الذي أقذع في هجاء المسلمين واشتد في سب الرسول ﷺ، فقد رماه حسان وهو بنجران^(١٢٣) ببيت واحد ما زاده عليه - كما يقول صاحب السيرة^(١٢٤) وهو:

لَا تَعْدَمَنْ رَجُلًا أَحَلَّكَ بُغْضُهُ
نَجْرَانُ فِي عَيْشٍ أَحَدٌ لَأَيْمٍ^(١٢٥)

فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى خرج إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، وقال حين أسلم^(١٢٦)
يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي

راتقُ ما فتفتُ إذ أنا بور^(١٢٧)
 إذ أباري الشيطان في سنن الغي
 ي، ومن مال ميله مثبور^(١٢٨)
 آمن اللحم والعظام لربي
 ثم قلبي الشهيد أنت النذير
 إنني عنك زاجرٌ ثم حيّاً
 من لؤيٍّ وكاهم مغرور
 وقال ابن الزبير كذلك حين أسلم قصيدة، مطلعها: (١٢٩)
 منع الرُقُادَ بلابلٌ وهمومٌ
 والليلُ معتلجُ الرواق بهيم^(١٣٠)

وبعد أن ذكر أن سبب قلقه هو لوم الرسول ﷺ إياه، أخذ يثني على الرسول ﷺ
 ويعتذر عما بدر منه:

يا خيرَ من حملتُ على أوصالها
 عَيْرَانَةٌ سُرُحُ اليدين غَشُوم^(١٣١)
 إنني لمعتذرٌ إليك من الذي
 أسديتُ إذ أنا في الظلام أهيمُ
 فالיום آمن بالنبى محمدٍ
 قلبي، ومخطئ هذه محروم
 فاغفرْ فدئى لك والداي كلاهما
 زَلَلِي، فإنك راحمٌ مرحوم
 وعليك من علم المليك علامة
 نور أغرُّ، وخاتمٌ مختوم
 ولقد شهدتُ بأن دينك صادق
 حقٌّ، وأنت في العباد جسيم

وأما هبيرة فقد هرب إلى نجران، وأقام بها حتى مات كافراً، وكانت عنده أم هانئ هند بنت أبي طالب^(١٣٢) وقد أسلمت، ولما بلغه إسلامها، قال قصيدة يذكر فيها واقعه وشوقه إلى زوجه^(١٣٢).

وفي يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بقتل الحارث بن سوبد بن الصامت الأنصاري^(١٣٣)، إذ أنه قتل في يوم أحد رجلاً مسلماً يدعى المجذر بن زياد البلوي^(١٣٤) أخذاً بثأر أبيه الذي قتله المجذر في الجاهلية يوم بعاث^(١٣٥) فأمر الرسول ﷺ عمر بن الخطاب بقتله، فهرب إلى مكة وارتد عن الإسلام، فنزل جبريل عليه السلام يعلم الرسول ﷺ به.. وفي يوم الفتح أسلم الحارث، فأمر ﷺ بقتله بالمجذر^(١٣٦) فقتل فانبرى حسان بمقطوعة تحمل على قلة عدد أبياتها ما ييكت الحارث ومن شايعه ويبين دور الوحي في الكشف عن مكانه إذ خيل إليه أنه قد سلم بهربه واختفائه والله لا تخفى عليه خافية^(١٣٨) ومما جاء فيها قوله:

يا حارٍ في سِنَّةٍ من نوم أولكم
أم كنت ويحك مغترّاً بجبريل^(١٣٩)
أم كنت يا ابن زياد حين تقتله
بغرةٍ في فضاء الأرض مجهول^(١٤٠)
وقلتم لن نرى والله مبصركم
وفيكُم محكُم الآيات والقيـل^(١٤١)
محمد والعزیز لله يخبره
بما تـكنُ سريرات الأقاويل

مسيرة خالد إلى بني جذيمة:

ويبدو أن أبيات حسان في جذيمة قد عملت على قتلها عملها عن قصد أو عن غير قصد، أو لعلها نكأت جراحاً، أو أثارت حفاظ كانت تغشّيها طبقة رقيقة من الرماد، أو لعلها نطقت بلسان أناس لهم وجهة نظر ما، ونحن وإن كنا لا نعرف بدقة تفاصيل الموقف مع تعارض الروايات فمن الممكن عرض مجريات الأحداث بإيجاز:

فقد أرسل رسول الله ﷺ السرايا إلى ما حول مكة بعد فتحها تدعو إلى الإسلام، وكان ممن بعث خالد بن الوليد، وقد أمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً إلى الله سبحانه ولم يبعثه مقاتلاً وبعث معه قبائل من العرب: سليم بن منصور^(١٤٢) ومذلق بن مرة^(١٤٣) فوطئوا بني جذيمة، فلما رآهم القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا. فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد فكتفوا، وقُتل من قتل منهم.

ولما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء، ثم قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»، ثم كلف علي بن أبي طالب أن يخرج إلى القوم ويجعل أمر الجاهلية تحت قدميه. فخرج علي ومعه مال بعث به الرسول ﷺ، فودى الدماء، وما أصيب من الأموال وبقيت معه بقية وزعها عليهم: فقال له ﷺ «أصبت وأحسن»^(١٤٤).

غزوة حنين:

أقام النبي ﷺ في مكة عام الفتح نصف شهر، ولم يزد على ذلك حتى جاءت هوازن^(١٤٥) وثقيف^(١٤٦) وقبائل أخرى، فنزلوا بحنين^(١٤٧)، وهم يؤمنون «عامدون يريدون قتال النبي ﷺ»^(١٤٨) وحدثت معركة حنين، وكانت ضارية قاتلت فيها هوازن وكادت أن تهزم المسلمين لولا أن ثبت رسول الله ﷺ وجاء النصر من عند الله^(١٤٩).

وعلى الرغم من شهرة هذه المعركة وخطورتها، فإننا لم نجد لحسان فيها إلا بيتاً واحداً هو:

نصروا نبيهم وشدوا أزره

بحنين يوم تواكل الأبطال^(١٥٠)

هذا مع كثرة ما قاله الشعراء في هذا اليوم من مثل عباس بن مرداس السلمي^(١٥١) وفي إحدى قصائد حسان التي جاءت متأخرة، وفيها يفتخر بالأنصار بشكل عام، ويعدد موافقهم وأيامهم، ورد بيت في ذكر حنين وهو:

وليلةً بخُنَّينِ جالِدوا معه
فيها يَعْلُهمُ بالحربِ إذ نهلوا^(١٥٢)

وهناك بيتان أوردتهما سيرة ابن هشام على هامش غزوة حنين^(١٥٣)

غزوة الطائف:

بعد هزيمة هوازن وثقيف والأحلاف في معركة حنين، قدم إلى الطائف^(١٥٤) قلُّ ثقيف، فأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم واستعدوا للقتال، وسار النبي ﷺ إليهم، فقال كعب بن مالك: ^(١٥٥)

قَضِينَا مِنْ تَهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ
وخيبر ثم أَجْمَعْنَا السِّوفا
نُخَيِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ
قواطعهنَّ: دُوسًا أَوْ ثَقِيفًا^(١٥٦)

ونزل ﷺ قريباً من الطائف، فحاصر أهلها بضْعاً وعشرين ليلة، وقتلهم قتالاً شديداً، وتراموا بالنبل، ورماهم بالمنجنيق، ودخل نفرٌ من أصحابه تحت دبابه، وزحفوا بها نحو جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محمَّاةً بالنَّار، فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل، فقتلوا بعضهم .. وشعر ﷺ أن الحصار غير مجد فانصرف عن الطائف، فقال له أحدهم: يا رسول الله ادْعُ عليهم، فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً وأتِ بهم».

ثم أتاه وفد هوازن، وقد أسلموا يطلبون منه أن يخلي سبيل السبي، وكانوا حوالي ستة آلاف من الذراري والنساء، فأعاده لهم، ثم قسَّمت الأموال المغتنمة، فأعطى ﷺ المؤلفة قلوبهم ونفراً من سادة قريش الكثير الجزيل ليرغبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً لثقتهم بيقينهم.. وهنا ذكر صاحب السيرة^(١٥٧) أن حسان بن ثابت عتب عليه في ذلك، فقال قصيدة يعاتبه فيها، مطلعها^(١٥٨):

زادتْ همومُ فمَاءِ العينِ منحدرُ
سَحاً إِذَا حَفَلَتْهُ عِبْرَةٌ بِرُّ

وحين شعر ﷺ أن الأنصار وجدوا في أنفسهم من خلال ما جاء من عتاب في هذه القصيدة ومن خلال ما قاله سعد بن عباد^(١٥٩) له، جمعهم وألقى فيهم كلمة

شديدة التأثير وضع فيها أن قصده من هذه القسمة أن يتألف القلوب لتسلم، وأنه وكل الأنصار إلى إسلامهم، وختمها بقوله:

«ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكتُ الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار» فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: «رضينا برسول الله قسماً وحظاً» وتفرقوا^(١٦٠). وانصرف ﷺ من مكة إلى المدينة بعد أن اعتمر، وخلف على مكة أحد أصحابه، وبلغ المدينة لست ليال بقين من شهر ذي القعدة سنة ثمان للهجرة.

وأقام أهل الطائف على شركهم ما بين ذي القعدة (منصرف رسول الله ﷺ) إلى شهر رمضان سنة تسع للهجرة، حين قدم وفد ثقيف مسلمين بعد أن رأوا أن العرب من حولهم أسلمت فأسلموا في حديث طويل.

وحسان على ما يُعتَقَد قد قال في هجاء ثقيف مقطوعتين - قبل إسلامهم حتماً، ولعلَّه قالهما في أثناء حصارهم.

الأولى: لامية، ومطلعها^(١٦١)

وإنَّ ثَقِيفًا كان فاعترفوا به

لئيمًا إذا ما نُصُّ للمجد معقِل^(١٦٢)

وفيها جرّد قبيلة ثقيف من أصلها العربي العدناني وألصق بها اللؤم والخسة والندالة.

والثانية: لامية أيضاً، ومطلعها: ^(١٦٣)

اللؤم خيرٌ من ثقيفٍ كلِّها

حَسَبًا وما يفعل لئيم تفعل

وفيها رماهم كذلك باللؤم والخسة وجعل الإله يبني فوقهم بيتاً من المخازي وجعلهم أنذالاً جبناء تنابلة قصار القامة.

وقال كذلك قصيدة في هجائهم، مطلعها^(١٦٤)

إذا الثَّقَفِيُّ فاخرَكم فقولوا

هَلُمَّ فَعُدَّ شَأْنُ أَبِي رِغَالٍ^(١٦٥)

وفيها رماهم باللؤم، وحنطة النسب، والجبن، والرق، والإباق:

أبوكم الأم الأبناء قدماً

وانتم مشبهوه على مثال

مثال اللؤم قد علمت معد

فليسوا بالصريح ولا الموالي^(١٧٦)

ثقفيف شر من ركب المطايا

وأشباه الهجارس في القتال^(١٧٧)

عبيد الفزير أورثهم بنيه

والى لا يبيعهم بمال^(١٧٨)

أبوعفك وعصماء بنت مردان:

وبعد أن أمر رسول الله ﷺ بقتل الحارث بن سويد بن صامت^(١٦٩)، نجم نفاق أبي عفك^(١٧٠)، فقال مقطوعة شعرية هجا فيها رسول الله ﷺ، واتهمه بإفساد الأنصار، فدعا ﷺ إلى تأديبه: فردت عليه إحدى النساء شعراً بشعراً، وخرج إليه أحد الأنصار فقتله^(١٧١).

ولما قُتل أبوعفك نافقت عصماء بنت مروان^(١٧٢)، فقالت مقطوعة تعيب فيها الإسلام، وأهله، فأجابها حسان بن ثابت بمقطوعة، مطلعها^(١٧٣):

بنو وائل وبنو واقف

وخطمة دون بني الخزرج^(١٧٤)

وسرى إليها أحد الأنصار، فقتلها في بيتها^(١٧٥). وكان قتلها سبباً في إسلام قومها^(١٧٦).

الهوامش

١ - مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود بلاد الشام، وقيل: مؤتة من مشارف الشام، وبها كانت تطبع السيوف، وإليها تنسب المشرفية من السيوف قال الشاعر كثير عزة:

أَبَى اللّٰه لَلشُّمِّ الْأَنْوَفِ كَأَنَّهُمْ

صَوَارِمُ يَجْلُوهَا بِمُؤْتَةَ صِيقَلٍ

وقال بعضهم: مؤاب وأذرح مدنيّتا الشّراة، وعلى اثني عشر ميلاً من أذرح ضيعة تعرف بمؤتة بها قبر جعفر بن أبي طالب.. (انظر معجم البلدان: ٢١٩/٥).

٢ - هو الحارث بن عُمير الأزدي أحد بني لَهَبٍ (انظر أسد الغابة: ٤٠٨/١).

٣ - هو شُرْحَبِيل بن عمرو الغساني.

٤ - زيد بن حارثة بن شراحيل (أو شرحبيل) الكلبّي: صحابي اختطف في الجاهلية صغيراً، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته للنبي ﷺ حين تزوجها، فتبناه النبي ﷺ قبل الإسلام، وأعتقه، وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش وهي التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد زيد، وزوجه مولاته أم أيمن فولدت له أسامة بن زيد. واستمر الناس يسمونه زيد بن محمد حتى نزلت الآية الكريمة «... وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله...» (القرآن الكريم - سورة الأحزاب: ٥٤/٢٣). وهو من أقدم الصحابة إسلاماً، وكان النبي ﷺ لا يبعثه في سرية إلا أمره عليها وكان يحبه ويقدمه، وجعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها سنة ٨ هـ/٦٢٩م.

٥ - جعفر بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبدالمطلب بن هاشم: صحابي من شجعانهم، يقال له جعفر الطيار وهو أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وكان أسنّ من عليّ بعشر سنين. وهو من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، ويدعو فيها، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وظل فيها حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فقدم عليه جعفر وهو بخيبر (سنة ٧ هـ) وحضر وقعة مؤتة واستشهد فيها سنة ٨ هـ/٦٢٩م، وهو ابن ثلاث وثلاثين.

٦ - عبدالله بن رواحة: سبق التعريف به ص ١١٥ من هذا المؤلف.

٧ - مَعَان: بفتح الميم: المنزل، وهي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء وهي الآن تقع في المملكة الأردنية الهاشمية قاعدة محافظة عمّان، وتعد مركزاً تجارياً وزراعياً وإدارياً هاماً، وكانت قديماً مركزاً لتجارة الرقيق.

٨ - مَآب بوزن مَعَاب وهو لغة المرجع، وهي مدينة في طرف بلاد الشام من نواحي البلقاء، وقد ضبطها المنجد ص ٦٩١ على وزن فُعَال (مَوَاب)، وذكر أنها كتلة صخرية (جبال) في المملكة الأردنية الهاشمية تشرف على البحر الميت جنوباً وتمتدّ بين وادي الموجب ووادي الحسا (بلدان ٣١/٥ ومنجد ص ٦٩١).

٩ - البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين بلاد الشام ووادي القرى، قصبتها عمّان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة وبجودة حنطتها يضرب المثل. والبلقاء الآن محافظة في الأردن (المملكة الأردنية الهاشمية) قاعدتها السلط وانظر ص ١١٦ من هذا المؤلف.

١٠ - لخم (بنو) أو المناذرة: من قبائل العرب أصلها من اليمن، أخت جذام وعاملة. رحل بعضهم إلى شمالي جزيرة العرب وسورية وفلسطين والعراق. أسّسوا الدولة اللخمية في الحيرة التي دخلت في حروب متواصلة مع الغساسنة. اعتنقوا المسيحية وتحالفوا مع الفرس وحرسوا حدودهم. تلاشت دولتهم بعد وفاة النعمان ٦٠٢م انتقلوا إلى الإسلام بعد الفتوحات الإسلامية واشتركوا في اليرموك وصفين.

١١ - جذام: سبق التعريف بهذه القبيلة ص ٢٠٤ من هذا المؤلف.

١٢ - القين (بنو) قبيلة عربية من جنوبي الجزيرة، فرع من قُضاة من المرجح أنها كانت تتعاطى صناعة الحديد من القنا والرّماح. رحلوا إلى الشمال السوري والعراق كانوا مسيحيين وحاربوا المسلمين في مؤتة واليرموك، ثم دخلوا الإسلام.

١٣ - بَهْرَاء بن عمرو: قبيلة عربية، هي و بليّ من بني عمرو بن قضاة: نزحوا إلى بلاد اليمن، ونزلوا في مأرب وأقاموا بها زماناً ثم تفرقوا، وقد انضموا إلى الروم في غزوة مؤتة.

١٤ - بليّ بن عمرو: قبيلة عربية يمنية من بطون قضاة، موطنها على حدود بلاد الشام انضمت إلى جيش الروم في غزوة مؤتة، وفي موقعة اليرموك سنة ٦٣٦م.

١٥ - اللَّجَب: سهيل الخيل، كثرة الأصوات والمقصود الجيش الكثير اللجب. البَيْض: ج بيضة: الخوذة من الحديد. القوانس: ج القونس والقونوس: أعلى بيضة الحديد. والبيتان من قصيدة وردت في السيرة ٨٣١/٣).

١٦ - المشارف: ج مشرف قرى قرب حوران، منها بصرى من الشام، ثم من أعمال دمشق ومشارف الأرض أعاليها وقد جعلها ابن اسحق في مغازيه (في السيرة: ٨٣٢/٣) قرية بعينها «مشارف».

١٧ - فعلهما: يريد صاحبيه زيدا وجعفرًا.

١٨ - سيرة ابن هشام: ٨٢٩/٣ وما بعدها، وزاد المعاد: ١٥٥/٢، والطبري: ١٠٩/٣.

١٩ - ديوانه ص ٢٣٤ والسيرة: ٨٣٧/٣ وتتألف من سبعة عشر بيتًا.

٢٠ - تأوَّبني: عاودني ورجع إليّ. أعسر: عسير. ومسهر: مانع من النوم.

٢١ - شعوب: اسم من أسماء المنية من قولهم: شَعَبْتُ الشيء: إذا فَرَّقْتَه.

٢٢ - ذو الجناحين جعفر: هو جعفر بن أبي طالب وقد قال ﷺ حين قطعت يداها: «إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء» ومن ثم قيل له: ذو الجناحين، أو جعفر الطيار.

٢٣ - زيد: هو زيد بن حارثة. عبدالله: هو عبدالله بن رواحة. تخطر: تتبختر أو تتحرك وتهتز.

٢٤ - انظر زاد المعاد: ١٥٦/٢.

٢٥ - ميمون النقيبة: مبارك النفس، مظفر بما يحاول يريد زيد بن حارثة. أزهر: أبيض مشرق الوجه.

٢٦ - ديوانه ص ٢٣٨ والسيرة: ٨٣٩/٣ ذلك وهي سبعة أبيات في الديوان وثمانية في السيرة.

٢٧ - المنزور: القليل، فهو قد بكى حتى قل دمه، ومع ذلك أمرَ عينه أن تجود بذلك القليل.

٢٨ - ديوانه ص ٣٩٢، وتتألف من ثمانية أبيات.

٢٩ - الجِلاَد: المجالدة والمضاربة في القتال. العُقَاب: اسم راية سيدنا رسول الله ﷺ.

٣٠ - بالبيض: متعلّق بالجلاد، والبيض: السيوف. الإنهال: في الأصل الشرب الأوّل والعل: الشرب الثاني أي: وفعل الرماح مرة بعد مرّة.

٣١ - فاطمة: هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهي أم طالب وعقيل وجعفر وعليّ، وكان بين كل منهم وسابقه عشر سنين وكان أكبرهم سنًا طالب ثم عقيل، ثم جعفر، ثم عليّ.

٣٢ - رُزَّءٌ: تمييزٌ لقوله أجَّلها في البيت السابق. أعزَّها منظماً: أي إذا تحيَّفه متحيِّف فهو أعزُّ الناس.

٣٣ - للحق: متعلِّق بقوله أدَّلها في البيت السابق. غير تنحلَّ كذباً: غير ذي ادعاء للكذب، أي لا يكذب ولا يدَّعي ما ليس بصحيح.

٣٤ - قوله فحشا تمييز لقوله وأقلها. تُجْتَدَى: يُطَلَّب منها العطاء (الجدا).

٣٥ - قوله ع الخير: أي على الخير متعلق بقوله وأدلها في البيت قبله يقول: إنه أول الناس على الخير بعد محمد ﷺ.

٣٦ - سبق إيراد البيت قبل قليل.

٣٧ - سيرة ابن هشام: ٨٢٩/٢ ولم يذكر اسمه.

٣٩ - سيرة ابن هشام: ٨٣٦/٣.

٣٩ - سبقت الإشارة إلى صلح الحديبية ص ٣٣٨ وسبق التعريف بالقبيلتين ص ٢٤٨ من هذا المؤلف.

٤٠ - نوفل بن معاوية بن عروة (أو عمرو) الديليُّ البكريُّ الكناني: معمرٌ من الصحابة، له أحاديث، شهد بدرًا والخندق مع المشركين، وكان له ذكر ونكاية. ثم أسلم وشهد الفتح وحنينًا والطائف ونزل المدينة ومات بها نحو سنة ٦٠ هـ/٦٨٠ م، وقد عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام.

٤١ - الوثير: بفتح أوله وكسر ثانيه وياء وراء: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة.

٤٢ - الأخزر بن لُعطٍ الديليُّ من بني الديل من بني بكر بن عبد مناة، وبنو الديل هم الذين بيَّتوا خزاعة على الوثير بقيادة نوفل بن معاوية. ولم يُذكر أنه أسلم ولم ترد له ترجمة في أسد الغابة. والبيتان من قصيدة له وردت في السيرة: ٨٥٣/٤ وتتألف من سبعة أبيات.

٤٣ - بنو كعب: كعب بن عمرو بن لحي من مُزيقياء من الأزد جدُّ جاهليِّ قحطاني مجهول الولادة والوفاة، قيل: هو الملقب بـ «خزاعة» لا نخزاع قبيلته عن بني الأزد حين تفرقهم بعد سيل العرم باليمن، وقد أقام المنخزعون بمكة. وسار الآخرون إلى الشام وعمان (والانخزاع: الانقطاع والتخلف عن الصحب) من نسله بطون سعد وسلول وحبشية (وانظر ترجمة خزاعة ص ٣٤٨)، وانظر: نهاية الأرب: ٣٧١/٢. الأفوق: السهم الذي انكسر فوقه، الفوق: مشق رأس السهم حيث يقع الوتر. الناصل: السهم الذي يخرج من نصله.

٤٤ - القواصل: ج القاصل: السيف.

٤٥ - بُدَيْل بن عبد مناة بن سَلَمَة، وهو بدیل بن أمّ أصرم، وهو من سلول من خزاعة وأمه من سعد بن خزاعة وقد اشتهر باسم أمه. واختلف في اسمه فقيل هو: بدیل بن عبدمناة ابن سلمه بن خلف. وقيل هو بدیل بن سلمه بن خلف. وقيل هو بدیل بن عبدمناف بن سلمه بن خلف. وبُدَيْل هو الذي أرسله النبي ﷺ ومعه بُسر بن سفيان إلى بني كعب يستنفرهم لغزو مكة (أسد الغابة: ٢٠١/١).

٤٦ - يندوهم: يجمعهم في النادي (من ندأ يندو). تفاقد قوم: فقد بعضهم بعضاً وهو دعاء عليهم. والبيت من قصيدة وردت في السيرة: ٨٥٣/٤.

٤٧ - سيرة ابن هشام: ٨٥٤/٤ وقد ورد له في هذا المجال بيتان فقط ولم يردا في الديوان، وقد اخترنا الأول منهما.

٤٨ - تركنا البيت الثاني لما فيه من إفحاش.

٤٩ - عمرو بن سالم بن كلثوم الخزاعي الكعبي، وقيل عمرو بن سالم بن حضيرة، وهو الذي ركب إلى رسول الله ﷺ عندما كان ماكان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير، فأخبره.

٥٠ - الأبيات وردت في السيرة: ٨٥٤/٤ وفي أسد الغابة: ٢٢٥/٤ وفي الطبري: ١١١/٣ مع خلاف طفيف بينها.

٥١ - لاهم: أصلها اللهم. وفي السيرة وردت كلمة «يارب» بدلا منها. الأتلد: القديم الثابت.

٥٢ - في صدر البيت يشير إلى رابطة المصاهرة، إذ أن بني عبد مناف أمهم من خزاعة، وكذلك قصي أمه فاطمة بنت سعد الخزاعية. وفي الاستيعاب: «والدأ كنا وكنت الوالدا». وأشار ابن هشام إلى رواية ثالثة وهي: «نحن ولدناك فكنت ولدا». والروايات الثلاث متفقة في المعنى.

٥٣ - نصر أعتد: نصر حاسم. وفي أسد الغابة: (نصراً عتداً) أي قوياً وحاسماً.

٥٤ - الفيلق هنا: الجيش العظيم.

(*) قال شاعرهم عباس بن مرداس السلمي:

ألف تسيل به البطاح مسوم

منا بمكة يوم فتح محمد

٥٥ - كداء: الثنيّة العليا بمكة مما يلي المقابر وهو المعلّى. وهناك كُدَى وهو بأسفل مكة،
وهناك كُدَيٌّ مصغراً لمن خرج من مكة إلى اليمن.

٥٦ - هُجْد: ج هاجد: النَّائم أو المصلي في الليل.

٥٧ - وردت الأبيات في شرح ديوانه ص ٩٦، وعددها خمسة، ووردت في السيرة: ٨٥٧/٤،
وعدها ستة مع بعض الاختلاف: هنالك بيتان وردا في السيرة ولم يردا في الديوان إلى
جانب اختلاف في بعض الكلمات. وبقليل من التنسيق والموازنة تظهر لدينا قصيدة
بسبعة أبيات.

٥٨ - البيت برواية السيرة، وفي الديوان: وغينا فلم نشهد .. رجال...

٥٩ - سهيل بن عمرو: سبق التعريف به ص ٣٤٨ من هذا المؤلف.

٦٠ - صفوان بن أمية: سبق التعريف به ص ٢٨٤ من هذا المؤلف.

٦١ - عكرمة بن أبي جهل: سبق التعريف به ص ٣٢١ من هذا المؤلف.

٦٢ - البيت برواية السيرة، وفي الديوان: وصفوان عَوْدًا من شُفّر استه. العَوْد: الجمل المسن
وفيه بقية، وفي المثل: إن جَرَجَرَ العَوْد فزده وقرا، وفي المثل أيضاً: زاحمٌ بعود أوفدع. أي
استعن على حرك بآهل السن والخبرة، فرأي الشيخ خير من رأي الغلام. حَزَّ من شعر
استه. إشارة إلى السَّير أو الحزام تُوَقِّق به البرذعة على ظهر الدابة ويُربط من خلف
الدابة ومن بطنها والمقصود هنا الأول الذي يحزّ الشعر ويحلقه، ولا يخفى ما في الكلام
من إهانة.

٦٣ - ابن أم مجالد: عكرمة بن أبي جهل. وفي الديوان: إذا لقحت حربٌ.

٦٤ - سَبَّعَتْ أو أَلَفَتْ: أصبح عددها سبعمئة أو ألفاً. وبنو سليم سبق التعريف بهم ص ١٧٥ و٢٣٩(*).

٦٥ - مرّ الظهران: سبقت الإشارة إليه ص ٢٩٩.

٦٦ - ديوانه ص ٢٥٤، وتتألف من اثني عشر بيتاً. وهذا الخبر خبر تقديم بني سليم ورد في
ديوانه ص ٢٥٤ ولم يرد في كتاب السيرة ولا في زاد المعاد.. على أن صاحب السيرة
جعل هذه القصيدة في مناسبة أخرى هي مناسبة توزيع الغنائم بعيد موقعة حنين، فورد
في السيرة (٩٣٣/٤) ما يأتي: «ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى في قريش وقبائل
العرب، ولم يُعطِ الأنصار شيئاً. قال حسان بن ثابت يعاتبه في ذلك: زادت هموم.. إلى
آخر القصيدة».

٦٧ - السَّحَّ: الصَّبُّ، يقال سَحَّ المطر إذا صَبَّ. حَفَّلَتْه: جَمَعَتْه، ومنه المحفل وهو مجتمع الناس. والتشديد للمبالغة. دَرَّرَ: سائلة متتابعة جِ دَرَّةً، يقال للسَّحَابِ دَرَّةٌ: أي صَبٌّ واندفاق.

٦٨ - نازحة: بعيدة. هم آووا وهم نصروا: يقصد الأنصار وهو يستفيد من القرآن الكريم من قوله تعالى: «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض..» سورة الأنفال ٧٢/٨، وانظر الآية ٧٤ من السورة نفسها.

٦٩ - حرب عوان: قوتل فيها مرة بعد أخرى: والحرب العوان هي أشدَّ الحروب. تستعز: تتأجج.
٧٠ - اعترفوا للنائبات: صبروا لها. خام عن القتال وخام فيه: جَبْنٌ عنه ونكص. الضجر: القلق وضيق النفس.

٧١ - اللَّبُّ: بفتح الهمزة وكسرهما: القوم المجتمعون على عداوة إنسان ما، وتألَّبوا عليه: تجمعوا عليه وتضافروا. وزر: ملجأ.

٧٢ - فينا أنزل الظفر: إشارة إلى قوله تعالى: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة» سورة آل عمران: ١٢٣/٣.

٧٣ - يوم النَّعْف من أحد، النعف: أسفل الجبل (أو ما انحدر من حوزة الجبل وارتفع من منحدر الوادي أو مسيل الماء)، ومثله الخَيْف، البَطَر: الطَّغْيَان عند النِّعْمَة.

٧٤ - القرآن الكريم - سورة، الأنبياء: ٩٢/٢١. وورد كذلك في سورة المؤمنون: ٥٢/٢٣. قوله تعالى: «وإنَّ هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاتقون».

٧٥ - القرآن الكريم - سورة الأنفال: ٦٣/٨.

٧٦ - لقيه ﷺ بالجُحفة مهاجراً بعياله، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على السقاية، ورسول الله ﷺ عنه راض. وقد سبق التعريف بالجحفة ص ٢٨٢، كما سبق التعريف بالعباس ص ١٢٨.

٧٧ - أبوسفیان بن الحارث: سبق التعريف به ص ١٥١.

٧٨ - عبدالله بن أبي أمية (حذيفة) بن المغيرة المخزومي، وهو أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ وأمه عاتكة بنت عبدالمطلب عمه الرسول ﷺ كان شديداً على المسلمين مخالفاً لرسول الله ﷺ، شديد العداوة له، هاجر إلى النبي ﷺ عام الفتح هو وأبوسفیان بن الحارث، فلقياه بمكان يدعى «نيق العقاب» وهو موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة. ثم شهد عبدالله فتح مكة مسلماً وحُنيئاً والطائف، ورُمي من الطائف بسهم فقتله.

٧٩ - انظر سيرة ابن هشام: ٨٦٠/٤، والقصيدة تتألف من تسعة أبيات.

٨٠ - الأول بُدِيل بن ورقاء الخزاعي، وقد أسلم هو وابنه عبدالله يوم فتح مكة بمر الظهران ويقال إن قريشاً يوم فتح مكة لجؤوا إلى داره ودار مولاة رافع. وقد شهد بديل وابنه عبدالله حنيناً والطائف وتبوك. وتوفي بديل قبل النبي ﷺ والثاني حكيم بن حزام وقد سبقت ترجمته ص ٢٢٢.

٨١ - ذو طوى: ويثُلث: موضع قرب مكة.

٨٢ - كدى: سبق التعريف به قبل قليل.

٨٣ - كداء: سبق التعريف به قبل قليل.

٨٤ - خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي: سيف الله، الفاتح الكبير، الصحابي، كان من أشرف قريش في الجاهلية يلي أعنة الخيل، وشهد مع مشركيهم حروب الإسلام إلى عمرة الحديبية، وأسلم قبل فتح مكة هو وعمرو بن العاص سنة ٧ هـ، فسرَّ به رسول ﷺ وولاه الخيل. ولما ولي أبوبكر وجهه لقتال مسلمة الكذاب والمرتدين ثم سيَّره إلى العراق سنة ١٢ هـ ففتح الحيرة وجانباً عظيماً منه، وحوَّله إلى الشام، وجعله أمير من فيها من الأمراء، ولما ولي عمر عزله عن قيادة الجيوش بالشام ووَلَّى أبا عبيدة بن الجراح، فلم يثن ذلك من عزمه واستمر يقاتل بين يدي أبي عبيدة حتى تم لهما الفتح سنة ١٤ هـ، فرحل إلى المدينة، ومات بجمص سنة ٢١ هـ / ٦٤٢.

٨٥ - الليط: أسفل مكة.

٨٦ - أبوعبيدة بن الجراح: عامر بن عبدالله بن الجراح الفهري القرشي (٤٠ ق. هـ - ١٨ هـ / ٥٨٤-٦٣٩ م) الأمير القائد فاتح الديار الشامية والصحابي أحد العشرة المبشرين بالجنة كان يلقب أمين الأمة، وكان يقال: داهيتا قريش أبوبكر وأبوعبيدة، وهو من السابقين إلى الإسلام. ولد بمكة، وشهد المشاهد كلها.

٨٧ - أذاخر: كأنه جمع الجمع: يقال ذُخِرَ وأذْخُرَ وأذاخر. دخل منه الرسول ﷺ حتى نزل بأعلى مكة.

٨٨ - الصفا والمروة: جبلان بين بطحاء مكة والمسجد، والصفا: مكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الأسود. والمشرع الحرام بين الصفا والمروة.

٩٠ - ديوانه ص ٥٧، وقد جاءت في اثنين وثلاثين بيتاً، وذكر شارح الديوان أنه قالها قبل فتح مكة من دون تحديد دقيق للزمن. وفي سيرة ابن هشام (٨٧٧/٤) قدّمها ابن إسحق في ثمانية وعشرين بيتاً، وذكر أنها مما قيل من الشعر يوم الفتح (فتح مكة)، وعقّب ابن هشام على تقديم ابن اسحاق هذا، فقال: «قالها حسّان يوم الفتح»، ومن المعروف أن كتاب السيرة ألّفه ابن اسحق وهذّب ابن هشام، وفي زاد المعاد (١٦٨/٢) جاء ما يخالف هذين المرجعين المتقاربين (الديوان والسيرة)، فقال: «وكان حسّان بن ثابت رضي الله عنه قد قال في عمرة الحديبية: عفت...» وأورد القصيدة في سبعة وعشرين بيتاً. هذا الاختلاف بين المراجع الثلاثة في زمن القصيدة وعدد أبياتها يلفت النظر مع أنّها من أروع ما قاله الشاعر، ونحن لو حاولنا استتطاق الأبيات لوجدنا أنها أقرب ما تكون في الزمن إلى المرجع الثالث لأمرين اثنين: الأول: أن حسان ردّ في هذه القصيدة على أبي سفيان بن الحارث وهجاء، ومن المعروف أن أبا سفيان هذا قد التقى هو وعبدالله بن أبي أمية رسول الله ﷺ في نيق العقاب - كما ذكرنا قبل قليل - أي قبل وصوله مكة، فأسلما، فكيف يهجو حسان بعد إسلامه؟ الثاني: أن حسان قال في هذه القصيدة:

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

وهذا البيت يقرب جو القصيدة من جو عمرة الحديبية، إذ إن الرسول ﷺ أعلن أنه إنما جاء البيت معتمراً، وساق معه الهدى، بينما كان سيره هذا إلى مكة بقصد الفتح وتأديب قريش، وليس الاعتمار فهو قد اعتمر عمرة القضاء في السنة الثانية من الحديبية حسب الاتفاق. وقد كان المسلمون قبيل صلح الحديبية متحمسين للعمرة، وقد وعدهم بها الرسول ﷺ. ونحن هنا على أية حال جارينا ابن هشام وابن اسحق حتى يظهر من الوثائق ما ينفي ما ذهبنا إليه.

٩١ - ذات الأصابع والجواء: موضعان بأكناف دمشق حيث منازل الغساسنة. عذراء: موضع على بريد من دمشق.

٩٢ - بنو الحَسَّاس: قوم من العرب ومن أولاد الحسحاس بن مالك بن عدي بن النجار والحسحاس: الجواد الذي يطرد الجوع بسخائه، فلعله هنا مادام يتحدث عن الغساسنة وديارهم يقصد: الكرام الأجواد. الروامس: الرياح التي تثير التراب فتعفي به الآثار. السماء: هنا القطر أو المطر.

- ٩٣ - شعثناء هذه التي شبيب بها حسان قيل إنها هي بنت سلام بن مشكّم اليهودي وقد كان تحته امرأة تسمى شعثناء كذلك ولدت له أم فراس. وفي نوادر ابن الأعرابي أنها امرأة من خزاعة (انظر ديوانه ص ٥٩).
- ٩٤ - بيت رأس: موضع في الأردن مشهور بالخمير.
- ٩٥ - دُعْ ذَا: دُعْ صفة الديار وما فيها، وهذا أسلوب معروف لدى كثير من الشعراء، وهو ضرب من الاقتضاب يقرب من حسن التخلص. الطيف: الخيال يلمّ في النوم. يؤرقني: يسهرني.
- ٩٦ - يقول: إذا ذكرت الأشربة (ج أشربات) فهن فداء للراح (الخمير) وأكمل في البيتين التاليين مزاياها معللاً حكمه، فهم يحيلون عليها اللوم إذا حصل شرّ وسباب، وهي تجعلهم إذا شربوها ملوكاً وأسوداً لا تملّ من اللقاء.
- ٩٧ - انظر الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فيما أعده الله سبحانه وتعالى للمؤمنين من الحور العين ممّا أوردته كتب الحديث الصحاح، ارجع مثلاً إلى جامع الأصول: ٥٠٤/١٠ و٥٠٦ و٥٠٩.
- ٩٨ - قال تعالى في سورة الصافات (٤٧/٣٧): «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بِيضَاءٍ، لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ...».
- ٩٩ - انظر شرح ديوانه ص ٦٠ هامش ١.
- ١٠٠ - المرجع السابق.
- ١٠١ - كَدَاءٌ: الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر وهو المعلق وقد سبق التعريف به وفي الحديث أنه دخل مكة عام الفتح من كداء.. وتلك كرامة أكرم الله سبحانه شاعر الدعوة بها.
- ١٠٢ - انظر شرح ديوانه ص ٦٠ هامش ١.
- ١٠٣ - يبارين الأعنة: يجارين الأعنة في انطلاقتها أو في لينها وانقيادها. مصعدات: ذاهبات صعداً. الأسل: الرماح. والفارس كان يضجع رمحه على كتف جواده.
- ١٠٤ - متمطّرات: مسرعات يسبق بعضها بعضاً. تلطمهن: يكثرن من لطمهنّ (صيغة فعل: للتكثير)، واللطم: ضرب الخدّ أو صفحة الوجه بالكف مفتوحة. الخمر: ج خمار ما تغطّي به المرأة رأسها، وقد ورد في السيرة: ٨٧٩/٤ أنه «لما رأى رسول الله ﷺ النساء يَلْطِمْنَ الخيل بالخُمُرِ تبسّم إلى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ».

- ١٠٥ - اعتمرنا: أدينا العمرة. وهي شرعاً زيارة البيت الحرام بالشروط المخصوصة المعروفة. انكشف الغطاء: عمّا وعدّ الله نبيه من دخول مكة المكرمة آمناً.
- ١٠٦ - الجلال: التضارب بالسيوف. وقوله: يعزّ الله فيه من يشاء: تسليم لأمر الله سبحانه، وهو من الكلام المنصف في البديع، أي أن ينصف المتكلم من نفسه أو من ينوب عنه فيضطر السامع إلى الإذعان وترك العناد.
- ١٠٧ - روح القدس: جبريل. كفاء: نظير.
- ١٠٨ - عبداً: يقصد رسول الله ﷺ. البلاء: الامتحان والاختبار.
- ١٠٩ - عُرِضَتْهَا اللقاء: أقوياء على القتال، أي: همتهم وديندهم لقاء الأبطال وقتالهم.
- ١١٠ - شركما لخيركما الفداء: من الكلام المنصف في البديع ومثله مرّ قبل قليل.
- ١١١ - بنو جذيمة: جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة: جدّ جاهليّ قديم مجهول الولادة والوفاة ولعامر أخوان هما: بكر ومرة ابنا عبد مناة بن كنانة.
- ١١٢ - بنو لؤي: فاعل الفعل تثقفن وجذيمة مفعوله، يقول: إن وجدت بنو لؤي بني جذيمة فقتلهم إياهم شفاء لما في الصدور. بنو لؤي: لؤي بن غالب بن فهر، من قريش، من عدنان: جدّ قديم جاهليّ غير معروف الولادة ولا الوفاة، من سلسلة النسب النبوي كنيته أبوكعب كان التقدم في قريش لبنيه وبني بيته وهم بطون كثيرة، تاريخهم حافل ضخّم ومن أحفاده لؤي بن الحارث بن سامة بن لؤي بن غالب.
- ١١٣ - هذا البيت تعليل ما قال الشاعر في البيت السابق. أولئك: يريد جذيمة. يقول: سنبطش بهم ونفترسهم افتراس الأسود ففي أظفارنا منهم دماء.
- ١١٤ - سبقت الإشارة إلى غزوة بني المصطلق ص ٣٣٢ وإلى الحارث بن أبي ضرار والد جويرية أم المؤمنين ومحاولته جمع الجموع لحرب رسول الله ﷺ.
- ١١٥ - سبقت الإشارة إلى بني قريظة وغدرهم ص ٣٠٢.
- ١١٦ - من المعروف أن الحارث كان يقود بني المصطلق الذي قاتلوا مع قريش في أحد. الحلف: العهد: لأنه لا يعقد إلا بالحلف أي اليمين.
- ١١٧ - صفوان بن أمية: سبق التعريف به ص ٢٨٤.
- ١١٨ - عكرمة بن أبي جهل: سبق التعريف به ص ٣٢١.
- ١١٩ - عبدالله بن الزبير: سبق التعريف به ص ١٠٠.

١٢٠ - هبيرة بن أبي وهب المخزومي: سبق التعريف به ص ٢٦٨.

١٢١ - جُدَّة: بالضم والتشديد: في الأصل الطريقة، أو الخطة التي في ظهر الحمار تخالف سائر لونه. وهي مدينة تقع الآن في المملكة العربية السعودية على البحر الأحمر، وهي فرضة مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال (حوالي ٩٠ كم)، وتدعى الآن عروس البحر وتعدّ أهم موانئ البلاد التجارية وهي مركز صناعي ومقر ممثلي الدول الأجنبية لدى المملكة العربية السعودية.

١٢٢ - عُمَيْر بن وَهَب بن خلف الجمحي، أبو أمية: صحابي من الشجعان، شهد وقعة بدر مع المشركين هو وابنه فأسر المسلمون ابنه، ولما رجع إلى مكة خلا به صفوان بن أمية وأغراه بقتل رسول الله ﷺ غيلة، وتعهّد له بذلك أن يقضي ديونه ويعيل أهله ويجعل له جعلاً، فوافق عمير ورحل إلى المدينة ودخل بسيفه على النبي ﷺ وهو في المسجد، فسأله ﷺ: لم قَدِمْتَ؟ قال: أريد فداء ابني. فقال: مالك والسلاح؟ قال: نسيته عليّ لما دخلت قال: فما جعل لك صفوان بن أمية في الحجر؟ فأنكر، فأخبره النبي ﷺ بما كان، فدهش وأسلم، وعاد إلى مكة فأشهر إسلامه، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد مع المسلمين أحداً وما بعدها وتوفي بعد سنة ٢٢ هـ / ٦٤٣ م.

١٢٣ - نجران: مدينة في شمالي اليمن على حدود عسير وفيها كانت حادثة الأخدود. وبُنيت فيها بيعة للنصارى ووفد على النبي ﷺ وفد نجران، وأراد مباہلتهم فامتنعوا وصالحوا النبي ﷺ.

١٢٤ - السيرة: ٨٧٥/٤ بينما أورد الديوان ص ٤١٦ مقطوعة تتألف من ثلاثة أبيات.

١٢٥ - أَحَدٌ: قليل خفيف.

١٢٦ - السيرة: ٨٧٦/٤ ولم ترد الأبيات في الديوان كما كان الشارح يفعل أحياناً إذ ينقل بعض الأبيات ذات العلاقة بمواقف حسان أو قصائده، بينما أورد الميمية لابن الزبيري ص ٤١٦.

١٢٧ - رتق الثوب: أصلحه، ضد فتقه. البور: الفاسد الهالك الذي لا خير فيه.

١٢٨ - المثبور: الهالك.

١٢٩ - السيرة: ٨٧٦/٤ وشرح ديوان حسان ص ٤١٦.

١٣٠ - البلايل: الوسائس المختلطة والأحزان. معتلج: مضطرب متلاطم. رواق الليل: مقدمه وجانبه، والبهيم: الذي لا ضياء فيه.

١٣١ - المراد بالأوصال هنا: جسمها، العيرانة: الناقة التي تشبه العير (حمار الوحش) في حدته ونشاطه. سرح اليمين: خفيفة اليمين. غشوم: ظلم يريد أن مشيها فيه جفاء وقوة وشدة.

١٣٢ - انظر سيرة ابن هشام: ٨٧٦/٤، وأم هاني بنت أبي طالب سبق التعريف بها ص ٢٦٨.

١٣٣ - الحارث بن سويد بن الصامت بن خالد أحد بني عمرو بن عوف من الأنصار وله أخ يدعى الجلأس كان منافقاً ثم تاب. والحارث هو الذي قتل المجذّر في يوم أحد غيلة لأنه قتل أباه سويد بن الصامت في الجاهلية فهاج بسبب قتله وقعة بعث، ومن الثابت أن الرسول ﷺ قتل الحارث بالمجذّر، وأن الحارث بعد قتله المجذّر ارتد وهرب إلى مكة، ثم أسلم يوم الفتح وقتل.

١٣٤ - المجذّر بن زياد بن أخرم البلوي: شاعر فارس من الصحابة، قتل سويد بن الصامت في الجاهلية، فهاج قتله وقعة بعث. كان حليفاً لبني عوف بن الخرج، وأسلم مع بني الخرج، وقد بارزه في بدر أبوالبختري بن هشام فحاول أن يثنيه عن المبارزة لأن رسول الله ﷺ نهى عن قتله، فأبى إلا القتال فقتله المجذّر، ثم اعتذر لرسول الله ﷺ استشهد المجذّر في أحد سنة ٢ هـ/٦٢٥ قتلته الحارث بن سويد بن الصامت غيلة، ضربه من خلفه. فأخبر جبريل النبي ﷺ بقتله، وأمره أن يقتل الحارث، فقتله لما ظفر به.

١٣٥ - يوم بعث: سبق التعريف به ص ١٦.

١٣٦ - وفي رواية أخرى أن الحارث بن سويد لم يقتل يوم الفتح وإنما رآه رسول الله ﷺ عندما كان مع نفرٍ من أصحابه يخرج من بعض حوايط المدينة، فأمر عثمان بن عفان بقتله فضرب عنقه (السيرة: ٦٠٦/٣) والأولى أدق.

١٣٧ - ديوانه ص ٣٧٤ وتتألف المقطوعة من أربعة أبيات.

١٣٨ - قال تعالى في سورة آل عمران (٦/٣): «إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» والآيات كثيرة في هذا المجال.

١٣٩ - قوله: في سنة: أي أفي سنة أنت من نوم أو لكم حين تقتل المجذرة؟ قوله: مغترًا بجبريل:

أي ظننت أنه لا ينزل فيك قرآن يحمله جبريل إلى رسول الله ﷺ.

١٤٠ - أم كنت يا ابن زياد.. الأصح: أم كنت وابن زياد.. الغرّة: الغفلة.

١٤١ - والقيل: أي محكم الآيات والقول.

١٤٢ - سبق التعريف بهم ص ١٧٥، ٢٣٩ من هذا المؤلف.

١٤٣ - مدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة: جدٌ جاهليٌّ مجهول الولادة والوفاة بنوه قبيلة من

كنانة من عدنان، ومن بنيّه «القافة» الذين يتتبعون الأثر.

١٤٤ - انظر سيرة ابن هشام: ٨٨٢/٤ وما بعدها. هذا ويروى: أن عبدالرحمن بن عوف

اعترض على خالد قاتلاً: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام. قال خالد: إنما تأرت بأبيك

(عوف بن عبد عوف) قال عبدالرحمن: قد قتلْتُ قاتل أبي منذ زمن، ولكنك ثارت بعمك

الفاكه بن المغيرة وكاد يقع بينهما شرٌّ. ومن المعروف أن الفاكه بن المغيرة، وعوف بن عبد

عوف قد قتلها رجل من جذيمة وأخذ منهما مالا.. وقد قتل عبدالرحمن قاتل أبيه،

وهمّت قريش بغزو بني جذيمة للأخذ بالثأر، فاعتذرت جذيمة لهم، وعقلوا ما كان لهم

من دم ومال، فقبلت قريش ووضعوا الحرب.

١٤٥ - هوازن: سبق التعريف بهذه القبيلة ص ٤٠.

١٤٦ - ثقيف: سبق التعريف بهذه القبيلة ص ١٧٣.

١٤٧ - حنين: قيل هو وادٍ قبل الطائف، وقيل هو وادٍ بجانب ذي المجاز، وقال الواقدي: بينه

وبين مكة ثلاث ليالٍ، وقيل بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً.

١٤٨ - انظر الطبري: ١٢٥/٣. وارجع إلى سيرة ابن هشام: ٨٨٩/٤.

١٤٩ - قال تعالى: في سورة التوبة: (٢٥-٢٦): «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنينٍ

إذ أعجبتكم كثرتم فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم

مدبرين. ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعدب

الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين».

١٥٠ - ديوانه ص ٣٩٠، وقد ورد هذا البيت وحيداً، ويرجح أنه من مقطوعة أو قصيدة تستعرض مواقف الأنصار بشكل عام قالها الشاعر بعد حنين بغير قليل، ثم فقدت ولم يبق غيره.

١٥١ - العباس بن مرداس بن أبي عامر السلميّ من مضر، أبو الهيثم: شاعر فارس من سادات قومه. أمّه الخنساء الشاعرة المشهورة. أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم قبيل فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم وكان بدويّاً فجّاً لم يسكن مكة ولا المدينة، وإذا حضر الغزو مع النبي ﷺ لا يلبث بعده حتى يعود إلى منازل قومه. توفي نحو سنة ١٨هـ/ نحو ٦٣٩م. وله عشر قصائد في حنين.

١٥٢ - السيرة: ٩٨٢/٤، ولم ترد القصيدة في ديوانه.

١٥٣ - ورد في السيرة: ٨٩٤/٤ أنه عندما تفرق الناس عن الرسول ﷺ في حنين حين فاجأهم هوازن ظن أناس من جفاة أهل مكة أنها الهزيمة، فصرحوا بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وصرخ جبلة بن الحنبل (أو كلفة بن الحنبل) (وكان مع أخيه لأمه صفوان بن أمية وكان مشركاً في المدة التي جعلها له رسول الله ﷺ): ألا بطل السحر اليوم. فقال له صفوان: اسكت فضع الله فاك، فوالله لأن يريني رجل من قريش أحب إليّ من أن يريني رجل من هوازن.. وقال حسان بهجو كلفة:

رأيتُ سواداً من بعيد فراعني

أبوحنبل.... على أم حنبل

وفي الديوان ص ٣٩٣ أن حسان قال هذين البيتين في هجاء صفوان بن أمية (وأمة هي زوج أبي حنبل).

ويرجح أن حسان هجا قبيلة هوازن بمناسبة غزوة حنين (أو ما قبلها بقليل) بمقطوعة تتألف من أربعة أبيات، ومطلعها:

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها

أن لستُ حاجيها إلا بما فيها

(ديوانه ص ٤٨٦).

١٥٤ - سبق التعريف بمدينة الطائف ص ١٧٢/٣١ من هذا المؤلف.

- ١٥٥ - الشاعر الفارس سبق التعريف به .
- ١٥٦ - قبيلة دوس سبق التعريف بها ص ٢٤٨ .
- ١٥٧ - السيرة: ٩٣٤/٤ .
- ١٥٨ - السيرة: ٤٣٤/٤ . وهذه القصيدة ذكرنا ص ٣٦٧ - اعتماداً على ما ذهب إليه شارح الديوان، ص ٢٥٤ . أنه قالها قبيل الفتح عندما قدم ﷺ سليماً، فارجع إليها من فضلك .
- ١٥٩ - سبق التعريف به ص ١٣٠ .
- ١٦٠ - السيرة: ٩٣٣/٤ وما بعدها .
- ١٦١ - ديوانه ص ٤٠١، وتتألف من ستة أبيات .
- ١٦٢ - نص: رفع . المعقل: هنا الأصل .
- ١٦٣ - ديوانه ص ٤٠٢، وتتألف من أربعة أبيات .
- ١٦٤ - ديوانه: ص ٣٩٧، وتتألف من سبعة أبيات .
- ١٦٥ - أبورغال: يُقال كان رجلاً عشّاراً جائراً فقبره يُرجم إلى اليوم بين مكة والطائف، وقيل كان عبداً لشعيب . وقيل كان دليلاً للحبشة حين توجهوا إلى مكة فمات في الطريق، ويقال: اسمه زيد بن مخلف، ويقال: اسمه قسي بن منبه بن النبيت بن يقدم من بني إباد والراجع أنه كان دليلاً للحبشة لما غزوا الكعبة، فهلك فيمن هلك، وقد مرّ النبي ﷺ بقبره فأمر بجرمه فُرجم فكان ذلك سنّة .
- ١٦٦ - معد بن عدنان يقصد به هنا العرب . الصريح: الخالص النسب .
- ١٦٧ - الهجارس: واحدها هجرس: الثعلب أو ابنه، أراد أنهم يروغون في القتال ولا يشبتون .
- ١٦٨ - الفزّر: سعد بن زيد مناة بن تميم . وقد زعموا أن ثقيفاً كان عبداً لابنة سعد بن زيد مناة، ثم أبقي فأتى أرض عدوان فلقى عامر بن ظرف، فاستجار به، فأجاره، وزوجه ابنته .
- ١٦٩ - سبقت الإشارة إلى الحادثة ص ٣٧٧ وورد التعريف بالحارث ص ٣٩٤ .
- ١٧٠ - هو أحد بني عمرو بن عوف، ثم من بني عبدة، والمقطوعة التي قالها تتألف من خمسة أبيات، ومطلعها:

أشعار السنة التاسعة

(غزوة تبوك «هجاء الضحاك» - وفد ثقيف - سنة الوفود «وفد تميم»)

أقام رسول الله ﷺ في المدينة المنورة ما بين ذي الحجة من السنة الثامنة ورجب من السنة التاسعة، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم «في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحرّ، وجذب من البلاد، وحين طابت الثمار. والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه»^(١)، وأخبر أنه يريد الروم، وقلما كان يصرح بالغزوة التي يريدتها. وبلغه ﷺ أن بعض المنافقين كانوا يجتمعون في بيت يهودي اسمه «سويلم»^(٢) يتبّطون الناس عنه، فأرسل إليهم طلحة بن عبيد الله^(٣) في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم البيت ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة الأشهلي^(٤) من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا. فقال الضحاك في ذلك مقطوعة، مطلعها:^(٥)

كادتُ وبيت الله نار محمد

يَشيْطُ بها الضحَّاك وابن أبيرق

فقال حسان يهجو بمقطوعة، مطلعها:^(٦)

أبلغ أبا الضحاك أن عروقه

أعيت على الإسلام أن تتمجد^(٧)

«ثم تاب بعد ذلك، وصلح حاله»^(٨).

وجد ﷺ في الاستعداد، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فأنفقوا وحملوا وفي طليعتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٩)، وسمي هذا الجيش «جيش العسرة». وجاءه سبعة نفر من الأنصار يستحملونه^(١٠)، فقال: «.. لا أجد ما

أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ، فَتَوَلَّوْا وَأَعِينَهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ^(١١). واعتذر بعض الأعراب، وتخلَّفَ نفر من أصحابه لَا يُتَّهَمُونَ فِي دِينِهِمْ. وعندما خرج ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع^(١٢)، وضرب عبدالله بن أبي^(١٣) عسكره أسفل منه، ولما سار رسول الله ﷺ تَخَلَّفَ عنه عبدالله بن أبي فيمن تخلَّف من المنافقين.

وكان قد استعمل على المدينة أحد الأنصار^(١٤) وخَلَّفَ على أهله علي بن أبي طالب، ولما مرَّ بالحِجْر^(١٥) سَجَّى ثوبه على وجهه، واستحثَّ راحلته، وقال: «لَا تَدْخُلُوا بِيُوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ بِأَكُونِ خَوْفًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» ولما انتهى ﷺ إلى تبوك^(١٦) أتاه صاحبُ أيلة^(١٧) وأهل جَرْبَاءَ^(١٨) وأذْرَحَ^(١٩)، فصالحوه، وأعطوه الجزية، وكتب لهم كتابًا بذلك.

ثم دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر^(٢٠) دومة، وقال له: «إِنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقْرَ». فخرج إليه خالد فوجده كذلك، فأخذه، وبعث به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه وصالحه على الجزية، ثم خَلَّى سَبِيلَهُ، فرجع إلى قريته.

وأقام ﷺ بتبوك بضعة عشرة ليلة، ثم انصرف قافلًا إلى المدينة^(٢١).

وفد ثقيف:

قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف، وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عن الطائف أتبع أثره عروة بن مسعود الثقفي^(٢٢). فأدركه قبل الوصول إلى المدينة، فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له ﷺ: «إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ»، لما رأى من امتناعهم. ولما رجع عروة دعا قومه إلى الإسلام فأبوا ورموه بالنبل، وأصابه سهم فقتل. وأقامت ثقيف بعده أشهرًا ثم اتَّمَرُوا بَيْنَهُمْ، ورأوا أن لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِحَرْبٍ مِنْ حَوْلِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَقَدْ أَسْلَمُوا وَبَايَعُوا، فَأَجْمَعُوا أَنْ يَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفِدًا مِنْهُمْ، فَأَسْلَمُوا، وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا، ثُمَّ أَمَرَ عَلَيْهِمُ ﷺ عَثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ^(٢٣). وأوصاه بهم، فتوجهوا إلى بلادهم راجعين، وبعث معهم ﷺ المغيرة بن شعبه^(٢٤) وأبا سفيان^(٢٥) بن حرب لهدم اللات^(٢٦) فهدماها. ويظهر أن حسان في ذلك الوقت أو بعده بغير كثير قال قصيدة تعد من خير ما قاله في الفخر،

ومطلعها^(٢٧):

أَهَاجَكَ بِالْبِيدَاءِ رَسْمُ الْمَنَازِلِ
نَعَمْ قَدْ عَفَاَهَا كُلُّ أُسْحَمٍ هَاطِلٍ^(٢٨)

وبعد أن وقف على الديار، وشَبَّ بالمحبة انتقل إلى الفخر، وطفق يتيه بفعال
قومه وأمجادهم وكرمهم وشجاعتهم، ووقف قليلاً عند نصرهم رسول الله ﷺ:

نَصَرْنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ وَصَدَّقْتُ
أَوَائِلُنَا بِالْحَقِّ أَوَّلَ قَائِلٍ
وَكُنَّا مَتَى يَغْزِي النَّبِيَّ قَبِيلَةَ
نَصِلُ حَاقَتِيهِ بِالقَنَا والقَنَابِلِ^(٢٩)

وأخذ يعدد أيام الأنصار، فذكر يوم بدر ويوم أحد.. ووقف عند ثقيف وقفة غير قصيرة:

وَيَوْمَ ثَقِيفٍ إِذْ أَتَيْنَا دِيَارَهُمْ
كَتَائِبُ نَمْشِي حَوْلَهَا بِالْمَنَاصِلِ^(٣٠)

وفصل في ذكر ملاقاته ثقيف، وكيف فرّ القوم، وتحصنوا بحصونهم، ثم كيف
أعطوا المقادة أخيراً:

وَأَعْطُوا بِأَيْدِيهِمْ صَغَارًا وَتَابَعُوا
فَأُولَى لَكُمْ أُولَى حُدَاةِ الزَّوَامِلِ^(٣١)

وهذه الوقفة الطويلة عند ثقيف هي التي رجّحت تحديد هذا الوقت وقتاً لنظّمها،
ثم إنه لم يذكر بعد حديثه عن ثقيف شيئاً ما يُشعر بتأخرها^(٣٢).

سنة الوفود:

لما فتح رسول الله ﷺ مكة المكرمة. وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف توجهت إليه
وفود العرب من كل صوب يدخلون في دين الله أفواجا، وذلك سنة تسع للهجرة فسميت
«سنة الوفود»، وأنزل جلّ جلاله قوله: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ
فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا^(٣٣)».

وفي هذه السنة أظهر حسان من المقدرة الفنية ما جعله يبرز شعراء تميم المعروفين بلسنهم وفصاحتهم. وروي أنه لما قدم وفد بني تميم وضع النبي ﷺ لحسان منبراً، وأجلسه عليه، وقال: «إن الله ليؤيد حسان بروح القدس ما كافح عن نبيه»^(٣٥).

قدم علي النبي ﷺ وفد بني تميم، وهم سبعون أو ثمانون رجلاً فيهم الأقرع بن حابس^(٣٦)، والزبرقان بن بدر^(٣٧)، وعطارد بن حاجب^(٣٨)، وجاء معهم عيينة بن حصن^(٣٩)، فبلغوا المدينة المنورة، ودخلوا المسجد، ووقفوا عند الحجرات، ونادوا بصوت عال جاف: اخرج إلينا يا محمد، فقد جئنا لنفاخرك، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فجلس، فقام الأقرع بن حابس فقال: والله إن مدحي لزين، وإن ذمي لشين. فقال النبي ﷺ: «ذلك الله» فقالوا: «إنا أكرم العرب» فقال رسول الله ﷺ: «أكرم منكم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليه السلام». فقالوا: إيذن لشاعرنا وخطيبنا قال: «قد أذنت لخطيبكم، فليقل». فقام عطارد بن حاجب، فألقى كلمة حمد فيها الله وأثنى عليه، وافتخر بعزة قومه وفضلهم، ودعا من يفاخرهم أن يأتي بمثل قوله، ثم جلس فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس^(٤٠): «قم فأجب الرجل»، فقام ثابت وألقى كلمة، حمد فيها الله وأثنى عليه وصلى على رسوله، واعتز بالمسلمين الأوائل من المهاجرين، ثم أثنى على الأنصار، وحسن بلائهم. ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر، فألقى قصيدة، مطلعها: ^(٤١):

نحن الكرام فلا حيُّ يعادلنا
منا الملوك وفيينا تُنصبُ البيع^(٤٢)

فأرسل الرسول ﷺ إلى حسان بن ثابت من يدعوه، فخرج حسان إلى رسول الله ﷺ وهو يقول مترنماً بقصيدته الميمية، ومطلعها^(٤٣):

هل المجد إلا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظام

وفيهما يذكر مواقف الأنصار، ونصرتهم الرسول ﷺ، ويدعو بني دارم إلى ترك التفاخر؛ لأنه يعود وبالأعلى عليهم، ويدعوهم إلى الإسلام.

ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ، وقال شاعر القوم ما قال، قال الرسول ﷺ لحسان:
«قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال، فقام حسان فقال^(٤٤)»:

إن الذوائب من فُهِرٍ وإخوتهم
قد بيَّنوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ^(٤٥)
يرضى بها كلُّ من كانت سريرته
تَقْوَى الإله وبالأمر الذي شرعوا

وظفق يهدر متحدِّثاً عن سجايا المسلمين، وتضحياتهم في سبيل الله، وحلمهم،
وعفتهم، وعزتهم، وطاعتهم لله ولرسوله، وبطولاتهم، وصبرهم في الوغى... ثم قام
عطارد بن حاجب فقال^(٤٦)

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا
إذا اجتمعوا وقت احتضار المواسم
بأنَّا فروع الناس في كل موطن
وأنَّ ليس في أرض الحجاز كدارم^(٤٧)

فرد عليه حسان بقصيدته الميمية التي سبقت الإشارة إليها، ومنها:
منعنا رسول الله من عَضْبٍ له
على أنفٍ راضٍ من مَعَدٍّ وراغم^(٤٨)

فقال الأقرع بن حابس «والله إن هذا الرجل لمؤتَى له، والله لشاعره أشعر من
شاعرنا، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ولأصواتهم أرفع من أصواتنا...» ثم أسلم هو
وقومه، وأقاموا عند النبي ﷺ يتعلمون القرآن، ويتفقهون في الدين، ولما أرادوا الخروج
إلى قومهم أعطاهم الرسول ﷺ وكساهم^(٤٩).

الهوامش

- ١ - سيرة ابن هشام: ٩٤٣/٤.
- ٢ - سويلم اليهودي: لا يُعرف عنه إلا أنه كان بيته عند جاسوم (كما في السيرة: ٩٤٤/٤)، وكان يجتمع فيه ناسٌ من المنافقين يثبطون الناس عن رسول ﷺ في غزوة تبوك، وأن الرسول ﷺ أرسل طلحة بن عبيدالله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم هذا البيت.
- ٣ - طلحة بن عبيد الله بن عثمان: سبق التعريف به.
- ٤ - الضحاك بن خليفة بن ثعلبة الأشهلي الأنصاري: شهد أحداً، وتوفي في آخر خلافه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وقيل أول مشاهده غزوة بني النضير، ولا يعرف له رواية.
- ٥ - السيرة: ٩٤٥/٤، وتتألف من ثلاثة أبيات.
- ٦ - ديوانه، ص ٢٠٣، وتتألف من خمسة أبيات.
- ٧ - يقول حسان: إنه وإن أسلم فإن إسلامه عجز عن تمجيده لإعراقه في الكفر.
- ٨ - ديوانه ص ٢٠٢، و٢٠٣ هامش ٤.
- ٩ - عثمان بن عفان رضي الله عنه: سبق التعريف به ص ١٣١.
- ١٠ - يستحملونه: يطلبون منهم أن يحملهم على جمال أو خيل ليحضروا المعركة.
- ١١ - قال تعالى في سورة التوبة (٩٠/٩ - ٩٢): «وجاء المعدُّون من الأعراب ليؤذَنَ لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم، ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم. ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولُّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون».
- ١٢ - ثِيَّةُ الْوَدَاعِ: اسم من التوديع عند الرحيل، وهي ثية مشرفة على المدينة المنورة يطوُّها من يريد مكة، واختلف في سبب تسميتها، وأقرب شيء: لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة.
- ١٣ - عبدالله بن أبي بن سلول: سبق التعريف به.

١٤ - استعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري.

١٥ - الحجّر: بالكسر ثم السكون. وراء: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، وبها بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة: «قال هذه ناقة لها شربٌ ولكم شرب يوم معلوم» (الشعراء: ١٥٥/٢٦).

١٦ - تبوك واحدة أو موضع في شمالي الحجاز بين وادي القرى والشام وعلى الأدق بين الحجّر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب للنبي ﷺ ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم النبي شعيب عليه السلام كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مدين ومدين تقع على البحر الأحمر (القلزم) على ست مراحل من تبوك. وتبوك بين جبل حسمى غربيها، وجبل شرّورى شرقيها. وبين تبوك والمدينة اثنتا عشرة مرحلة، وقد اشتهرت بالغزوة العظيمة التي قام بها النبي ﷺ لإخضاع عرب الشمال، وتهديد الروم.

١٧ - أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (الأحمر) مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام، وكانت مدينة صغيرة عامرة بها زرعٌ يسير، وهي مدينة لليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير. وهي الآن ميناء أردني في شمالي العقبة على البحر الأحمر.

١٨ - جرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز.

١٩ - أذرح: بالفتح ثم السكون وضم الراء وبالحاء المهملة ج ذريح: وهي هضاب تنبسط على الأرض حمراء، وهو اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة ثم من نواحي البلقاء مجاورة لأرض الحجاز، وقيل بين أذرح والجرباء ميل واحد. وقيل: مكان بين معان وسلع (الأردن) اشتهر بالتحكيم بين عليّ ومعاوية.

٢٠ - سبق الحديث عن دومة الجندل وأكيدر دومة ص ٣١٨.

٢١ - السيرة: ٩٥٢/٤.

٢٢ - عروة بن مسعود بن مُعْتَبِ الثقفى، أبومسعود: صحابي مشهور، قيل إنّه هو المراد بقوله تعالى: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» (سورة الزخرف: ٣١/٤٣). وهو ممن أرسلته قريش يوم الحديبية، فعاد إلى قريش، وقال لهم: «عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها». ولما أسلم أستاذن النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه يدعوهم للإسلام، فقال: إنهم قاتلوك، قال: أنا أحب إليهم من أبصارهم... وكان فيهم محبباً مطاعاً، ولما رجع إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل فأصابه سهم قتله سنة ٩ هـ/٦٣٠ م.

٢٣ - عثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي: صحابي من أهل الطائف، أسلم في وفد ثقيف إلى النبي ﷺ سنة ٩ هـ، فاستعمله النبي ﷺ على الطائف. فبقي في عمله إلى أيام عمر. ثم ولاه عمر عمان والبحرين سنة ١٥ هـ. وعزله عثمان بن عفان، فسكن البصرة حتى توفي سنة ٥١ هـ/٦٧١م له فتوح وغزوات في الهند وفارس، وهو الذي منع ثقيفاً من الارتداد: خطبهم فقال: كنتم آخر الناس إسلاماً فلا تكونوا أولهم ارتداداً.

٢٤ - المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي: أبوعبدالله (٢٠ ق هـ - ٥٠ هـ/٦٠٣-٦٧٠م) أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، صحابي، يقال له: «مغيرة الرأي» ولد في الطائف وسافر إلى الاسكندرية ثم عاد إلى الحجاز، ولما ظهر الإسلام تردّد في قبوله، ثم أسلم سنة ٥ هـ، وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام، وذهبت عينه باليرموك وشهد القادسية ونهاوند وغيرها، وولاه عمر البصرة ثم ولاه الكوفة، ولما حدثت الفتنة بين عليّ ومعاوية اعتزلها، ثم ولاه معاوية الكوفة وبقي فيها حتى مات.

٢٥ - أبوسفیان بن حرب سبق التعريف به ص ٢٤٠.

٢٦ - اللات: معناها الإلهة أشهر آلهة الجزيرة العربية في الجاهلية. شاعت عبادتها في الطائف وفي غيرها وهي صخرة مربعة بيضاء بنت ثقيف عليها بيتاً.

٢٧ - ديوانه ص ٣٦٩، وتتألف من ثمانية وعشرين بيتاً.

٢٨ - عفاها: درسها. الأسحم الهاطل: السحاب الأسود.

٢٩ - حافتيه: أي حافتي النبي ﷺ. القنابل ج قنبلة بفتح القاف: الطائفة من الخيل.

٣٠ - المناصل: ج منصل وهو السيف.

٣١ - الصغار: الذل أولى لكم أولى: تهديد. حداة: ج حادٍ والحدو سوق الإبل والغناء لها، والزوامل: ج زاملة: البعير يحمل عليه الرجل متاعه وطعامه، وباء النداء محذوفة (يا حداة).

٣٢ - على أنه من الممكن أن يكون حسان قد عدد بشكل عام أيام الأنصار وحسن بلائهم وكانت غزوة ثقيف منها ولكن مما يرجح ما ذهبنا إليه أولاً أنه لم يذكر جميع الأيام التي للأنصار وأنه لم يذكر ما حصل بعد ثقيف.

٣٣ - القرآن الكريم - سورة النصر: (١١٠).

٣٤ - بنو تميم: تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر: جدٌ جاهليٌّ قديمٌ مجهول الولادة والوفاة، بنوه بطون كثيرة جداً، وهم قاعدة من أكبر قواعد العرب. وكانت منازلهم بأرض نجد والبصرة واليمامة، ثم تفرقوا في الحواضر والبادي.

٣٥ - الأغاني: ١٤٦/٤.

٣٦ - الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي: صحابي، من سادات العرب في الجاهلية. قدم على رسول الله ﷺ في وفد من بني دارم (من تميم)، فأسلموا، وشهد حنيناً وفتح مكة والطائف، وسكن المدينة، وكان من المؤلفة قلوبهم، ورحل إلى دومة الجندل في خلافة أبي بكر، وكان مع خالد بن الوليد في أكثر وقائعه حتى اليمامة واستشهد بالجوزنجان سنة ٣١هـ/٦٥١، وكان حكماً في الجاهلية.

٣٧ - الزبرقان بن بدر التميمي السعدي: صحابي، من رؤساء قومه. قيل: اسمه الحصين ولقب بالزبرقان - وهو من أسماء القمر - لحسن وجهه. ولاء رسول الله ﷺ صدقات قومه، فثبت إلى زمن عمر، وكفّ بصره في آخر عمره، وتوفي في أيام معاوية نحو ٤٥ هـ/ نحو ٦٦٥ م. كان فصيحاً شاعراً فيه جفاء الأعراب.

٣٨ - عطارد بن حاجب بن زُرارة التميمي: خطيب من سراة بني تميم، وفد على كسرى في الجاهلية، وطلب منه قوس أبيه التي رهنها والده عند كسرى ضماناً لئلا يعتدي قومه بنو تميم على حدود الدولة الفارسية، فردها عليه، وكساه حلة ديباج ولما ظهر الإسلام وفد على النبي ﷺ فكان خطيبه، واستعمله على صدقات بني تميم، وارتد بعد وفاة النبي ﷺ وتبع سجاح، ثم عاد للإسلام. توفي نحو ٢٠ هـ/ نحو ٦٤١ م.

٣٩ - عيينة بن حصن: سبق التعريف به ص ٣١٩.

٤٠ - ثابت بن قيس بن شماس: سبق التعريف به ص ٦١.

٤١ - السيرة: ٩٨٨/٤ والأغاني: ١٤٨/٤ وشرح الديوان ص ٢٠١، وقد اختلف عدد الأبيات ما بين ستة وثمانية.

٤٢ - في الديوان: «وفينا يقسم الربع»، وفي الأغاني: «وفينا يؤخذ الربع». واللفظ الوارد هنا للسيرة.

- ٤٣ - ديوانه ص ٤٣٩. والسيرة: ٩٨٨/٤ أوردت بعض الأبيات وكذا الأغاني: ١٥٠/٤.
- ٤٤ - ديوانه ص ٢٠٤. والسيرة ٩٨٩/٤ والأغاني: ١٤٨/٤ مع خلاف بسيط في عدد الأبيات.
- ٤٥ - الذوائب: الأعالي، والمراد هنا السادة. فهر: أصل قريش وهو: فهر بن غالب بن النضر بن كنانة وقريش كلهم ينسبون إليه. المراد بإخوتهم: الأنصار. والمقصود بذوائب فهر: الرسول ﷺ والمهاجرون.
- ٤٦ - هذا ما جاء في الأغاني: ١٥٠/٤ أما كتاب السيرة فنسب الأبيات وعددها ثمانية إلى الزبيرقان بن بدر.
- ٤٧ - دارم بن مالك بن حنظلة التميمي: من عدنان: جد جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، بنوه من أشراف تميم، منهم «مجاشع» و«سدوس» وهما بطنان مشهوران ومن نسله «الفرزدق» الشاعر.
- ٤٨ - معد بن عدنان بن أد من حفدة إسماعيل عليه السلام: جد جاهلي قديم مجهول الولادة والوفاة، من سلسلة النسب النبوي، كان النبي ﷺ إذا انتسب فبلغ عدنان أمسك فلا يتجاوزه ويقول: كذب النسابون. ولكن رجال الأنساب مجمعون على أنه من ولد إسماعيل والخلاف بينهم في أسماء آبائه وعدد من بينه وبين إسماعيل منهم. ومعد هذا هو أبونزار، ومن نزار ربيعة ومضر. ومن ربيعة أسد وعبد القيس وعنزة وبكر وتغلب ووائل والأرقام والدئل وغيرهم. وقبائل مضر تشعبت إلى شعبتين: قيس عيلان بن مضر. وإلياس بن مضر، ومن قيس عيلان: غطفان وسليم بن منصور، ومن غطفان: بغيض بن ريث، ومن بغيض: عبس وذبيان وما تفرع منهما، ومن سليم بن منصور: بهثة وهوازن، وأما إلياس فكان من بني تميم بن مر وهذيل بن مدركة وأسد بن خزيمة. ومن كنانة: قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وانقسمت قريش، فكان منها جمع وسهم ابنا هصيص بن كعب، ومخزوم بن يقظة بن مرة، وتيم بن مرة، وزهرة بن كلاب عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزى بن قصي. وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم. ومن بني هاشم رسول الله ﷺ وكل منتسب إليه، وبنو العباس ومن بني عبد شمس بنو أمية (انظر الأعلام للزركلي ٢٦٥/٧).
- ٤٩ - السيرة: ٩٨٥/٤ وما بعدها، والحادثة موجودة في مراجع كثيرة: منها: الأغاني: ١٤٦/٤، والطبري ١٥١/٣ وتاريخ ابن عساكر ١٣٠/٤ والروض الأنف ٣٣٦/٢ وزاد المعاد: ٢٠١/٢.

وشرح ديوان حسان ص ٣٠٢ ولكن باختلاف بينها في ترتيب الحوادث وإيراد الأبيات الشعرية، والترتيب هنا للأغاني. والطبري يذكر أن حسان أجاب على عينية الزبرقان بعينية وتمثّل بميمية له وابن عساكر جعل حسان يرد مرتين، ولكن على شاعرين غير هذين وهما (شاب) والأقرع بن حابس، بينما أبعد «الروض الأنف» كثيراً فأورد روايتين منفصلتين: الأولى: فيها عينية للزبرقان يعارضها حسان بعينية. والثانية فيها ميمية للزبرقان يعارضها حسان بميمية.

وبعد أن نظرت في الأمر رأيت أن لا مانع من أن يرد حسان مرتين على شاعرين مختلفين، وتبين أن ابن عساكر كان قريباً من الصواب حين جعل له دورين، وأن الأغاني قد أصاب عين الأمر في ترتيب الأدوار وفي أسماء الذين عارضهم، ولكن فاتته أعداد الأبيات التي تُنشد إذ أنه لجأ إلى الاختيار. (وانظر للاستزادة شرح ديوان حسان - طبعة دار الأندلس ص ٢٩٩ وما بعدها).

تتمة أشعار السنة التاسعة وأشعار السنة العاشرة وأوائل الحادية عشرة

وتتالت وفود القبائل العربية على رسول الله ﷺ أفواجاً أفواجاً أخذاً بعضها بحجز بعض يعلنون إسلامهم وتصديقهم واستعدادهم لنشر دين الله في أرض الله، والرسول الكريم ﷺ يتلقى الوافدين مستبشراً متهلل الأسارير معتزاً بنصر الله مسبحاً بحمده مستغفراً، فيتجه إلى بعضها بالتوجيه والنصح والإرشاد، ويستضيف بعضها لديه عدداً من الأيام لشرح أصول الإسلام، وتعليمهم قراءة القرآن، وتفقيهم في الدين. ويرسل مع بعضها من أصحابه من يقرئهم القرآن، ويقيم لهم الصلوات، ويوضح لهم تعاليم الدين الحنيف^(١).. وإن كان بعض الوفود قد تلكأ بعض الشيء، أو حاول أن يملئ بعض الشروط^(٢).

وقبل ﷺ التائبين الذي جاؤوا إليه معلنين ندمهم على ما فرطوا، فغفر لهم، واستغفر الله لهم، ومنهم الشاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى^(٣) الذي كان قد حاول أن يشي أخاه بجيراً عن الإسلام والذي كان هجا رسول الله ﷺ، وحين جاء تائباً عفا عنه ﷺ، فألقى قصيدته المشهورة، ومطلعها^(٤):

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يُفدَ مكبول

ومنهم ابن الزبير^(٥) - كما أسلفنا - ، وأبوسفيان بن الحارث^(٦)، وصفوان بن أمية^(٧)، وعكرمة بن أبي جهل^(٨) وأرسل ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء والحكام من مثل كسرى وقيصر والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك القبط في مصر، والحارث بن أبي شمر الغساني^(٩).

وأرسل بعض السرايا لتصفية ما نجم من نفاق، أو ما ظهر من جيوب شرك أو عصيان أو مخالفات^(١٠).

وحجَّ ﷺ حجة الوداع، فقد خرج من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة سنة عشر للهجرة، وحجَّ، وعلمَ النَّاسَ مناسكهم، وألقى فيهم خطبةً بليغة أوجز فيها أهمَّ تعاليم الإسلام وأصوله ووصاياهم.

وبعث ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة^(١١) إلى الشام، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء^(١٢) والداروم^(١٣) من أرض فلسطين إرهاباً لأعداء الله، وتقوية لجند الله، وتهديداً للروم ومن والاهم ولأعداء الإسلام أجمعين، وأخذاً بثأر من قتلوا في مؤتة.. فتجهز النَّاسُ، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأوَّلون.

ويبدو أن شاعر الدعوة الإسلامية قد أحسَّ في هذه الحقبة بشيء من الزَّهو والاعتداد، بالإضافة إلى ما كان لديه منهما وهو يرى الدعوة المباركة تحقق انتصاراتها متوالية، وتتجاوز العقبات التي كانت في طريقها مظفرة، وتغزو الأفئدة قبل الربوع. ولذا طفق ينظم قصائد الفخر والاعتزاز يعدد فيها أيام الأنصار حماة الدعوة وجند الله المخلصين، ويذكر مآثرهم وحسن فعالهم.

من تلك القصائد لاميته، ومطلعها:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَعَدٍّ كُلِّهَا نَفَرًا

وَمَعَشَرًا إِنْ هُمْ عُمُوا وَإِنْ حُصِلُوا

وفيها يعدد بشيء من الإيجاز أيام الأنصار، ومنها يوم بدر، وأحد، ويوم ذي قرد، ويستمر في هذا التعداد حتى يصل إلى غزوة تبوك، وكانت في رجب من السنة الهجرية التاسعة^(١٤).

ومنها لاميته التي يفتخر فيها بالأنصار جند الله وحماة الدعوة، ويعتزُّ بمواقفهم وحسن فعالهم وسلامة ألسنتهم وحلمهم.. ومطلعها: ^(١٥).

وَكُنَّا مَلُوكَ النَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ

فَلَمَّا أَتَى الْإِسْلَامُ كَانَ لَنَا الْفَضْلُ

ومنها ميميته التي يعتز فيها باصطفاء الله سبحانه وتعالى للأنصار لإقامة دعائم الإسلام ونصر النبي وفيها يذكر أن جبريل عليه السلام يأتي للمسلمين بالفرائض والحلال والحرام، ويعتز كذلك ببطولة الأنصار، وعزتهم، وصبرهم على المكاره، وجلادهم، ومطلعها: (١٧)

الله أكرمنا بنصر نبيه
وبننا أقام دعائم الإسلام

ومنها ميميته المطولة بعض الشيء، وفيها يستعرض أيام الأنصار قبل مجيء النبي ﷺ إلى المدينة، وكيف استطاعوا أن يبلغوا ذرا الأمجاد ويستقروا في يثرب بالعزيمة الصادقة، وكيف توجوا هذه الأمجاد بنصر النبي ﷺ وترسيخ دعائم الإسلام.. ومطلعها: (١٨)

أولئك قومي فإن تسالي
كرام إذا الضيف يوماً ألم

ومما يرحج أنه قال تلك القصائد في هذا الوقت الذي سبق تحديده أن معارك بدرٍ وأحد والخندق كادت تبته في مخيلة الشاعر تفاصيلها، وبقيت مجرد انتصارات رائعة لها ذكرى حبيبة في النفس ممزوجة بعزة الظافر واعتداد المقاتل المحنك:

في كل معترك تطير سيوفنا
فيه الجماجم عن فراخ الهام (١٩)

فهذه النظرة الإجمالية إلى المعارك والمواقف هي إحدى المرجحات، ومرجح آخر ذكره الشاعر إذ بين أن خيل المسلمين سيطرت على السهول والجبال، وهذا حصل في هذه الحقبة المذكورة:

حتى تركنا الأرض سهلاً حُرُّها
منظومة من خيلنا بنظام (٢٠)

ومرجح ثالث هو أننا لا نستطيع أن نتأخر بهذه القصائد إلى ما هو أبعد من ذلك إذ يتوفى رسول الله ﷺ، وتعظم الفاجعة، وتجد أمور ومصاعب ومصائب جديدة ليس

لها ذكر هنا، بل ولا نجد إشارة إلى وفاة الرسول ﷺ.

وهناك قصيدة يائية، مطلعها: (٢١)

ثوى في قريش بضع عشرة حجة

يُذَكِّرُ لويلقى صديقاً مؤتيا

وفيهما ذكر أنه ﷺ وقد أقام في قريش بضع عشرة سنة، كان يعرض نفسه على أهل المواسم لكي ينصروه، فلم يجد من يلبي دعوته حتى قيض الله له الأنصار، فأزروه، ونصروه، وبذلوا له الأموال والأنفس (٢٢).

وهناك مطولته اللامية، ومطلعها: (٢٣)

لكِ الخيرُ غَضِيَّ اللومِ عَنِّي فَإِنِّي

أحبُّ من الأخلاق ما كان أجَمَلا

وفيهما افتخر بنفسه وقومه بشيء من التفصيل والتطويل، ثم ذكر نصر قومه النبي ﷺ بشيء من الإيجاز ناظراً إلى المعارك والمواقف نظرة إجمالية، واختتمها بالفخر بقومه، ولعل هذا مما يشجع على التفكير في تأخيرها إلى ما بعد.

الهوامش

- ١ - ممن جاء في السنة التاسعة: وفد همدان ووفد بلي، ووفد بني فزارة، ووفد بني عذرة وممن قدم في السنة العاشرة: وفد خولان، ووفد محارب، ووفد من غسان، ووفد سلامان، ووفد غامد، ووفد بني حنيفة (ومعهم مسيلمة الكذاب). أما وفد النخع فقد جاء في نصف المحرم من السنة الحادية عشرة الهجرية، وهو آخر الوفود قدوماً.
- ٢ - مشهور ما حصل مع وفد بني عامر، إذ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ برئاسة عامر بن الطفيل وأريد بن قيس، وجبار بن سلمى. وقد اتفق عامر وأريد على اغتيال رسول الله بأن يشغله عامر بالحديث ويعلموه أريد بالسيف فجعل عامر يقول للرسول ﷺ: خالني، والرسول ﷺ يقول له: «حتى تؤمن بالله وحده». ولما رأى عامر إصرار رسول الله ﷺ وعجز أريد عن تنفيذ الخطة، قال مهدداً: والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، وانصرف. فقال ﷺ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل» ولما لأم عامر أريد على تهاونه، قال: كلما هممت بضربه دخلت بيني وبينه فلا أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟ وبينما كانوا راجعين بعث الله الطاعون على عامر في عنقه فقتله، أما الأريد فقد أصابته هو وجمل له صاعقة فقتلتهما. أما مسيلمة الكذاب، فقد قدم على رسول الله مع وفد بني حنيفة فأسلموا، فأعطاهم الرسول ﷺ، ولما انصرفوا وبلغوا اليمامة ارتد مسيلمة وتباً، وتكذب لأصحابه.
- ٣ - كعب بن زهير بن أبي سلمى: سبق التعريف به ص ١٤٠ من هذا المؤلف.
- ٤ - انظر سيرة ابن هشام (٩٣٩/٤) وقد أوردها بتسعة وخمسين بيتاً. وانظر زاد المعاد (٢٠٦/٢) وقد أوردها بخمسة وعشرين بيتاً، والقصيدة وردت في ديوانه (مصورة دار الكتب) ص ٦ بخمسة وخمسين بيتاً.
- ٥ - ابن الزبير: سبق التعريف به ص ١٠٠.
- ٦ - أبوسفیان بن الحارث: سبق التعريف به ص ١٥١.
- ٧ - صفوان بن أمية: سبق التعريف به ص ٢٨٤.
- ٨ - عكرمة بن أبي جهل: سبق التعريف به ص ١٣٩.
- ٩ - الحارث بن أبي شمر الغساني: سبق التعريف به ص ٧٥، وانظر زاد المعاد: ٦٠/٣ وسيرة ابن هشام: ١٠٢٥/٤ لتعرف أسماء من أرسلوا ومضامين الكتب التي أرسلت.
- ١٠ - انظر سيرة ابن هشام ١٠٢٨/٤ وما بعدها.
- ١١ - أسامة بن زيد بن حارثة: سبق التعريف به ص ٣٤٦.

- ١٢ - البلقاء: سبق التعريف بهذا الموضع ص ١١٦.
- ١٣ - الداروم: إقليم في فلسطين فيه بيت جبرين على الساحل الجنوبي الغربي أهم مدنه بيت جبرين وذكر ياقوت (في معجم البلدان ٤٢٤/٢) أن الداروم قلعةٌ بعد غزة للقاصد إلى مصر، الواقف فيها يرى البحر، وبينها وبين البحر فرسخ، خربها صلاح الدين لما سيطر على الساحل سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م.
- ١٤ - سيرة ابن هشام: ٩٨١/٤، وتقع في تسعة عشر بيتاً، وقد خالف ابن هشام ابن اسحق فقال: «وتروى لابنه عبدالرحمن بن حسان» ولم ترد في ديوانه.
- ١٥ - انظر سيرة ابن هشام: ٩٤٣/٤.
- ١٦ - ديوانه ص ٣٨٤، والسيرة ٩٨٢/٤ وتتألف من أحد عشر بيتاً.
- ١٧ - ديوانه ص ٤٤٥، وتتألف من سبعة عشر بيتاً.
- ١٨ - ديوانه ص ٤٢٨ وقد وردت بأربعة وثلاثين بيتاً، والسيرة ٩٨٣/٤ وقد وردت بثلاثة وثلاثين بيتاً.
- ١٩ - من القصيدة «الميمية»: ديوانه ص ٤٤٥.
- ٢٠ - المرجع السابق.
- ٢١ - ديوانه ص ٤٨٧ وتتألف من سبعة أبيات.
- ٢٢ - وردت في سيرة ابن هشام (٣٥٧/٢) قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتاً، وضمنها وردت هذه الأبيات السبعة التي أشير إليها هنا مع شيء بسيط جداً من الاختلاف، ولكن صاحب السيرة عزا هذه القصيدة لشخص اسمه: أبوقيس صرمة بن أبي أنس بن صرمة بن مالك.. من بني النجار، وكذلك فعل صاحب زاد المعاد: (٥٥/٢)، ولكنه لم يورد سوى الأبيات السبعة التي أوردها الديوان، وقد جعل ابن عباس يختلف إلى هذا الشاعر (صرمة) يتحفظ منه هذه الأبيات. وإذا اعتمدنا هذه الرواية فسوف يختلف معنا زمن الأبيات وقائلها: «فزمنها سيكون بعيد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة. أما قائلها فليس حسان بن ثابت وإنما هو أبوقيس صرمة بن أبي أنس: وهو شاعر مخضرم عُمّر في الجاهلية زمنًا طويلاً، وترهب، وفارق الأوثان وكان معظماً في قومه، ثم أدرك الإسلام في شيخوخته، فأسلم عام الهجرة، وقال في الإسلام ونبيه عدداً من القصائد، وتوفي نحو ٥٥هـ/ نحو ٦٢٧م.
- ٢٣ - ديوانه: ص ٤٠٤، وتتألف من واحد وأربعين بيتاً.

أشعار السنة الحادية عشر: رثاء رسول الله ﷺ - الردة

رثاء الرسول ﷺ

وبينما الناس في زهو الانتصارات والاعتداد بتوفيق الله سبحانه ابتدئ رسول الله ﷺ بشكوه الذي قبض فيه في ليالٍ بقين من شهر صفر أو في أول شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة^(١). وكان أول ما ابتدئ به أنه خرج إلى بقيع الغرقد^(٢) من جوف الليل، فاستغفر لمن دُفِنوا فيه، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك، ثم اشتد عليه الوجع حتى قبض ﷺ في يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٣م)، فأصاب المسلمين ما أصابهم من الجزع والحزن، وفقد بعضهم صوابه لهول المأساة حتى إن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قام فقال: «إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإن رسول ﷺ ما مات، ولكن ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران.. ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات..»^(٣) وظلّ الناس في حيرة من أمرهم حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه، ودخل على رسول الله ﷺ فقبله، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فطلب إليه أن ينصت فأبى، فأقبل على الناس قائلاً: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا قوله تعالى: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين»^(٤).

ولا غرابة أن يذهل المسلمون عن أنفسهم أمام هول هذه المصيبة! وهل دويهيّة أعظم من هذه التي أصابت المسلمين بنبيهم وقائدهم وخيرهم ﷺ!؟.. وحسان بن ثابت

شاعر هذه الدعوة لم يكذب يبلغ مسامعه نبأ وفاة قائدها حتى انهارت أعصابه وانهدَّ حِيلُهُ، وتبلَّد، وتلدَّد، ثم انطلقت على لسانه قصائد كثيرة هي في غاية الروعة، وسمو النفس الشعري، وصدق التفجّع:

١ - منها قصيدته الدالية، ومطلعها: (٥)

بَطْيْبَةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
مَنْبِرٍ وَقَدْ تَعَفَوْ الرُّسُومُ وَتَهَمَّدُ

وفيها يذكر الشاعر المنبر والمصلّى والمسجد والحجرات التي كان ينيرها من الله نور ثم لا يجد ما يطفئ لوعة الفؤاد غير لآلئ الدمع:

وَلَا تَنْمُحِ الْآيَاتِ مِنْ دَارِ حَرَمَةٍ
بِهَا مَنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آيَاتٍ وَبَاقِي مَعَالِمٍ
وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
بِهَا حُجَرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطُّهَا
مِنْ اللَّهِ نَوْرٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ
ظَلِمْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدْتُ
عَيُونَ وَمِثْلَاهَا مِنَ الْجَفْنِ تُسْعِدُ (٦)

ويلتفت إلى قبر المصطفى، فيقول:

فَبُورِكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكْتُ
بِلَادُ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً
عَشِيَّةَ عَلُوهِ الثَّرَى لَا يَوْسُدُ

ويذكر بكاء النَّاسِ، وما أصابهم من وهن وحزن، ويورد شيئاً من صفات الرسول ﷺ، وكل أبيات القصيدة جيد التصوير، شديد التأثير، وهي تبلغ ستة وأربعين بيتاً يتحير المرء أيها يختار.

وله قصيدة أخرى دالية، وهذه تبدو أحرَّ عاطفة وأشدَّ تفجعاً ولهفة مما سبقها، ومطلعها: (٧)

ما بال عينك لا تنامُ كأنما
كُحِلَتْ مَاقِيهَا بِكُحْلِ الأَرَمَدِ
جزعاً على المهديِّ أصبح ثاوياً
يا خير من وطئ الحصى لا تبعد
وجهي يقيك الترب لهفي ليتني
غُيِّبْتُ قبلك في بقيع الغرقد

وفيها يصف حالته النفسية ووقع المصيبة عليه، فيقول:

فظلت بعد وفاته متبلاًداً
متلداً يا ليتني لم أولد
أقيم بعدك بالمدينة بينهم!
يا ليتني صُبِّحْتُ سُمَّ الأسود

ويضرب إلى الله عز وجل أن يُحِلَّ أمره في المسلمين ليلقوا رسولهم الحبيب، ويمضي بعد لك شارحاً حالة الأنصار، وقد ضاقت بهم البلاد بعد وفاته ﷺ، ثم يختتم القصيدة بالصلاة على المبارك أحمد:

صلى الله ومن يُحَفُّ بعرشه
والطيبون على المبارك أحمد

وله في ذلك أيضاً قصيدة دالية أخرى، مطلعها: (٨)

أليت ما في جميع الناس مجتهداً
مني أليّة برٍّ غير إفناد
تاله ما حملت أنثى ولا وضعت
مثل الرسول نبي الأمة الهادي

ولا برا الله خلقاً من بريته
أوفى بذمة جارٍ أو بميعاد
وله في رثائه ﷺ قصيدة رائية، مطلعها^(١٠)
نَبِّ الْمَسَاكِينَ أَنَّ الْخَيْرَ فَارَقَهُمْ
مع النبي تَوَلَّى عَنْهُمْ سَحَرَا
وفيها يذكر جوده ﷺ وحلمه، وهديه، ويتمنى لو أنه هو وقومه قد ماتوا يوم ووري
ﷺ في لحده:
كَانَ الضِّيَاءُ وَكَانَ النُّورَ نَتَبَعُهُ
بعد الإله وكان السَّمْعَ والبَصْرَا
فَلَيْتَنَا يَوْمَ وَارَوْهُ بِمُلْحِدِهِ
وغيَّبوه وألقوا فوقه المدرَا
لم يترك الله منا بعده أحدا
ولم يُعشْ بعده أنثى ولا ذكرا
ويذكر له جامع الديوان بيتين آخرين رائيين في رثاء المصطفى ﷺ، هما^(١١):
كَنْتُ السَّوَادَ لِنَظَائِرِي
فَعَمِي عَلَيْكَ النَّظَرُ
مَنْ شَاءَ بِعَدِكَ فَلْيَمُتْ
فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ
ويورد له الديوان بيتاً دالياً ذكر أنه قاله يوم دفن النبي ﷺ، وهو بيت فد^(١٢):
أَلَا دَفَنْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ فِي سَفَطٍ
من الألوَّة والكافور منضود^(١٣)

الردّة:

وبعد وفاة رسول الله ﷺ ارتد بعض العرب عن الإسلام قائلين: لا نطيع أبا الفصيل هزءاً بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فساء شاعر الدعوة الإسلامية انشقاق المسلمين على بعضهم متنابذين ومتشاكسين ينبز بعضهم بعضاً بالألقاب المزرية، بل ومتحاربين يسلّون المهندات البواتر في وجوه بعضهم، وهو الذي أوقف ملكته الفنية بعد ظهور الإسلام على لمّ الشعث حول الدعوة وقائدها، فردّ على أولئك الهازئين والساخرين المتمردين بقوله^(١٤):

ما البكرُ إلا كالْفصيل وقد ترى

أن الفصيل عليه ليس بعار^(١٥)

وفيها هدهم بحربٍ عوانٍ، وبسيوفٍ بتارةٍ تفري جماجمهم، ولن تُرفع السيوف عن أولئك المرتدين الساخرين:

حتى تَكُتُّوه بفحلٍ هُنَّيْدَةٍ

يحمي الطروقة بازلٍ هَدَارٍ^(١٦)

وكان ما أراد حسان، أو ما هدّد به فجّهز أبوبكر الصديق الجيوش لقتال المرتدين على الرغم من معارضة بعض الصحابة لذلك، وتقدّم جندُ الله بهمم الرجال وعزائم الأبطال يحطمون المرتدين، ويرأبون ما انصدع حتى إذا أبيد دُعاة الشرّ وأوثانُ الفتنة وزعماء المناصب وطلاب الجاه الزائف ندم الكثيرون ممن شايعوهم وانخدعوا بهم، وعاد المسلمون صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ويرنو الجميع إلى حياة جديدة، ذلك أن هذه الدعوة لا تنهض إلا بأيدٍ قوية مخلصّة، متكاتفّة، لا ترجو إلا وجه الله، فإذا دخل فيها عشاق المناصب الشخصية، وطلاب الزعامات الذاتية، وآلهة العصبية والعنجهية فسَدَتْ وأفسدت.

وعاد المسلمون - بعد أن تنقَّتْ جزيرة العرب من أوضاعها - إلى ما كانوا عليه أولاً - أو قبيل وفاة رسولهم الكريم على الأدقّ - يعبدون الله وحده، ولا يشركون به شيئاً. وحينذاك بدأت في حياة الدعوة الإسلامية مرحلة جديدة هي الانطلاق إلى خارج الجزيرة العربية لتحمل إلى أهلها الخير والسعادة والهداية التي أظلت داخل الجزيرة وغمرتها بأنوارها الوضياء، فانطلقت دعوة الله يحملها جند الله إلى عباد الله في أرض الله. وأنذاك تقلَّص عمل شاعر الدعوة الإسلامية بعد أن قَيَّضَ الله سبحانه وتعالى لدعوته الفتح المبين والنصر المؤزر.

الهوامش

- ١ - سيرة ابن هشام: ١٠٥٦/٤، الموافق لسنة ٦٣٣ م.
- ٢ - بقيع الغرقد: البقيع: الموضع الذي فيه أروم الشجر من ضروب شتى. والغرقد: كبار العوسج. وهو مقبرة أهل المدينة المنورة، ويقع في داخلها.
- ٣ - سيرة ابن هشام: ١٠٦٩/٤. وانظر الطبري: ١٩٧/٣.
- ٤ - القرآن الكريم - سورة آل عمران (١٤٤/٣).
- ٥ - ديوانه: ص ١٤٥، وسيرة ابن هشام: ١٠٨٠/٤، وتتألف من ستة وأربعين بيتاً.
- ٦ - أسعدت عيون: أعانتني عيون. والمراد بالجفن هنا: العين، يقول: ومثل عيني تَوَاتِي الدمع.
- ٧ - ديوانه ص ١٥٣، وسيرة ابن هشام: ١٠٨٢/٤، وتتألف من ثمانية عشر بيتاً.
- ٨ - ديوانه ص ١٥٥ وسيرة ابن هشام: ١٠٨٣/٤، وهي تتألف من ثمانية أبيات.
- ٩ - أَلَيْتُ حَلَفْتُ. أَلْيَّةٌ بَرٌّ: حلفة صادق. مجتهداً مني: غير مقصر. غير إفناد: غير ذي إفناد، والإفناد: الكذب... والتتمة في البيت الثاني والتقدير: أقسمت قَسَمَ صادقٍ بالله لم تحمل أنثى مثل الرسول ﷺ.
- ١٠ - ديوانه ص ٢٢٠، وسيرة ابن هشام: ١٠٨٣ / ٤، وهي تتألف من سبعة أبيات في الديوان وثمانية في السيرة.
- ١١ - ديوانه ص ٢٢١.
- ١٢ - ديوانه ص ١٥٧.
- ١٣ - السفط: ما يوضع فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء. الألوَّة: العود الذي يتبخر به.
- ١٤ - ديوانه ص ٢٦٥، وتتألف المقطوعة من أربعة أبيات.
- ١٥ - الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه والجمع فصيلان وفصال. البَكْر: بفتح الباء وسكون الكاف: الفتى من الإبل. يقول لهم: لا فرق بين البكر والفصيل وتكنيتكم أبا بكر بأبي الفصيل هراء وهذر، ولا تُلحق هذه الكنية به عاراً ولا شناًراً.

١٦ - هُنَيْدَة: اسم للمنة من الإبل خاصّة، وقيل للمئتين. الطَّرُوقَة: النّاقة التي بلغت أن يطرقها
الفرحل. البازل: البعير الذي استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة وفُطِر نابه، وسمّي
بازلًا من البزل وهو الشق، وذلك أن نابه إذا طلع يشق اللحم عن منبته فيبزله، فيقال له:
بازل. الهدّار: البعير الذي يهدر أي يخرج صوتًا في غير شقشقة.

أشعار في تاريخها بعض الغموض

وبقيت الآن بين أيدينا قصائد ومقطوعات إسلامية الظهور، ولكننا لا نستطيع تحديد الوقت الذي قيلت فيه بدقّة، ويمكن أن نحشرها في زمر ثلاث:

أ - الزمرة الأولى: تضمّ قصائد ومقطوعات يفهم من روحها العامة أنها قيلت قبل السنة الخامسة للهجرة على وجه الترجيح، وهي:

١ - هجاؤه بني عابد بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، ومطلعها: ^(١)

فإن تصلح فإنك عابدي

وصلح العابدي إلى فساد

وهي في توجّهها العامّ قريبة جدّاً من هجاء صيفي بن أبي رفاعة المخزومي الذي ذكرناه فيما سبق ^(٢) إذ أنّه عمّم هجاءه فشمل به بني عابد كافّة.

٢ - هجاؤه عدي بن كعب كما قدم شارح الديوان المقطوعة، بينما الأبيات جاءت في هجاء بني زهرة خاصة، ومطلعها: ^(٣)

لعمرك ما تنفك عن طلب الخنا

بنو زهرة الأنذال ما عاش واحد

وهذا الهجاء أقرب ما يكون إلى أشعار السنّة الثانية (بعد بدر).

٣ - هجاؤه بني عدي بن كعب، ومطلعها: ^(٤)

قوم لئام أقلّ الله خيرهم

كما تنائر خلف الراكب البعر

وينطبق على هذه المقطوعة ما ينطبق على سابقتها.

٤ - وهنالك قصيدة لم يقدمها شارح الديوان إلا بكلمة: «وقال»، ومطلعها: (٥)

قد حان قول قصيدة مشهورة
شنعاء أرصدها لقوم رضع

وإذا كان شارح الديوان قد أغفل ذكر اسم هؤلاء القوم الرضع فيرجع من خلال سياق القصيدة أنهم بنو المغيرة وقد هجاهم الشاعر - كما ذكرت سابقاً (٦) - هجاءً مرّاً، وهو هنا كذلك يدعوهم إلى أن يفخروا بآل شجع، كما صنع في أهاجيه السابقة:

وإذا قريش حُصِّلَتْ أنسابُها
فبال شجع فافخروا في المجمع

٥ - وهجاؤه بني العوام في مقطوعة، مطلعها (٧):

بني أسدٍ ما بال آل خويلدٍ
يحنُّون شوقاً كل يوم إلى القبطِ

هذه الأهاجي نتبين من خلال استعراضها أنها خلّت خلواً تاماً من ذكر الحروب والوقائع، وأنها تكاد تقارب الشتم والسباب. وفيها وصف المهجّون باللؤم والدناءة والخسة. وجلّوا بالمخازي، وجردوا من كريم النسب.. وتلكم هي الصفات التي اتصفت بها أهاجيه في الحقبة الواقعة ما بين هجرة الرسول ﷺ وموقعة بدر. وكان من حقّها أن تكون هنالك، ولكن كانت تنقصنا القناعة التامة والمرجّحات اليقينية إلى جانب هذه الميزات التي ذكرناها، ولذا أفردنا لها باباً مستقلاً.

٦ - وفي هذه الحقبة (أو الزمرة) يمكن أن توضع مدائحه التي توجّه بها إلى رسول الله ﷺ، وهي:

أولاًها: قصيدة دالية، مطلعها (٨):

أغرُّ عليه للنبوة خاتم
من الله مشهودٌ يلوح ويشهدُ

ثانيتهما : مقطوعة دالية، مطلعها: (٩)

والله ربي لا نفارقُ ماجداً
عفَّ الخليفة ماجد الأمجاد

ثالثتها : مقطوعة دالية، مطلعها: (١٠):

متى يبدُ في الدَاجي البهيم جبينُهُ
يَلُحُّ مثلُ مصْبَاحِ الدُجَى المتوقِّدِ

رابعتها : مقطوعة همزية، مطلعها: (١١)

وأحسنُ منك لم تَرَ قطُّ عيني
وأجملُ منك لم تلِدْ النساءُ

خامستها : مقطوعة لامية قالها عندما قال له ﷺ: هات ما قلتَ فيَّ وفي أبي
بكر، فقال مقطوعة، مطلعها: (١٢):

إذا تذكَّرتَ شجَّواً من أخي ثقةٍ
فانذكرْ أخاك أبابكر بما فعلا

سادستها : مقطوعة لامية مطلعها: (١٣):

شهدتُ بإذن الله أن محمداً
رسول الذي فوق السماوات من علُّ

فقال النبي ﷺ : أنا أشهد معك .

وفي هذه المدائح تظهر بوجه عام صفات الرسول ﷺ، فهو نبي مرسل من عند الله وعليه خاتم النبوة وهو ماجد وعفٌّ، وسراج مستنير، وهادٍ إلى الخير، وهو كمصباح الدجى المتوقد، وهو جميل الخلق والخلق.. وهذه الصفات ذاتية تسبغ على الممدوح في حالات السلم، وتكثر عندما لا يجد الشاعر بين يديه غزواتٍ ووقائع يبرز بطولاتها.. ولذا يرجح أنها قيلت قبل معركة بدر، وكان من حقها أن توضع في هذا المكان من بحثنا ولكن ليس بين أيدينا القناعة التامة.

ب - الزمرة الثانية: تضم آثاراً يفهم من روحها العامة أنها قيلت بعد السنة الخامسة للهجرة على وجه الترجيح، وهي:

١ - هجاؤه بني الأشعر بمقطوعة عينية، مطلعها: (١٤)

سائل بني الأشعر إن جئْتَهُمْ

ما كان أنباء بني واسع

٢ - وهنالك قصيدة قدمها شارح الديوان بقوله: «وقال» فقط من غير أن يذكر المقصود بهذا الهجاء، ومطلعها: (١٥)

وقوم من البغضاء زور كأنما

بأجوافهم مما تُجِنُّ لنا الجمرُ

وبعد أن ذكر ما يكتنه هؤلاء من العداوة للشاعر وقومه بين أن معركة بدر تثنى على قومه:

ولو سُئِلْتُ بدرٌ بحُسْنِ بلائنا

فأثنت بما فينا إذا حُمِدَتْ بدرُ

٣ - وهنالك مقطوعة قدمها شارح الديوان بقوله: «وقال رضي الله عنه» فقط من غير أن يذكر المقصود بهذا الهجاء، ولكن من قراءة الأبيات يتبين أن الهجاء موجه إلى بني عبدالدار، ومطلعها: (١٦)

لعن الله منزلاً بطن كوثي

ورمّاه بالفقر والإمعار (١٧)

ج - الزمرة الثالثة: آثارٌ شعرية يصعب تحديد زمن نظمها إلا أنها قيلت في الإسلام: هذه الزمرة لم أستطع أن أحصل على مرجحات تثبت زمن نظمها في الحقبة الإسلامية، ولم أجد في معانيها وخصائصها الفنية ما يغني في ذلك فتيلاً، فأفردت لها هذا القسم:

١ - منها هجاؤه بني عوف بن عوف، ومطلعها: (١٨)

(و) سائلٌ قريشاً وأحلافها
متى كان عوفٌ لها يُنسبُ

٢ - وهجاؤه قيس بن مخرمة، ومطلعها^(١٩)
لقد كان قيس في اللئام مُردداً
عصارة فرخٍ معدن اللؤم ماكد

٣ - وهنالك مقطوعة في الصداقة والأصدقاء، مطلعها: ^(٢٠)
أخلاء الرُخاء هم كَثِيرٌ
ولكن في البلاء هم قَلِيلٌ

وفيها جعل الخليل الوفيّ هو الذي يتوافر فيه الحسب والدين.

٤ - وأخيراً قصيدة قالها في الحكم والمواعظ، ومطلعها^(٢١):
أعرض عن العوراء إن أُسمِعَتْها
واقعدْ كأنك غافل لا تسمع

وفيها ينطلق من مبادئ إسلامية واضحة: كالإعراض عن الكلام القبيح، وترك
مالا يعني ولزوم مجالسة الكرام، وترك الغواية والسكر، والاستعداد للموت إذ لا مفر
منه.

الهوامش

- ١ - ديوانه ص ١٩٨، وتتألف من تسعة أبيات.
- ٢ - انظر ص ٢١٩ من هذا المؤلف.
- ٣ - ديوانه ص ٢١١، وتتألف من ثلاثة أبيات
- ٤ - ديوانه ص ٢٨٢، وتتألف من ثلاثة أبيات
- ٥ - ديوانه ص ٣٢٤، وتتألف من سبعة أبيات
- ٦ - انظر ص ١٨٩ وص ١٩٠ من هذا المؤلف.
- ٧ - ديوانه ص ٢٩٥، وتتألف من ستة أبيات. والسبب أن عبدالرحمن بن العوام وهو أخو الزبير بن العوام كان يؤذي رسول الله ﷺ قبل إسلامه، فهجا حسان آل العوام، وإلا فإن حسان قد مدح الزبير بن العوام في قوله:
أقام على هدي النبي ودينه
حواريه والقول بالقول يعدل
وانظر ديوانه ص ٣٩٤.
- ٨ - ديوانه ص ١٢٤، وتتألف من تسعة أبيات.
- ٩ - ديوانه ص ١٢٧، وتتألف من ستة أبيات.
- ١٠ - ديوانه ص ١٥٧، وتتألف من بيتين اثنين. وقال قالت عائشة رضي الله عنها، عن الرسول ﷺ:
«كان والله كما قال فيه حسان».
- ١١ - ديوانه ص ٦٦، وتتألف من بيتين اثنين.
- ١٢ - ديوانه ص ٣٥٥، وتتألف من خمسة أبيات.
- ١٣ - ديوانه ص ٣٧٥، وتتألف من خمسة أبيات.

- ١٤ - ديوانه ص ٣١٨، وتتألف من أربعة أبيات.
- ١٥ - ديوانه ص ٢٧٧، وتتألف من تسعة أبيات.
- ١٦ - ديوانه ص ٢٨٤، وتتألف من أربعة أبيات.
- ١٧ - كُوئى: من أسماء مكة المكرمة. الإمعار: الافتقار.
- ١٨ - ديوانه ص ١٨٨، وتتألف من ستة أبيات.
- ١٩ - ديوانه ص ٢١١، وتتألف من أربعة أبيات.
- ٢٠ - ديوانه ص ٣٩٦، وتتألف من أربعة أبيات.
- ٢١ - ديوانه ص ٣١٥، وتتألف من ثمانية أبيات.

خاتمة

بعد تمهيد موجز للبحث استعرضتُ سريعاً حياة الشاعر حسان بن ثابت في جاهليته، وألمحت إلى بيئته وسماته النفسية والخلقية، وأشارت إلى شعره وعلاقاته بأبناء عمومته وانتقلت بعدها إلى الحقبة الثانية من حياته، الحقبة التي وقف فيها طاقاته الفنية على نصر الدعوة الإسلامية، وتمثيلها، ومهاجمة أعدائها. وحاولت ترتيب إنتاجه الفني ترتيباً تاريخياً بحسب الأحداث والظروف والمواقف التي مرّت بها الدعوة، إذ كان مواكباً مسيرتها وملماً بالظروف والأمر التي مرّت بها ومعاشاً كل لحظة من لحظات وجودها، فظهرت في شعره الصورة الصادقة للدعوة الإسلامية في المدينة المنورة تحوطها سيوف الأنصار، وتحضنها قلوبهم، وتجتاح الحواجز متخطية كل العقبات.

ولقد كان حسان جديراً بنصر هذه الدعوة والذبّ عنها وتمثيلها بصدق وإخلاص، وحرارة، واندفاع، من دون تفعلّ، ولا تكلف، ولا رهبة، ولا مداراة، ولا مماراة، ووجدنا فيه كيف يستطيع الإنسان الفنان أن يخدم المبادئ التي آمن بها والدعوة التي ارتضاها وتبنّاها خير خدمة يحدوه ما وعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين به «وعند الله في ذاك الجزاء»، فكان شعره صورة صادقة لحياة الدعوة الوليدة المتنامية في البيئة الجديدة، ومنبعاً ثراً يروي ظمأ العطاش التواقين إلى معرفة الكثير من التفاصيل، وكان لسانه أفصح الألسنة في التعبير عما يخالج نفوس أولئك القوم الذين انخرطوا في سلك الدعوة إلى الله، وعاشوا معها أسعد لحظات هذه الفانية، وأكثرها عند الله مثوبة.

قلت إنني قمتُ باستعراض أشعاره التي قالها في الإسلام، وترتيبها ترتيباً تاريخياً، وقد وجدتُ بين يدي ممّا في ديوانه وغير ديوانه مئة وإحدى وخمسين قصيدة ومقطوعة رجحت أنه قالها بعد إسلامه، إمّا بتصريح واضح من جامع الديوان وشارحه، أو بإشارة تاريخية، أو معنوية، أو أسلوبية، ولكنّي - وللأسف - لم أفلح تماماً في تحديد التاريخ الدقيق لهذه الآثار كلها والكمال لله وحده، ولعلّ ذلك يرجع إلى أنها كانت الخطوة الأولى في مثل هذا الترتيب، والخطوة الأولى تتعثر دائماً أو غالباً بالإضافة إلى ما جُبلت عليه طبيعة البشر من قصور دون بلوغ الكمال.

على أنني استطعت - بحمد الله وتوفيقه - أن أجد التاريخ الدقيق لما يقرب من تسعة أعشار هذه الآثار، كما أنني وضعت تاريخاً تقريبياً لما يقرب من أربعة أخماس الباقي، وبذا كان الأمر على الوجه الآتي:

١ - استطعت أن أجد تاريخاً دقيقاً لمئة وثلاث وثلاثين قصيدة ومقطوعة.

٢ - وجدت تاريخاً تقريبياً لأربع عشرة قصيدة ومقطوعة.

٣ - وبقيت أربع قصائد ومقطوعات تنتظر البحث الدقيق، وترنو بأبصارها إلى من يضعها في مواقعها الزمانية، وليس هذا بمستحيل.

وقد كنت أمر بشيء من السرعة خلال استعراضي أشعار حسان من دون أن ألتفت - كما يجب - إلى الظواهر الأسلوبية والميزات الفنية التي يتميز بها حسان وأوفيهما حقّها من الدراسة والبحث، وذلك لكيلا أخرج عن النطاق الذي رسم لهذا البحث، وأظن أنه قد آن أن أسجل هنا بإيجاز شديد أهمّ ما كنت قد لحظته في فنه خلال استعراضي إنتاجه، وهذه ملحوظات ينقصها بعض التأنّي كما ينقصها الكثير من الدرس، وإنّ هي إلا خطرات سريعة كنتُ أكتبها على جازات من الورق كلما بدت لي ظاهرة.

وقبل أن أبدأ بذكر هذه الملحوظات أحب أن أشير إلى أنني حين كنت استعرض الأشعار التي كان يقولها حسان بمناسبة المعارك خاصة كنت أعثر على قصائد أو مقطوعات أخرى يقولها بعض المسلمين، وأخص منهم عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وما كنت مستطیعاً أول الأمر أن أجد سمات واضحة لشخصية كل منهم أصحح بها نسبة شعره إليه، ذلك أن الشعر في مثل تلك الأوقات يكاد يفقد أهدافه الفنية الدقيقة، ويصبح وسيلة عملية تتجه أولاً إلى ملاحاة المشركين والدفاع عن الدعوة الإسلامية وقائدها. ولكنني - بالرغم من هذا التقارب. وبعد التمرس بقراءة إنتاجه وإنتاج غيره - وجدت في شعره ملامح واضحة أحسب أنها تساعدنا كثيراً في تمييز شخصيته وفنه:

١ - أولى تلك الملامح أو الظواهر أن حسان لا ينفك عن الفخر بقومه، وبنفسه، وبلسانه، وإذا كانت له فخریات طوال اقتصر فيها على هذا الغرض، فلا نكاد نجد مقطوعة بله قصيدة تخلو من فخره بالأنصار، وذكر بلاتهم في سبيل الله. وقد دفعه هذا إلى مزالق غير محمودة كما حدث بعد غزوة بني المصطلق حين استجاب لداعي عصبية^(١)

٢ - يتميز ببراعة في الهجاء، وإيجاع فيه، وهذه الظاهرة تبدو واضحة في جل أهاجيه، فهو ينحط على المهجو من عل، ويمعن فيه تقريعاً وتبكيئاً ونعتاً بصفات اللؤم والخبث والخسة وله طرائق شتى في ذلك أشرنا إلى أكثرها.

٣ - يتصف حسان بسرعة تأثره، وقد رأينا هذه الظاهرة في طباعه ونفسيته، وظهرت جلية في شعره الهجائي، وذلك ما جعل له تلك اللذعة المؤلمة وذاك الاندفاع القوي، حتى إنني كنت أحس وأنا أقرأ الكثير من شعره أن صدره يغلي كالمرجل أوقدت تحته نيران متسعة، ويتفجر كالبركان فتتطاير حممه، ويقذف اللهب والشر.

٤ - ويتبع سرعة التأثير هذه قلة التكلف والتجويد الفني، وعدم الاعتناء بتقنيح الشعر وتهذيبه، يخالف في ذلك عبيد الشعر، فكان يرسل شعره غالباً كما تجود به قريحته من دون صنعة بادية، وهكذا وجدنا عنده الصور الخاطفة السريعة والمتلاحقة أحياناً وفاتت المشاهد الفنية الكاملة إلا على قلة، وما جاء منها فيه الكثير من الجمال والإبداع.

(١) يرجع إلى ص ٣٣٣ من هذا المؤلف.

٥ - ووجدنا أنه في شعره يهتمّ بذكر الأنساب لشدة اهتمام الناس آنذاك بها، ويعدد أفخاذ مهجويه، مبرّئاً تلك الأفخاذ منهم حيناً، أو مزرئاً بهم وبها حيناً آخر أو موازناً بين تلك الأفخاذ وغيرها.. وقد استطعنا من خلال شعره بالإضافة إلى بعض المعلومات الأخرى أن نتعرّف بدقّة معظم الأفخاذ القرشية، إذ أمسك بها حسان واحداً واحداً، وتناول ألدّ أعداء الدعوة الإسلامية في كل منها بالهجاء، سالخاً إياه عن فخذ (أو عشيرته) إن كان الفخذ كريماً، أو ملحقاً إياه بفخذ لثيم، أو موازناً بين فخذ وفخذ آخر، وقد استفاد من توجيهات أبي بكر رضي الله عنه في هذا المجال للاربيب.

٦ - ونسبُهُ يتميز برقته، وحلاوته، وطلاوته، وبحضوره المستمرّ في الكثير من قصائده، فهو يدخله في وصف المعارك حيناً، وفي الهجاء حيناً آخر (كما فعل في هجاء الحارث بن هشام) وذلك أمر تبين لنا حين الإشارة إلى بعض قصائده، فقد ظهرت حينذاك في أشعاره رقة النسيب ممّا جعل شعره يُغنىّ به، وقد رافقته رقة النسيب في إسلامه كما كانت ترافقه في جاهليته.

٧ - وظهر الأثر الإسلامي جلياً في إنتاجه، فقد تأثر بروح الإسلام وتعاليمه واستمد من معاني القرآن الكريم ما يقرّع به يهود: فهم عميّ عن قراءة التوراة.. وهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. وكذبوا بما أتى الله سبحانه نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم مصدقاً لما معهم... واستمدّ من القرآن الكريم ما قرّع به المشركين، فوصمهم بالجهالة والتعامي عن دعوة الله وأنهم ضلّوا ضلالاً بعيداً.

واستمدّ من القرآن الكريم ما وصف به الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه مبشر ونذير وداع إلى الله بإذنه وسراج منير....

وظهرت لديه معان أخرى كالقتال في سبيل الله... والشهادة والثواب عليها جنات عدن.. ومأوى المشركين وقتلاهم في جهنّم، وأنهم سيصلون ناراً، ويلقون حميماً وغساقاً، وسيطعمون ضربياً لا يُسمن ولا يغني من جوع.

وظهر إيمانه بالساعة، وقيام الناس، والبعث، والحشر.....

وقد استفاد في أسلوبه من القرآن الكريم، وإن كانت الفائدة هنا أقل مما استفاده من معاني القرآن: فرأيناه يسير على طريقة القرآن الكريم في إقامة المفارقات بين الضدين، فيقيم موازنة بين عبدٍ عصي وعبدٍ أطاع.. وبين المشركين والمؤمنين وبين أبي سفيان بن الحارث ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين الحكم والجهل (في هجائه أبا جهل).

وإذا بدا لنا أن استفادته من أساليب القرآن الكريم أقل من استفادته من معانيه، فذلك يرجع إلى أن التأثير بالأساليب لا بد له من وقتٍ طويل لكي تتبدى آثاره وتحل محل الأساليب التي اعتادها الشاعر وكانت جزءاً من مكوناته الفنية والشخصية، بينما الأمر بالنسبة للمعاني لا يحتاج إلى مثل هذا الوقت، ومن الممكن أن تقتبس بعد الاطلاع عليها أو الاستماع إليها.

وإذا كان أبو الحسام قد استطاع أن يمثل دعوة الإسلام في كل المجالات التي يمكن أن يسهم فيها الشعر، فقد استطاع أن يتمثل معانيها أيضاً، ويغني بها شعره، وذلك مالا نجده عند أي شاعر من شعراء الصدر الأول، لا نكاد نستثني أحداً منهم.. هذا الحطيئة الشاعر المشهور والعبّاس بن مرداس وكعب بن زهير لا نعثر لديهم إلا على شيء قليل مما وجدناه لدى حسان، بل ما بالنّا نبعد كثيراً... هذا عبدالله بن رواحة وهذا كعب بن مالك، وهما من هما في نصرة الإسلام، والدفاع عنه لا نكاد نقع في أشعارهما على قلّتها ما يبرز نتاج حسان فكراً ومأخذاً وأداءً، على أن لكل من هؤلاء الشعراء سماته المميزة وطوابعه الفنية الخاصة، ولا ننسى أن رسول الله ﷺ قد اختاره بنفسه للدفاع عن الدعوة ورجالها وفضله على من سواه.

والحق أن حسان بن ثابت يكاد ينفرد بهذه الميزة مما جعله بحق: «شاعر الدعوة الإسلامية».

ويجمل بنا قبل أن نغادر هذه الدراسة أن نتعرف رأي حسان نفسه في الشعر، وها هو ذا يقول:

وإنما الشعر لبُّ المرء يعرضه
على المجالس إن كَيْسًا وإن حُمْقًا
وإنَّ أشعر بيتٍ أنت قائله
بيتٌ يقال إذا أنشدته صدَقاً^(١)

وبعد :

ها أنذا أو شك أن أضع القلم من بين أصابعي بعد لحظات أتم فيها كتابة هذه السطور الأخيرة المتبقية من هذا البحث.. وإذا كان غيري يغبط بإنهائه تأليفه، فإنني كذلك أشعر بلون من الاغتباط، ولكنه ممتزج بشعور آخر غريب، هو أقرب إلى الأسى وإن لم يكن أسى، لقد اغتبطت لإنهاء تأليف الكتاب ، ولكنني أسفت أو تأثرت بعض التأثير لمفارقة هذا الموضوع، فإنه حبيب إلى قلبي يحلّ شغافه، لقد رافقته زمناً غير يسير فما ملّلتُ صحبته، وإن محبته لتزداد في نفسي يوماً بعد يوم، لقد رافقته في أمسيات الشتاء ولياليه الطويلة تؤنسنا ترانيم المدفأة، ورافقته في ساعات البكور الجميلة أيام الربيع النضيرة تسمعنا الأطيّار بعض شجوها وأنغامها، ورافقته في ساعات الصيف .. صيف دمشق الفيحاء، وصيف دير الزور زمردة البادية، فكنت في هذه الأوقات جميعاً أقبل عليه إقبال المشوق المستهام، وما أكثر ما يلذ لي أن أخلو به، وما أشد سروري حين أجد ملحوظة جديرة بالاهتمام أو خبراً ينير لي بعض الطريق.. حتى إذا أذن الله لهذا الكتاب أن يتم في هذه اللحظات المتأخرة من هذه الليلة رأيتني أنظر إلى الموضوع، وأقلب صفحات الكتاب، وأرنو إليها بعيني وامقٍ شَعَرٍ بقرب الرحيل.

حسن

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت - ص ٣٤٨.

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

المبدوءة بحرف الألف والهمزة

- ادع إلى سبيل ربك ٣٧
- ادعوهم لأبائهم ٢٣٠
- إذ أنتم بالعدوة الدنيا ٢٢٨ ، ٢٠٦
- إذ تستغيثون ربكم ٢٢٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧
- إذ جاؤوكم من فوقكم ٣٠٢
- اذهب أنت وربك ٢٠٥
- إذ يريكم الله في منامك ٢٢٨ ، ٢٠٧
- إذ يغشيكم النعاس ٢٢٧ ، ٢٠٧
- إذ يوحى ربك إلى الملائكة ٢٢٧
- إذا جاء نصر الله والفتح ٤٠١
- أذن للذين يقاتلون ٣٧
- أفرأيتم اللات والعزى ٤٠
- ألا إن وعد الله حق ٣٥٥
- ألم تر إلى الذين نافقوا ٢٩٥
- الله غالب على أمره ٣٦٤ ، ٣٥٠
- أم يقولون افتراء ٢٤٣
- أنا خير منه خلقتني من نار ٩
- إنا فتحنا لك فتحا مبينا ٣٥٦
- إنا نحن نزلنا الذكر ٣٥٠
- إن الذين آمنوا وهاجروا ٣٨٨
- إن الذين جاؤوا بالإفك ٣٣٦
- إن الله لا يخفى عليه شيء* ٣٩٤

- ٢٢٧ إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ
- ٣٦٨ إنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
- ٣٣٢ إنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى

حرف التاء

- ١٧١ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

حرف الحاء

- ٣٠٩ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا

حرف الفاء

- ١٦٥ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ
- ١٢٧ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا
- ٣٢٣ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ
- ٣٣٦ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ
- ٢٢٧ فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

حرف القاف

- ٩ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي
- ٤٠٥ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ*
- ٢٤٣ قُلْ لئن اجتمعت الإنس
- ١٨١ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
- ١٨١ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

حرف الكاف

- ٢٢٦ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ

حرف اللام

- ١٩٦ لِمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى
- ٣٥٦ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ الرُّؤْيَا
- ٣٩٥ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ

- لو أنفقت ما في الأرض ٣٦٨
- ليس لك من الأمر شيء ٢٦٠
- ليس لهم طعام إلا من ضريع ٢٦٨
- ليقضي الله أمراً ٣٧

حرف الميم

- من المؤمنين رجالٌ صدقوا ٢١١

حرف النون

- النبي الأمي الذي يجدونه ٤٤

حرف الهاء

- هو الذي أخرج الذين ٢٩٥
- هو الذي أرسل ٢١٢

حرف الواو

- وإذ زين لهم الشيطان ٢٢٨ ، ٢٢٣
- وإذ قالت طائفةٌ ٣٠٣
- وإذ يعدكم الله ٢٣٠ ، ٢٢٧
- وإذ يقول المنافقون ٣٠٣
- والذين آمنوا وهاجروا ١٧
- والذين اتخذوا مسجداً ١٩٦
- والله غالب على أمره ٣٥٥
- والله يعصمك من الناس ٣٥٠
- وإن عاقبتم فعاقبوا ٢٥١
- وإن كنتم في ريب ٢٤٣
- وإن هذه أمتكم أمة ٣٨٨
- وجاء المعدّرون ٤٠٤
- ورد الله الذين كفروا ٣٠٥

- وضرب الله مثلاً قرية ٣٣١
- وعدكم الله مغنم كثيرة ٣٥٠
- وقالوا لا تذرنا آلهتكم ٤٠
- وقالوا لولا نزل هذا القرآن ٤٠٤ ، ١٨٨
- وقتلنا اهبطوا بعضكم ٩
- ولا يأتل أولو الفضل ٣٤٥
- ولقد نصركم الله ببدر ٣٨٨ ، ٢٠٩
- ولما جاءهم كتاب ٤٩
- ولما رأى المؤمنون الأحزاب ٣٠٣
- ولو تواعدتم لا خلتتم ٢٣٠
- وما جعل أدعياءكم ٣٨٢
- وما محمد إلا رسول ٤١٦
- وما يستوي البحران ١٨١
- ومكروا ومكر الله ١٤٩

حرف الياء

- يستفتحون على الذين كفروا ٤٤
- يا أيها الذين آمنوا إذا ٢٢٨ ، ٢٠٧
- يا أيها الذين آمنوا اذكروا ٣٠٥
- يسألونك عن الشهر الحرام ٢٨٢
- يطاف عليهم بكأس ٣٩١

الحديث النبوي الشريف

حرف الألف

- أبايكم على أن ١٦١ ، ١١٩
- اتق الله حيثما كنت ٣٤٦
- أجل ٢٠٦
- اخذوا! ١٣٥
- أحد جبل يحبنا ونحبه ٢٤٧
- أخرجوا إلي منكم ١٢١
- أدعوا لي حسان ٣١٧
- اذكر خُزاعياً ولا تهجه ٣١٦
- أذهب الباس ٦٣
- اذهبوا فأنتم الطلقاء ٣٧٠
- ارفضوا إلى رحالكم ١٢٢
- اشتد غضب الله على ٢٦٩
- أشيروا علي أيها الناس ٢٠٦
- أصبت وأحسن ٣٧٨
- اعتقها ولدّها ١٤٤
- أفلا تجلسون أكلمكم ١٦٦
- أكرم منكم يوسف ٤٠١
- ألا ترصون يا معشر الأنصار ٣٨٠
- ألا ترصون يا معشر الأوس ٣١٠
- إلى أين يا أبا ليلى ١٣٦
- اللهم اغفر لقومي ١٠
- اللهم اكفني عامر بن الطفيل ٤١٢
- اللهم أنجز لي ما وعدتني ٢٠٨
- اللهم إنك أخرجتني ٤٨
- اللهم إني أبرأ إليك مما ٣٧٨

٣٧٩	- اللهم اهد ثقيفًا
١٣٨	- اللهم أیده بروح القدس
٣٦٦	- اللهم خذ العيون والأخبار
٣٢٠	- امض حتى تلحق بالخيول
١٦٦	- أمن موالي يهود
٤٢٣	- أنا أشهد معك
٣٥٩	- إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر
١٢١	- أنتم على قومكم
٢٨٢	- انزل ليلة ثلاث وعشرين
٢٣٨	- إن لقيتموه فاتركوه
٣٠٤	- إنما أنت رجل واحد
١٣٦	- إن شاء الله
٣٠٤	- إنما هو شيء
٣٨٤ ، ٣٦١	- إن الله أبدله بيديه
٢٣٠	- إن الله عز وجل أمرني
٤٠١	- إن الله ليؤيد
٢٦٦	- إن صاحبكم لتغسله الملائكة
٣٩٩	- إنك ستجده يصيد البقر
٢٩١	- إن الملائكة تمنعه
١٤٢	- إن من البيان لحكمة
١٣٦	- إن من البيان لسحراً
٣٥٧	- إن هذا العظم ليخبرني
٣٦٥	- إن هذه السحابة لتستهل
٢٧٠	- إنه قد شهد بدرًا
٤٠٤ ، ٣٩٩	- إنهم قاتلوك
٢٨٨	- إني أخشى عليهم
٢٣١	- اهتز عرش الرحمن
١٤٧	- اهجوا قريشاً فإنه

- اهجهم ١٤٧
- أين حسان بن ثابت ١٣٨

حرف الباء

- بل الدم الدم ١٢١
- بل أنا أقتلك ٢٤٨
- بل نترفق به ونحسن ٣٣٣
- بلى أفقلت لكم من عامي هذا ٣٥١

حرف التاء

- تفاءلوا بالخير تجدوه ٩٨

حرف الجيم

- جاءني جبريل وأخبرني ٢٥١
- جزاؤك على الله الجنة ١٣٨
- الجنة ١٢٢

حرف الخاء

- خلّوا سبيلها ١٨٣

حرف الدال

- دعوه ٢٤٩
- دعه يا حسان ٣٢٨

حرف الذال

- ذلك الله ٤٠١

حرف السين

- سلمان منا ٣٢٠
- سيروا وأبشروا فإن ٢٠٦

حرف الشين

- شاهت الوجوه ٢٠٨
- شدوا ٢٠٨

حرف الفاء

- الفاسق ٢٦٦

- فإن وفيتهم ١٦٣
- فأين البعيران اللذان ٣٤٤
- فذلك إلى سعد ٣١٠
- فما جعل لك صفوان ٣٩٣
- فهو كما قال لي جبريلُ ٣٥١

حرف القاف

- قد أذنتُ لخطيبكم ٤٠١
- قل : نعم هو بيننا وبينكم ٢٩٥
- قم فأجب الرجل ٤٠١
- قم يا حسن فأجب الرجل ٤٠٢

حرف الكاف

- كأنكم بأبي سفيان ٣٦٥
- كذب النسّابون ٤٠٧
- كيف تهجوهم وأنا منهم ١٤٨
- كيف يفلح قوم ٢٦٠

حرف اللام

- لا أجدُ ما أحملكم عليه ٣٩٨
- لا تؤذوا الأحياء بسبِّ ٣٢١
- لا تبكي يا بنية ١٦٥
- لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا ٣٩٩
- لا تعجل فإن لي ١٤٧
- لا يجتمعنَّ بجزيرة العرب دينان ٣٥٦
- لا يترك بجزيرة العرب دينان/ لا يجتمع بجزيرة العرب ٣٢٥
- لا يفضُّضُ الله فاك ١٤٢
- لذلك غسلته الملائكة ٢٦٦
- لعلَّ الله ١٠
- لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق ٣٢٣
- لقد حكمت فيهم بحكم الله ٣١١

- لقد قتلت قتيلين ٢٩٤
- لم قدمت؟ ٣٩٣
- لم نؤمر بذلك ولكن ١٢٢
- لمن هو؟ ١٩٧
- لن أصاب بمثلك ٢٥١
- لن تغزوكم قريش بعد عامكم ٣٢٢ ، ٣١٤
- لهذا أشدّ عليهم من ١٤٩ ، ١٣٨
- لو سمعتُ هذا قبل ١٣٧
- لو كان المطعمُ بن عدي حياً ١٩٢
- لولا أن تحزن ٢٥١
- ليس شعراً حسان ١٣٨
- ليس عنده ذلك ١٤٨
- ليس هناك ١٤٨
- ليسوا بالفرار ولكنهم ٣٦٣

حرف الميم

- ما أكره أن تنتصروا ١٤٧
- ما التفتُ يميناً أو شمالاً ٢٧٠
- ما أنتم بأسمع لما أقول ٢٠٨
- ما خلأت القصواء ٣٣٩
- ما حملك على ذلك ٣٥٧
- ماذا قلتم ٣٧٠
- مالك والسلاح ٣٩٣
- ما نالت مني قريش ١٦٥
- ما يمنعُ القوم الذين نصروا ١٤٨
- معاذ الله ، الحيا ٣٧٠
- من أنتم ١٦٦
- من كان سامعاً مطيعاً ٣١٠
- من يحمي أعراض المسلمين ٣١٤

حرف النون

- ٣٦٥ - نُصِرْتُ يا عمرو بن سالم
- ٦٣ - نعم الرجل ثابت
- ٣١٤ - نعم أهجهم أنت
- ٢٨٩ - نعم والله أعلم

حرف الهاء

- ١٤٨ - هجاهم فشفي واشتفى
- ٢٦٥ - هل جزيت سلمه؟
- ٢٩١ - هل رأيت عبدالرحمن

حرف الواو

- ٣٣٦ - وأتبع السيئة الحسنة
- ١٣٨ - وقاك الله يا حسان
- ١٣٧ - وهو شر غالب
- ١٣٧ - ويأتيك بالأخبار

حرف الياء

- ٢٠٨ - يا أهل القلب
- ٢٤٥ - يا حسان إنه قد حدث
- ٣١٤ - يا حسان فأت أبا بكر
- ٣١٤ - يا حسان فكيف وهو مني
- ١٣٩ - يا حسان نفست علي
- ٣٧٠ - يا معشر قريش ما ترون

فهرست الأعلام

(ذوي التراجم: رجال - أمكنة - أنهار...)

حرف الألف والهمزة الأولية

٢٤	- الأراميون
٣٥٨	- آمنة بنت وهب
١٧٢	- ابن الأصداء الهذلي
٣٨٧ ، ٣٢١	- ابن أم مجالد (عكرمة)
٢٤٢	- ابن حذام
١٢٩	- ابن التيهان
١٠٠	- ابن الزبير (عبدالله)
٦٣	- ابن سلام الجمحي
٨٣ ، ٥٨	- ابن سلمى
٢٦٦	- ابن شعوب (أبو بكر: شداد)
١٩٧	- ابن عفراء (معاذ)
٢٣٤	- ابن قصي (أسد بن عبد العزى بن قصي)
٢٤١	- ابن قيس (معاوية)
٣٢٢	- ابن كعب
٢٨٤	- أبناء طلحة بن أبي طلحة
٢٤٧	- أبو أزيهر
٢٨٧	- أبو إهاب بن عزيز بن قيس
١٩٧	- أبو أيوب الأنصاري
٣٤٨	- الأبواء
١٩٩	- أبو البخترى بن هشام
٢٩١	- أبو براء عامر بن مالك (ملاعب الأسنة)
١٥١	- أبو بكر الصديق رضي الله عنه (عبدالله)
٢٦٦	- أبو بكر بن شعوب (شداد)
١٩٨	- أبو جهل بن هشام
٣٩٧	- أبو رغال
١٥١	- أبو سفیان بن الحارث

- أبو سفيان بن حرب ٣٩٦ ، ٢٣٠
- أبو سلمة (عبد الله بن عبد الأسد المخزومي) ١٣٠
- أبو شيخ ٥٤
- أبو صيفي بن هشام ٢٠٣
- أبو طالب (عبد مناف بن عبد المطلب) ١٧٢
- أبو العاص بن قيس بن عدي ٢٤١
- أبو العاصي ٢٤١
- أبو عامر الفاسق (الراهب) ٢٦٦ ، ٢٠١
- أبو عبيدة عامر بن الجراح ٣٨٩
- أبو عبيدة معمر بن المثنى ١١٤
- أبو عفك ٣٩٧
- أبو قابوس النعمان بن المنذر ٤٨
- أبو قيس (جبل) ٣٨٩
- أبو قيس بن الأسلت (صيفي) ١١٥
- أبو قيس (صرمة) ٤٥١
- أبو لهب (عبد العزى) ١٧١
- أبو مخزوم (الحارث بن هشام) ٢٣٧ ، ١٩٨
- أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي ٢٠٢
- أبو هالة بن زرارة التميمي ١٧٢
- أبو الهيثم مالك بن التيهان ١٢٩
- أبو وقاص : مالك بن وهب ٢٧٠
- أبي بن ثابت (أبو شيخ) ٥٤
- أبي بن خلف الجمحي ٢٤٨
- أبي بن كعب ٥٨
- الأثيل ١٤٠
- أجياد ٢٠٠
- أحد ٢٤٧
- الأحزاب (غزوة) ٣٠١
- الأحلاف ١٧٠
- الأخزر بن لعط الديلي ٣٨٥

- أذاخر ٣٨٩ ، ١٧٦
- أذرح ٤٠٤ ، ٣٨٢
- أريد بن قيس ٤١٤
- إرم (عاد وإرم) ١٢٧
- ارطاة بن شرحبيل ٢٩١
- الأزد ٤٧
- أسامة بن زيد ٣٤٦
- أسد (بنو) عامة ٣١٩
- أسد بن خزيمة بن مدركة ٣١٩ ، ٢٨١
- أسد بن ربيعة ٣١٩
- أسد (بنو) بن عبدالعزيز ٣١٩ ، ٢٧١ ، ٢٣٤
- أسد بن وبرة ٣١٩
- أسعد بن زُرارة ١٢٦
- أسلم بن أفضى ٥٦
- أسماء بنت أبي بكر ١٩٤
- أسماء بنت عُميس ٢٦٥
- أسماء بنت مخربة بن جندل ٢٣٧
- الأسود بن المطلّب ١٧٠
- الأسود بن عبد يغوث ١٧٠
- أشجع بن ريث ٣١٩
- أشجع بن عمرو السلمي ١٦
- الآشوريون ٢٣
- الأعشى ١٠٠ ، ١٤
- الأعشى بن زرارّة ٢٣٥
- الأعوج ٢٣٧
- الأقرع بن حابس ٤٠٧
- الأكديون (البابليون والآشوريون) ٢٣
- أكيدر دومة (الملك) ٣١٨
- إلياس بن مضر ٣٣
- أمامة بنت حمزة ٢٦٥

- ٣٢٦ - أم أبي سفيان بن الحارث (سمية)
- ٣٢٦ - أم أبي لهب (لبنى)
- ٣٨٦ - أم أصرم (ابن) بديل بن عبدمناة
- ١٧٠ - أمّ أمّ حبيب
- ٣٥٨ - أم أيمن (بركة)
- ٣٨٦ - أم بني عبدمناف الخزاعية
- ٧٧ - أم الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمر (مارية)
- ٣٢٦ - أم الحارث بن عبدالمطلب (سمراء) (بنت جندب)
- ١٧٠ - أم حبيب (برة بنت عوف)
- ٢٩٨ - أم حبيبة بنت أبي سفيان
- ٣٤٢ - أم حصن بن حذيفة (اللقيطه)
- ٢٤٢ - امرؤ القيس
- ٢٧٠ - أم عمارة (نسبية)
- ١٩٩ - أم عمرو بن العاص (النابة)
- ١٩٤ - أم معبد (عاتكة)
- ١٧٢ - أم المؤمنين (خديجة بنت خويلد رضي الله عنها)
- ٢٦٨ - أم هانئ (هند) بنت أبي طالب
- ١٤٥ - أم المؤمنين (عائشة رضي الله عنها)
- ٢٤٢ - امرؤ القيس بن عمرو
- ٢٣٢ - أمية بن خلف الجمحي
- ٢٠١ - أمية بن خلف الخزاعي
- ٢٣٠ - أمية بن عبدشمس (أبوسفيان) (وجد أبي سفيان والد معاوية)
- ٢٨٥ - أنس بن عباس السلمي
- ١٩٨ - أنس بن مالك
- ١٤ - أنف الناقة جعفر بن قريع
- ٥٤ - أوس بن ثابت
- ٢٤٣ - أوس بن حجر
- ٢٤٣ - الأوسية (مدرسة شعرية)
- ٢٩ - إياس بن قبيصة الطائي
- ٤٠٥ - أَيْلَة

- أيمن بن عبيد (ابن أم أيمن) ٣٥٨
- البخثري (أبو) بن هشام ١٩٩

حرف الباء

- البابليون ٢٣
- بدر ٢٢٩
- بُدَيْل بن عبدمناة (ابن أم أصرم) ٣٨٦
- بديل بن ورقاء الخزاعي ٣٨٩
- البراء بن معرور ١٢٩
- بركة (أم أيمن) ٣٥٨
- برك الغماد ٢٣٠
- برة بنت عبدالعزى ١٧٠
- البريص ١١٥
- بسر بن سفيان ٣٨٦
- البسوس (حرب) ٣٥ ، ٣٠
- بشر بن البراء بن معرور ٣٥٧
- بشامة بن عمرو بن الغدير ٢٤٣
- بَطْحَان (واد) ٢٣٣
- بُعَاث (يوم) ٦١
- البقيع (يوم) ٦٢
- بقيع الخبجة ٦٢
- بقيع الخيل ٦٢
- بقيع الزبير ٦٢
- بقيع الغرقد ٦٢
- بكر (قبيلة) ٢٩
- بكر (أبو) الصديق ١٥١
- بكر بن عبدمناة (بنو) ٣٤٨
- البلقاء ٣٨٣ ، ١١٦
- بلي بن عمرو ٣٨٣
- بنات الأعوج ٢٣٧
- بنت عقاب ٢٣٧

- بنت مخزوم (فاطمة بنت عمرو - أم أبي طالب) ٣٢٦
- بنو أسد (عامّة) ٣١٩
- بنو أسد بن خزيمة بن مدركة ٣١٩
- بنو أسد بن ربيعة ٣١٩
- بنو أسد بن عبد العزى ٣١٩
- بنو أسد بن وبرة ٣١٩
- بنو بكر بن عبد مناة ٣٤٨
- بنو تميم ٤٠٧
- بنو جحججى ٢٨٤
- بنو جذيمة ٣٩٢
- بنو الحارث بن الخزرج ١٩٧
- بنو الحسحاس ٣٩٠
- بنو حنيفة ١٧٣
- بنو خزاعة ٣٤٨
- بنو دارم ٤٠٨
- بنو ساعدة ١٩٧
- بنو سالم بن عوف ١٩٧
- بنو سليم ٢٣٩ ، ١٧٥
- بنو شجع ٢٣٧
- بنو عامر بن صعصعة ١٧٤
- بنو عبدالدار ٢٦٣
- بنو عبد مناة (أمهم من خزاعة) ٣٨٦
- بنو عثمان بن عمرو بن أد ٣٢٧
- بنو عدي بن النجار ١٩٧
- بنو عمرو بن عوف ٢٨٧
- بنو غفار ٣٤١
- بنو قريظة (يهود) ٣٢٠
- بنو قبلة ١٩٦ ، ١٨٣
- بنو القين ٣٨٣
- بنو قينقاع (يهود) ٣٥٥

- بنو كعب بن عمرو (خزاعة) ٣٨٥
- بنو لحيان ٢٠٢
- بنو لؤي ٣٩٢
- بنو مالك بن النجار ١٩٧
- بنو المصطلق ٣٤٣
- بنو النجار ٢٨٥
- بنو النضير (يهود) ٢٩٨
- بنو نعيم ١٤
- بنو نوفل بن عبدمناف ٢٧١
- بهراء بن عمرو ٣٨٣
- بيت رأس ٣٩١
- بيرحاء ١٤٣ ، ٩٨
- بئر معونة ٢٩١
- بيعة الرضوان ٣٣٨
- بيعة العقبة الأولى والثانية ١٦١

حرف التاء

- تبوك ٤٠٥
- التاريخ الهجري ١١٩
- تدمر ٢٧
- تميم (بنو) ٤٠٧
- تميم بن أبي مقبل ١٠٤
- التنعيم ٢٨٤
- تيماء ٣٥٧
- تيم الله ٤٦
- تيودور نولدكه ٤٩
- التيهان (ابن) ١٢٩

حرف الثاء

- ثابت بن قيس بن شماس ٣٤٣ ، ٦١
- ثابت بن المنذر ٥١
- ثقيف ١٧٣

- ثنية المزار ٣٤٧
- ثنية الوداع ٤٠٤

حرف الجيم

- جابر بن عبدالله ١٢٧
- جابية الجولان ٥٧
- جبار بن سلمى ٤١٤
- جبل أبي قبيس ٣٨٩
- جبل بن جوال الثعلبي ٣٢٤
- جيلة بن الأيهم ٧٥ ، ٢٨
- جيلة بن حنبل (كلدة) ٣٩٦
- جبير بن مطعم ٢٦٤ ، ١٧٦
- الجُحفة ٢٨٢
- جُدَّة ٣٩٣
- جُدَام بن عدي ٢٠٤
- جَذِيمة (بنو) ٣٩٢
- جذيمة الأبرش ٢٨
- جرباء ٤٠٥
- جرير ١٤
- الجسر (يوم) ٦٢
- جعفر بن أبي طالب (جعفر الطيار، أو ذو الجناحين) ٣٨٢
- جعفر الطيار ٣٨٢
- جفنة ٨٠ ، ٤٨
- جفنة بن عمرو مزيقياء ٢٧
- الجلاس بن سويد بن الصامت ٣٩٤
- الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ٢٨٥
- جَلَّق ١١٧ ، ١١٦ ، ٤٨
- جُمَح بن عمرو ٢٣٤
- جميلة بنت أبي بن سلول (زوج حنظلة) ٢٦٦
- جناب بن عبدالله الكلبي ١٩٨
- جهجاه بن قيس أو ابن مسعود ٣٤٤

- جهل (أبو) ١٩٨
- الجواء (وذات الأصابع) ٣٩٠ ، ١٤١
- جويرية بنت الحارث ٣٤٣
- جيش السويق ٢٩٩
- جيش العسرة ٣٩٩

حرف الحاء

- الحارث (أم) (مارية) ٨٠ ، ٧٧
- الحارث بن أبي شمر الغساني ٧٥
- الحارث بن أبي ضرار (أبوجويرية) ٣٩٢ ، ٣٤٣
- الحارث بن حرب بن أمية ١٧٦
- الحارث (بنو) بن الخزرج ١٩٧
- الحارث بن سويد بن الصامت الأنصاري ٣٩٤
- الحارث بن الصمة الخزرجي ٢٩١
- الحارث بن الطلائع ١٧١
- الحارث بن عامر بن نوفل ٢٣٨
- الحارث بن عمرو ٢٩
- الحارث بن عمير الأزدي ٣٨٢
- الحارث بن عوف المري ٣٢٨
- حارثة الغطريف ٤٨
- الحارث بن كعب ١٧٦
- الحارث بن هشام ١٩٨
- الحارثية (عمرة) ٢٦٣
- حافظ إبراهيم ١٦
- حاطب بن أبي بلتعة ٢٧٠
- الحباب بن المنذر ٢٣١
- حجر (أكل المواريث) ٣٠
- الحجر ٤٠٥
- الحجران ٢٨٦
- الحديبية ٣٤٧
- الحديقة (يوم) ٦١

٢٤٢	- حذام (ابن)
٢٣٢	- حراء
٥١	- حرام بن عمرو
٢٩١	- حرام بن ملحان الخزرجي
٣٩٠	- الحسحاس (بنو)
٢٠٤	- حسمى
٣٤٢	- حصن بن حذيفة (والد عيينة وابن اللقيطة)
١٧٦	- الحضارمة
١٤٣	- الحطيئة
١٧١	- الحكم بن أبي العاص بن أمية
٢٣٢	- حكيم بن حزام
٢٨٠	- حمراء الأسد
٢٦٤	- حمزة بن عبدالمطلب
٣٧	- الحنفاء
٣٤٥	- حمّنة بنت جحش
٢٦٦	- حنظلة بن أبي عامر الغسيل
١٧٣	- حنيفة (بنو)
٣٩٥	- حنين
٢٤٣	- الحوليات
٢٣٧	- حويرث بن عباد
٤٨ ، ٢٩	- الحيرة
٢٩٨	- حبي بن أخطب

حرف الخاء

٢٨٢	- خالد بن البكير الليثي
١٩٧	- خالد بن زيد (أبو أيوب)
٢٨١	- خالد بن سفيان الهذلي
٣٩٥ ، ٣٨٩	- خالد بن الوليد المخزومي
٢٨٣	- خبيب بن إساف
٢٩٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣	- خبيب بن عدي
١٧٢	- خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين)

- ٣٤٨ خزاعة (بنو) -
- ٣٢٧ خزاعي بن عبد نهم -
- ٤٦ الخزرج -
- ٤٠ خندف (ليلى بنت حلوان) -
- ٣٠١ الخندق -
- ٦٢ الخنساء (الشاعرة) -
- ٣٢٤ خبير -

حرف الدال

- ٤٠٨ دارم -
- ٤١٥ الداروم -
- ٢٤٨ دوس -
- ٣١٨ دومة الجندل -
- ٢٠٣ ديسم بن صقعب -
- ٢٨٢ ، ٢٦٤ الديش (عضل والديش) -

حرف الذال

- ٣٩٠ ، ١٤١ ذات الأصابع (والجواء) -
- ١٣٢ ذكوان بن عبد قيس الخزرجي -
- ٣٨٢ ذو الجناحين جعفر -
- ٣٨٩ ذو طوى -
- ٣٢٩ ذو قرد (غزوة) -
- ٣٤١ ، ٣٠٠ ذو قرد (موضع) -
- ٢٢٩ ذو العشيرة -
- ٢٤٨ ، ٢٤٧ ذو المجاز -
- ٢٩ ذي قار (معركة) -

حرف الراء

- ١٥ الراعي النميري -
- ٣٨٩ رافع مولى بديل بن ورقاء -
- ١٢٦ رافع بن مالك بن العجلان -
- ٢٣٣ رافع بن المعلّى -
- ١٩٧ رانوناء -

٦٢	- الربيع (يوم)
٢٧٢	- ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب
٢٨٢	- الرجيع (ماء)
٢٧٣	- الرجيع (يوم)
٣٥٦	- الرجيع (واد)
٢٣٩	- الرضوان (بيعة)
٣٩٧	- رغال (أبو)
٢٨٠	- الروحاء

حرف الزاي

٢٩	- الزباء
٤٠٧	- الزبرقان بن بدر
١٠٠	- الزبيرى (ابن) (عبدالله)
١٤٦	- الزبير بن العوام
٢٤١	- زمعة بن الأسود
٣٢٦	- زهرة
٢٤٢	- زهير بن أبي سُلمى
٧٩	- زيد بن ثابت بن الضحاك
٣٨٢ ، ٣٠٠	- زيد بن حارثة
٢٨٣	- زيد بن الدثنة
٢٤٧	- زينب بنت أبي أزيهر
٣٥٧	- زينب بنت الحارث اليهودية

حرف السين

١٩٧	- ساعدة (بنو)
٣٩٧	- سالم بن عمير
١٩٧	- سالم بن عوف
٢٣	- الساميون
٢٣	- سام بن نوح
٣٢٨	- السخبر
٢٦٧	- السخينة
٤٧	- سد مأرب

٢٨١	- سطيف
٢٦٩	- سعد بن أبي وقاص
٢٣٣	- سعد بن خيثمة
٣٤١	- سعد بن زيد
٣٩٧	- سعد بن زيد مناة (الفزَر)
١٣٠	- سعد بن عبادة
٢٣١	- سعد بن معاذ
٢٣٦	- سعد بن النعمان
٩٩	- سعيد بن جبير
٥٥	- سعيد بن عبد الرحمن بن حسان
٢٢٩	- سفوان
١٥١	- سفيان (أبو) بن الحارث
٣٩٦ ، ٢٣٠	- سفيان (أبو) بن حرب
٢٨٥ ، ٢٠١	- سُلَافَة بنت سعد بن شهيد الأنصارية
٦٣	- سَلَام (ابن) الجمحي
٢٩٨	- سَلَام بن أبي الحقيق
٣٩١ ، ٣٥٧	- سَلَام بن مَشْكَم
٣٢٠	- سَلْع
٣٢٠	- سلمان الفارسي
١٣٠	- سَلَمَة (أبو) عبد الله
٢٦٥	- سلمة بن أم سلمة
٣٤١	- سلمة بن عمرو بن الأكوع
٥٨	- سَلْمَى (ابن)
٨٣ ، ٥٨	- سلمى بنت عطية
٢٦٥	- سَلْمَى بنت عميس
٢٣٩ ، ١٧٥	- سَلِيم (بنو) (عدة قبائل)
٣٢٦	- سمراء (أم الحارث بن عبد المطلب) بنت جندب
٣٥٧	- السموءل بن عاديا
٥٨	- سَمِيحَة (يوم)
٣٢٦	- سَمِيَة (أم أبي سفيان بن الحارث)

- سنان بن وبر الجهني ٣٤٤
- سَهْلٌ وسُهَيْلٌ ابنا عمرو ١٩٧
- سهيل بن عمرو ٣٤٨
- سويلم اليهودي ٤٠٤
- سيرين ١٤١ ، ٩٨ ، ٥٢

حرف الشين

- شَأْس ٢٧
- شبلي ملاط ١٦
- شَجَع (بنو) ٢٣٧
- شداد بن الأسود اللثي (ابن شعوب : أبوبكر) ٢٦٦
- شداد بن أوس ٥٤ ، ٥١
- شرحبيل بن عمرو الغساني ٣٨٢
- شعشاء ٣٩١ ، ١١٦ ، ٥٧
- شعوب ٣٨٤
- شعوب (ابن) (شداد) ٢٦٦
- شيبة بن ربيعة ٢٣٢
- شيخ (أبو) أبي بن ثابت ٥٤

حرف الصاد

- صخر بن حرب (أبوسفیان) ٢٣٠
- صخر عمرو بن الشريد (أخو الخنساء) ١٠١
- الصدى (الأصداء) ٢٤٨
- الصديق (أبوبكر) ١٥١
- صرمة بن أبي أنس ٤١٥
- الصفا (والمروة) ٣٨٩
- الصفراء (قرية) ٢٢٩
- صفوان بن أمية ٣٩٦ ، ٣٩٣ ، ٢٨٤
- صفوان بن المعطل السلمي ٩٨
- صفية بنت عبدالمطلب ٢٦٤ ، ٩٧
- صقعب ٢٠٣
- صلح الحديبية ٣٣٨

- صؤاب (صواب) ٢٦٣ ، ٢٥١
- صيفي بن أبي رفاعه بن عابد ٢٣٨
- صيفي - أبوقيس بن الأسلت ١١٥
- صيفي (أبو) بن هشام ٢٠٣

حرف الضاد

- الضحاك بن خليفة الأشهلي ٤٠٤
- ضرار بن الخطاب ١٠٠

حرف الطاء

- طالب (أبو) ١٧٢
- الطائف ١٧٢ ، ٣٠
- طعيمة بن عدي (أبو الريان - أخو مطعم) ٢٨٥
- طلحة بن أبي طلحة ٢٠١
- طلحة بن عبيد الله ٢٧١
- طليحة بن خويلد الأسدي (طليحة الكذاب) ٢٨١

حرف الظاء

- الظهران (مر) ٢٩٩
- الظهران (واو) ٢٩٩

حرف العين

- عابد بن عبدالله المخزومي ٢٣٨
- عاتكة بنت أبي أزيهر ٢٤٧
- عاتكة بنت خالد (أم معبد) ١٩٤
- عاد (وإرم) ١٢٧
- العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ٢٣٩
- العاص (أبو العاصي) بن هشام بن الحارث (أبو البحتري) ١٩٩
- العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي ٢٣٩
- العاص (أبو) بن قيس بن عدي ٢٤١
- العاص بن وائل السهمي ١٧٠
- عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ٢٨٣
- العاصي (أبو) ٢٤١
- عالج ٣٠٠

- عامر بن جشم (وحوح) ٢٠٠
- عامر (أبو) الراهب ٢٦٦ ، ٢٠١
- عامر (أبو) الفاسق ٢٦٦ ، ٢٠١
- عامر بن ربيعة ١٣٠
- عامر بن صعصعة (بنو) ١٧٤
- عامر بن الطُّفيل ٢٩٢
- عامر بن عبدالله بن الجراح (أبو عبيدة) ٣٨٩
- عامر بن فهيرة ١٩٤
- عامر بن مالك (أبو براء) (ملاعب الأستة) ٢٩١
- عائشة أم المؤمنين ١٤٢
- عبادة بن الصامت ١٢٨
- العباس بن عبادة بن نضلة ١٢٩
- العباس بن عبدالمطلب ١٢٨
- عباس بن مرداس السلمي ٣٩٦
- عبدالرحمن بن حسان ٥٤
- عبدالرحمن بن عوف ٣٩٥ ، ٣١٨ ، ٢٩١
- عبد شمس بن عبدمناف ٢٧١
- عبدالعزيز بن عبدالمطلب (أبولهب) ١٧١
- عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة ٣٨٨
- عبدالله بن أبي بن سلول ٢٦٦ ، ١٤٢
- عبدالله بن أبي قحافة (أبو بكر) ١٥١
- عبدالله بن أرقط ١٩٥
- عبدالله بن أنيس الجهني الأنصاري ٢٨١
- عبدالله بن بديل بن ورقاء ٣٨٩
- عبدالله بن جحش ١٣٠
- عبدالله بن رواحة ١١٥
- عبدالله بن الزبعرى ١٠٠
- عبدالله بن شهاب الزُّهري (الأكبر والأصغر وإخوان) ٢٦٩
- عبدالله بن طارق البلوي ٢٨٣
- عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ٩٩

١٣٠	- عبدالله بن عبدالأسد المخزومي (أبوسلمة)
٨٢	- عبدالله بن مسعدة بن مسعود الفزاري
٢٧٠	- عبدالله بن قمئة
٤٧	- عبدالمطلب بن هاشم
١٧٢	- عبدمناف بن عبدالمطلب (أبو طالب)
١٧٥	- عبس (اثنان)
٢٧٢	- عبود
٢٩	- عبيد بن الأبرص
٢٤٣	- عبيد الشعر
٣٨٩	- عبيدة (أبو) بن الجراح
١١٤	- عبيدة (أبو) معمر بن المثنى
٢٦٩	- عُبَّة بن أبي وقاص
٢٣٢	- عُبَّة بن ربيعة
٤٠٦	- عثمان بن أبي العاص الثقفي
١٣١	- عثمان بن عفان رضي الله عنه
٣٢٧	- عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة (بنو)
١٠٢	- العَجَلان
٣٢٧	- عداء (بطن خزاعي أو عشيرته)
١٧١	- عدي بن حمراء الثقفي
٣٤٨	- عدي بن كعب بن لؤي
١٩٧	- عدي (بنو) بن النجار
٣٩٠ ، ١٤١	- عذراء
١٧٥	- عُدْرَة (بنو) (اثنان)
٣٢ ، ٢٤	- العرب الجنوبيون
٣٣ ، ٢٦	- العرب الشماليون
٣٩	- العرب عامة
٢٩٢	- عُرْوَة بن أسماء بن الصلت السلمي
٤٠٥	- عروة بن مسعود الثقفي
٣١٩	- العزَّى (صنم)
٨٠	- عَزَّة الميلاء

٣٩٨	- العسرة (جيش)
٢٨٢	- عُسْفَان
٨٢	- عصام بن شَهْرٍ
٣٩٧	- عصماء بنت مروان
٢٦٤	- عضل (والديش)
٢٨٢	- عضل بن الهون
٤٠٦	- عطارد بن حاجب بن زرارة
٧٤ ، ٥٨	- عطية الصائغ (أبوسلمى)
١٩٨ ، ١٩٧	- عفراء (ابن) (معاذ)
٣٩٧	- عفك (أبو) المنافق
٢٣٧	- عقاب (عبد)
٣٨٤	- العُقَاب (راية النبي صلى الله عليه وسلم)
١٢٦	- العقبة
١٧١	- عقبة بن أبي مُعَيْط
٢٨٤	- عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل
١٢٦	- عقبة بن عامر السلمي الخزرجي
١٢٦	- عقبة بن عامر الجهني
٣٤٢	- عكاشة بن محصن
٢٠١	- عكاظ (سوق)
٣٢١	- عكرمة بن أبي جهل
٧٧ ، ٢٨	- علقمة الفحل
١٥٢	- علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
٢٠٢	- العلا
٢٧٠	- عمارة (أم) (نسية)
٨١	- عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٤٦	- عمران بن عامر
٣٩٠	- عمرة الحديبية
٦١	- عمرة بنت رواحة (أو صامت)
٢٦٣	- عمرة بنت علقمة الحارثية
٢٩٨	- عمرو بن أمية الكناني

١٥٣	- عمرو بن برّاقة
٧٨	- عمرو بن الحارث الأصغر
٣٨٦	- عمرو بن سالم الخزاعي
١٠١	- عمرو بن الشريد (والد صخر والخنساء)
٢٦٦ ، ٢٠١	- عمرو بن صيفي (أبو عامر الراهب)
١٥٢	- عمرو بن العاص
١٩٩	- عمرو (أم) بن العاص
٤٨ ، ٤٦	- عمرو بن عامر (مزنياء)
٣٢١	- عمرو بن عبد ودّ
٢٨	- عمرو بن عديّ اللخمي
٢٠٢	- عمرو بن عمير الثقفي (أبومسعود)
١٩٦	- عمرو (بنو) بن عوف
١٣	- عمرو بن معد يكرب الزبيدي
٣٠	- عمرو المقصور
١٩٨	- عمرو بن هشام (أبو جهل)
٣٩٨	- عمير بن عدي الخطمي
٣٩٣	- عمير بن وهب الجمحي
٢٤٣	- عنتر بن شداد
١٢٦	- عوف بن الحارث
٣٩٥	- عوف بن عبدعوف
٣١٩	- عيينة بن حصن

حرف الغين

٣٤١	- الغابة (موضع)
٣٢٩	- الغابة (غزوة)
١	- الغرق (بقيع)
٣٠١	- غزوة الأحزاب
٣٢٩	- غزوة ذي قرد
٣٢٩	- غزوة الغابة
٢٧	- الغساسنة
١٧٤	- غسان (ماء)

- ٢٦٦ غسيل الملائكة (حنظلة)
- ٣١٨ غطفان
- ٣٤١ غفار (بنو)

حرف الفاء

- ٢٨٤ فاطمة بنت أسد (أم أبي طالب)
- ٣٨٦ فاطمة بنت سعد الخزاعة
- ٣٢٦ فاطمة بنت عمر المخزومية (أم أبي طالب)
- ٣٩٥ الفاكه بن المغيرة
- ٣٥٦ فدك
- ٣٠٠ فرات بن حيان
- ٢٣٧ الفرافصة بن الأحوص الكلبي
- ٤٧ ، ٤٤ الفريعة
- ١٧٤ فزارة
- ٣٩٧ الفزّر (سعد بن زيد)
- ٤٠٨ فُهر

حرف القاف

- ٢٨٢ القارة
- ١٩٦ قُبا
- ١٩٦ قُباء (مسجد)
- ٢٩ قباذ (ملك فارسي)
- ١٤١ قُتيلة بنت الحارث
- ٣٤٤ قديد
- ٣٠٠ القَرْدَة (ماء بنجد)
- ٣٥٧ القرى (واد)
- ١٦٩ ، ٤٠ ، ٣٠ قریش
- ٣٢٠ قريظة (بنو)
- ٢٩ قصي بن كلاب
- ١٢٦ قطبة بن عامر
- ٢٤١ قيس (ابن قيس)
- ١١٦ قيس (أبو) بن الأسلت

- قيس بن امرئ القيس العجلي ٣٠٠
- قيس بن الخطيم ٦١
- قيس بن زهير المرادي ١٣
- قيس (أبو) صرمة بن أبي أنس ٤١٥
- قَيْلَة ١٩٦
- القين (بنو) ٣٨٣
- قينقاع (بنو) ٣٥٥

حرف الكاف

- كَدَاء ٣٩١ ، ٣٨٦ ، ١٠٣
- كُدَى وكدى ٣٨٦
- الكُدْر ٢٣٩
- كسرى أنوشروان ٢٩
- كعب بن أسد القرظي ٣٢٠ ، ٢٩٨
- كعب بن الأشرف ٢٣٥
- كعب بن زهير بن أبي سلمى ١٣٩
- كعب بن زيد الأنصاري ٣٢٢ ، ٢٩٨
- كعب بن عمرو (بنو) خزاعة ٣٨٥
- كعب بن مالك ١١٤
- كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ٢٨٥
- كلب ١٧٣
- كلثوم بن هدم ١٩٦
- كلدة بن الحنبل (جبلة) ٣٩٦
- كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ٢٩٨
- كندة (إمارة) ٢٩
- كندة بن عفير ١٧٣
- الكنعانيون ٢٤

حرف اللام

- اللات ٤٠٦
- لبنى بنت هاجر الخزاعية (أم أبي لهب) ٣٢٦
- لييد (الشاعر) ٢٩٣

- لحيان ٢٠٢
- لخم ٣٨٣ ، ٢٨
- اللقيطة (أم حصن بن حذيفة) ٢٤٢
- لهب (أبولهب) ١٧١
- لؤي (بنو) ٣٩٢
- الليط ٣٨٩
- ليلي بنت الحضيض ١١٥ ، ٦٤ ، ٦٢

حرف الميم

- محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب صلى الله عليه وسلم ٤٦
- ماء السماء (لقب أم المنذر بن امرئ القيس اللخمي) ٤٨
- ماء السماء (لقب عامر أبي عمرو) ٤٨
- مأرب (سد) ٤٧
- مارد (حصن) ٣١٨
- مارية أم الحارث ٨٢ ، ٧٩
- مارية القبطية ١٤١ ، ٥٨ ، ٥٣
- مالك بن التيهان (أبو الهيثم) ١٢٩
- مالك (بنو) بن النجار ١٩٧
- مالك بن وهيب (أبو وقاص) ٢٧١
- المجاز (ذو) ٢٤٨ ، ٢٤٧
- المجذر بن زياد البلوي ٣٩٤
- محرّق (لقب امرئ القيس بن عمرو اللخمي) ٤٩
- محرّق (لقب الحارث الأكبر) ٤٩
- محرّق (لقب عمرو بن هند) ٤٩ ، ٢٩
- المخلّق (عبد العزى) ١٣
- محمد بن سلام الجمحي ٦٣
- محمد بن مسلمة الأنصاري ٤٠٣
- محمد ناصر الدين الألباني ٤٩
- مخربة بن جندل ٢٣٧
- مخزومة بن المطلب ٢٠٣
- مدلج بن مرة ٣٩٥

٣٤٧	- المُرَار (ثنية)
٢٨٢	- مَرَّئِد بن أبي مرثد
٢٩٩	- مَرَّ الظهران
١٧٤	- مرة (عدة قبائل)
٣٨٩	- المروة (الصفاء والمروة)
٣٤٤	- المُرْسِيع
٤٨ ، ٤٦	- مَزَيْقِيَاء (عمرو بن عامر)
٣٢٧	- مَزِينَة
٢٨٤	- مسافع بن طلحة بن أبي طلحة
٢٧١	- مسافع بن عياض التيمي
٣٤٥	- مسطح بن أثاثه
٢٠٢	- مسعود (أبو) (عمرو بن عمير الثقفي)
٣٨٤	- مشارف
٢٨٦	- المسعى
٣٨٩	- المشعر الحرام
٣٤٣	- المصطلق (بنو)
٢٧٠ ، ١٣١	- مصعب بن عمير
٤٩ ، ٢٩	- مُضَرَّط الحجارة (عمرو بن هند)
٢٨٥ ، ٢٠٤	- المطعم بن عدي
٢٧١	- مطلب بن عبد مناف
١٧٠	- المطيبون
١٩٨	- معاذ بن الحارث بن رفاعه (ابن عفراء)
٣٨٣	- معان
٨١	- معاوية بن أبي سفيان
٢٦٨ ، ٢٤١	- معاوية بن زهير بن قيس (ابن قيس)
٢٨٠	- معبد بن أبي معبد الخزاعي
١٩٤	- معبد (أم)
٤٠٨	- معد بن عدنان
١١٦	- معمر بن المثنى (أبو عبيدة)
١٧٦	- المعنق ليموت (المنذر بن عمرو)

١٩٨	- معوذ بن عفراء
١٥٤	- المغيرة أبوسفیان بن الحارث
٤٠٦	- المغيرة بن شعبة الثقفي
٢٣٠	- المقداد بن الأسود (بن عمرو)
٣٥٦	- مقيس بن صابة
٣٠	- مكة المكرمة
٢٩١	- ملاعب الأسنة (مار)
٢٨	- المناذرة
٢٩	- المنذر الرابع
٥٩ ، ٥٢	- المنذر بن حرام
١٧٦	- المنذر بن عمرو الخزرجي (المعنى ليموت)
٢٩	- المنذر بن ماء السماء
٣٨٣ ، ٣٨٢	- مؤاب (مآب)
٣٨٢	- مؤتة

حرف النون

١٩٩	- النابغة (أم عمرو بن العاص) بنت حرملة
١٣٩	- النابغة الجعدي
٦٣ ، ٢٨	- النابغة الذبياني
٤٩	- ناصر الدين الألباني (محمد)
٢٩٢ ، ٢٨٥	- نافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي
٢٦	- النبط
٧٠	- نبيط بن جابر الخزرجي
٧٠	- نبيط بن شريط الأشجعي
٣٢٦	- نثيلة بنت جناب النمرية
١٠٢	- النجاشي (الشاعر)
٣٩٣	- نجران
٢٨٣	- نسطاس
٢٧٠	- نسيبة بنت كعب (أم عمارة)
١٤٠	- النَّضْرُ بن الحارث
١٧٥	- النَّضْرُ بن كنانة

- ٢٩٨ - النضير (بنو) (يهود)
- ٣٨٨ - النعق (يوم)
- ٥٨ - النعمان (عامّة)
- ٢٩ - النعمان الأعور
- ٥٩ - نعمان (بن مالك الأسير)
- ٤٨ ، ٢٩ - النعمان بن المنذر (أبوقابوس)
- ٣٢١ - نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي
- ٢٣٦ - النقيع
- ٢٣٣ - نُقَيْع بن المعلّى
- ٢٩ - النمارة (نقش)
- ١٤ - نمير (بنو)
- ٣٥٦ - نائلة بن عبدالله الليثي
- ٢٧٢ - نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب
- ٣٨٥ - نوفل بن معاوية بن عروة
- ٤٩ - نولدكه (تيودور)
- ٣٨٨ - نيق العقاب

حرف الهاء

- ٢٧١ - هاشم بن عبدمناف
- ١٧٢ - هالة (أبو) بن زرارة التميمي
- ٣٢٦ - هالة بنت وهيب الزهرية
- ٢٤٨ - الهامة
- ٢٦٨ - هبيرة بن أبي وهب المخزومي
- ٢٨٢ - الهدّة - الهدّة
- ٢٨٤ - هُدَيْل
- ٢٦٨ - هند بنت أبي طالب (أم هانئ)
- ٢٠٣ - هند بنت عمرو
- ١٩٩ - هند بنت عتبة
- ٤٠ ، ٣٣ - هوازن
- ١٣٢ - الهيثم (أبو) مالك بن التيهان

حرف الواو

- ٢٩٩ وادي الصفراء -
- ٢٩٩ وادي الظهران -
- ٣٥٧ وادي القرى -
- ٥٨ وافد بن عمرو بن الإطنابة -
- ٣٨٥ الوثير -
- ٢٦٤ وحشي -
- ٢٠٠ وَحَوْح (عامر بن جشم) -
- ٢٠٠ وحوح بن الأسلت -
- ٤٠٤ الوداع (ثنية) -
- ٣٥٩ وقعة مؤتة -
- ١٧٠ الوليد بن المغيرة -
- ٢٠٣ الوليد بن الوليد بن المغيرة -

حرف الياء

- ٤٨ ، ٣١ يثرب -
- ٢٩ يز دجرد الأول -
- ٢٤٨ ، ٢٤٧ يزيد بن أبي سفيان -
- ٣٩٧ يزيد بن زيد (زوج عصماء) -
- ٢٩٩ ينبع -
- ٦١ يوم بُعث -
- ٦١ يوم البقيع -
- ٦١ يوم بئر معونة -
- ٦١ يوم الجسر -
- ٦١ يوم الحديقة -
- ٢٧ يوم حليلة -
- ٢٧٣ يوم الرجيع -
- ٦٢ يوم الربيع -
- ٥٨ يوم سُميحة -
- ٣٨٨ يوم النعف -

أهم مراجع البحث

من المراجع القديمة:

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب للحافظ ابن عبد البر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣هـ - حيدر آباد - المطبعة النظامية.
- ٣ - أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري (كتاب الشعب) - مصر ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- ٤ - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ - القاهرة: مصر - مطبعة السعادة سنة ١٣٢٢ - ١٣٢٥هـ (١٩٠٤ - ١٩٠٦م).
- ٥ - الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (طبعة ١٣٢٢هـ)، ومصور عن طبعة دار الكتب - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة: ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م وطبعة ١٩٧٠.
- ٦ - تاريخ الأمم والملوك للطبري - القاهرة: مصر - المطبعة الحسينية (بلا تاريخ).
- ٧ - تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر - الطبعة الأولى - دمشق - المكتبة العربية ١٣٢٩هـ / ١٩٤٩م.
- ٨ - تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني - حيدر آباد: مطبعة المعارف النظامية ١٣٢٥هـ.
- ٩ - جامع الأصول في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) - تأليف ابن الأثير الجزري - تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط - نشر وتوزيع مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ومكتبة دار البيان - دمشق: ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
- ١٠ - ديوان الحماسة - مختارات أبي تمام الطائي - شرح التبريزي - المكتبة الأزهرية - مطبعة السعادة بمصر (القاهرة) - ط ٣ - سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م.
- ١١ - الروض الأنف للخنسلي - المطبعة الجمالية ١٣٢٢هـ / ١٩١٤م.
- ١٢ - زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية - مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (القاهرة) - الطبعة الثانية: ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.
- ١٣ - سير أعلام النبلاء للذهبي (مصور) المجمع العلمي العربي بدمشق.
- ١٤ - سيرة النبي صلى الله عليه وسلم - تأليف ابن إسحاق وتهذيب ابن هشام - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - نشر مكتبة محمد علي صباح وأولاده - القاهرة: ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
- ١٥ - شرح ديوان كعب بن زهير - صنعة الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبدالله السكري - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م - نشر دار القومية للطباعة والنشر:

القاهرة - ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

١٦ - الشعراء لابن قتيبة الدينوري - تصحيح مصطفى أفندي السقا - المكتبة التجارية بمصر (القاهرة): ط ٢ - ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م.

١٧ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي - مصورة الطبعة الأميرية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة: ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م (تراثا).

١٨ - طبقات ابن سعد (كتاب الطبقات الكبير لابن سعد محمد الزهري المتوفى سنة ٢٢٠هـ / ٨٤٥م). طبعة ليدن: ١٣٢٢هـ / ١٩٠٣م.

١٩ - طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين - طبعة حامد عجان الحديد الكتبي (بلا تاريخ)، وطبعة مكتبة الثقافة العربية (بلا تاريخ).

٢٠ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - تأليف أبي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت لبنان: ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٢١ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي بن حسام الدين الهندي المتوفى سنة ٩٧٥هـ - حيدر آباد - المطبعة النظامية - سنة ١٣١٢هـ.

٢٢ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧هـ - القاهرة - مكتبة القدسي - سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م.

٢٣ - معجم البلدان لياقوت الحموي - دار صادر ودار بيروت - بيروت لبنان: ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٢٤ - معجم الشعراء لأبي عبد الله المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م - القاهرة (مصر) مكتبة القدسي (بلا تاريخ).

ومن المراجع الحديثة:

١ - أمراء غسان - تيودور نولدكه - ترجمة جوزي وزريق - لبنان - بيروت: المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣م / ١٣٥٢هـ.

٢ - تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان - نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار - دار المعارف بمصر ١٩٥٩م (١٣٧٩هـ) وما تلاها..

٣ - تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري - بيروت - لبنان: المطبعة البولسية ط ٣: ١٩٥٣م (١٣٨٣هـ).

٤ - تاريخ الأدب العربي - ريجيس بلاشير - تعريب الدكتور إبراهيم الكيلاني - دار الفكر بدمشق -

١٩٥٦م.

٥ - تاريخ الأدب العربيّ - الدكتور شوقي ضيف - دار المعارف بمصر ١٩٦٠ - وما تلاها .

٦ - أسواق العرب في الجاهليّة والإسلام - سعيد الأفغانيّ - دار الفكر بدمشق ط ٢ : ١٣٧٩هـ /

١٩٦٠م.

٧ - حسّان بن ثابت للكنانيّ - محاضرة أقيمت في دار المعلّمين العليا في آذار ١٩٤٣م - دمشق - مكتبة

عرفة: ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م.

٨ - ديوان بشّار بن برد - تحقيق محمد الطّاهر ابن عاشور - القاهرة - مطبعة لجنة التّأليف

والترجمة والنّشر: ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.

٩ - ديوان طرفة بن العبد - دار صادر ودار بيروت - بيروت لبنان: ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.

١٠ - عدد الروائع ٣٣ - فؤاد افرام البستانيّ - ط ٢: بيروت - المطبعة الكاثوليكيّة ١٩٥٢م.

١١ - شاعر النبيّ صلى الله عليه وسلم - عبدالله إسحق الطّبّاع - مكتبة المعارف بيروت - نيسان

١٩٥٥م.

١٢ - شرح ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ - ضبط وتصحيح عبدالرحمن البرقوقيّ - دار الأندلس -

بيروت: ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

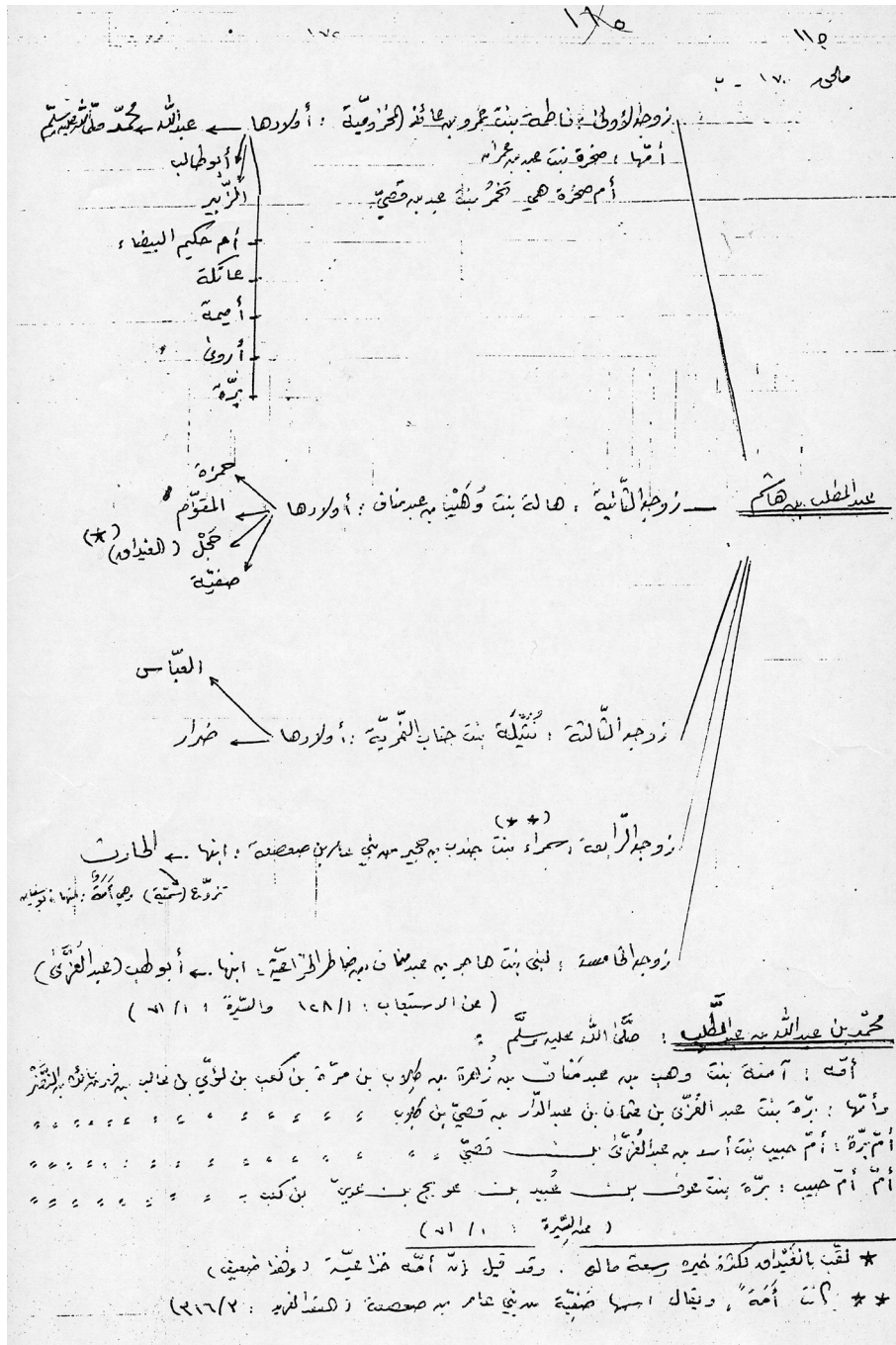
١٣ - العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأمويّ - د. إحسان النّص - دار اليقظة العربيّة - المطبعة

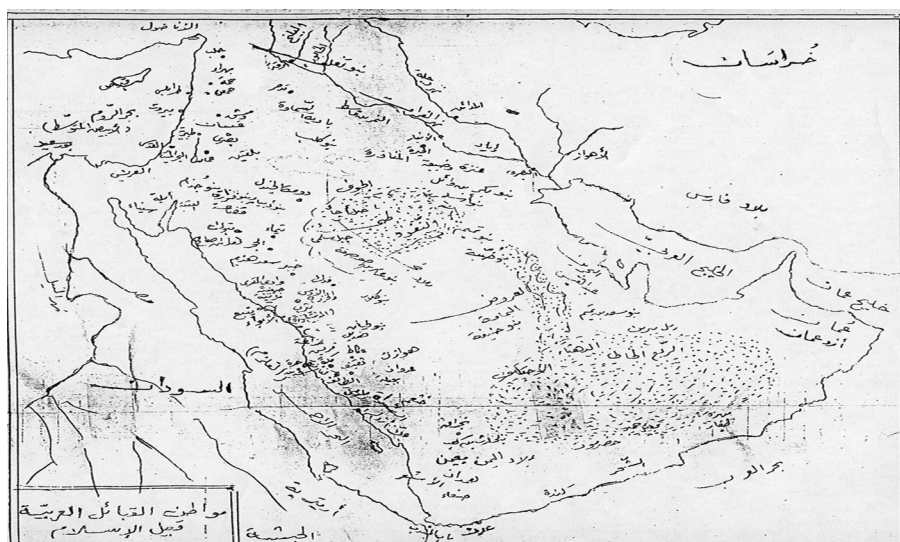
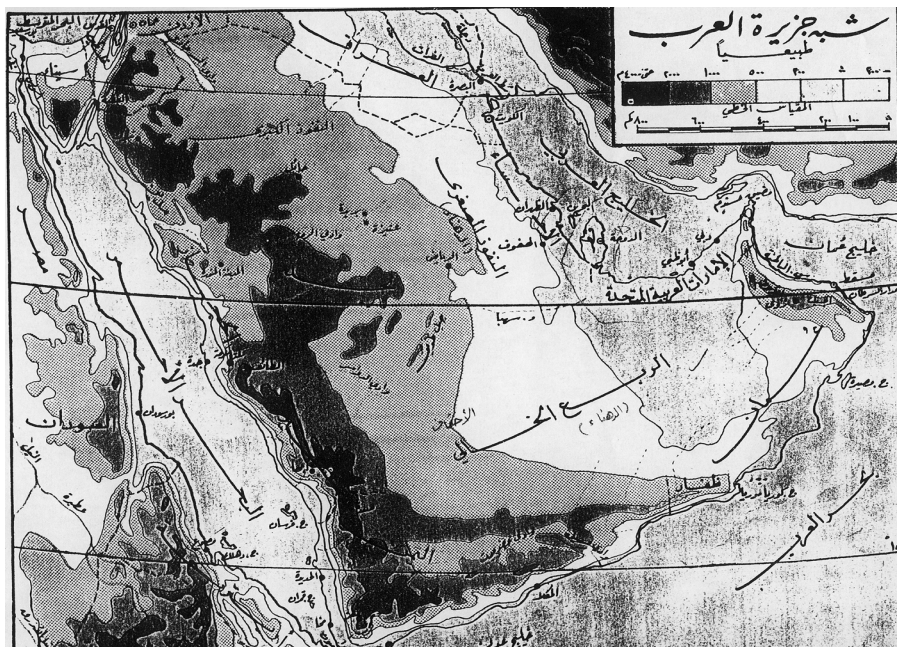
التعاونية اللبنانية: ١٩٦٣م.

المجلات:

مجلّة الثقافة: العدد ٢٢٥ ص ١٩ - محمد خلف الله

مجلّة الهلال.





المحتوى

٣	تصدير
٥	الإهداء
٧	تعريف وتقديم
١٣	هوامش
١٧	مقدمة الكتاب الأولى
تمهيد: الحياة العامة في الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية	
٣٩	هوامش
الباب الأول: حسان الرجل	
٤٣	اسمه ونسبه - مولده -
٤٦	هوامش
٥١	نشأته
٥٤	هوامش
٥٩	بيئته في المدينة المنورة
٦١	هوامش
٦٤	مع أولاد عمه الملوك والأمراء:
٧٢	مع المناذرة
٧٥	هوامش
٨٤	شخصية حسان
٩٧	هوامش
الباب الثاني: حسان الشاعر	
١٠٧	شعره قبل الإسلام: (الكلمة الأولى)
١١٤	هوامش
١١٧	الكلمة الثانية: في الإسلام
١٢٦	هوامش
١٣٣	موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة من حسان

١٣٩	هوامش
١٤٤	اختياره للدفاع عن الدعوة الإسلامية
١٥١	هوامش
الباب الثالث: شعره في الإسلام	
١٥٧	الشاعر والدعوة
١٦٠	هوامش
الفصل الأول: شعره الذي تأكدت صحة تاريخه ونسبته	
١٦٥	أول شعره في الإسلام
١٦٩	هوامش
١٧٩	أشعار الحقبة الواقعة ما بين الهجرة وبدر
١٩٤	هوامش
٢٠٥	أشعار السنة الثانية (بعد الهجرة)
٢٢٩	هوامش
٢٤٥	أشعار الحقبة الواقعة ما بين بدر وأحد
٢٤٧	هوامش
٢٥٠	أشعار السنة الثالثة (أحد وما بعدها)
٢٦٣	هوامش
٢٧٣	أشعار السنة الرابعة: يوم الرجيع
٢٨٠	هوامش
٢٨٨	يوم بئر معونة (القرأء)
٢٩١	هوامش
٢٩٤	إجلاء بني النضير
٢٩٥	بدر الموعد
٢٩٨	هوامش
٣٠١	أشعار السنة الخامسة:
٣٠١	غزوة دومة الجندل

٣٠١	غزوة الخندق
٣١٠	غزوة بني قريظة
٣١٣	قتل ابن أبي الحقيق
٣١٤	هجاء أبي سفيان بن الحارث
٣١٦	مع خزاعي
٣١٧	مع الحارث بن عوف
٣١٨	هوامش
٣٢٩	أشعار السنة السادسة:
٣٢٩	غزوة بني لحيان
٣٢٩	غزوة ذي قرد
٣٣٢	غزوة بني المصطلق وحديث الإفك
٣٣٨	صلح الحديبية
٣٤١	هوامش
٣٤٩	أشعار السنة السابعة:
٣٤٩	فتح خيبر
٣٥٤	عمرة القضاء
٣٥٥	هوامش
٣٥٩	أشعار السنة الثامنة
٣٥٩	غزوة مؤتة
٣٦٤	فتح مكة المكرمة
٣٧٧	مسيرة خالد إلى بني جذيمة
٣٧٨	غزوة حنين
٣٧٩	غزوة الطائف (ثقيف)
٣٨١	أبو عفاك وعصماء
٣٨٢	هوامش
٣٩٩	أشعار السنة التاسعة:

٣٩٩	غزوة تبوك
٤٠٠	وفد ثقيف
٤٠١	سنة الوفود: وفد تميم
٤٠٤	هوامش
٤١٠	تتمة أشعار السنّة التاسعة، وأشعار السنّة العاشرة، وأوائل الحادية عشرة
٤١٤	هوامش
٤١٦	أشعار السنّة الحادية عشرة:
٤١٦	رثاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٢٠	الرّدة
٤٢٢	هوامش
٤٢٤	الفصل الثاني: أشعار في تاريخها بعض الغموض
٤٢٤	الزّمرة الأولى
٤٢٧	الزّمرة الثانية
٤٢٧	الزّمرة الثالثة
٤٢٩	هوامش
٤٣١	خاتمة
٤٣٧	فهرس الآيات القرآنيّة الكريمة
٤٤١	فهرس الأحاديث الشّريفة (النّبويّة)
٤٤٧	فهرس الأعلام ذوي التّراجم
٤٧٣	فهرس أهم مراجع البحث
٤٧٨	صور
٤٨٢	المحتوى
